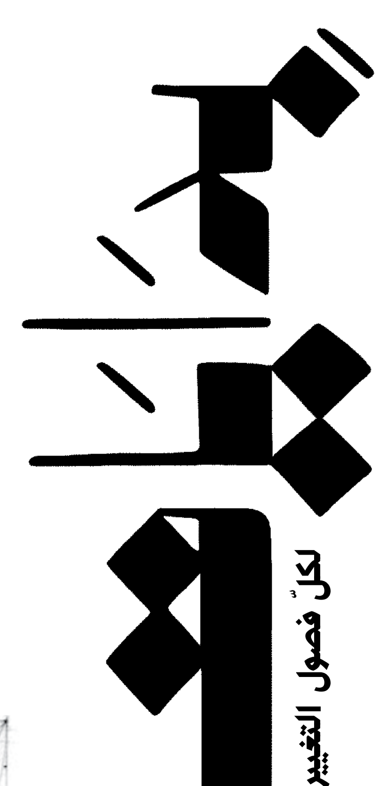

بدايات
فصلية ثقافية فكرية
العدد ١٣ • شتاء ٢٠١٦
ديغو ريفيرا
إسلاميون خارج السرب
الثورات في عامها الخامس
مقابلة مع جلبير أشقر • إلى أرامل الحرب
فيصل دراج: الانظمة العربية ودولة الخراب
ذاكرة المستأجرين وتخيُّل الشاطئ
برجر عن تشابلن وأحمد غُصَين عن فيلمه
ذاكرة: إتيل عدنان، رياض الريّس، عصام خفاجي
حضور غريغوار حداد وحسين آيت أحمد
أسئلة إلى أدونيس • شعر طلال حيدر
غِناء صَنعاء • العدّيات الشعبية



لكلّ فصول التغيير

فصلية ثقافية فكرية

العدد ١٣ ◆ شتاء ٢٠١٦

وردة حمراء لزينب ياغي المناضلة التقدمية والاعلامية الملتزمة بقضايا الناس التي فارقتنا أواخر العام المنصرم بعد نزاع طويل مع المرض. لن تنسى أسرة «بدايات» والقراء دعم زينب لمغامرتنا بما هي المدير المسؤول للمجلة تجاه الدولة. نتشارك في العزاء والتضامن مع أسرة زينب المباشرة ومع محبّيها وزملائها الكثر.

بدايات

رئيس التحرير: فواز طرابلسي
ادارة فنية: زياد أبو عاصي
تصميم واخراج: لين الحوت
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: زينب ياغي

مجلس تحرير استشاري

آدم هنيه، الياس خوري، بشرى المقطري، زهير رحال، جلبير أشقر، رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر مندور، سلامة كيلة، سليم تماري، صبحي حديدي، عساف كفوري، غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية.

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد **٥٧٤٨/١٣**
شوران، بيروت – لبنان
التوزيع: شركة «الناشرون» لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.، بيروت – لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

المحتويات

العدد ١٣ ◆ شتاء ٢٠١٦

الغلاف ١ و٤
دييغو ريفيرا، «مسيرة الأول من أيار في موسكو»، ١٩٥٦، الصورة لرافايل دونيز

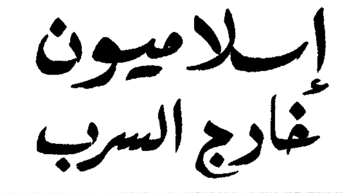
الغلاف ٢ و٣
دييغو ريفيرا، جدارية «تاريخ المكسيك»، ١٩٢٩ - ١٩٣٥، القصر الوطني، مدينة مكسيكو.


ذاكرة


حضور الغياب

فيها نظر

ملف


إسلاميون خارج السرب


ن والقلم


ثقافة الناس للناس

«بدايات» في العام الخامس

نفتتح هذا العدد بمقابلة مستفيضة أجرتها ندى متّى مع جِلبير أشقر يستعرض فيها ويحلّل المسارات المتفاوتة والمتلاقية للثورات العربية في عامها الخامس. وسوف نفتح صفحات العدد الآتي لمواصلة النقاش وتقييم تلك المسارات والردّات المختلفة التي تعرضت وتتعرّض لها. ونرجو اعتبار هذا الإعلان بمثابة دعوة مفتوحة لمن يهمّه الأمر إلى الكتابة في هذا الموضوع.

في «من باب أَولى» توجّه أروى عبده عثمان رسالة مؤثرة إلى أرامل الحرب اليمنية، فيما يقارن فارع المسلمي بين اتفاق الطائف اللبناني والمبادرة الخليجية اليمنية بما هما إطاران لحلّ النزاعات الأهليّة وحدثان فاصلان في حياة الشعبين اليمني واللبناني.

في هذا العدد تحتلّ الأقلام النسائية «الثورات بشبابها» في نصوص متنوعة لا تخلو من الزخم والحدّة والتمرّد.

ونفتتح في هذا العدد أيضاً سلسلة مقالات ودراسات ونصوص أصلية بعنوان «إسلاميون خارج السِرب». يعكس العنوان اهتمامَنا بالتعريف بمؤلفين ومفكرين وفقهاء معاكسين للتيارات السائدة، إلى كونهم لم يحظوا بما يكفي من اهتمام في النقاشات والسجالات الجارية حالياً حول الدين وعلاقته بالدولة والمجتمع. ننشر في هذا العدد مقالة للقاصة والصحافية السودانية الشابة نجاة إدريس إسماعيل عن المفكّر السوداني ومؤسّس الحزب الجمهوري الإسلامي محمود محمد طه (١٩٠٩ - ١٩٨٥) الذي قضى إعداماً بتهمة الردّة في عهد جعفر النميري لأفكاره الجريئة في الإسلام والحياة السياسية والاجتماعية والقيَميّة. ننشر بعد ذلك مختارات من أحد أبرز مؤلفات طه الكثيرة «الرسالة الثانية من الإسلام». وسوف نواصل في الأعداد التالية تقديم دراسات ومختارات عن حياة ومؤلفات مفكرين آخرين ممّن اختاروا أن يكونوا «خارج السرب»، بينهم عالم الاجتماع والمفكّر علي شريعتي والإمام المناضل محمود الطالقاني الإيرانيان، وعدد آخر من تلك الفئة من المغايرين الجريئين.

تستأنف «بدايات» نضالها من أجل «الحقّ في المدينة» بدراسة مشتركة لعبير سقسوق ونادين بكداش عن مدينة بيروت في ذاكرة المستأجرين القدامى وهم المعرّضون للتشريد بمقتضى قانون الإيجارات الجديد. ويقدّم مروان غندور لفائزين في مسابقة معمارية لتخيّل مصير آخَر لدالية الروشة غير مصيرها الحالي وقد أطبق عليها رأس المال العقاري وحرَم سكان المدينة من تلك الفسحة الحيويّة والجميلة من شاطئهم وحياتهم المشتركة.

يكتب جون برجر في «يا عين» عن شارلي تشابلن، «المهرّج» العبقريّ الذي يجيد فن السقوط ليؤكد للإنسان أنّه يستطيع أن ينهض إنساناً جديداً من كلّ سقطة. ولا ينسى برجر، على عادته، أن يستطرد نحو أحداث معاصرة كالبطالة والغرقى من ضحايا الهجرة الأفريقية والعربية إلى أوروبا. نجازف في هذا العدد أيضاً بنشر نصّ بالعامّية اللبنانية هو محاضرة للمخرج أحمد غُصَين يتحدث فيها عن فيلمه الأخير «المرحلة الرابعة» الذي عرض في بينالي الشارقة في مارس ـ يونيو من العام الماضي.

يسرّ «بدايات» أن تعرّف في هذا العدد بحياة وأعمال كبير فناني المكسيك وأميركا اللاتينية دييغو ريفيرا (١٨٨٦ - ١٩٥٧) الذي اشتهر بجداريّاته الملحميّة وبمحاولاته المبتكرة المزاوجةَ بين إحياء الثقافة الأهلية للشعب المكسيكي، العائدة إلى حضارات ما قبل الاستعمار الإسباني، وبين تمجيد الحداثة الغربيّة بما حملته من إمكانات العدالة والتقدّم. وكان ريفيرا، مثله مثل زوجته الفنانة والنسوية فريدا كاهلو، مناضلين يساريين ملتزمين بقضايا الشعب والإنسان. عن ريفيرا وموقعه في الفنّ المكسيكي، تكتب الباحثةُ والناقدة المكسيكية إيرمغالد أملهاينز، تليها مختارات من الرسوم والجداريات.

منتجات الذاكرة غنيّة في هذا العدد. تباشر الفنانة والشاعرة إتيل عدنان كتابة سيرتها بقصة أبٍ سوريّ كان

زميلاً لكمال أتاتورك في الكليّة الحربيّة العثمانيّة، وتروي طفولتها والنشأة في كنف أمّ يونانية، على خلفية مشاريع التقسيم والحروب التي تمخّضت عن نشوء تركيا الحديثة. أمّا رياض نجيب الريّس فيذكّره أطفال درعا بطفولته الدمشقية وبحياته الصحافية وهو يتساءل، في نص بعنوان «غسيل كِلِى سوري» عن كيفيّة تسرّب تراب سورية إلى كلْيتَيه المتعبتين. ويروي عصام خفاجي تجربته وخيبته السريعة في عداد مجموعة خبراء عراقيين واكبوا الغزو الأميركي للعراق العام ٢٠٠٣، على أمل المساهمة في إعادة بناء بلدهم بعد سقوط ديكتاتورية صدّام حسين.

نستحضر في «حضور الغياب» حياة وأعمال راحلَين غادرانا أواخر العام المنصرم. ابن الكنيسة الكاثوليكية المشرقيّة المطران غريغوار حدّاد (١٩٢٤-٢٠١٥) وحسين آيت أحمد (١٩٢٦-٢٠١٥) أحد القادة التاريخيّين للثّورة الجزائرية. في واحد من أعمق النصوص مطلع الحرب الأهليّة اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠) يحذّر المطران حدّاد من دور تنامي الفوارق الاجتماعية في تفجير النزاعات الأهليّة المسلّحة. ونعيد نشر مقابلة أجرتها مجلة «زوايا» منذ ربع قرن مع حسين أيت أحمد يتناول فيها العلاقة بين الوطنيّة والديمقراطيّة وحقوق الإنسان ويقدّم روايته للمسألة الأمازيغية وحلّها في إطار الوحدة الوطنية الجزائرية. أغمض حسين آيت أحمد عينيه دون أن يشاهد تحقيق أغلى أمانيه: اعتماد الأمازيغيّة لغة رسميّة في الجزائر. ولكن شاءت مفارقة قاسية أن يبادر الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة إلى إقرار هذا المطلب الأساسي بالنسبة إلى قسم كبير من مواطني الجزائر، تكريماً للراحل الكبير بعد الوفاة. وإنّه لمعبّر حقّاً، ونحن نشهد العودة إلى تفجّر التحرّكات الاجتماعية والمطلبية في عدد من الأقطار العربية، بما فيها تلك التي شهدت الانتفاضات الثورية، أن يلتقي هذان الراحلان الكبيران، القائد الوطنيّ والديمقراطي والاشتراكي الجزائري، والراهب الكاثوليكي اللبناني، العلماني والمجدّد لاهوتياً، على التأكيد على مركزية الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والعدالة الاجتماعيّة.

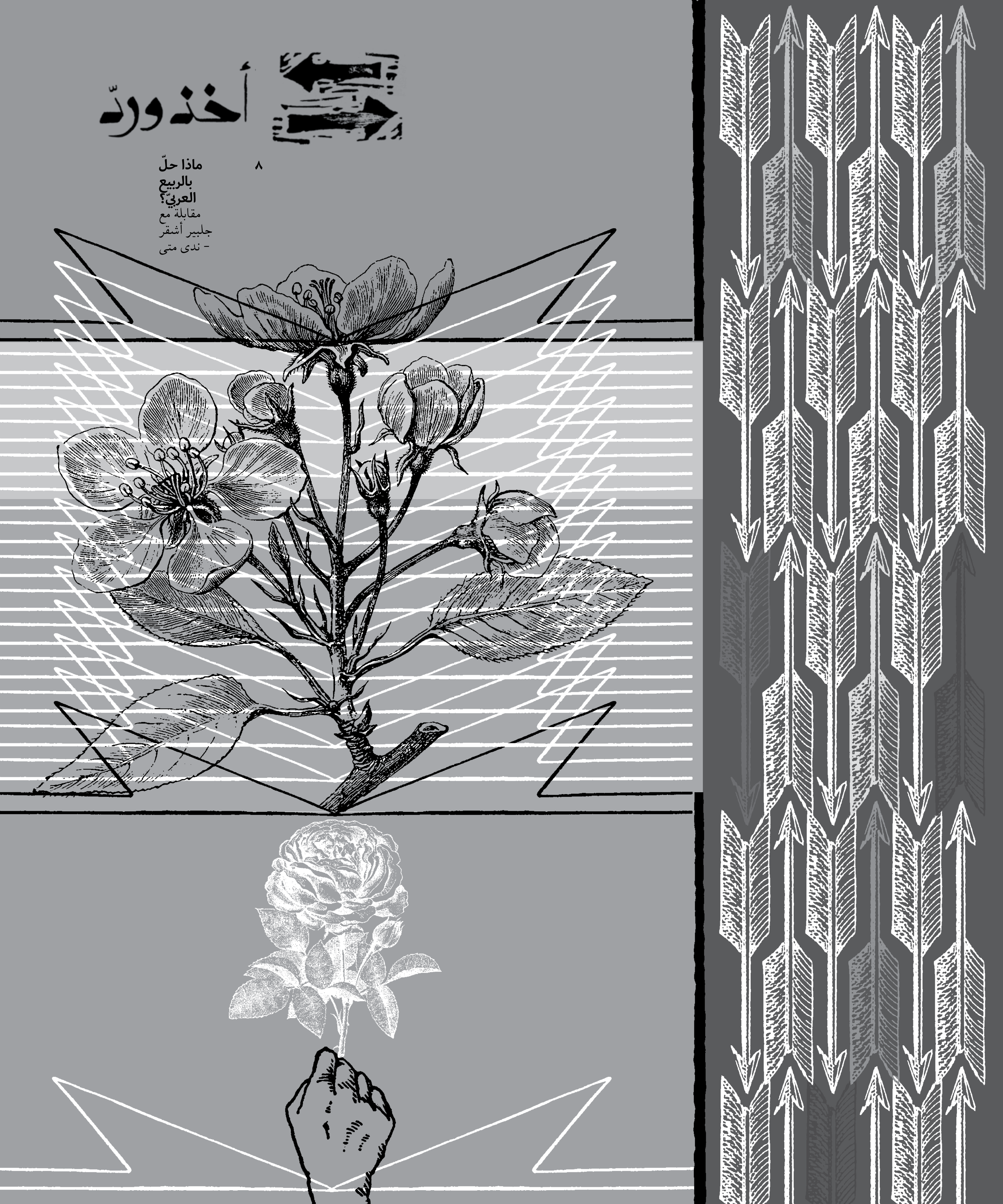
يشغل فيصل درّاج زاوية «فيها نظر» بنصّ يتتبّع فيه مسيرة الأنظمة العربية من عهود الاستقلال إلى ما يسمّيه «دولة الخراب». ويثير درّاج إشكاليّات الحداثة وتواري السياسة مع تراكم التطبّع بطبائع الاستبداد وهو يتأمّل في عسر الولادات وسط زخم الحراك الثوريّ العربيّ.

في «كتاب» يراجع جمال جبران مؤلّفاً قيّماً للباحث الفرنسي في الشؤون اليمنيّة، جان لامبير، عن الغناء الصنعاني. وفي «نون والقلم» نعيد نشر مجموعة أسئلة موجّهة إلى الشاعر علي أحمد سعيد ـ أدونيس من مقابلة أجراها معه فواز طرابلسي بباريس لمجلة «الكرمل» التي كان يرأس تحريرها الراحل محمود درويش. لم تجد المقابلة طريقها إلى النشر، إذ قرّر الشاعر سحب أجوبته عليها معتذراً عن عدم نشرها. ولمّا كانت النسخة الوحيدة للأجوبة هي النسخة التي كانت، ولا تزال، في حوزة أدونيس، نعيد هنا نشر الأسئلة لكونها ما زالت تستحقّ التأمل فيها بصدد الشاعر وشعره ومواقفه، والشعر والثقافة والتراث عموماً. ونشر أسئلة هذه المقابلة هو في الآن ذاته دعوة لأدونيس لكي يفرج عن الأجوبة أو للإجابة عن الأسئلة من جديد.

في «ثقافة الناس للناس» دراسة مبتكرة لنجلا جريصاتي خوري عمّا يحذف، عند النشر، من العدّيات الشعبية اللبنانية على اعتبارها من الممنوعات. وبعد الأخوين الرحباني وزين العابدين فؤاد، نواصل التعريف بالشعر العربي بالعامية بنشر مختارات من الشاعر اللبناني طلال حيدر.

«بدايات»


Diego M Rivera


أخذ وردّ
٨
ماذا حلّ بالربيع العربيّ؟
مقابلة مع جلبير أشقر
- ندى متى

ماذا حلّ بالربيع العربيّ؟

جلبير الاشقر

باحث وأكاديمي لبناني في معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن، من مؤلفاته «الشعب يريد. بحث جذري في الانتفاضة العربية»، ٢٠١٣.

ندى متى

طالبة دكتوراه في علم الاجتماع، في جامعة نيويورك.

في ١٧ كانون الأول/ديسمبر، أطلقت شرارةُ تونس موجةً ثوريّةً في العالم العربيّ. احتلّ ملايين الناس الشوارع يطالبون بالكرامة والديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة. وملأت شوارع تونس، مصر، ليبيا، البحرين، اليمن، وسورية تحرّكات جماهيريّة على نطاقٍ غير مسبوقٍ في التاريخ الحديث، وبدّلت الديناميّات الاجتماعيّة والسياسيّة على امتداد المنطقة بكاملها. وقد أصبحت سياسةُ الأمل ممكنةً، لكن، بعد مرور خمس سنواتٍ على الثورات، ها إنّ قوى الثورة المضادّة المتشكّلة من الأنظمة السابقة وقوى التطرّف الإسلاميّ قد استعادت المبادرة السياسيّة، وهي اليوم تتصارع بعنفٍ على السلطة، فترزح مصر تحت ديكتاتوريّةٍ أسوأ من تلك التي كانت قائمة قبل الثورة، بينما نجد حروباً أهليّة قد اندلعت في سورية وليبيا واليمن. مئات الآلاف قُتلوا، ونزح الملايين.

كيف يمكن تقييم هذا الوضع؟ ما هي أبرز ملامحه وإمكانيّاته؟

لمجلة «جاكوبين»، بحثت ندى متّى عن إجابات على هذه الأسئلة لدى جلبير الأشقر، أحد أبرز محلّلي المنطقة العربيّة في العالم.

جلبير الأشقر هو بروفسور في معهد الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة في جامعة لندن. وسوف يصدر كتابه الجديد، انتكاسة الانتفاضة العربية. أعراضٌ مَرَضيّة، في الربيع.

◆ لمّا انطلقت الانتفاضة العربيّة، أشرتَ ومنذ البداية إلى أنها ستكون سيرورة طويلة الأمد من النضال، تتخلّلها فترات النجاح والنكوص. ما هو تقييمك العام اليوم، بعد خمس سنوات من الثورة؟

■ لتوضيح أُطر النقاش، لا بدّ من التذكير بأنّ القراءة التي سادت في البداية، خصوصاً في الإعلام الغربيّ، أفادت بأنّ المنطقة العربيّة تدخل مرحلةً من الانتقالات نحو الديمقراطيّة، قد تستغرق أسابيع أو أشهراً في كلّ بلد وتستمرّ سلميّةً نسبيّاً، تبشّر بعصرٍ إقليميٍّ جديدٍ من الديمقراطيّة الانتخابيّة.

تبعاً لهذه القراءة، تكون تونس قد أنجزت فعلياً انتقالها مع سقوط بن علي، ومصر مع سقوط مبارك. كان هناك اقتناعٌ بأنّ النمط ذاته سينتشر في معظم دول المنطقة على طريقة لعبة الدومينو، بشكلٍ مشابهٍ لما شهدته أوروبا الشرقيّة في فترة ١٩٨٩-١٩٩١. وقد تلخّصت هذه الرؤية بوسم «الربيع العربيّ» الذي حقّق انتشاراً سريعاً.

وهي رؤيةٌ استندت إلى تصوّر يفيد بأن «الربيع» أتى نتيجة تحوّلٍ ثقافيٍّ وسياسيّ حمله جيلٌ جديدٌ متّصلٌ بالثقافة العالميّة بفضل تقنيّات المعلومات والتواصل الجديدة. تبعاً لهذا التصوّر، كانت الانتفاضات أساساً، إن لم يكن حصريّاً، صراعاً من أجل الحريّة السياسيّة والديمقراطيّة.

بالطبع، ليست هذه الرؤية خارجة تماماً عن السياق. فالأبعاد المذكورة هي حكماً سمةٌ بارزةٌ في الثورة. ولكن، النقطة المحوريّة التي شدّدت عليها منذ البداية هي أنّ الجذور العميقة للانتفاضات في المنطقة جذورٌ اجتماعيّةٌ واقتصاديّةٌ، قبل أن تكون سياسيّةً. ما جرى كان انفجاراً اجتماعيّاً في المقام الأول، حتى ولو اتّخذ طابعاً سياسيّاً كحال أيّ انفجارٍ اجتماعيٍّ واسع النطاق.

فالخلفيّة الاجتماعيّة للحراك الإقليميّ يؤكّدها كونه بدأ من بلدين شهدا أبرز التراكمات في الصراعات الاجتماعيّة، أي الصراعات الطبقيّة، خلال السنوات

السابقة له: تونس ومصر. ولم تكن شعارات الثورة بحدّ ذاتها سياسيّة، فلم تقتصر على الديمقراطيّة والحريّة فحسب، وإنّما شملت بوضوح المطالب الاجتماعيّة.

من هذه الزاوية، يمكنُ قراءة الثورة في المنطقة بأدوات تحليليّة ماركسيّة كحالة كلاسيكيّة في الثورة الاجتماعيّة ناتجةً من انسدادٍ مزمنٍ في آفاق التنمية ميّز المنطقة الناطقة بالعربيّة لثلاثة عقود، بمعدّلات نموّ منخفضة بامتياز أفضت إلى معدّلات بطالةٍ مرتفعة بامتياز، لاسيّما بين الشباب.

كنتُ على استعداد خاصّ لقراءة الأمور من هذه الزاوية لأنّني كنت أدرّس صفّاً جامعيّاً عن «مشاكل التنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» على مدى سنوات عديدة قبل الثورة. كان من الواضح بالنسبة إليّ أنّ انسداد التنمية في المنطقة سيؤدّي عاجلاً أم آجلاً إلى انفجارٍ اجتماعيٍّ كبير.

ولذلك وصّفتُ باكراً ما بدأ في تونس في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، ثم انتشر في عموم المنطقة، كبداية سيرورة ثوريّة طويلة الأمد. بذلك، كنت أحيل إلى سيروراتٍ تاريخيّةٍ للثورة لا تكتمل خلال أسابيع وأشهر، وإنما خلال سنوات وعقود. وقد دشّنت الانتفاضات مرحلةً طويلة الأمد من انعدام الاستقرار الإقليميّ ستمرّ حتماً بفترات صعود وهبوط، فوراتٍ ثوريّة وانتكاساتٍ مضادّة للثورة، تنطوي أيضاً على الكثير من العنف.

إن التجاور ما بين مظاهر الثراء الفاحش والفقر المدقع قد خلق إحباطات ضخمة. وتفاقمت هذه المشكلة كثيرا منذ الطفرة النفطية في السبعينيات.

في البداية، بدوتُ متشائماً لأنّني كنت أطلب من الناس أن يهدأوا من حالة الابتهاج الجماعيّ التي تملّكتهم، مشدّداً على أن الأمورَ ما زالت في بداياتها، وأنّ ما هو على المحكّ بالغ التعقيد والصعوبة، سيستلزم وقتاً طويلاً، ولن يبقى سلميّاً. كما أنّي شدّدت منذ اللحظات الأولى على أنّ السيناريوهين التونسيّ والمصريّ لجهة الإسقاط السلميّ نسبيّاً للحاكمَين لا يمكن تكرارهما في بلدانٍ مثل ليبيا وسورية، أو في الملكيّات: قلتُ ذلك قبل أن تندلع الثورة في أيٍّ من البلدَين الأخيرين.

أما الآن، فقد أبدو متفائلاً عندما أؤكّد أن السيرورة الثوريّة بعيدةٌ عن انتهائها وأدعو الناس إلى نفض الوجوم المطبق عليهم. صحيحٌ أن الوضع يبدو كارثيّاً وفاجعاً في عدّة بلدان: على رأسها، طبعاً، سورية حيث تجري راهناً مأساةٌ هائلة، ولكن أيضاً في اليمن وليبيا ومصر. إلّا أنّ ذلك، رغم كلّ شيء، ليس النهاية. لن يحلّ الاستقرار في المنطقة على المدى الطويل إلّا بحدوث تغييرٍ اجتماعيّ وسياسيّ جذريّ.

ليس حدوثُ تغييرٍ كهذا بأمرٍ حتميٍّ بالتأكيد. ولا ينبع موقفي من التفاؤل، وإنما من إدراك ديناميّات الأزمة من منظورٍ تاريخيّ، والإصرار على أنّ الأمل ما زال مشروعاً. والحالُ أنّ التنبؤ الوحيد الذي يمكن للمرء أن يجزم به إنّما هو أنّ المنطقة ستبقى محكومةً بالمزيد من الكوارث كتلك التي رأيناها تتكشّف خلال السنتين الأخيرتين بشكلٍ خاص، طالما لم تتبلور شروطٌ سياسيّة ذاتيّة لتغييرٍ اجتماعيّ وسياسيّ مع بروز قوى سياسيّة منظّمة ترفع راية التغيير التقدّمي.

◆ هل لك أن تصف الأسباب الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تقف خلف الانتفاضات؟ ما هو ذلك الانسداد في آفاق التنمية الذي قاد إلى الثورة؟

■ لقد حلّلتُ ذلك تفصيلاً في الفصلين الأوّلين من كتابي «الشعب يريد». لأوجز، فلو نظرتَ إلى معدّلات النموّ الاقتصاديّ في المنطقة الناطقة بالعربيّة بالمقارنة مع كافة المناطق الأخرى من أفريقيا وآسيا، لن يفوتك تدنّيها الكبير. وقد كانت معدّلات نموّ الناتج المحليّ الإجماليّ، خصوصاً نموّ الناتج المحليّ الإجماليّ للفرد، متدنيّة جداً.

يعني ذلك أن الاقتصادات كانت قد صارت عاجزةً عن خلق وظائف تناسب النمو السكّانيّ، الأمر الذي يتسبّب بنسب بطالة هائلة، خصوصاً بطالتَي الشباب والنساء. وقد سجّلت المنطقة الناطقة بالعربيّة أعلى معدّلات البطالة في العالم خلال العقود الأخيرة.

وقد أنتج هذا الانسداد الاقتصاديّ المزمن تبعات اجتماعيّة متفجّرة: لا تتجلّى فقط في البطالة الشاسعة، وإنّما أيضاً في جملة من القضايا الاجتماعيّة والتفاوتات المحليّة والإقليميّة الضخمة. فإنّ التجاور ما بين مظاهر الثراء الفاحش والفقر المدقع قد خلق إحباطات ضخمة. وتفاقمت هذه المشكلة كثيراً منذ الطفرة النفطيّة في السبعينيّات. وكما أردّد دائماً، فإن السؤال الحقيقيّ في العام ٢٠١١ لم يكن عن سبب حدوث الانفجار بقدر ما كان عن سبب تأخّره في الحدوث، نظراً لتفاقم التراكمات القابلة للانفجار.

أمّا سبب هذا الانسداد الاقتصاديّ فيكمن في آثار النيوليبراليّة في السياق العربيّ. والحال أنّ الدول العربيّة، مثلها مثل معظم بلدان العالم، بدأت باعتناق النموذج النيوليبراليّ في السبعينيّات. وقاد ذلك إلى تقليص تدريجيّ لنفقات الدولة في الاقتصاد. فبحسب العقيدة النيوليبراليّة، كان ينبغي أن يتمّ تعويض انحسار استثمارات الدولة من قِبَل قطاعٍ خاصّ مُنحت له حوافز عدّة.

لم يكن ممكنا بأي شكل من الأشكال أن يصبح القطاع الخاص محركا لمعجزات اقتصادية مثلما أراد النيوليبراليون أن يؤمنوا. فبقي الاستثمار الخاص محدودا، قائما على المضاربة في معظمه وموجها نحو الربح السريع. ولم يعوض القطاع الخاص عن أفول استثمارات القطاع العام وركودها. ففشل النموذج النيوليبرالي على نحو بائس في المنطقة العربية.

وقد نجح هذا النموذج من نموّ يقوده القطاع الخاصّ في بعض البلدان ذات شروط ملائمة، كما كانت الحال في التشيلي أو تركيا أو الهند، ولو بكلفة اجتماعيّة عالية. إلّا أنّه ما كان لينجح في المنطقة العربيّة ــ بسبب طبيعة الدولة.

فإنّ الغالبية العظمى من الدول العربيّة تجمع ما بين سمَتين: هي دولٌ ريعيّة، أي دول تُشكّل فيها الريوع (من الموارد الطبيعيّة أو الوظائف الإستراتيجيّة) جزءاً كبيراً من مدخول الدولة، وهي دولٌ تتموضع على سُلّم يتراوح ما بين «الدولة الميراثيّة» و«النيو ميراثيّة»، والخاصيّة العربيّة الأبرز هي وجودُ لبّ دولٍ «ميراثية» بشكل كامل، أي دول «تمتلكها» عملياً جماعةٌ حاكمة، على عكس «الدولة الحديثة» حيث لا يتعدّى أعضاء الطاقم الحاكم صفة الموظّفين لدى الدولة. هذه السمات جمعاء هي التي قادت لما سمّيته «هيمنة التحديد السياسيّ لتوجّهات النشاط الاقتصاديّ».

إذا أضفتِ إلى ذلك الأوضاع السياسيّة الإقليميّة من نزاع وانعدام استقرار حادّ، تفهمين أنّه لم يكن ممكناً بأيّ شكل من الأشكال أن يصبح القطاع الخاص محرّكاً لمعجزات اقتصاديّة مثلما أراد النيوليبراليّون أن يؤمنوا، فبقي الاستثمار الخاصّ محدوداً، قائماً على المضاربة في معظمه وموجَّهاً نحو الربح السريع. ولم يعوّض القطاع الخاص عن أفول استثمارات القطاع العام وركودها، ففشل النموذج النيوليبراليّ على نحوٍ بائس في المنطقة العربيّة.

يشير ذلك كلّه إلى حقيقة أن الثورة أتت نتيجة أزمةٍ بنيويّة، وليست عرضيّةً أو دوريّةً، وأنها ليست سيرورةً انتقالٍ إلى الديمقراطيّة، تأتي لتتوّج مرحلةً طويلةً من التنمية، كما حدث في بعض البلدان «الناشئة»، وإنما هي نتيجة انسدادٍ مزمن. أما الخلاصة المنطقيّة فهي أنّ بلدان المنطقة تحتاجُ إلى تغييرٍ جذريّ يطاول بنيتها الاجتماعيّة ــ السياسيّة من أجل تذليل الانسداد.

وأما إزالة رأس جبل الجليد، كإزالة بن علي أو مبارك وحاشيتيهما، فلم يكن بوسعها أن تنهي الاضطرابات. من هنا أتى تركيزي منذ البداية على الأمد طويل، وعلى «السيرورة الثوريّة» كمفهوم يتميّز عن «الثورة» التي ظنّ الكثيرون أنها انتهت مع سقوط المستبدّ.

◆ كيف تمّت ترجمة الصعوبات الاقتصاديّة والتحدّيات التنمويّة في حركاتٍ واسعة النطاق تنشد التغيير، كالانتفاضات؟ هل هو مستوى الصعوبات، كالبطالة مثلاً، الذي صنع الفرق؟ الحجّة المضادّة لذلك تقول إنّ الصعوبات الاقتصاديّة والتحدّيات التنمويّة موجودةٌ في العالم العربيّ وبلدانٍ أخرى منذ فتراتٍ طويلة، ومع ذلك لم تقُد إلى ثورات.

■ ليست هذه حجّة مضادة حقّاً لأننا نوصّف هنا انسداداً تفاقمت حاله على مدى ثلاثة عقود. هذا يؤدّي إلى آثارٍ تراكميّة، أحدها ازدياد كتلة البطالة. لم يكن معدّل البطالة مستقرّاً خلال هذه الفترة، بل ازداد حتى بلغ مستوىً مرتفعاً جداً بعد عددٍ من السنوات. وعند نقطةٍ معيّنة، يميل الأثر الاجتماعيّ التراكميّ للانسداد الاقتصاديّ إلى إحداث انفجارٍ في الأنظمة المقفلة بإحكام. هذا من ناحية.

من الناحية الأخرى، هناك أيضاً عددٌ من العوامل السياسيّة تدخّلت في تحديد الانفجار. وقد استعرْتُ من المفكّر الماركسيّ لويس ألتوسير مفهوم «التحديد التضافريّ» مطبّقاً على الأحداث التاريخيّة. فالانفجارٍ لدينا كان ناتجاً من تحديدات متضافرة بمعنى أن عدداً من العوامل السياسيّة تدخّلت فيه لتنضاف إلى العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة البنيويّة.

أحد هذه العوامل، على سبيل المثال، يتمثّل في أثر الحروب الإمبرياليّة في المنطقة لجهة زعزعة الاستقرار، وبالأخص احتلال العراق. هذه العوامل المتنوّعة التقت لتنتج انفجاراً ثورياً عظيماً.

ولكن، ليس لكلٍّ منها الثقل ذاته: العوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة هي الأكثر أهميّةً، إلّا أنّ تضافر العوامل كافة أتى متفجّراً على نحو خاصّ.

◆ أيّ جماعات اجتماعيّة أدّت دوراً في تنظيم هذه الثورات؟ هل أتى المنظّمون من خلفيّة طبقيّة معيّنة ولماذا؟ هل وُجِدت اختلافاتٌ بين البلدان العربيّة؟

■ وُجِدت اختلافاتٌ، بالطبع، ولكن توجد أيضاً بعض السمات المشتركة في هذا الصدد. دَعني أبدأ بالأخيرة. صوّر الإعلامُ الحركةَ بوصفها تُقاد من قبل مجموعة من الشباب البارعين في استخدام الإنترنت، والذين شكّلوا شبكاتٍ في ما بينهم عبر وسائل التواصل الاجتماعيّة، حتى أنه أُطلق على الانتفاضات اسم «ثورات الفيس بوك».

هنا أيضاً، ليس هذا بالخاطئ تماماً، لكنّه جانبٌ واحدٌ فقط من الحقيقة. فقد كان هناك فعلاً بين منظّمي الانتفاضات شبّان متّصلون ببعضهم عبر شبكات التواصل الاجتماعيّ. وقد أدّوا دوراً محوريّاً في تنظيم التظاهرات والمسيرات الممتدّة من المحيط إلى الخليج، ومن المغرب إلى سورية.

ولكن، كانت هناك أيضاً قوى أخرى أعارها الإعلام اهتماماً أقلّ بكثير. وهي تظهر بالضرورة إذا سألت: لماذا حقّقت الانتفاضات نصراً أوّلاً في تونس ولماذا كانت مصر البلد الثاني، لماذا شقّ هذان البلدان الطريق؟ إذا استقصيت هذه المسألة بجديّة، لا يمكن أن يفوتك أن تلاحظي سِمةً مشتركةً بين البلدين المذكورين هي أهميّة الحركة العمّالية فيهما.

والحال أن لدى تونس وحدها في المنطقة حركةً عمّاليّةً منظّمةً قويّةً تحوز على درجةٍ من الاستقلال عن الحكومة، بما يتيح وجود عضوية منخرطة في الصراع الطبقيّ على مستوى القواعد والقيادات الوسطى والمحلّية.

الاتحاد العامّ التونسيّ للشغل منظّمة فريدة من نوعها، أدّت دوراً محوريّاً في تاريخ تونس الاجتماعيّ والسياسيّ. وكان هناك دائماً بين قياداتها الوسطى الكثير من اليساريّين. وقد لعب الاتحاد العام دور المنظّم الحقيقيّ للانتفاضة في تونس منذ بدأت تتطوّر. فلولاه، لما كانت الحركة لتحقّق النصر الذي أحرزته بمثل تلك المدّة القصيرة التي قلّت عن الشهر الواحد.

وقد خاض الاتحاد العام التونسيّ للشغل في تنظيم الحركة بضغط من بعض فروعه، مثل نقابة المعلّمين، وأمدّها بقوّة دفع كبيرة. وأدّت فروع الاتحاد المحليّة دوراً محوريّاً في المناطق التي شهدت بدء انتشار الانتفاضة، فدفعت تالياً بقيادة الاتحاد العام لتلحق بالمعركة.

ثمّ بدأ الاتحاد العام بتنظيم إضراباتٍ عامّة جوّالة، في منطقة تلو الأخرى. والحال أنّ اليوم الذي هربَ فيه بن علي من تونس، يوم ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠١١، كان هو اليوم الذي وصل فيه الإضراب العام إلى العاصمة. فالاتحاد العام هو إذاً، في الواقع، المنظّم الحقيقيّ للانتفاضة في تونس.

وللأسف، لا يوجد في مصر مرادفٌ للاتحاد العام التونسيّ للشغل: فحركة العمّال المنظّمة هي تحت سيطرة الحكومة، باستثناء بعض النقابات المستقلّة التي كانت لا تزال حديثة العهد ومحدودة العدد لمّا قامت الانتفاضة. عوضاً عنها، قاد الحركة ائتلافٌ من القوى السياسيّة.

وكان لناشطي «فيس بوك» دورٌ بالتأكيد، ولكن من السخف حقاً اختزال الثورة المصريّة بشخص وائل غنيم ــ رئيس قسم التسويق في فرع «غوغل» الإقليميّ الذي أنشأ صفحة «فيس بوك» شهيرة ولم يكن حتى مقيماً في مصر، وإنما في دبيّ ــ وتصويره كالشخصيّة الأهمّ في الثورة، مثلما فعل الإعلام لفترة.

لم تدعُ إلى تظاهراتٍ حاشدة في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١١ شبكةٌ افتراضيّةٌ دون سواها، وإنما دعا إليها ائتلاف من ١٧ قوّة سياسيّة حقيقيّة. وشاركت في الحشد شبكاتٌ سياسيّةٌ حقيقيّةٌ ناشطةٌ على الأرض. هذا وكان لحركة العمّال دورٌ مصيريٌّ في تجهيز الأرضيّة للثورة، وتلك نقطةٌ حاسمة. فقد أتى الانفجار في مصر تتويجاً لخمس سنواتٍ شهدت موجةً عارمةً من النضال العمّاليّ، هي الأكثر أهميّة في تاريخ البلد.

بلغت تلك الموجة ذروتها في ٢٠٠٧ ــ ٢٠٠٨ لكنّها حافظت على مستوى مرتفع حتى ٢٠١١. وخلال الثورة نفسها، في مطلع شباط/فبراير، دخلت الطبقة العاملة في دائرة الصراع: مئات ألوف العمّال أعلنوا الإضراب ما أن دعت الحكومة إلى استئناف العمل. وكان لهذه الموجة من الإضرابات دورٌ فعّالٌ في تعجيل سقوط مبارك.

تلك هي القوى الحقيقيّة التي أدّت دوراً محوريّاً في مصر وتونس. وفي البحرين أيضاً، كان للعمّال دورٌ محوريٌ تمّ إغفاله تماماً. في البحرين، كما في تونس، حركةٌ عمّاليةٌ منظّمةٌ ومستقلّة، ولو كانت أقلّ قوّةً تأثيريّة من نظيرتها التونسيّة، لكنها أدّت دوراً بالغ الأهمّية خلال المرحلة الأولى من الثورة في تنظيم الإضراب العام.



وقد تم قمع حركة العمّال البحرينيّين بقسوة، ليس فقط سياسيّاً بل أيضاً عبر التسريح الجماعيّ للعمّال. وحتى في اليمن، سبقت الانتفاضة موجةٌ من الإضرابات العمّاليّة.

في المقابل، وبسبب الحكومات الديكتاتوريّة للغاية، لم تكن توجد في بلدانٍ مثل سورية أو ليبيا جماعاتٌ منظّمة مستقلّة، سياسيّةً كانت أو حتى اجتماعيّة. وقد كان معظم المعارضين السياسيّين يعيشون في المنفى بعدما عانوا القمع الرهيب في الوطن ــ كما جرى عددٌ من الاغتيالات طاولت المعارضين حتى في الخارج. أما من بقي في سورية من معارضي النظام فكانوا تحت رقابةٍ شديدة، لا يسعهم الخوض في أيّ حركةٍ واسعة النطاق.

لهذا السبب، أدّت شبكات الإنترنت دوراً حاسماً في بلدانٍ كهذه. في سورية، خلال المرحلة الأولى التي استمرت بضعة أشهر، أشرفت على تنظيم الانتفاضة لجان تنسيق («التنسيقيّات») مشكّلة على نحو أساسيّ من الشباب بواسطة شبكات الإنترنت.

هكذا، فبحسب الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة في كلّ بلد، اشتركت عوامل اجتماعيّة وسياسيّة مختلفة في تنظيم الثورة.

◆ فلنلقِ نظرةً عن كثب على مصر وتونس، ثمّ لنعد بعدهما إلى سورية. يمكن للمرء أن يرفض تفسير الانتفاضة كنتيجةٍ لانشقاقات في صفوف النخب الحاكمة في البلدان العربيّة، لكنّ مصر قد شهدت توتّرات متصاعدة ما بين النخب النيوليبراليّة الناشئة من جهة، وما يُشار إليه عادةً بحرس مبارك القديم والنخب العسكريّة من الجهة الأخرى. فكيف تقيّم هذه التوتّرات؟ هل تظن أنها أثّرت في الانتفاضات، وهل ترى أنها تشير إلى منحى عامّ في العالم العربيّ نتيجة تنامي الدور السياسيّ الذي يلعبه الرأسمال الخاص؟

■ هذه السمات تمّ تضخيمها، وضُخّ فيها الكثير من التفكير بالأماني القائم على عقيدةٍ في العلوم السياسيّة تفيد بأن الطبقة الوسطى هي العامل الحاسم في التغيير الديمقراطيّ. ولذلك، كثيراً ما سمعنا في البداية أنّ الثورات تقودها الطبقة الوسطى المتأثرة بالغرب. والحقيقة أن الغالبيّة العظمى من البرجوازيّة النيوليبراليّة كانت شديدة الخوف من ديناميّات الانتفاضة.

وإذا انتهى الأمر ببعض أعضائها في بلدان مثل تونس أو مصر إلى التنصّل من الحاكم، فذلك لأنّ الحاكم أضحى عبئاً. إلّا أنّهم فعلوا ذلك أساساً من أجل الحفاظ على الدولة. وإذا قام بعض أعضاء الطبقة الرأسماليّة



النيوليبراليّة، كنجيب سويرس في مصر على سبيل المثال، بتقديم أنفسهم بانتهازيّة كليبراليّين بالمعنى السياسيّ، فإنّ الكتلة العظمى من النخبة الاقتصاديّة لم تدعم الثورة.

في كلٍّ من تونس ومصر، توصّل الجيش وجزءٌ واسعٌ من جهاز الدولة إلى الاقتناع بأن عليهم التخلّص من الرئيس لكي يحولوا دون استمرار الثورة وتجذّرها. وقد نسي الناس أن ١١ شباط/فبراير ٢٠١١ في مصر كان انقلاباً عسكريّاً بقدر ما كان ٣٠ تمّوز/يوليو ٢٠١٣. وقد نفّذ الانقلابين المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة، في المرّة الأولى بقيادة محمد طنطاوي وفي الثانية بقيادة الرئيس الحاليّ عبد الفتّاح السيسي. وقد صادر الانقلابان الحراك الشعبيّ العارم.

◆ يتحجّج بعض الناس بوجود قلق بين النخب العسكريّة في مصر وبين ابن مبارك، جمال، الذي أحاطت به آنذاك نخبٌ اقتصاديّة ذات قوّةٍ متزايدة. هل ترى لذلك أيّ أثرٍ في الانتفاضة؟

■ كانت هناك بالتأكيد توتّرات في مصر بين الجيش من جهة وجمال مبارك ومحيطه من الجهة الأخرى. كانوا في الواقع يتنافسون، فالجيش في مصر هو أيضاً مؤسسةٌ اقتصاديّةٌ: إنه، في الواقع وبفرقٍ شاسع، أهمّ كتلة مصالح اقتصاديّة في البلد.

للقوّات المسلّحة دورٌ في كافّة أشكال النشاط الاقتصاديّ غير ذات صلة بالشؤون العسكريّة. وهي تتصرّف كأنها شركة قابضة كبيرة، تنافس بعض المقاولين وتمنح العقود لسواهم ــ بينما تطالب لنفسها بحقّ الأولويّة في كافة عقود الدولة.

وقد استفحلت التوتّرات بين القوّات المسلّحة وجمال مبارك لمّا عبّر حسني مبارك عن نيّته توريث السلطة لابنه. فالقوّات المسلّحة قد عارضت التوريث تماماً، بطبيعة الحال، لا سيّما أنّ التوريث كان سوف يعاكس تقليداً قديماً في حكم الجمهوريّة المصريّة من قِبَل العسكريين. فبعد ناصر، حكم السادات ومبارك الآتيان بدورهما من المؤسسة العسكريّة.

إلّا أن هذه التوتّرات جميعها لم تكن في صميم الانتفاضة بأيّ شكلٍ من الأشكال. لقد شكّلت خلفيّةً للتغيّرات التي حصلت في أعلى الهرم، أمّا الثورة فقد أتت من قعر المجتمع ولم تَنتج قطعاً عن صراع داخل النخبة.

◆ في الآونة الأخيرة، حلّت الحركة العمّالية لاعباً أساسيّاً في المفاوضات حول مستقبل تونس. ويجوز الاعتقاد أنّ تصاعد النضالات العمّاليّة في العام ٢٠١٢ في مصر يفسّر جزئيّاً انقلاب العام ٢٠١٣. لم تكن غاية السيسي أن يسحق الإخوان المسلمين فحسب، وإنما سعى أيضاً لأن ينهي التجذّر المستمر والاضطرابات الاجتماعية المتزايدة التي بلغت ذروتها في مطلع العام ٢٠١٣ ضد محمد مرسي (الرئيس آنذاك). كيف ولماذا أدّى العمّال في مصر وتونس أدواراً مختلفة؟

■ بادئ ذي بدء، وكما ذكرتُ آنفاً، من المؤسف أنّه لا يوجد مرادفٌ مصريّ للاتحاد العام التونسيّ للشغل، لأنّ الدولة سيطرت بنحو كاملٍ على الحركة العمّاليّة منذ عهد جمال عبد الناصر وحتى العام ٢٠١١. ومع أنّنا شهدنا ظهور بوادر حركةٍ عمّاليّة مستقلّة خلال السنوات القليلة التي سبقت الثورة في مصر، إلّا أنّها لم تحقّق شيئاً يتيح مقارنتها ولو عن بعد بالحركة التونسيّة.

صحيحٌ أنّ الطبقة العاملة أدّت دوراً رئيسياً في البلدين، لكنها، في أحدهما، طبقةٌ عاملةٌ منظّمةٌ بينما كانت في البلد الثاني، ولا تزال، طبقةً عاملةً غير منظّمة بمجملها: ما لديك هناك عبارة عن إضراباتٍ معظمها خارجة عن القانون يتم تنظيمها على مستوى محليّ. وكان الأبرز ٢٤ ألفاً من عاملات وعمّال الغزل والنسيج في المحلّة الكبرى في مصر، شكّلوا طليعة الصراع الطبقيّ في مصر قبل الثورة وحتى يومنا هذا. في كلّ لحظة محوريّة، وقفوا في الخط الأوّل.

ولكن، يبقى لغياب حركة عمّاليّة منظّمة ومستقلّة طبقيّاً على صعيد مصر بمجملها تبعاتٌ ضخمة، فوجود الاتحاد العام التونسيّ للشغل هو العامل الرئيسيّ الذي أتاح للأحداث أن تسلك منحىً مختلفاً في تونس ــ إضافة إلى غياب تقاليد الحكم العسكريّ: تونس كانت دولة بوليسيّة تحت سلطة بن عليّ، لكنها لم تكن ديكتاتوريّةً عسكريّة.

إنّ هذين العاملين المتضافرين ــ الخروج النسبيّ للجيش عن السياسة وأهميّة الحركة العماليّة المنظّمة ــ يفسّران قدرة الحركة العمّاليّة على أداء دورٍ على هذا القدر من المركزيّة في الأحداث التونسيّة.

مع ذلك، ليست هي حركةً عمّاليّةً ثوريّةً. صار اليسار مهيمناً داخلها منذ ٢٠١١، لكنّ الغالبيّة العظمى ليست راديكاليّة. يقود الاتحاد النضال الاقتصاديّ الأساسيّ لكنه لا يطمح إلى تغيير الطبيعة الطبقيّة للسلطة.

لهذا السبب، يسعى الاتحاد العام إلى إيجاد تسويةٍ

مع أرباب العمل ومع الدولة، وقد أدّى دور الوسيط التوفيقيّ ما بين قوّتَي الثورة المضادّة في البلد ــ النظام السابق والحركة الإسلاميّة ــ بدلاً من النضال ضدّهما من أجل التغيير الاجتماعيّ الجذريّ. ويأتي منح الاتحاد جائزة نوبل للسلام بالتشارك مع نقابة أرباب العمل ليكون مؤشّراً ذا دلالةٍ في هذا الصدد.

الاتحاد العام التونسي للشغل ليس حركـــــــــــــــــــــــة عمالية ثورية. صار اليسار مهيمنا داخلها لكن الغالبية العظمى ليست راديكالية. يقود الاتحاد النضال الاقتصـــــــــــــــــادي لكنه لا يطمح إلى تغيير الطبيعة الطبقية للسلطـــــــــــــــة.

مع ذلك، ومن وجهة النظر الاستشراقيّة الغربيّة السائدة، يُفسَّر «الاستثناء الديمقراطيّ» التونسيّ بأنّه «ثقافيّ». ولولا الخجل، لنسَبَ أصحاب هذه النظرة الفضل في «الاستثناء الديمقراطيّ» لبن علي نفسه!

بيد أن الاستثناء التونسيّ الحقيقيّ والوحيد إنما هو الاتحاد العام التونسيّ للشغل، هذه الحركة العمّاليّة المنظّمة، القويّة والمستقلّة. ويؤكّد ذلك أن العامل الأكثر حسماً من أجل الديمقراطيّة ليس «الطبقة الوسطى» مثلما ترى العلوم السياسيّة البرجوازيّة، وإنما الحركة العمّاليّة.

والمعيار الأشدّ دقّة في الديمقراطيّة السياسيّة إنما هو، في الواقع، احترام حقوق العمّال ووجود حركة عمّاليّة مستقلّة. يمكنكِ أن تجدي العديد من البلدان التي تزدهر فيها «الطبقة الوسطى» تحت نظام ديكتاتوريّ، لكنّكِ لن تجدي أبداً حركةً عمّاليّةً مستقلّة بذاتها في ظلّ شروطٍ ديكتاتوريّة.

◆ الثورة المضادّة انتصرت تقريباً في كافة البلاد العربيّة، باستثناء تونس إذا أمكن القول. ومع أن التونسيّين لم يحقّقوا بعد الديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة اللتين يتوقون إليهما، تبقى على الأقل إمكانيّة تحدّي مراكز القوى.

■ أخشى أنّ تونس ليست استثناءً في مدّ الثورة المضادّة في المنطقة. وهي تعيش مرحلةً من الثورة المضادّة، ولو أكثر اعتدالاً بكثير من سواها. تونس تشهد عودةً جماعيّة لرجال النظام القديم.

ينتمي الرئيس التونسيّ الحالي هو ذاته ــ عدا عن كونه أكبر رؤساء العالم سنّاً بعد موغابي في زيمبابوي وملكة إنكلترا، وبتناقض مع كونه وصل إلى الحكم فرضياً نتيجة «ثورةٍ شبابيّةٍ» ــ إلى النظام القديم.

والحزب السائد الجديد في تونس هو، إلى حدٍّ بعيد ــ ليس حصراً وإنما إلى حدٍّ بعيد ــ نسخةٌ منقّحةٌ من الحزب الحاكم في النظام السابق.

ولكن، على عكس الحال في مصر، فإنّ ذلك كلّه يجري بطريقة أكثر سلاسةً وسلميّة. الفارق الحاسم هنا هو أنّ تونس يحكمها اليوم ائتلافٌ بين هذه النسخة المجدّدة من النظام القديم و«حزب النهضة»، المعادل التونسيّ لجماعة «الإخوان المسلمين» المصريّة مع أنّه لا يمتلك قوّتها.

إنّه سيناريو مختلف، يلتقي فيه جناحا الثورة المضادّة ضمن ائتلاف بدلاً من أن يتحاربا، وهو بعينه السيناريو الذي تتمنّى الولايات المتّحدة الأميركيّة أن تراه يمتدّ ليشمل المنطقة بكاملها: ائتلاف بين الأنظمة السابقة المرمّمة وما يسمّى بالمعارضات المعتدلة تمثّلها فروع «الإخوان المسلمين» على المستوى الإقليميّ.

◆ فلننتقل إلى سورية. لماذا يرتبك موقف الكثيرين في اليسار العالميّ تجاه سورية؟ النظام السوريّ شديد القمعيّة والطائفيّة، ومع ذلك، لم تحظَ الثورة السوريّة بالدعم الذي فاز به الآخرون.

■ أظنّهم يستندون في ذلك إلى أفكارٍ خاطئة أتت كردّ فعلٍ ضدّ الحكومة الأميركيّة. أولئك الذين لا يعرفون تاريخ المنطقة يظنّون أنّ تحالف النظام السوريّ مع إيران ومع «حزب الله» في لبنان ناجمٌ عن كونه معادياً للصهيونيّة والإمبرياليّة. وتروّج أيضاً أجهزة دعاية النظام السوريّ لهذه الصورة ذاتها. في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠١١، في مقابلةٍ شهيرة أعطاها بشّار الأسد لـصحيفة «وول ستريت جورنال» قبل اندلاع الثورة في سورية، شرح أنّ بلده محصّنٌ ضد الرياح الإقليميّة ــ مثلما شاء أن يعتقد حينها ــ لأنّ نظامه «وثيق الصلة بقناعات الشعب». وأضاف أنّ «الشعب لا يعيش فقط بالمصالح، وإنما أيضاً بالقناعات، خصوصاً في المناطق الإيديولوجيّة بشدّة». عنى بذلك أنّ إقناعه للشعب السوريّ «الإيديولوجيّ بشدّة» بأنه معاد للصهيونيّة ومعادٍ للإمبرياليّة، قد حقّق لنظامه الرضا الشعبيّ.

من هنا، لمّا أطاحت القوّات المسلّحة المصريّة حسني مبارك، بثّ التلفزيون الرسميّ السوريّ الخبر تحت عنوان: «سقوط نظام كامب دايفيد». أرادوا أن يصدّقوا، أو بالأحرى أن يُقنعوا الناس، بأنّ الثورة المصريّة أتت نتيجةً لاتفاقيّة السلام مع إسرائيل الموقّعة سنة ١٩٧٨، بينما بقي النظام السوريّ الذي يدّعي التصلّب القوميّ

محصّناً تجاه الثورة الشعبيّة. كان ذلك محض إسقاطٍ للرغبات على الواقع بطبيعة الحال، مثلما برهنتْ الأحداث بعد أسابيع قليلة.

أما اقتناع أيّ شخص من اليسار بمثل ذلك الادعاء فهو أمرٌ مؤسفٌ. والحقيقةُ أن النظام السوريّ لم يوقّع اتفاقيّة سلام مع إسرائيل، لا لنقص في الرغبة من جانبه وإنما لنقْص في الرغبة لدى الجانب الإسرائيليّ. والحال أن جولاتٍ عدّة من المفاوضات تمّت في الواقع بين الدولتين. قبل سنة ٢٠١١، أدّى أردوغان، وكان رئيس الوزراء التركيّ آنذاك، دور الوسيط بين صديقه الحميم في ذلك الحين بشّار الأسد وإسرائيل.

والجغرافيا هي ما صعّب إنجاز اتفاقيّة سلام بين سورية وإسرائيل بالمقارنة مع مصر. أعادت إسرائيل صحراء سيناء إلى مصر لأنها حاجزٌ عسكريّ قائم بحدّ ذاته، لا سيّما أن الاتفاقيّة نصّت على أن تبقى منطقةً منزوعة السلاح. فالوقت الذي يحتاج إليه الجيش المصريّ لعبور الصحراء الفاصلة بين قناة السويس والحدود الإسرائيليّة، وقتٌ يتيح للطيران الحربيّ الإسرائيليّ تدميره مراراً وتكراراً.

في المقابل، فإن هضبة الجولان هي نقطة إستراتيجيّة تشرف بشكلٍ مباشر على مناطق إسرائيل السابقة لاحتلال سنة ١٩٦٧. لهذا السبب، ضمّت إسرائيل الجولان رسمياً إلى أراضيها في العام ١٩٨١. فبالإضافة إلى القدس الشرقيّة، الجولان هو الجزء الوحيد من الأراضي العربيّة المحتلّة في العام ١٩٦٧ التي قامت الدولة الإسرائيليّة بضمّه رسميّاً إليها.

دخل نظام الأسد إلى لبنان سنة ١٩٧٦ بضوءٍ أخضر إسرائيليّ وأميركيّ بهدف سحق منظمة التحرير الفلسطينيّة (م. ت. ف.) واليسار اللبنانيّ، وإنقاذ أقصى اليمين اللبنانيّ من هزيمةٍ وشيكة. وبعد الاجتياح الإسرائيليّ للبنان في العام ١٩٨٢، أكمل نظام الأسد ما بدأته إسرائيل بطردها المقاتلين الفلسطينيّين من النصف الجنوبيّ من البلاد وصولاً إلى بيروت ومنها.

ففي السنة التالية، وعبر وكلائه، طرد النظام السوريّ مقاتلي م. ت. ف. وعرفات نفسه من شمال لبنان. كما دعمت دمشق حلفاءها اللبنانيّين في حركة أمل الشيعيّة الطائفيّة، في حربهم ضد المخيّمات الفلسطينيّة في الثمانينيّات. وفي العام ١٩٩٠، التحق حافظ الأسد بالتحالف الدوليّ تحت قيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة في الاعتداء على العراق، دافعاً بجنودٍ سوريّين إلى المعركة. ينسى الناس أو يتجاهلون ذلك كلّه.

لا يوجد أيّ شيء على الإطلاق معاد للإمبرياليّة في نظام الأسد. إنه نظامٌ شبيهٌ بالمافيا، انتهازيٌّ حتى النخاع، يخدم مصالحه فقط. وفي الوقت عينه، هو واحدٌ من أشدّ أنظمة المنطقة استبداداً، يمارس القمع بوحشيّةٍ مفرطة.

في مطلع الثمانينيّات، استهدفت حملة قمع واسعة اليسار: رُميَ ما يقارب الألف عضو من حزب العمل الشيوعيّ في السجن، وتعرّضوا لتعذيبٍ رهيب. وقد بقي مئاتٌ منهم في السجن لفترات تتراوح ما بين عشر سنوات وعشرين سنة، مع أنهم لم يتورّطوا يوماً بأيّ عملٍ عنفيّ ولا نظّروا للعنف.

وقد مضى النظام السوريّ خلال السنوات الـ ١٥ الماضية في إرساء تغييراتٍ نيوليبراليّة ذات نتائج واضحة للعيان. شهدت سورية تطوّر طبقة شديدة الفساد من رأسمالية المحاسيب، إذ تحوّلت العشيرة الحاكمة من السيطرة على السلطتين العسكريّة والسياسيّة إلى امتلاك مفاتيح السلطة الاقتصاديّة. فأصبح ابن خال بشّار الأسد أغنى رجلٍ في سورية ومن بعيد، كما غدا الكثيرون من أقربائه شديدي الثراء.

وفي الناحية الأخرى من الطيف الاجتماعيّ، شهدت سورية ارتفاعاً حاداً في البطالة، وتصفيةً للصناعات، وتفقيراً للريف. وقد أدّى ذلك كله إلى توتّرات اجتماعيّة هائلة، انفجرت في العام ٢٠١١. على هذا المستوى، سارت سورية على النمط ذاته الذي سارت عليه باقي دول المنطقة.

◆ كيف يختلف أولئك الذين خرجوا ضد بشّار الأسد في العام ٢٠١١، إذا اختلفوا بشيء، عن نظرائهم التونسيّين والمصريّين؟

■ لتبرير دعمهم نظام الأسد، تحجّج بعضهم بأنّ الثورة السوريّة، على نقيض سواها في بلدان عربيّة أخرى، أتت بقيادة قوى رجعيّة إسلاميّة. وهذا، أيضاً خاطئ تماماً. أولاً، في كلٍّ من تونس ومصر، تمكّنت القوى الأصوليّة الإسلاميّة من أن تستفيد أكبر استفادة من الثورة. وقد فاز «الإخوان المسلمون» في مصر و«النهضة» في تونس بالانتخابات الأولى التي شهدها البلدان.

إذاً، إذا كانت الحجّة أنّ الثورة السوريّة وقعت تحت سيطرة القوى الإسلاميّة، وجب على كلّ من قال بها أن يدعم النظام السابق في كلّ من تونس ومصر حفاظاً على تماسك الرأي.

في الواقع، يدعم حالياً جزءٌ من اليسار في

تونس ومصر النظام السابق تحت حجج مماثلة. في مصر، دعمت معظم قوى اليسار الانقلابَ الذي قاده السيسي، حتى ولو ندمت بعض هذه القوى لاحقاً على موقفها.

أمّا الحقيقة الأساسيّة فهي أن ثوراتٍ شعبيّة قد وقعت على امتداد المنطقة. وإذا تمكّنت القوى الأصوليّة الإسلاميّة من أن تصبح مهيمنة بين القوى المنظّمة في هذه الثورات بلا استثناء، فالسبب في ذلك إنّما يعود بالتأكيد إلى الضعف العمليّ و/أو السياسيّ لليسار من جهة، ولكنه أيضاً وفي المقام الأول نتيجة عقودٍ من حكم الأنظمة الاستبداديّة، من جهة أخرى. يجبُ ألا يغفل أحدُ ذلك. لم يكن النظام السوريّ درعاً في مواجهة الأصوليّة الإسلاميّة، ولا كان مبارك أو بن علي، ولا هما الأسد والسيسي اليوم.

منذ أن وصل بشّار الأسد إلى الرئاسة خلَفاً لأبيه على نمط السلالات الحاكمة، شجّع انتشار السلفيين في سورية. كل من كان على معرفة بالوضع السوريّ استطاع ملاحظة انتشار النقاب في الشوارع السوريّة. فقد شجّع الأسد الشاب على الأمر، ظنّاً منه أنه بذلك سيضمن السلام الاجتماعيّ لنظامه، وأن هذه الإيديولوجيا الرجعيّة السلفيّة الإسلاميّة ستُبقي الشعب بعيداً عن التدخّل في السياسة. في نهاية المطاف، انفجر ذلك في وجهه.

منذ أن وصل الأسد إلى الرئاسة خلفا لأبيه على نمط السلالات الحاكمة. شجع انتشار السلفيين في سورية. كل من كان على معرفة بالوضع السوري استطاع ملاحظة انتشار النقاب في الشوارع السورية.

والحكاية مماثلةٌ على مستوى المنطقة بأسرها. وقد دعمت الولايات المتّحدة ذاتها الأصوليّة الإسلاميّة ضد القوميّة العربيّة واليسار منذ الخمسينيّات، حتى عادت هذه الأصوليّة وانفجرت في وجهها. وأطلق السادات الإخوان المسلمين من السجون وسمح لهم بأن يتنظّموا من أجل أن يُلحق الهزيمة بالناصريّة. ثمّ تقبّلهم نظام مبارك كحزبٍ جماهيريّ، ولو تحت الرقابة الشديدة. وبسحقها لليسار بمساعدة القوى الأصوليّة الإسلاميّة، أنتجت الولايات المتّحدة والأنظمة المحليّة شروط صعود معارضةٍ من ضمن هذه القوى.

إلى ذلك، لمّا بدأت الانتفاضة السوريّة، فعل النظام كلّ ما في وسعه لمنع طاقاتها الديمقراطيّة والعلمانيّة، غير الطائفيّة، من الازدهار. شكّل ذلك بالفعل الخطر الأكبر من وجهة نظر النظام، فسحق الحركة بوحشيّةٍ قصوى، وزجّ بعشرات الآلاف في السجون، معظمهم من الشبان الذين كانوا منظّمي الانتفاضة ورأس حربتها.

في الوقت ذاته، ومثلما وثّقت مقالاتٌ وكتبٌ عديدة، أطلق النظام سراح الجهاديّين الذين اعتقلهم في سجونه بعدما استخدمهم في العراق. وقد أتى إطلاق سراح أولئك الجهاديّين كخدعةٍ مكيافيليّة بامتياز أقدم عليها النظام لكي تتحقّق النبوءة التي أطلقها منذ اليوم الأول للثورة بأنها مؤامرةٌ جهاديّة. والحال أن النظام فعل ما بوسعه لخلق الشروط الملائمة لنمو الأصوليّة الإسلاميّة في سورية كي يتغيّر طابع الثورة.

في الوقت ذاته، اعتمد دفاع النظام أكثر فأكثر على وكلاء إيران الإقليميّين الآتين من لبنان والعراق، وهم بالتأكيد لا يقلّون أصوليّةً إسلاميّةً عن غالبيّة القوى السوريّة الإسلاميّة المعادية للأسد. إن الذين يدّعون أن النظام السوريّ «علمانيّ» يغفلون تماماً هذه الحقيقة الجليّة التي تدحض فرضيّتهم.

هذا وقد برز تنظيم القاعدة في سورية مطلع سنة ٢٠١٢ تحت تسمية جبهة النصرة، بمساهمة كبيرة من فرع القاعدة العراقيّ، الذي كان يسمّي دولة العراق الإسلاميّة، والذي يلعب فيه دوراً حاسماً أعضاءٌ سابقون في حزب البعث العراقيّ، الشقيق اللدود لحزب البعث الحاكم في سورية.

ولمّا قرّروا ضمّ جبهة النصرة إلى التنظيم العراقي تحت تسمية الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، المعروفة باسم داعش، تسبّب العراقيّون بانشقاق قسم من السوريّين الذين استمرّوا تحت اسم جبهة النصرة، وكفرع لتنظيم القاعدة الدوليّ. وقد أتى ذلك كله كتطوّرٍ شديد الإيجابيّة بالنسبة إلى الأسد وجماعته. والحال أنّ تنظيم داعش قد اشتبك مع معارضي نظامهم أكثر بكثير مما اشتبك مع قوّاتهم.

في الحقيقة، إن داعش هو «العدو المفضّل» لنظام الأسد، إذ إنه منفّر للغرب إلى حدّ جعله الحجّة الأقوى لدى النظام في مطالبته القوى الغربيّة بتغيير موقفها منه. يمكنكِ أن تري بوضوح سعي النظام السوريّ الحثيث، بمساعدة روسيا، من أجل إغراء الغرب بدعمه بحجة القتال ضد داعش.




POLIC

وثمّة اليوم عددٌ متزايدٌ من أعضاء نخب السلطة الغربيّين ـ خصوصاً الأكثر رجعيّةً بينهم، مثل دونالد ترامب الأميركي ومارين لو بان الفرنسية ـ باتوا يدعون إلى ذلك بالتحديد: يطالبون بتحالفٍ مع الأسد وبوتين.

◆ إذا نظرنا إلى سورية اليوم، يتحجّج بعض النقّاد بأنّ كلّ القوى الموجودة على الأرض السوريّة هي قوى الثورة المضادّة. هل هذا صحيحٌ؟ أليس معظم المقاتلين سوريّين يحاربون الديكتاتوريّة؟

■ هم كذلك، فعلاً. لكن واحداً من تعقيدات الوضع في المنطقة هو أنه لا ينطوي على الثنائيّة الكلاسيكيّة بين الثورة والثورة المضادّة. بدل ذلك لديكِ مثلّث قوى. من جهة، يوجد قطبٌ ثوريّ قوامه كتلةٌ من القوى الاجتماعيّة والسياسيّة تجسّد آمال العمّال والشباب والنساء الذين انتفضوا ضد النظام القديم، طامحين إلى مجتمعٍ تقدميٍّ مختلف.

أمّا في الجهة الأخرى، فتجدين معسكرَين وليس معسكراً واحداً للثورة المضادّة. هناك أولاً، معسكر النظام القديم، أي الثورة المضادّة التقليديّة. ثمّ، وللأسباب التاريخيّة التي ذكرتها، توجد قوى رجعيّة ذات طابعٍ دينيّ، رعتها أساساً الأنظمة لتشكّل ثقلاً موازناً لليسار، لكنها نمت وانقلبت ضدّ هذه الأنظمة. وينتمي المعسكران إلى الثورة المضادّة، بمعنى أنّ مصالحهما الأساسيّة وبرامجهما تصطدم بشكلٍ مباشر مع آمال القطب الثوريّ الذي يناضل من أجلِ التغييرِ الاجتماعيّ والاقتصاديّ والديمقراطيّ.

في اللحظة الراهنة، لا توجد أية آفاق لمخرج تقدمي. كل من يظن غير ذلك هو حالم. وفي غياب آفاق شبيهة، أفضل ما يمكن أن يحصل هو وقف التدهور المستمر المرافق للحرب. ولكي تنتهي الحرب، يجب على الأسد أن يرحل.

فعند وصولهما إلى السلطة بدءاً من العام ٢٠١١، جسّد الإخوان المسلمون في مصر وحزب النهضة في تونس نوعاً آخر من الثورة المضادّة، فاقتنعت واشنطن بقدرتهم على العمل بفاعليّة أكبر من النظامين السابقين، إذ إنهم استمرّوا في سياسات النظام القديم الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

أمّا التغيير الوحيد الذي سعوا لإنجازه فهو أسلمة المؤسّسات ـ أو بالأحرى المزيد من أسلمة المؤسّسات في مصر، حيث بلغت الأسلمة مرتبةً عالية خلال عهدي السادات ومبارك. فارتفعت حدّة التوتّرات بينهم وبين النظام القديم لمّا حاولوا أن يفرضوا سلطتهم على أجهزة الدولة. هذه هي خلفية انقلاب سنة ٢٠١٣ في مصر.

تجدين إذاً على امتداد المنطقة معسكرين للثورة المضادّة وقطباً ثورياً واحداً. إن ضعف هذا الأخير العمليّ و/أو السياسيّ هو ما أتاح للوضع أن يتطوّر إلى تصادم بين معسكرَي الثورة المضادّة، بينما تمّ تهميش القطبِ الثوريّ.

سورية هي الحالة القصوى في هذا المجال. كانت هناك طاقةٌ تقدّميّة كبيرة في الانتفاضة سنة ٢٠١١، توازي إن لم تفق حالها في بلدان أخرى، نتيجة انتشار الأفكار التقدّميّة واليساريّة لدى الشعب السوريّ ـ أكثر من انتشارها في مصر، ولكن أقلّ من انتشارها في تونس. إلّا أنّ هذه الطاقة لم تتخذ شكلاً منظّماً. والحال أن شبكات الإنترنت الافتراضيّة تبرع في تنظيم التظاهرات والمسيرات، لكنّها ليست بديلاً عن شبكة تنظيميّة فعليّة.

أضف إلى ذلك التدخّل بالغ النشاط لمعقل الثورة المضادّة في المنطقة متمثلاً بمشايخ الخليج النفطيّة، التي سعت جهدها لتقوّي العنصر الأصوليّ الإسلاميّ في المعارضة السوريّة على حساب كلّ ما عداه. فالثورة الديمقراطيّة الحقيقيّة تشكّل خطراً كبيراً عليهم، كحالها مع الأسد. بهذا المعنى، التقوا مع نظام الأسد في الدفع بالعنصر الأصوليّ الإسلاميّ إلى الصفّ الأول في المعارضة على حساب العنصر الديمقراطيّ العلمانيّ.

نتيجة كل ذلك في سورية هي، والحق يُقال، حالٌ يهيمن عليها صدامٌ ما بين قوّتين مضادّتين للثورة: النظام وحلفاؤه من جهة، ومن جهة أخرى معارضة مسلّحة تعتنق القوى المسيطرة فيها توجّهات سياسيّة تتناقض جذريّاً مع التطلّعات التقدّميّة الأولى للانتفاضة كما تمّ التعبير عنها سنة ٢٠١١. صحيحٌ أن هناك أيضاً قوى معارضة مسلّحة تبدو أقلّ رجعيّة، ولو أنها بالكاد تقدّميّة.

الأهمّ من ذلك هو أن معظم الملتحقين بالجماعات الأصوليّة الإسلاميّة المسلّحة لم يلتحقوا بها لأسبابٍ عقائديّة، وإنما لكونها مصدر رواتبٍ في ظروفٍ معيشيّةٍ سريعة التدهور بسبب الحرب. هذا سببٌ محوريّ حتى في نمو داعش، وقد أتاح للتنظيم أن يجنّد آلاف المقاتلين.

مع كل ما سبق ذكره، فإنّ الطاقة التي تفجّرت سنة ٢٠١١ لم يتم سحقها وإنما تم تهميشها سياسيّاً. الكثيرون

ممّن مثّلوا هذه الإمكانيّة غادروا البلد إلى المنفى لأنهم، من جهة، معارضون جذريّون للنظام ومهدّدون من قبَله، ومن الجهة الأخرى، يجدون في انتشار القوى الرجعيّة خطراً معادلاً للنظام عليهم.

إنّ معظم الباقين على قيد الحياة ولم ينتهِ بهم الأمر في السجون، قد غادروا البلاد. هؤلاء الآلاف من الناشطين الذين يجسّدون الإمكانيّة الديمقراطيّة التقدّميّة لانتفاضة ٢٠١١ ويقبعون اليوم في المنفى هم سببٌ للحفاظ على أمل بالمستقبل.

ولكن، في اللحظة الراهنة، جلّ ما يمكن للمرء أن يتمنّاه هو إنهاء هذه الديناميّة الرهيبة لصدام الهمجيّات، كما سمّيته في أعقاب ١١ أيلول ٢٠٠١، حيث تصطدم همجيّة نظام الأسد بهمجيّة داعش، علماً أنّ الأخيرة هي أساساً نتيجة الهمجيّة الرئيسيّة التي مثّلها الاحتلال الأميركيّ للعراق. يجب أن تتوقّف الحرب الأهليّة، ومعها دمار سورية وذبح شعبها على أيدي النظام، ضمن شروطٍ تتيح للاجئين أن يعودوا من المنفى الخارجيّ أو النزوح الداخليّ. هذا هو الآن المطلب الأكثر إلحاحاً.

في اللحظة الراهنة، لا توجد أيّة آفاق لمَخرج تقدّميّ. كلّ مَن يظنّ غير ذلك هو حالمٌ. وفي غياب آفاقٍ شبيهة، أفضل ما يمكن أن يحصل هو وقف التدهور المستمر المرافق للحرب. ولكي تنتهي الحرب، يجب على الأسد أن يرحل، لاستحالة الخروج بأيّ تسوية فعلية وإنهاء الصراع ما دام في موقعه.

إن روسيا وإيران بدعمهما له تصدّان إمكانيّة التسوية. منذ عام ٢٠١٢ وإدارة أوباما تردّد التالي: «لا نطالب بتغيير النظام في سورية ولكننا نعتقد بأنه يجب على الأسد أن يترك موقعه لتصبح التسوية ممكنة بين النظام والمعارضة».

دعا أوباما إلى ما سمّاه «الحلّ اليمنيّ». ففي اليمن، وافق الرئيس على ترك موقعه وتسليم السلطة إلى نائبه، ولم يتم تغيير النظام. عوضاً عن ذلك، تشكّلت حكومة توافقيّة بين المعارضة والنظام، استُثنيت منها عشيرة الرئيس. لم تدم طويلاً كما بتنا نعرف، ومع ذلك، فإن أوباما منذ العام ٢٠١٢ وحتى يومنا هذا يرى فيها نموذجاً يجب أن تقتدي به سورية.

في المقابل، فإن إيران وروسيا تخشيان من أن يخلّ رحيل عشيرة الأسد بآلية النظام كلها التي تزعزعت إلى حدّ بعيد، الأمر الذي قد يؤول إلى خسارتهما سورية كحليف محوريّ لهما في المنطقة. ولذلك، تعيق الدولتان أيّ تقدُّمٍ نحو تسويةٍ تفاوضيّة.

إن تسويةً كهذه ستكون، بلا أدنى شكّ، بعيدةً كلّ البعد عن الحلّ المثاليّ. ولكن، طالما استمرت الحرب، فلن يكون هناك أيّ إحياء للطاقة الديمقراطيّة التقدّميّة التي أظهرتها الانتفاضة السوريّة في العام ٢٠١١. إن تلك الطاقة لا تزال موجودةً: فإذا توقّفت الحرب وعادت القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة إلى الواجهة، سيرى الشعب أن المعسكرَين كليهما لا يملكان حلولاً لمشاكل البلاد.

◆ يقول البعض إنه، لو ترك الأسد السلطة، فستستولي عليها جبهة النصرة وداعش. أنتَ تقول إن الإطاحة بالأسد ستسرّع النضال من أجل التحرر السياسيّ.

■ صحيح. السبب الرئيسيّ الذي يتيح لجبهة النصرة ولداعش النمو هو استمرار نظام الأسد بالوجود. إن همجيّة نظام الأسد في قمع الانتفاضة هي التي خلقت أرضيّةً سمحت لتنظيمي القاعدة وداعش بأن يتطوّرا في سورية.

لم تكن هناك جماهير جاهزة لأن تلتحق بمثل تلك الجماعات المجنونة. وقد انتهى الأمر بالناس أنهم رأوا في الجماعتين ردّاً مناسباً على الفظائع التي إرتكبها النظام وعلى الفوضى التي سادت. لعبت داعش على ذلك الوتر، وفرضت نظاماً شموليّاً دينيّاً بينما كانت تؤمّن للناس خدمات اجتماعيّة شبيهة بخدمات دولة. ولهذا السبب، أطلقت على نفسها اسم «الدولة» الإسلاميّة.

إن الطريقة الممكنة الوحيدة للتخلّص من داعش والقاعدة هي بإزالة الأسباب التي تدفع بالناس إلى الالتحاق بمثل هذه الجماعات. عندما حاولت الولايات المتّحدة سحق تنظيم القاعدة بالوسائل العسكريّة حصراً خلال معركة ومذبحة الفالوجة في العراق، فشلت على نحو بائس. ولم تتمكّن من تهميش القاعدة إلا بعدما بدّلت إستراتيجيّتها واستندت إلى القبائل العربيّة السنيّة داعمةً إياها بالمال والسلاح.

وإذا تمكّنت القاعدة المتحوّلة لداعش من استعادة السيطرة على أجزاءٍ واسعةٍ من العراق خلال صيف ٢٠١٤، فلأن حكومةً نوري المالكيّ الطائفيّة المدعومة من إيران قد أعادت خلق ظروف الحقد العربيّ السنّي التي أتاحت أساساً لتنظيم القاعدة أن ينمو تحت الاحتلال الأميركيّ. لذلك، وللمفارقة، خشي معظم العرب السنّة في العراق من الانسحاب الأميركيّ سنة ٢٠١١. فبإحدى سخريات التاريخ، انتهى بهم الأمر إلى أن رأوا في القوّات الأميركيّة حمايةً لهم إزاء حكومة المالكيّ الطائفيّة الشيعيّة.

وفي سورية أيضاً، لا بدّ من إزالة الظروف المولّدة للحقد الطائفيّ السنّي من أجل إنهاء جاذبيّة النصرة وداعش، وسواهما من الأصوليّين. أما الشرط الأول لتحقيق ذلك فهو إبعاد عشيرة الأسد عن السلطة، كونها مكروهةً من قسم عظيم من المجتمع السوريّ.

◆ فلننتقل إلى الجيوسّياسة والولايات المتّحدة. كيف تصف الردّ الأميركيّ على الثورات؟

■ هذا أيضاً موضوعٌ يقاربه يساريّون كثر بجمودٍ فكريّ. فيفشل الكثيرون في إدراك أن تجربة العراق كانت كارثةً محوريّة. إنها بالفعل أهمّ كارثة في التاريخ الإمبرياليّ الأميركيّ. فمن وجهة النظر الإستراتيجيّة، إنها كارثةٌ أسوأ من كارثة فييتنام.

في ســــــــــــورية لا بد من إزالة الظروف المولدة للحقـــــــــــد الطائفي السني من أجل إنهاء جاذبية النصــــــــــــرة وداعش. أما الشرط الأول لتحقيق ذلك فهو إبعاد عشيرة الأسد عن السلطة. كــــــــــونها مكروهة من قسم عظيم من المجتمع الســــــــــــوري.

ما يعجز بعضهم عن فهمه هو أن إدارة أوباما، بعد بوش، ما عادت تخوض في تغيير الأنظمة. وقد كان شعار باراك أوباما إزاء الانتفاضة العربيّة سنة ٢٠١١ هو «الانتقال المنظّم للسلطة»، ولم يكن «تغيير النظام». أراد الحفاظ على الأنظمة عبر تغييرات محدودة في أعلى الهرم تتيح انتقالاً سلساً من دون اضطّراب أساسيّ في النظام.

وينطبق الأمر حتى على ليبيا. فالتدّخل الذي قادته الولايات المتّحدة في ليبيا كان محاولةً لاستيعاب الانتفاضة الليبيّة وتوجيهها نحو صيغة انتقالية يجري التفاوض عليها مع ابن القذافي، النجل المَرضي عنه في الغرب. وقد سعوا إلى ذلك حتى الدقيقة الأخيرة، غير أن المحاولة باءت بالفشل الذريع إذ أدّت الانتفاضة في طرابلس إلى انهيار النظام.

لهذا السبب، تحوّلت ليبيا إلى كارثة إضافيّة من وجهة النظر الإمبرياليّة الأميركيّة وصارت حجّةً إضافيّةً ضدّ أي سياسة «تغيير للنظام» تتضمّن تفكيكاً جذريّاً للدولة، كما حصل سابقاً في العراق. ولهذا السبب أيضاً، لم يصدر عن الولايات المتّحدة تصريحٌ واحد يفيد بأنها تريد إسقاط النظام في سورية. قالوا فقط إنه ينبغي على بشّار الأسد أن يترك سدة الحكم لكي يتيح انتقالاً تفاوضياً للسلطة. بكلام آخر، يريدون من الرجل أن يرحل ويبقى النظام في مطرحه.

لقد تلقّت الولايات المتّحدة الانتفاضة العربيّة سنة ٢٠١١ وهي في أسوأ أحوال هيمنتها الإقليميّة منذ ١٩٩٠. في سنة ٢٠١١ ذاتها، جلت من العراق من دون تحقيق أيٍّ من الأهداف الإمبرياليّة المحوريّة للاجتياح.

حصل التدخّل في ليبيا أيضاً بفضل ضوء أخضر من روسيا. فقد امتنعت الصين وروسيا عن التصويت في مجلس الأمن لدى الأمم المتّحدة عند مناقشة قرار التدخّل في ليبيا. كان بوسع الدولتين استخدام حقّ الفيتو ضد التدخّل. ولكن، وعلى عكس الحال مع القذافي، تنظر روسيا إلى نظام الأسد كحليفٍ أساسيّ، إذ كان القذافي قد تحوّل خلال سنواته الأخيرة ليصبح صديقاً عزيزاً لواشنطن ولندن وباريس وإيطاليا برلوسكوني.

ولمّا أتى دور سورية، لم تفكّر واشنطن جدّياً بتدخّلٍ عسكريٍّ مباشر، على الإطلاق. وقد جاءت لحظة في العام ٢٠١٣، ارتبك أوباما بسبب «الخط الأحمر» الذي حدّده لمّا أثير موضوع الأسلحة الكيميائيّة، وتنفّس الصعداء لمّا عرضت روسيا عليه تسويةً مع الأسد. وعموماً، فإن الوضع أشدّ تعقيداً بكثير من منطق «عدوّ عدوّي هو صديقي» الذي يستند إليه معظم اليسار «المعادي للإمبرياليّة» بالطريقة الانفعاليّة.

◆ إذا كانت روسيا والولايات المتّحدة متفقتَين على بقاء النظام السوريّ فما هو صلب الخلاف بينهما إذاً؟

■ يتمحور الخلاف حول مسألة الأسد، بالطبع. فحتى الساعة، تتمسّك روسيا به لأنها تجد في عشيرة الأسد الضمانة الوحيدة لبسط سيطرتها على سورية. روسيا لا تقلّ إمبرياليّةً عن الولايات المتّحدة، وهي حتى أشدّ وحشيّةً بالنظر إلى ما فعلته في الشيشان رغم كونها جزءاً من الاتحاد الفدراليّ الروسيّ (أي مرادفة لولايةٍ من الولايات المتّحدة).

وبالمقياس الاجتماعيّ، فإن النظام الروسيّ أكثر نيوليبراليّةً ويمينيّةً من النظام الأميركيّ، إذ ثمّة ضريبة واحدة ثابتة على الدخل الفرديّ نسبتها ١٣ في المئة في روسيا، مقابل سقف للضريبة التصاعديّة يصل إلى ٤٠ في المئة للضريبة الفدراليّة الأميركيّة، من دون حسبان ضرائب إضافيّة محليّة أخرى. أما ضريبة الشركات الروسيّة فنسبتها ٢٠ في المئة، مقابل ٣٥

في المئة للضريبة الفدراليّة الأميركيّة، أيضاً من دون حسبان الضرائب المحليّة، وأشرس «الجمهوريّين» لا يحلم بتحقيق ذلك في الولايات المتّحدة.

يلعب بوتين أيضاً الورقة الدينيّة عبر استدعاء الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة لتبارك تدخّله في سورية، وتصفه بالحرب المقدّسة. إنّ تصوّرات بعض اليساريّين الذين يحيون في بُعْدٍ زمنيٍّ آخر ويؤمنون بأن روسيا هي، بشكلٍ من الأشكال، مواصلةٌ للاتحاد السوفياتيّ وأن فلاديمير بوتين هو وريث فلاديمير لينين، إنما هي مضحكة تماماً.

◆ ولكن، ما هي مصالح روسيا الإمبرياليّة في سورية؟

■ سورية بلدٌ لروسيا فيه قاعدتان جوّية وبحريّة، فتتفاعل معه تماماً كما كانت واشنطن لتتفاعل بخصوص أيّ بلد لها فيه قواعد شبيهة. ونظام الأسد هو حليف موسكو الإستراتيجيّ الأقرب في المنطقة.

تلك أيضاً فرصةٌ لبوتين ليبلغ كلّ الديكتاتوريّين: «يمكنكم أن تعتمدوا عليّ في الدفاع عنكم ضد ثورات شعوبكم أكثر بكثير ممّا يمكنكم الاعتماد على واشنطن لذلك. يكفيكم أن تُقابلوا ما بين دعمي للأسد وتخلّي الولايات المتّحدة عن مبارك». لهذا السبب، صار بوتين صديقاً حميماً للسيسي، ديكتاتور مصر الجديد.

◆ إذاً، يريد بوتين أن ينمّي دوره الإمبرياليّ في العالم العربيّ؟

■ أفعال موسكو تتبع المنطق ذاته الذي تسلكه واشنطن. فتنظر روسيا إلى سورية كقيمة إستراتيجيّة تماماً كما كانت الولايات المتّحدة تنظر إلى فييتنام في الماضي، أو إلى أيّ نظام كانت واشنطن مستعدّةً لدعمه عبر التدخّل العسكريّ المباشر.

إن تصورات بعض اليساريين الذين يحيون في بعد زمني آخر ويؤمنون بأن روسيا هي، بشكل من الأشكال، مواصلة للاتحاد السوفياتي وأن فلاديمير بوتين هو وريث فلاديمير لينين، إنما هي مضحكة.

ولكن اليوم، يميل بوتين أكثر من أوباما إلى التدخّل العسكريّ المباشر، إذ لا تزال الإمبرياليّة الأميركيّة تحت تأثير إرث «العقدة الفييتناميّة»، وقد أعاد إحياءَها الفشلُ الكارثيّ في العراق، رغم أن بوش الأب وبوش الابن ظنّا كلاهما أنهما تخلّصا من ذاك الإرث.

يستفيد بوتين من ذلك متّخذاً موقفاً أشدّ صرامة من واشنطن حول سورية، عبر تقديم الدعم الكامل لنظام الأسد، بينما لا تدعم الولايات المتّحدة المعارضة السوريّة بأيّ طريقة مماثلة. إنّ دعم واشنطن للمعارضة يبدو مادّة للنكات أكثر منه مسألة جديّة. في المقابل، موسكو وطهران تمدّان النظام السوريّ بدعم شامل على كافة المستويات، بما فيها الانخراط الكثيف للمقاتلين الوكلاء عن إيران.

◆ اعتنت المملكة السعوديّة وسواها من مشايخ الخليج بتدمير الانتفاضات. ما كان انقلاب السيسي لينجح في مصر لولا الدعم السعوديّ الكامل له. هل سيتمكّن السعوديّون من الاستمرار في أداء هذا الدور لمدّةٍ طويلة؟ برأيك، ما هي آفاق التغيير في بلدان الخليج؟

■ تلك مشكلةٌ رئيسيّةٌ، بالفعل. لطالما كانت المملكة السعوديّة قلعة الرجعيّة الرئيسيّة في المنطقة. وهو ذا الدور الذي أدّته منذ نشأتها، لأنها دأبت على أن تكون الدولة الأكثر رجعيّةً على الأرض. إذا اعتبرتِ داعش دولةً، يمكنكِ أن تقولي إنها تنافس السعوديّة في هذا الصدد. وتتشاركان في الكثير من السمات وفي تاريخ متشابه، غير أنّ إحداهما تم إنشاؤها في مطلع القرن العشرين والثانية أتت بعدها بقرنٍ وبأدواتٍ مختلفة جداً.

المملكة السعوديّة هي معقلٌ رئيسيٌّ للرجعيّة في المنطقة، لكنّ قدرتها على أداء دورٍ عسكريٍّ مباشرٍ تتبدّى أكثر في محيطها الخاص، في الخليج. أدّت دوراً محوريّاً في مساعدة الملكيّة البحرينيّة على قمع الانتفاضة في البحرين. في اليمن، تتدخّل المملكة السعوديّة إلى جانب الحكومة الائتلافيّة التي أنتجتها التسوية اليمنيّة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١، في مواجهة الرئيس المخلوع علي عبد الله الصالح المتحالف حاليّاً مع الحوثيّين. هذا في الأساس صراعٌ آخر ما بين معسكرَين مضادّين للثورة، مثلما ناقشنا أعلاه.

في سورية، كان للنظام السعوديّ دورٌ معظمه أتى عبر التمويل، وليس التدخّل المباشر. فلسوء حظّنا العظيم، استولى السعوديّون على بلدٍ اتضح أنه يمتلك أكبر احتياطيّ للنفط في العالم. وقد منحهم ذلك إمكانات ماديّة هائلة سخّروها على مرّ العقود لمساعدة سيّدهم الأميركيّ ونشر إيديولوجيّتهم الغارقة في الرجعيّة والأصوليّة.

من شتّى الزوايا، لا يمكنكِ فهم قوّة الأصوليّة في العالم الإسلاميّ المعاصر إذا تجاهلتِ العامل الحاسم في

نموّها الذي تشكّله المملكة السعوديّة. في المدى الطويل، لا بدّ أن يرحل حجر العثرة فائق الرجعيّة هذا لكي تستطيع السيرورة الثوريّة الإقليميّة بلوغ نتيجة تقدميّة.

إن قطبَي الثورة المضادّة في المنطقة العربيّة مدعومان من قِبَل قوى متنافسة: الولايات المتّحدة وروسيا، مشايخ الخليج وإيران. ولا تنسي أنّ نظام إيران هو أيضاً نظامٌ أصوليّ إسلاميّ، ولو من نوع مختلف. وتواجه السيرورة الثوريّة العربيّة كلّ هذه القوى.

◆ نظراً لحجم ثرواتها، يبدو أن التغيير أمرٌ ميئوسٌ منه في المملكة العربيّة السعوديّة. برأيك، ما هي آفاق التغيير في هذا البلد؟

■ صحيح أن لديهم الكثير من المال، ولكن يوجد أيضاً فقرٌ كثير في المملكة السعوديّة مع ذلك. وتُولّد المفارقةُ التي تكمن في أن مملكةً على هذا القدر من الثراء تشهد هذا القدر من الفقر، غضباً عميقاً ضد العائلة المالكة بين السكّان الأصليّين، فضلاً عن المهاجرين.

إنّ أكثر تجليّات المعارضة فجاجةً حتى الآن هي التي تزايد على النظام الملكيّ في مذهبه الإسلاميّ فائق الأصوليّة، والمعروف باسم الوهّابيّة. تلك كانت الحال في انتفاضة مكّة سنة ١٩٧٩، ثم في وقت أقرب مع تنظيم القاعدة. يعرف الجميع أن ١٥ من أصل ١٩ مشاركاً في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر كانوا سعوديّي الجنسيّة. وقد ضمّت القاعدة ولا تزال تضمّ عدداً كبيراً من الأعضاء حمَلة الجنسيّة السعوديّة.

إن السيرورة الثورية طويلة الأمد في المنطقة ستقاس بالعقود بدلا من السنوات. من وجهة نظر تاريخية، ما زلنا في مراحلها الأولى. يجب أن يكون ذلك حافزا رئيسيا على النشاط المكثف من أجل بناء حركات تقدمية قادرة على أن تتولى القيادة.

معارضة كهذه هي الوحيدة التي تمكّنت من أن تنمو في المملكة السعوديّة تحديداً كونها تمكّنت من أن تعمل في ظل إيديولوجيا النظام، بينما تتضاعف الصعوبات التي تعيق نمو المعارضة التقدّميّة هناك، تلك النسويّة أو المعارضة الشيعيّة مثلاً.

مع ذلك، ثمّة طاقة تقدّميّة في المملكة، سوف تنفجر عاجلاً أو آجلاً. وستنفجر بالطريقة ذاتها التي شهدتها الدول الأخرى في المنطقة. وقد كان نظام الشاه في إيران شديد القمعيّة، ظنّه الكثيرون محصّناً ضد الانهيار.

لكن، لمّا انطلقت الموجة الثوريّة في إيران في أواخر السبعينيّات، رأينا بأيّ سرعة تمكّنت من إسقاط نظام الشاه. فلا توجد أنظمةٌ أبديّةٌ، والنظام السعوديّ لن يكون أبديّاً بالتأكيد وهو يقوم على القمع الرهيب، والتفاوت الاجتماعي الهائل، والمعاملة المقزّزة للنساء.

◆ انطلاقاً من معرفتك باليسار الراديكاليّ في العالم العربيّ، هل أنتَ متفائلٌ بالنظر إلى آفاق الثورات العربيّة؟ هل يصحّ القول بأن نجاح الثورة العربيّة مرتبطٌ جوهريّاً بنجاح التعبئة العمّاليّة؟

■ تلخيصاً لما ناقشناه منذ بدء حوارنا، أقول إنّ الأمل ما زال لديّ، رغم أنني لن أصف نفسي بالمتفائل. ثمّة اختلافٌ نوعيّ هنا. إن الأمل هو الاعتقاد بأنّ الإمكانيّة التقدّميّة لا تزال متاحةً، أمّا التفاؤل فهو الاعتقاد بأنّ هذه الإمكانيّة سوف تتحقّق.

أنا لا أراهن على انتصارها لأنّني أعرف مقدار صعوبة المهمّة، وهي تزداد صعوبةً عندما ينبغي بناء قيادات بديلة تقدّميّة تقريباً من الصفر في بلادٍ كثيرة. فالمهمة شاقّة، هائلة، لكنها ليست مستحيلة. ولم يتوقّع أحدُ انتفاضةً تقدّميّة مبهرة كتلك التي شهدها العام ٢٠١١.

إن السيرورة الثوريّة طويلة الأمد في المنطقة ستُقاس بالعقود بدلاً من السنوات. من وجهة نظرٍ تاريخيّة، ما زلنا في مراحلها الأولى. يجب أن يكونَ ذلك حافزاً رئيسيّاً على النشاط المكثّف من أجل بناء حركات تقدّميّة قادرة على أن تتولّى القيادة. أمّا البديل فهو مزيدٌ من الهبوط في الهمجيّة وانهيارٌ عام في النظام الإقليمي إلى ذلك النوع من الفوضى الرهيبة التي بدأت تنتشر في بضعة بلدان.

أمّا بالنسبة إلى القوى العاملة، فحين أتكلّم عن قيادات تقدّميّة أقصد ضمنياً أن الحركة العمّاليّة يجب أن تكون جزءاً أساسيّاً منها. لهذا السبب ينبغي على البلاد التي تمتلك طاقات أكبر في هذا الصدد، مثل تونس ومصر، أن تفتح الطريق. ويمكننا حينها أن نشهد تأثراً سريعاً للبلدان الأخرى.

ودعنا لا ننسى أنّ المنطقة العربيّة ليست موجودةً على كوكب آخر. إنها جزءٌ من الوضع العالميّ، وقريبةٌ جداً من أوروبا. وعليه، فإن من شأن نشوء يسار راديكاليّ في أوروبا أن يؤثّر تأثيراً مهمّاً في نموّ رديفٍ له في المنطقة العربيّة.



من أبواب أولى



أرامل الحرب في اليمن «تقية» تهذي

أروى عبده عثمان

كاتبة وحافظة للتراث اليمني، وزيرة ثقافة سابقة.

بعد أن تنتهي الجائحة الحوثية ستخرج الأرامل، أمهات الحرب، الثكالى يبكين دماً، يلطمن الخدود، ينزعن شعر رؤوسهن، يسلخن جلودهن، يقلعن عيونهن، يبتلعن الغبار وثقل الذكريات وامتداداتها، تعضيها في المكان والزمان في لحظة الهوس باسترداد مُلك عرق الدين والطائفة والمسيدة الإلهية.

تأنيب الضمير الذي لا يهمد، وفجيعة «ياليتني». زادوا علينا، في حضرة «لو»، في غمرة التجييش باسم الله، واسم «حق السيّد»، ومندبة «قهري راحوا العيال فطيس»، و«حسبنا الله ونعم الوكيل». من فلكلور الحزن والندب واقتصاص الحلم، افتضاضه من أول حشرجة الموت التي تخرّ وتسمعها كل أم حتى وهي بعيدة خلف الجبال، رجفة القلب، ورفّة العين نذير شؤم. ولا شؤم أبلغ عندما ينبئونك بأن ولدك سقط «شهيداً» حتى وإن أجبرتك الجارات والقريبات على الاعتقاد بأنه عريس في الجنة وسط حوريات من كل شكل ونوع.

لا أشد وقعاً من سيرة ولدك الذي لا تأتي جثته. وبدلاً منها تحضر أخباره فقط، والخبر الأول: مات والرفاق، ولم ترفع جثثهم. بعدها عليك أن تقفل باب السيرة بنهاياتها الكثيرة: أن جثة ولدك / زوجك ورفاقه مشّطتها الذئاب والديدان والهوام.

النهاية الخنجر: تخلّى القادة عن فضيلة (إكرام القتيل دفنه)، لكنهم مشّطوا الجثث وأخذوا «القناديل» منها فقط[١]، وتركوا بقية الجثث وبعضها ينبض بعرق الحياة بما تيسّر. نعم جثث أطفالنا الذين لم يتعدّوا الثانية عشرة بعد، بل والثامنة والتاسعة، الجثث المفخخة بالجهاد، وبقتال الدواعش والتكفيريين والعملاء والخونة في عدن وتعز ومأرب وكل مدن اليمن.

في نهاية النهاية

جثث تمييز العِرق الإلهي المقدس ـ «السادة» / «القناديل» / «عِرق الله والرسول» ـ هي فقط التي تسحب وتُكرّم، وتُعطر، وتنثر عليها باقات الريحان والزهور وعطور «جنة النعيم» وتساق في مواكب جنائزية مهيبة، وتدفن في المقابر الكبيرة الكثيرة التي بناها «سيّد الكهف» / «سيد الشهداء» ـ سيان ـ وسط الحضور الكثيف، والتأبين القداسي وتوابعه من زامل الحرب، والزغاريد، وقصائد القرابين لله، وشعار الصرخة[٢]، ثم تتصدر الجنازة نشرة الأخبار. أما جثث ابني ورفاقه «الزنابيل» ممن لا ينتمون إلى العِرق الإلهي المقدس، «مجاهد» بدرجة أسفل سافلين فلا مكان لها في نشرة الأخبار ولا المقايل والتفاريط[٣]!

في الليل سيهمد الجميع ليغُطّوا في سابع نومة، إلّا الأرامل اللواتي تسحقهن النهدات الحارقة، سيمتْن في زهو العمر الصاخب، في ليلة وضحاها يصبحن الأب والأم والصديق والحارس للأولاد وجدران البيت والزمن وحارسة حكاية «الشهيد». فهزيمة امرأة فقيرة طرية العود وحدها تدير أطفال ما بعد الحرب، هموم تكبر ولا تصغر، تظهر ولا تختفي: المصاريف، المدرسة، المستشفى، شقاوة الضجيج المنفلت في غياب الأب، و«ضرب زيد عمرو» وسيرورة الأم الصغيرة الكبيرة اليومية، وحنق وسوسات كل ليلة: «كم أنت وحدك» في هذا الضجيج!

آآآآخ، يااااا ولدي

إنها «العَولة»[٤] شبكة لا تنتهي من الخيوط المتداخلة والمشتبكة، منظومة «نشتي» (نشتهي، أي نريد)، طلبات

---

١ صفة تطلق على النَسَب الهاشمي المقدّس، يقابلها «الزنابيل» وهي صفة تطلق على من هم دونهم من أبناء القبائل والرعيّة، وعامّة السكان.

٢ الصرخة المعروفة للحوثيين: «الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام».

٣ المقايل تجمعات الرجال لتناول القات. التفاريط تجمعات النساء لتناول القات.

الحياة اليومية في ظل الفقر، والجوع والتشرد، واليتم والفقدان.. وو.. إلخ. وأخطرها أن لا شربة ماء في العاصمة والمدن، وفي الصدارة أكبرها، تعز.

آآآآآآآآآخ، «كان ظهرنا والسند»، تميمة اليوم والغد، حبيب القلب الذي انخلع في صفقة وصفعة موت، باستهلال: «أيها الشعب العظيم». داعي الجهاد هلّ والخيارات الإستراتيجية أينعت، التعبئة الجهادية واجب ديني ووطني، فصعّدوا زامل الحرب والقتال:

«حيّوا بداعي الموت للمشرق والمغرب»[٥]. لكنه العيد يابن بدر الدين. أخّر الجهاد قليلاً، نونس بسراج البيت وضوئه قليلاً، فالمعركة طويلة. قليلاً يا أبا جبريل، قليلاً يا حفيد الأنبياء.

يردّ ظل السيد:

أعيادنا جبهاتنا[٦].

مع كل فاتحة صبح وانسدال قمر، يخفت دلع الأمهات والزوجات. ما بعد الحرب، لن نسمع: «يا نظر عيوني، ويا كش من عيني، ويجعل يومي قبل يومك، وقوّى عظامك، فديتك، صح بدنك»، إلخ. من هدهدات الحصن الحصين لتعويذات الأم لرجل البيت والأسرة، وأبو العيال، وأخ العيال، وسراج البيت و«الحوية»[٧]: «ذهب الأحبة ولن يرجعوا أبداً».

ستصحو الأرامل والأمهات الثكالى ذات يوم بعد أن يبرد الرأس ويخف من لوثة التثوير الإلهي الأقدس، وتذهب عنه الحمى وحمأة «بالعشر ما نبالي خُلقنا للجهاد» و«حيّ بداعي الموت»، و«مانبالي مانبالي»، و«اجعلوها حربا كبرى عالمية»، «نحنا قرابين السيد. إحنا» وزغردي يا أم الشهيد، ويا زوجة الشهيد، وابن الشهيد، وموروث: «القتل لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة»[٨]. سيبرد الرأس، لكن سرعان ما ستتصاعد الحمى حد الانفجار المريع، إنفجارات الفَقد وما بعده، الوحدة القاتلة، والتحام الجدران، وظلمات دهاليز البيت، استراق لحظة عشق عند إخماد هجيج الأطفال: أرملة الشهيد لم تبلغ بعد الثامنة عشرة، وما أكثرهن!!

و«أم الشهيد» أيضاً وما أكثرهن. الأم اليمنية، كم تعطيها عمراً في يمنها؟ خمسة عشر. خمسة وعشرين. زودها، سبعة وعشرين؟ لا تتعب راسك في الحساب! كيف؟ فبنات اليمن يتزوجن في سن الثامنة ويترملن في الخامسة عشرة، وأحياناً قبل، ويمتْن دون الثلاثين. استبخاس العمر وكسر زهو الحياة. البضاعة الرابحة والرائجة في «اليمن السعيد»!

هزيمة امرأة. تذبل أوراقها وأزهارها الغضّة قبل أن تفتش في نيسان. سيغلق باب الدار يا تقيّة، وتسدل ستائر النوافذ. وتصطك بصقيع الوحشة الطويلة المستذئبة، فمن يطرق باب مخدعك المتخشب، والمتحجر؟ لا، مؤنس يا تقية. لا من يلملم الحنين، ويجفف الدمعة ويمسح الأنين. الحاضر الآن فقط: سيّد الوحشة القاتلة، الفالقة واللاعنة لكل جهاد، ولكل قداسة، ولكل إمامة تبتلع الأحبة. تاركة وحشة الأسئلة وما من مجيب في اليمن سوى الفقر، الجوع، التشرد، العطش، الظلام، الجهل، اللاأمان، وناسل الأسئلة التي ستلاحقك ألف سنة آتية من سرمدية الحزن والفجيعة: «على أيش قُتل ولدي؟على أيش قتل زوجي، وأخي، والأحبة هنا وهناك؟ على أيش، وللِما، ولمن، وكيف، وبعده»، إلخ.

إن الحرب، يا مسعّري الحروب بالمفرق والجملة، وكل أوزان ومقاييس الإبادة: لا صوت يعلو فوق صوت «سيد الجهاد»، ومعركة «لن تهزم أمة قائدها علي بن أبي طالب»، و«الحق أبلج والباطل لجلج»، وغيرها من هذيانات الدم.

كم من المهدّئات والمسكّنات، والمنشّطات، وتمائم الأسياد، والبخور، ومسكّنات «المؤمن مستمحن»، وزوامل «ما نبالي»، وتهاني الشهادة، وصورة الشهيد / القربان تعتلي المَفْرج وغرفة النوم، وسرد حكاية «سراج البيت» وكان، وكان، وكان، في زحمة المعزّيات، عفواً المهنئات في فلكلور «السيد»؟ كم من تعاويذ «ترميم الفجيعة» تحتجْنه أيتها الأرامل، وما أكثركن في يمن ٢٠١٥؟ كم وكم وكم؟

كهف السيد، ورأس السيد، وموروث السيد الأقدس، وخياراته الإستراتيجية لشعبي العظيم، لن يجيب، لا اليوم، ولا الغد ولا بعد ألف عام، يا تقية!

بعد الحمى ستأتي المبالاة وتتفجر، بعد إخراجكن للأحبة وفلذات أكبادكن، في حمأة «ما نبالي» في سبيل حمى الجهاد لقتال **٢٧** مليون نسمة من الدواعش والتكفيريين والخونة واللاثوار بعد النصر المؤزر بالغنائم الذي حشدتن له العيال أيتها الأمهات والزوجات، إكراماً لسيد العبث. وبعد الهرولة ليل نهار لخبز الكعك المبطّن بمهركن المصرور لليوم الأسود من الخواتم

٤ قُوت العيال والتربية والتنشئة.

٥ من زوامل أنصار الله الجهادية. والزامل: نشيد حربي.

٦ «أعيادنا جبهاتنا»، شعار رفعه الحوثيون للمجاهدين في الأعياد الدينية ــ الفطر والأضحى، بمعنى :المجاهد لا عيد له، عيده في المعركة .

٧ الحوية: حوش البيت.

٨ شعار الشهداء من أنصار الله.



والقلادات والجنيهات الذهبية. وبعد أن كرعتن بما تبقى من زاد الأولاد في بطون معارك السيد التي لا تنتهي، ومع كل هزيمة يحولها إلى انتصارات تحصد الأكثر والأينع من «سراج البيت وضوئه»، وما أكثر القرابين من الأسنان اللَبنية في حضور «شهداء السيد»، إنه السيد «إن تكلم بكلمة يا يمضيها»[٩]!

بعد ذلك كله:

انفجر عرق المبالاة يصفعكن، ويصفعنا معكن، ويصيب الوطن بمقتل، عندما نرى جميعنا مئات الآلآف من الأيتام، ومثلهم الأرامل، ومثلهم الأمهات الثكالى. ومثلهم آلة الحرب تجرف البيت والمأوى والمدرسة، والمشفى، والطريق، والحديقة وكم، وكم! فأي إكسير، يا تقية، سيرمّم الفؤاد المنكسر، والضلع الأعوج، والمستقبل بلا مستقبل؟ وأي حكايات ستحكى وبأي أوصاف وكنايات وخيالات وما بعد اللامعقول؟ أرامل الضلع الأعوج! كربلائيات يمن ٢٠١٥! كربلائيات ما دون الثامنة عشرة!

الفجيعة، والضمير المكلوم، يا تقية، عنوان الندم الآتي، بعد انقشاع حمى هذيانات تحرير جيزان ونجران، والركن اليماني والقدس، وإسقاط البيت الأبيض، (موت إسرائيل وأميركا ولعنهما) وتحرير عدن، وتعز والضالع ومأرب والبيضاء، وتهامة، إلخ.

نعم، عندما تنتهي جائحة الحمى /حمم الحوثية، سيتجلى حائط مبكى، لدهور آتية ومتواليات: «حسبك الحرب: الرجال» و«نحنا والخراب ليس فقط جيران، بل الخراب الساكن أروحنا والغرفة والسرير، وما تبقى من ذاكرة حلم طريّ».

سلامتكنّ، يا أرامل اليمن، يا أمّهات اليمن، يا أولاد اليمن. الصبر هو البضاعة الرائجة في زمن الحرب، وإن كان ممنوعاً من الصرف مهما تكاثرت أرصدته كمفاتيح الجنّة التي تصرفها ميليشيات «السيد» للمجاهدين، ولا مفاتيح سوى فناجين القهوة المرة.

رحم الله ضحايا اليمن كافّة، فلا شهيد في حروب الأخوة. لا شهيد في الحروب الأهليّة. كلّنا ضحايا. كلّنا ضحايا.

ودعتكن حافظ الودائع، وما بين الحكاية والهذيان خيط اسمه تقيّة.

وإلا فكيف تشوفوووا؟

٩ من الزوامل الحوثية.



الطائف اللبناني
والمبادرة الخليجية في اليمن

فارع المسلمي

باحث وناشط، اليمن.

في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ٢٠١٥ كانت قد مضت أربع سنوات على توقيع المبادرة الخليجية التي قدّمتها دول مجلس التعاون الخليجي لحل الأزمة اليمنية التي بدأت في العام ٢٠١١، إذ كان اليمن حينها يشهد تفاعلات انتفاضة شبابية ضمن ما عرف بثورات الربيع العربي، حين خرج آلاف الشباب للاعتصام في ساحات التغيير للمطالبة برحيل الرئيس السابق علي عبدالله صالح. تولّى قيادة زمام تلك الانتفاضة حلفاء صالح السابقون من الإخوان المسلمين والزعامات القبلية والعسكرية، مع مشاركة أقل لحلفائه الحاليين من جماعة الحوثيين، أو ما بات يعرف الآن بجماعة أنصار الله الذين خاض ضدهم ست حروب ما بين الأعوام ٢٠٠٤ و ٢٠١٠ في محافظة صعدة معقلهم الرئيسي، قبل أن يتحولوا نتيجة للمبادرة الخليجية إلى أحد أهم الأطراف الفاعلة على الأرض في الوقت الراهن. حينها حوّلت التدخّلات الإقليمية التي تبلورت في ما بات معروفاً بـ«المبادرة الخليجية» انتفاضة الشباب ضد نظام صالح إلى صراع أطراف سياسية، فتصدرت أحزاب اللقاء المشترك وشركاؤها (المجلس الوطني) تمثيل الطرف المناهض للنظام، يقابلهم على الطرف الآخر حزب المؤتمر الشعبي العام الحاكم وحلفاؤه (التحالف الوطني). هكذا تم تكريس مصطلح الأزمة لوصف أحداث الربيع اليمني كما نصت المبادرة الخليجية التي رعتها دول الخليج (باستثناء قطر) وبزعامة واضحة (ولو شرفية) للرياض مع الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، في بنودها التوفيقية بين طرفي الأزمة.

شكلت المبادرة الخليجية اختراقاً منفرداً في اليمن دون باقي دول الربيع العربي، إلا أن اتفاق الطائف (١٩٨٩) الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية يحمل بعضاً من ملامح المبادرة باعتبارها من نماذج التدخل الإقليمي لحل الأزمات الداخلية في الدول العربية. ومن أوجه الشبه بين الاتفاقيتين الراعي السعودي المشترك مع فوارق الزمن والوضعين المحلي والإقليمي لكل حالة، واختلاف أهداف الرياض ومدى تأثيرها وقدرتها على الضغط على أطراف الصراع، وتمرير حلولها في وسط إقليمي ودولي تغير كثيراً منذ توقيع الاتفاق إلى توقيع المبادرة، وحتى ما بعد التوقيع كما سيتضح لاحقاً. في الحالتين اللبنانية واليمنية تظهر إيران كحليف لأحد الأطراف، إلى جانب اتسام الصراع بصبغة طائفية كانت بارزة في لبنان وشكلت سبباً من أسباب الحرب، بينما تتصاعد في اليمن كإحدى نتائج الصراع وليس كسبب له. تناقش هذه المادة المنطلقات تلك مع ملامح النتائج التي تحققت في الحالتين ومدى فاعليتها في إنهاء أي من الأزمتين محل النقاش.

المضمون والتداعيات

إنّ اتفاق الطائف هو وثيقة إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأت عام ١٩٧٥، وقد صاغه ووقّعه أعضاء البرلمان اللبناني برعاية سعودية وتحت مظلة جامعة الدول العربية التي انبثق عنها ما عُرف بـالترويكا العربية، لتسهيل عملية توصل اللبنانيين إلى اتفاق نهائي لوقف الحرب واستعادة مؤسسات الدولة لدورها الطبيعي. وقد تم توقيع الاتفاق في السعودية في عام ١٩٨٩، واحتوى بنوداً شبه دستورية لإعادة توزيع أدوار سلطات الدولة، وتسوية نتائج الحرب بما فيها وضع الجيش السوري في لبنان (البند الوحيد الذي تعلق بإجراءات مستقبلية غير فورية وخضع لتقدير الدولتين اللبنانية والسورية). إنّ استخدام كلمة «اتفاق» ذو دلالة نهائية للتوصل إلى اتفاق كامل ينتظر التطبيق، وهو ما حصل عملياً في الفترة اللاحقة. وقد احتوى مضامين متعلقة مباشرة بالدولة اللبنانية ومؤسساتها

وهيبتها، ولم يتضمن بنوداً معلقة أو غير واضحة تراعي مصالح الأطراف المتصارعة حينها وتمنحها حضوراً يطغى على حضور الدولة والسلطات الدستورية كما حصل في المبادرة الخليجية في اليمن.

المبادرة الخليجية من جهتها، هي مقترح تصالحي توفيقي بين طرفين خضع للتعديل أكثر من مرة على مدار سبعة أشهر (من نيسان/ أبريل إلى تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١) لإرضاء أطراف الصراع. كانت النسخة الأولى من المبادرة مقدمة من الرئيس السابق علي عبدالله صالح ثم جرى تبنّيها من قبل الرعاة الدوليين للأزمة اليمنية وبشكل مباشر من قبل السعودية ودول الخليج العربي (باستثناء قطر التي استبعدت بطلب من صالح لتحالفها العلني مع خصومه). وفيما كان الاتفاق ملزماً في حالة الطائف، فإن المبادرة ظلت غير ملزمة وينقصها التسويق بين الفرقاء وإقناعهم بها.

توضح المؤشرات العامة التي يقدمها كل من الاتفاق والمبادرة فروقاً جوهرية بين المضمونين، وبين خلفيات الوصول إلى النص والمراحل التي مر بها. فقد تم تعديل المبادرة أكثر من مرة وبعد إعلان كل صيغة وليس قبلها، وكما بدأت كمقترح قدمه الرئيس السابق نفسه، فقد أدخلت عليها لمسات الدول الإقليمية كقطر والسعودية، ثم جرى مسح الكثير من تلك اللمسات خصوصاً التي حملت بصمات الدوحة. أما اتفاق الطائف فيكاد يكون قد تدرج في صياغة المضمون حسب ما تم الاتفاق عليه مسبقاً، أي تحويل الاتفاق إلى نص، وليس وضع النص للاتفاق كالمبادرة. ولأن الاتفاق نجم عن حوار وطني لبناني، جاء النص عاكساً حرص المشاركين على تقوية الدولة وضمان دورها، بينما كانت مسودات المبادرة الخليجية تخضع في كل مرة لآراء أطراف الصراع ذاتها دون البحث عن نصوص تتجاوز هذه الأطراف إلى الدولة وما يجب أن تكون عليه.

كانت الرغبة الإقليمية في إنهاء حرب لبنان أكثر وضوحاً بإعادة تسليم الملف لأبنائه، فاحتوى الاتفاق (الطائف) في بابه الأول (المبادئ) بنوداً أساسية تؤكد هوية الدولة وتعزّز دور المؤسسات والتشريعات الوطنية. وكان الهدف الذي سعت إليه الرياض تسجيل حضور إقليمي قوي أكثر من محاولة تكريس دور لها في لبنان، وإيجاد حل للصراع اللبناني. لكن في الوضع اليمني كانت هناك رغبات في إخراج الأطراف المتصارعة من ورطتها أكثر مما بدا رغبة في إخراج اليمن من أزمته. أرادت تحقيق توازن بينهم لا يعطي أي طرف كل مطالبه بشكل يسمح بتفوقه ومنحه قدرة التأثير المنفرد في الساحة. هكذا منحت صالح خروجاً شكلياً مشرفاً من السلطة ضمن لحزبه الحفاظ على نصف مقاعد الحكومة كندّ كامل لأحزاب اللقاء المشترك وحلفائهم الذين خرجوا لإسقاط نظامه. إذاً أتى الجزء الأول من آلية المبادرة ليعبّر عن وجود أزمة ويكرّس الدور الإقليمي فيما يتم الاتفاق عليه بإدراج شكر للدول الراعية كبند أولي. كما تم في البند التالي تأكيد إحلال المبادرة كمرجعية عليا تجمد النصوص الدستورية، أي السعي لتكريس المبادرة كمرجعية عليا للعمل السياسي في اليمن لا يمكن لليمنيين تجاوزها تحت أي مرجعية أخرى حتى لو كانت الدستور النافذ الذي يعدّ اتفاق كهذا مخالفاً لبنوده أصلاً. هكذا بدأت التجاوزات التي همّشت دور مؤسسات الدولة.

في المقابل ظهر اتفاق الطائف أقرب إلى وثيقة دستورية، عززت سلطات الدولة اللبنانية ومبادئها الدستورية. بينما المبادرة الخليجية مثّلت أول انقلاب علني على الدستور ومؤسسات الدولة لتمنح وظائف أساسية للدولة إلى لجان مؤقتة يتم تشكيلها، إذ إنّ الفقرة (ح) من المادة (١٥) تنص على تشكيل لجنة أمنية ومؤتمر للحوار الوطني ولجنة الشؤون العسكرية لتحقيق الأمن والاستقرار. وأتت اختصاصات كهذه للجان المشكّلة على حساب وزارة الدفاع وقيادة الجيش ولم تعكس نوايا إشراك الشارع في معالجة قضايا بهذه الأهمية ولا مؤسسات الدولة. اللجنة العسكرية مثلاً تشكلت من قيادات موالية للطرفين، أي جزء من أدوات الصراع التي يصعب أن تتحول إلى جزء من الحل. وفي الجانب الآخر، تم تأجيل كل القضايا محلّ الخلاف للنظر فيها من قبل مؤتمر حوار وطني يتكون من أعضاء يمثلون أساساً أطراف الصراع، ومكونات أخرى بنسب أقل. لكن القضايا التي ستطرح على المؤتمر لم تترك لأعضائه تحديدها كلياً، وإنما وضعت قوالبها بأسلوب خلق إشكاليات أخرى تحوّلت إلى معضلات كبرى مع نهاية الحوار كشكل الدولة ومضمون الدستور الجديد. إذ لم يكن شكل الدولة قضية أساسية لشباب الساحات وإنما عدالة الدولة، ولم يكن الدستور مشكلتهم أيضاً بقدر ما كانت المشكلة عدم احترام وتطبيق نصوص الدستور النافذ على الأرض.

غموض وازدواجية

لم تكن الفلسفة المفوضة للجان مسؤوليات ومهام أجهزة



ومؤسسات الدولة إجرائية وسلسة أيضاً، بل احتوت نصوصاً مزدوجة وغير واضحة، كتكليف لجنة الشؤون الأمنية والعسكرية بإعادة هيكلة الجيش، ثم إسناد المهمة عينها لمؤتمر الحوار الوطني المنبثق عن المبادرة في مكان آخر. كما نصت المبادرة الخليجية على تنفيذ مؤتمر الحوار الوطني لبحث هيكل الدولة ومناقشة أسس الحكم والأداء الإداري لأجهزة الدولة وبعض القضايا السياسية والاجتماعية. وبذلك تكون المبادرة قد وضعت الخطوط العريضة لإيجاد حل يمني، إلا أنها من جهة أخرى وضعت محددات للعمل على إيجاد حل وفقاً لقضايا ومجالات تناول قد تم تحديدها مسبقاً، وبعضها بعيد كل البعد عن القضايا الخلافية الأساسية التي تشكل موجهات عامة يصبح ما دونها تفاصيل. هكذا كانت أقرب إلى وثيقة تحكيم بين خصمين تحيلهما للمحكمة العرفية منها إلى مبادرة تنقذ بلداً من كارثة وتفتح أمامه فجأة قضايا أنتجها سوء إدارة الدولة سلطة ومعارضة، ثم تضعها على طاولة الأطراف نفسها لمعالجتها.

المبادرة كانت أقرب إلى وثيقة تحكيم بين خصمين تحيلهما للمحكمة العرفية منها إلى مبادرة تنقذ بلدا من كارثة وتفتح أمامه فجأة قضايا أنتجها سوء إدارة الدولة سلطة ومعارضة. ثم تضعها على طاولة الأطراف نفسها لمعالجتها.

لقد انعكست مشكلة عدم تمثيلية الموقعين على المبادرة الخليجية حينما جرت محاولة تطبيقها على الأرض، إذ لم يكن الموقّعون أنفسهم هم أصحاب القرار في الميدان. ولذلك حينما وجدت الرغبة في تنفيذ بنود المبادرة (وهو أمر نادر)، لم يملك الراغبون القدرة على تنفيذها على الأرض.

وتعزيزا لنهج اتفاق الطائف القاضي بتعزيز دور مؤسسات الدولة، أحال الاتفاق مواضيع الخلاف مثلاً للحكومة والبرلمان حتى لو كانت تتعلق بالرئيس ذاته، لكن المبادرة الخليجية أحالت مشاكل البرلمان والحكومة إلى الرئيس كمرجع أعلى «يكون اتخاذ القرارات في مجلس النواب خلال المرحلتين الأولى والثانية بالتوافق، وفي حال تعذر التوصل إلى توافق حول أي موضوع، يقوم رئيس مجلس النواب برفع الأمر إلى نائب الرئيس في المرحلة الأولى وإلى الرئيس في المرحلة الثانية، الذي يفصل في الأمر ويكون ما يقرره ملزماً للطرفين». هكذا كرست المبادرةُ الخليجية الفرديةَ في حين تحدثت عن الشراكة، وكرست المحاصصة في المناصب بتقاسم حقائب الحكومة بين طرفي الصراع في حين نصّت على الكفاءة، وكرست اللجان التي تتعارض وظيفياً مع المؤسسية بينما تحدثت عن تعزيز دور مؤسسات الدولة.

كانت بنود اتفاق الطائف مغلقة ومحددة وذات تفسيرات واضحة غير ملتبسة، حتى تلك النصوص التوجيهية العامة. لكن المبادرة كانت ذات بنود مفتوحة لم تحدد نهايات ونتائج واضحة في حينه، بل متعلقة بما يجمع عليه أطراف الصراع في عملية الحوار. أي أن الحوار في لبنان سبق الاتفاق وحدّد مساراته وتحوّل فوراً إلى نصوص تنفيذية. أما في المبادرة فقد تأجل الحوار وكان مجرد بند /استحقاق واحد للمبادرة وهو الحوار الوطني القابل لكل الاحتمالات والمآلات، وأدى إلى فتح ملفات وقضايا كبيرة دون القدرة على غلقها أو حسمها.

أدى اتفاق الطائف إلى انتخاب رئيس للبنان، ولو شهدت المرحلة اغتيالات متعددة كانعكاس لبقايا نار الصراع تحت رماد الاتفاق، لكن تم تجاوز ذلك بتراكم التجارب ومرور الزمن. أما المبادرة، فأدّت هي الأخرى إلى انتخاب رئيس (أو بشكل أدق مبايعته كونه مرشحاً وحيداً) وتمت تسميته رئيساً توافقياً مسبقاً بغض النظر عن نتائج الانتخابات. ومنحته صلاحيات استثنائية دفعته للتملص من تنفيذ بعض الاستحقاقات الهامة التي نصت عليها المبادرة ذاتها، كتشكيل اللجنة التفسيرية لبنودها في حال الاختلاف. وأدّى ذلك إلى غياب مطلق لأي مرجعية غير فردية وتفسير للمبادرة الخليجية بقراءة أحادية من قبل الرئيس هادي، وبمباركة المبعوث الأممي إلى اليمن جمال بنعمر كلما اضطر لذلك.

نجاحات بسيطة

من ناحية أمنية وعسكرية، منح اتفاق الطائف الجيش اللبناني الصدارة والشرعية مقابل نزع سلاح المليشيات، بينما المبادرة بادرت إلى إعادة هيكلة الجيش اليمني التي تمت جزئياً فقط وشلّت قدرته على التدخل، قبل أن تذهب إلى نزع سلاح الجماعات المسلحة. ومن ثم منحت اللجنة الأمنية والعسكرية صلاحية إعادة هيكلة الجيش الوطني بشكل مستعجل لا يلبّي عملياً متطلبات عملية بهذا الحجم والحساسية، ثم ربطتها بمؤتمر الحوار من جهة أخرى كما تم توضيحه، فأحدث ذلك اختلالات أمنية عميقة

وساهم في حدوث عمليات اغتيالات واسعة كان أفراد الجيش والأمن أبرز ضحاياها.

بعد التمديد لهادي بدأت مرحلة جديدة تمثلت في الحرب القائمة حاليا وتحول السعودية من راعٍ للمبادرة إلى طـــــــــرف مباشر في الحرب ضد بعض الأطراف الموقعـــــــــة.

وبالحديث عن اشتراطات مستقبلية أخرى لتطبيق المبادرة الخليجية، كالعدالة الانتقالية مثلاً، فقد كان يمكن فهم احتواء اتفاق الطائف، وفي وضع كما كان عليه لبنان، أي إشارة للعدالة الانتقالية لكنه لم يفعل. بينما المبادرة نصت على منح أركان النظام السابق الحصانة من المساءلة وفي الوقت نفسه تحدثت عن مبادئ العدالة الانتقالية في مهام مؤتمر الحوار الوطني، فحضنت من يمكن أن يتحمل مسؤولية أحداث المرحلة ودعت إلى التسامح في الوقت ذاته. ثم إنها لم تحدّد فترة زمنية تعالجها تشريعات العدالة الانتقالية المفترضة، بل تركت الباب مفتوحاً ليتحوّل بدوره إلى موضوع خلافي بارز، لأن كل طرف شارك في الحوار أراد أن يبدأ من القضايا التي أثرت عليه أو أوقعت ضرراً به أو بمواليه. إنّ كل هذه الثغرات الجوهرية مؤشر على أن المبادرة كانت مساراً مختلاً متناقضاً كان من الصعب إصلاحه أو أن يؤدي إلى تحقيق سلام طويل المدى حتى وإن تم تطبيقه حرفيا والالتزام بجميع نصوصه وبنوده.

لقد حققت المبادرة نجاحاً على الأرض بعد توقيعها مباشرة، تَمَثّل بإنجاز بنود تكليف الرئيس صالح صلاحياته الرئاسية في ما يتعلق بتنفيذ بنود المبادرة لنائبه هادي حينها، ثم بقيام البرلمان بمنح صالح الحصانة المتفق عليها، وتشكيل حكومة الوفاق الوطني مناصفة بين المجلس الوطني (تكتل أحزاب اللقاء المشترك وشركائه) والتحالف الوطني (حزب المؤتمر وحلفائه). واستمر تطبيق بنود المبادرة بتشكيل لجنة الشؤون الأمنية والعسكرية وإجراء الانتخابات الرئاسية بمرشح واحد (في ٢١ شباط/ فبراير ٢٠١٢). لكن لم يتم إعداد القوى السياسية مسبقاً للتعامل مع الاستحقاقات المترتبة على المبادرة، بل إن بعض هذه القوى استخدم السلاح ضد شركائه على طاولة الحوار، وأثناء انعقاد جلسات الحوار كما فعلت جماعة الحوثيين (أنصار الله) ضد السلفيين في دماج. وبدلاً من انتهاء المرحلة الانتقالية المزمنة في المبادرة بحلول شباط/ فبراير ٢٠١٤، تم التمديد للرئيس هادي لمدة عام آخر. وعندما انتهت فترة التمديد (شباط/ فبراير ٢٠١٥)، كان هادي قد قضى شهراً كاملًا تحت الإقامة الجبرية المفروضة من قبل الحوثيين والرئيس السابق، وكانت الجماعة قد استولت على العاصمة صنعاء بعد انتهاء الحوار بأشهر (أيلول/ سبتمبر ٢٠١٤). بدأت حينها مرحلة جديدة كليا تمثلت في الحرب القائمة حالياً وتحوّل السعودية من طرف راعٍ للمبادرة إلى طرف مباشر في الحرب ضد بعض الأطراف الموقّعة على المبادرة.

لقد أنهى اتفاق الطائف حرباً أهلية لبنانية استمرت لعقد ونصف العقد من الزمن، بينما أسست المبادرة لحرب يمنية لم تتضح ملامحها المستقبلية بعد. لم تضع المبادرة الخليجية أية ضوابط أو عقوبات ضد من يعرقل تنفيذها ولجأت بشكل استدراكي إلى مجلس الأمن لوضع عقوبات غير فعالة ضد المعرقلين ساعدت على تبلور تحالفات جديدة غيّرت ميزان القوة الذي كان قائماً عند توقيع المبادرة. لقد أنهى اتفاق الطائف مرحلة الاحتراب الداخلي عملياً، وما دون ذلك أمور تفصيلية، بينما ساعدت المبادرة في مضمونها وتوقيتها على نشوب حرب أهلية مريرة، وتدخل عسكري أجنبي في اليمن، وما دون ذلك أمور تفصيلية أيضاً.

لبنان ١٩٨٩

كان لبنان في العام ١٩٨٩ يعاني تبعات خمسة عشر عاماً من الحرب الأهلية، ويعيش فراغاً دستورياً من دون رئيس شرعي للجمهورية. وكان الصراع فيه قد وصل حدّ منع ما تبقى من المؤسسات الدستورية من ممارسة مهامها كمنع البرلمان من الاجتماع لانتخاب رئيس للبلاد بضغط من قائد الجيش آنذاك ميشال عون. لا يمكن مقارنة ذلك بالوضع اليمني في ٢٠١١ الذي كان في البداية أقرب إلى وضع ثوري تحوّل إلى صراع مباشر على السلطة، مع وجود رئيس منتخب ومؤسسات عامة تمارس وظيفتها ولو بدرجة من السوء دفعت الشارع إلى الخروج مطالباً بالتغيير. كان حجم الصراع في اليمن لا يزال محدوداً ويمكن لملمته بخسائر أقل، إذ لم يكن قد وصل بعد إلى درجة الصراع المسلح الواضح المعالم مع اشتباكات محدودة المكان والأثر.

كانت كل المكوّنات اللبنانية قد أنهكت في الحرب الأهلية وأصبحت أكثر استعداداً للوصول إلى وضع جديد يوقف نهر الدماء. في المقابل، كانت الأطراف اليمنية



في العام ٢٠١١ لا تزال متأهبة ومستنفرة لخوض صراع مسلّح بدوافع محلية وارتباطات إقليمية. كما أنّ الغطاء العربي الرسمي لاتفاق الطائف حَدّ من تدخلات دول الإقليم المتصارعة، خصوصاً سورية والعراق. أما في اليمن، فأحداث الربيع العربي (٢٠١١) لم تؤدّ إلى تبلور تحالفات واضحة لكل دولة على حدة، وكان يتم تفسير الأمر حينها بمعطيات محلية أكثر من كونها إقليمية أو دولية، باستثناء تدخّل الناتو في ليبيا، وبالتالي كان كل طرف يمني لا يزال قادراً على التلويح بالقوة ضد الآخر لكن في إطار الحصول على مكاسب تفاوضية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأطراف اللبنانية تنطلق غالباً من حسابات طائفية ومذهبية تتماهى مع التقسيم الجغرافي في كثير من المناطق، كان التدخل الإقليمي متقلباً بين فترة وأخرى في التحالف مع هذا الطرف أو ذاك، حتى في ما يتعلق بسورية وحركة أمل وحزب الله لاحقاً. في المقابل، تشكلت هيكلية الأطراف اليمنية على شكل تحالفات سياسية أبرز مكوناتها من الأحزاب الرئيسية الفاعلة وذات الانتشار في كل جغرافيا اليمن. أكثر من ذلك، تغلّبت هذه التحالفات على ما يمكن توصيفه في إطار طائفي بدخول الحوثيين في صف القوى الثورية التي تربطه بها علاقة خصومة (الإخوان واللواء محسن وآل الأحمر) ضد صالح، رغم رفضهم للمبادرة وعدم اعتبارهم طرفاً فيها. فكان توقيع المبادرة سبباً لمغادرتهم تحالف القوى الثورية الموقعة على المبادرة كطرف غير متجانس معهم اكتفوا من تحالفهم معه بتحقيق الهدف المؤقت (إسقاط نظام صالح).

أدّت طبيعة تفاعلات الميدان في لبنان إلى التوجه نحو القوة المنتخبة شعبياً وهي البرلمان، وليس إلى أطراف الصراع المنهكة والمستفزة والمثقلة بالثأر والدماء عند البحث عن ممثلين للشعب اللبناني للاتفاق على مخرج من مستنقع الحرب. لكن المبادرة الخليجية في اليمن تعاملت مع طرفي النزاع اللذين ليس لهما صفة تمثيلية للشعب اليمني، وكان دورهما التوقيع على مبادرة تمت صياغتها من قبل غيرهم، وهدفها الأساسي إرضاء المتصارعين بقدر متوازن من المكاسب لكل منهما مثل تقاسم مقاعد الحكومة (حكومة الوفاق).

لبنان من جهته، كان يعاني من نتائج ديمقراطية الطوائف غير المتوازنة، لكنه كان يملك مرجعية تشريعية عمرها ثلاثة عقود، ولديه تعدّد وتنوّع ديني وثقافي وإثني وسقف حريات أعلى، ومجموعات فلسطينية أصبحت مؤثرة في موازين العمل السياسي اللبناني حتى على مستوى السياسة الخارجية. أما اليمن فكان يعاني من صراع قوى النفوذ التي تتنازع الدولة ليس على مستوى السلطة بل على مستوى تعطيل سلطات الدولة لصالح هيمنة قوى النفوذ من السياسيين والعسكر والقوى القبلية والدينية التي لم تمثل تعدداً وتنوعاً بل تشابهاً في الأدوات وآليات العمل وطرق التفكير والنظرة للدولة والقانون. وأدّى ضيق المصالح واحتكار أحد الأطراف لها في إطار منظومة الحكم الحقيقية، المتمثلة في نخبة قبيلة حاشد المهيمنة على القرار السياسي، إلى توزيع المصالح على زبائنها وحلفائها وليس في إطار منظومة الحكم الدستورية. هكذا وصلت هذه النخبة المهيمنة إلى مرحلة صراع المصالح ليس بشكل مباشر بين رجالها بل بين أدواتها السياسية الممثلة في الأحزاب السياسية التي وقّعت المبادرة الخليجية. وكانت أداة جناح قبيلة حاشد المنشقّ عن صالح تتمثل في المجلس الوطني (أحزاب اللقاء المشترك وشركائهم من القوى القبلية ذات النفوذ القوي كاللواء علي محسن ذراع صالح الأقوى لعقود)، بينما كانت أداة صالح ونجله أحمد ومن تبقى حولهما تتمثل في التحالف الوطني (حزب المؤتمر الشعبي العام وحلفائه من الأحزاب الصغيرة التي تعد عملياً صنيعة المؤتمر نفسه).

وهنا يظهر الفرق الجوهري بين صنّاع الأزمات وصنّاع الحلول في بيئة يمكن ظاهرياً وصفها بالديمقراطية قصيرة التجربة، وذات التجربة المختلّة أيضاً، لكنها في العمق والممارسة بيئة شمولية على مستوى القرار. بيئة فيها برلمان محدود القدرة على التغيير كونه يتشكل من أغلبية ساحقة تابعة للحزب الحاكم الموالي لشخص الرئيس أو رجاله، وقد انعكس ذلك بانشقاق قرابة ثلاثين عضواً برلمانياً من حزب المؤتمر عن صالح، وتحالفهم مع أبرز رجاله المنشقين عنه (اللواء علي محسن الأحمر) الذي أعلن نفسه حامياً للثورة الشبابية.

من جهته، فإنّ لبنان أكثر تنوعاً فكرياً وطائفياً من اليمن، وذلك موجود في تشريعات البلد منذ عقود بينما لا وجود للطوائف الدينية في أي تشريع قانوني يمني، وربما كان التعايش بين مذهبين دينيين غير متعصبين (الزيدية والشافعية) تجربة فريدة فيه. واليمن أوسع جغرافياً بحيث يمكن أن تساعد الجغرافيا على تخفيف التراكم القائم على الدين أو المذهب، ولا يمكن وضع إطار جغرافي حاسم للمذهبين الدينيين في اليمن. وبينما أولوية لبنان ربما كانت





توحيد الهوية أو معالجة الاختلاف والتنوع الفكري/الطائفي كانت الأولوية اليمنية في العام ٢٠١١ هي معالجة الشرخ الاجتماعي بين أبناء الشمال والجنوب الذي غذّته الصراعات السياسية لعقود (تحوّل الوضع في ٢٠١٤ - ٢٠١٥ إلى إقحام اليمن في حرب طائفية). لبنان أيضاً بلد مواجهة جغرافية مباشرة مع إسرائيل (إذا كان هذا المعيار لم يزل قابلا للتعبير ولم ينته أثره العملي بعد) ومستوى التعليم فيه أعلى من اليمن، وكذلك معدل دخل الفرد فيه، فيما اليمن بلد فقير يتحكم بممر مائي دولي هام ويجاور أهم مصدّري النفط في العالم، وتتواجد على أرضه واحدة من أهم المنظمات الإرهابية في العالم (تنظيم القاعدة في جزيرة العرب) ويدفع الفقر بأبنائه للانخراط في حروب عبثية مستمرة داخلية وخارجية.

في الوقت الذي تم فيه جلب السلاح في حالة لبنان لاستخدامه في الحرب، أشعلت الحرب في اليمن لاستخدام السلاح الموجود أحيانا بنسبة أكثر من الغذاء. وقد تم جلب المزيد من السلاح بعد توقيع المبادرة.

كانت أطراف الصراع تتكون من جناحين حليفين لها لعقود حيث إن الغطاء الحزبي لكل طرف لم يعكس وجوه أطراف الصراع الحقيقية. وإنما عبر عنها بطريقة أكثر قابلية للتسويق والتمثيل السياسي.

يمكن تلخيص المشهد العام اللبناني حينها بالتطلع الشعبي لإنهاء الحرب ومآسيها، ولم يكن ثمن ذلك قضية تعيق تحقيق الهدف إلا بنسبة ضئيلة. أما المشهد اليمني فيمكن تلخيصه بالتطلع الشعبي للتغيير في منظومة الحكم كأشخاص وممارسات وبأقل قدر من الخسائر، فتحققت تطلعات الشعب اللبناني عبر اتفاق الطائف، بينما انحدرت تطلعات اليمنيين في العام ٢٠١١ لتتحول إلى تطلعات اللبنانيين في العام ١٩٨٩، أي إنهاء الحرب التي نشبت بعد المبادرة الخليجية وليس قبلها.

السعودية بين الاتفاق والمبادرة

كان الهدف الذي سعت إليه الرياض تسجيل حضور إقليمي قوي أكثر من محاولة تكريس دور لها في لبنان، وانطلقت من مقررات اجتماع القمة العربية ولجنة الترويكا المكلفة من القمة بمتابعة مساعي إيجاد الحل للصراع اللبناني المرير بعد عقد ونصف العقد على بدئه. أما في اليمن فكانت الرياض تسعى إلى إعادة توجيه حركة التغيير اليمني إلى مسارات واضحة تضمن بها عدم تسليم اليمن إلى أيد قد لا تستطيع التعامل الآمن معه مستقبلاً نتيجة تفاعلات انتفاضة الربيع اليمني، فضلاً عن عدم رغبتها بحدوث أي تغيير ينجم عن فعل ثوري مباشر على حدودها الجنوبية.

وفي الوقت ذاته كانت أطراف الصراع تتكون من جناحين حليفين لها لعقود (صالح ونجله وأنصارهم من جهة، والإخوان وشيوخ حاشد والجنرال علي محسن الأحمر وأنصارهم من جهة أخرى) حيث إن الغطاء الحزبي لكل طرف لم يعكس وجوه أطراف الصراع الحقيقية، وإنما عبّر عنها بطريقة أكثر قابلية للتسويق والتمثيل السياسي. كما أنّ الوضع في اليمن يؤثر مباشرة على الوضع في السعودية، فالخط الحدودي بين البلدين يمتدّ على حوالي ٤١٦ كلم ويمثل بوابة رئيسية للتهريب إلى المملكة. كذلك، فإنّ وجود حليف قوي لإيران تمثل في جماعة الحوثيين (أنصار الله) الذين سبق أن خاضت ضدهم الرياض حرباً مباشرة في العام ٢٠٠٩، شكّل دافعاً جوهرياً لتدخّلها سواء عبر المبادرة أو لاحقاً بقيادتها لقوات تحالف عربي عسكري مستمر في تدخله الجوي والبري منذ ٢٦ آذار/ مارس ٢٠١٥.

أدّى استمرار حكم الملك فهد لفترة طويلة بعد توقيع اتفاق الطائف إلى استقرار واستمرار نمط العلاقة بين بيروت والرياض. وكان للرياض طرف واضح الولاء لها تمثل في ما يسمى حالياً بتيار المستقبل، وكانت لم تزل مهيمنة إقليمياً بعد إنهاك كلّ من بغداد وطهران في حرب الثماني سنوات وقبل أن تنشب حرب الخليج الثانية. أما ظرف المبادرة فقد شهد تغييرات في الرياض سواء على مستوى تنظيم انتقال الحكم داخل أسرة آل سعود وتحوّل توجهاته بين ملك وآخر، أو في ما يتعلق بشأن اليمن، إذ رحل كل من الأمير سلطان والأمير نايف ابنَي عبدالعزيز اللذين أثّر رحيلهما بشكل كبير على علاقة الرياض بصنعاء كون الأول ظل مسؤولاً عن الملف اليمني منذ ستينيات القرن الماضي، ثم انتقل لأخيه نايف ذي الخبرة الأقل في الشأن اليمني وتحالفاته. وبعد رحيلهما بدأت الرياض بمراجعة طبيعة تحالفاتها يمنياً من جديد، بعد أن وجدت نفسها تفقد حلفاءها الأقوياء الواحد تلو الآخر، إذ إنّ صالح لم يعد ممسكاً بزمام السلطة، ومحسن وآل الأحمر والإخوان أصبحوا أقرب إلى الدوحة، ومجرد

تحولهما إلى طرفين أربك الرياض كثيراً بعد أن مثّلا معاً حليفها الأكثر سطوة ونفوذاً في اليمن.

لقد تحول نجاح المبادرة من هدف للرياض إلى مجرد صفحة تم طيها وتجاوزها نحو إعادة رسم خارطة اليمن السياسية وإعادة رسم القوى المؤثرة على الأرض فيها بما يخدم مصالح الرياض أو على الأقل بما يضمن لها عدم تحولها إلى أداة ضدها في المستقبل

في المقابل، شهدت جماعة الحوثيين، التي تعتبرها الرياض ذراعاً محلية لخصمها التقليدي إيران، نمواً وتأثيراً متسارعين بعد التوقيع على المبادرة الذي رعاه الملك عبدالله شخصياً في الرياض في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ٢٠١١. ورغم تدخلات الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي بين الحين والآخر حتى انطلاق مؤتمر الحوار (آذار/ مارس ٢٠١٣) حين بدأ حضوره يخفّ تدريجياً لصالح المبعوث الأممي جمال بنعمر، وتسمية مبعوث خاص لدول الخليج إلى اليمن، وفتح مكتب تمثيلي بصنعاء، فقد وجدت الرياض نفسها أخيراً مدفوعة إلى العمل على إنهاء دور بنعمر الذي لم يساعد على ترتيب الأوضاع اليمنية كما أملت، وهو ما تم بشكل هادئ بعد تدخلها العسكري عبر «عاصفة الحزم» حين قدّم الرجل استقالته من عمله كمبعوث خاص للأمين العام للأمم المتحدة في اليمن، بعد أن حرص على تمديد مهمته أكثر من مرة. واتضح أمر خلافه مع الرياض في نقطتين أولاهما إعلانه (قبل يوم من بدء عاصفة الحزم) نقل الحوار اليمني إلى الدوحة بدلاً من الرياض، والأخرى في إحاطته الأخيرة لمجلس الأمن (في ٢٥ نيسان/ أبريل ٢٠١٥) حين اتهم السعودية بعرقلة اتفاق سياسي وشيك بين الأطراف اليمنية بإعلانها عاصفة الحزم.

إن علاقة لبنان بالسعودية مهمّة باعتباره باباً خلفياً لدمشق ولمنحه الفرصة لكبح جماح هيمنة حزب الله على الحياة السياسية اللبنانية كونه حليفاً لإيران وخصماً مذهبياً في الوقت ذاته. في اليمن حصل اختراق إيراني قوي لخاصرة السعودية الجنوبية بتحالف طهران مع جماعة الحوثيين (أنصار الله) ثم تلقائياً كسر مسار علاقتها بالرئيس السابق الذي اختار التحالف مع خصومها (الحوثيين) على تنفيذ مطالبها التحالفية الجديدة معه.

في كل الأحوال، فإن الرياض ترى أن معركتها الحالية في اليمن (بعد تحوّلها من راع إلى طرف في الصراع) هي معركة مع طهران التي انتصرت للتو بتوقيع اتفاقها النووي مع القوى الكبرى، ما رأت فيه السعودية حسماً من رصيد نفوذها المستقبلي على مستوى المنطقة والعالم ويجب الحيلولة دون وقوع مخاطره كاملة كما تسعى طهران لتحقيقه.

لقد تحوّل نجاح المبادرة الخليجية من هدف للرياض إلى مجرّد صفحة تم طيّها وتجاوزها، نحو هدف جديد وهو إعادة رسم خارطة اليمن السياسية وإعادة رسم القوى المؤثرة على الأرض فيها بما يخدم مصالح الرياض أو على الأقل بما يضمن لها عدم تحولها إلى أداة ضدها في المستقبل. وبعد كل الخسائر والجهود الدولية التي بذلتها في هذا الإطار، يمكن القول إن التراجع عن هذه الأهداف أمر غير وارد البتة، ما لم تطرأ تغيرات حادة في الإقليم ابتداء من سورية وانتهاء بعلاقة الرياض بواشنطن وموسكو وعلاقة الأخيرتين بعضهما ببعض في ما يخص المنطقة.

الوضع الإقليمي من ١٩٨٩ إلى ٢٠١١

كان الصراع اللبناني - اللبناني (أو كامتداد لأطراف إقليمية أخرى في جزء منه على الأقل) بؤرة النزاع الوحيدة في منطقة مستقرة نسبياً، وإن تخللتها حروب أخرى فهي بين دول وليست على مستوى الدولة الواحدة كحرب العراق وإيران، أو ليبيا وتشاد، أو غزو العراق للكويت الذي تزامن مع نهاية الحرب اللبنانية وعجّل بتلك النهاية ربما. بينما الوضع اليمني منذ العام ٢٠١١ جزء من وضع إقليمي مضطرب وتشهد فيه دول عدة صراعات داخلية دامية وغير واضحة الملامح، حيث كل حرب داخلية في دولة ما تتشابه مواقف وتحالفات أطرافها المحلية مع الأخرى وسياق تحالفها الإقليمي تحديدا، سواء في سورية أو ليبيا أو اليمن، وذلك بعد تحويل الاحتجاجات السلمية ضد أنظمة هذه الدول إلى صراعات مسلحة بتدخل إقليمي دولي، ربما لولا حدوثه لاستمر الطابع السلمي للمطالب الشعبية حتى النهاية. أي أن بصمات الانقسام الإقليمي واضحة في اليمن ٢٠١١ أكثر مما كانت عليه في لبنان ١٩٨٩، والوضع ارتبط بخيوط الصراع الإقليمي وامتدّ منه، ولم يكن شأناً محلياً خالصاً على الأقل كما كانت بداياته أو تطلعاته الشعبية غير المؤطرة حزبياً.

تم توقيع اتفاق الطائف مع نهاية التوازن بين القطبين العالميين (الاتحاد السوفياتي وأميركا)، وقبل بدء مفاوضات



السلام العربي - الإسرائيلي، أي في ظل ثقافة المقاومة ولو لم تتجاوز كونها خطاباً سياسياً. في المقابل، وقعت المبادرة الخليجية في ذروة حكم العالم من قبل القطب الواحد الأميركي، وفي ظل تقارب عربي – إسرائيلي علني وسري تجاوز في بعض الأحيان التنسيق العربي – العربي. يؤثر ذلك في المشهد المحلي وتنفيذ أي اتفاق بشأنه، فرغم كل ما يقال عن تحالف روسيا مع إيران والحوثيين في اليمن، لم تستعمل روسيا حق النقض/ الفيتو ضد قرار مجلس الأمن الرقم ٢٢١٦ أو ما قبله رغم نصهما على عقوبات بحق حلفائها اليمنيين.

من جهة ثانية، كانت جامعة الدول العربية أكثر فاعلية في العام ١٩٨٩، فتبنّت قمة خاصة للوضع اللبناني انبثقت منها اللجنة الثلاثية (الترويكا العربية) التي سهّلت عمل البرلمانيين اللبنانيين في الطائف للخروج بذلك الاتفاق. أما في ٢٠١١ فكانت الجامعة على الهامش والوضع العربي في أسوأ أحواله وأنظمة بعض أعضائها تواجه أزمات وانتفاضات عميقة وقوية تجعل ما يجري في دول أخرى أمورا جانبية. وفي قمّتها التي عقدت بشأن اليمن نهاية آذار/ مارس الماضي، باركت الجامعة فقط العملية العسكرية التي تقودها السعودية (عاصفة الحزم) بعد يومين من بدء العملية.

كانت جامعة الدول العربية أكثر فاعلية في العام ١٩٨٩. فتبنت قمـــــــــــــة خاصة للوضع اللبناني أما في ٢٠١١ فكانت الجامعـــــــــــــة على الهامش والوضع العربي في أسوأ أحواله وأنظمة بعض أعضائها تواجه أزمات.

لم يكن هناك انقسام عربي واضح على الأرض في العام ١٩٨٩ إلا في ما يخص صراع بغداد وطهران الذي جعل من الرياض تقف على ضفة ودمشق على الأخرى مثلاً، وانعكس ذلك على الوضع اللبناني. إلا أن لبنان نجا من لعبة الصراعات الإقليمية بتوقيع الاتفاق قبل غزو صدام حسين للكويت، وربما wساعد ذلك على الإسراع في إغلاق الملف اللبناني لفتح ملف آخر أكثر إلحاحاً بالنسبة إلى الغرب حينها. بينما في العام ٢٠١١، كان العالم العربي قد انقسم على نفسه أكثر من مرة منذ دخول أميركا وحلفائها بغداد، وخلقت انقساماته الأخيرة المتعلقة بالربيع العربي وضعاً عربياً صراعياً بشكل غير مسبوق، واختلفت أطراف الصراع الميداني من الجيوش إلى الجماعات المسلحة. وإضافة إلى كل تلك التجاذبات والتنافسات الإقليمية الجديدة، فإن الصراع الإقليمي بين المملكة العربية السعودية وجمهورية إيران الإسلامية لم يكن حينها مباشراً كما هو الآن، وحتى في العام ٢٠١١، لم يكن الصراع الإيراني السعودي في اليمن على تلك الدرجة التي وصل إليها أخيراً.

خاتمة

يمكن القول إنّ توقيع الأطراف اليمنية على المبادرة كان بمثابة هدنة، وإظهار لحسن النوايا للدول الراعية وأولها السعودية، أكثر منه قبولاً ببنود المبادرة عن قناعة، إذ إنّ ما حصل شمل أطراف المشكلة ذاتها من دون وجود أي طرف يمثّل المطالب الشعبية أو على الأقل ذات الطابع التمثيلي للشعب (الناخب) كما كان الوضع في لبنان. لكن حسن النوايا لم يكن حقيقياً، فسعى كل طرف إلى عرقلة التحوّل السياسي حين كان الأمر يمسّ بمصالحه واستغلال الثغرات الموجودة في المبادرة الخليجية. كذلك لم يكن الرئيس الانتقالي قادراً أو مؤهلاً (أو حتى راغباً) في ممارسة أي تأثير فعال لحسم خلافات تلك الأطراف أو لقيادة عملية انتقالية حقيقية.

لقد وقّع اللبنانيون على اتفاق الطائف وهم يخوضون حرباً أهلية، والبلد بدون رئيس والبرلمان غير قادر على عقد جلساته، لكن لبنان تعافى إلى حد ما من كل هذه الظواهر الخطيرة والوضع الكارثي بعد التوقيع. أما اليمنيون فقد وقّعوا على المبادرة الخليجية ولديهم رئيس وبرلمان، ولم تكن بلادهم تشهد حرباً أهلية، لكنهم وبعد أربع سنوات على التوقيع، وصلوا تماماً إلى المشهد اللبناني كما كان قبل اتفاق الطائف، إذ إنّ الرئيس الذي أتت به المبادرة الخليجية كان هارباً من بلده، والبرلمان منع من عقد جلساته (كانون الثاني / يناير ٢٠١٥) وهو كان معطلاً عمليا قبل ذلك من أداء دوره الدستوري بفعل نصوص المبادرة الخليجية. في الوقت عينه كانت جبهات الحرب الأهلية تتقدم كل يوم على الأرض، وتتوسع أهداف قصف التحالف العربي على أراضي اليمن من السماء، والمواطن أصبح يحلم فقط بمأوى آمن يخلد فيه إلى النوم دون التعرض لخطر القتل الحوثي أو القصف السعودي، وذلك بعيداً عن كل تطلعاته نحو الحرية والتغيير والبناء التي عبّر عنها شبابه مطلع العام ٢٠١١، قبل صياغة أول نسخة للمبادرة الخليجية بشهرين فقط.




الثورات بشبابها



تصحيح خطأ الموت

رنا زيد

شاعرة وكاتبة سورية. آخر أعمالها «ملاك متردّد»، ٢٠١٥.

أيقنتُ أنَّ حياتي هناك صارتْ منتهيةً.

كلّ ما جرى في حياتي السابقة أصبح متلاشياً وعاتماً. هذا وحده كان كفيلاً في بث الرعب في نفسي. من أنا؟ مجدداً، أين هو مكاني؟ الهستيريا التي أصابتني في شكل طفيف تبدو حدثاً هامشياً، لكنَّها مقترنة مع توتر كارثي ودائم لحق بي، أنا الآن لست شيئاً. إذ في هذه اللحظة، أعيش هنا في باريس قرب مقبرة غرونيل في شارع سان شارل. هنا، في أكثر الأحياء الفرنسية أرستقراطيةً، لا شيء يدل على أنني موجودة، ولا شيء يثبت أن هذا الوجه الذي أخفيه بيدي، هو وجهي.

أنا مجرد شخص موجود، قد يكون أتى من القارة الآسيوية، أو أي بقعة أخرى في الأرض، أنا شخص غير موجود، لأن وجوده على هذا الحال، هو اللعنة.

اكتشفت لاحقاً أن الجميع حولي يعاني من تلك المرحلة البلاستيكية، في التحوّل البشري بعد اللجوء. في هذه المرحلة، ما من مكان لثبات الهوية، ولا شيء يؤثر في ثقل وزن الجسد لتتحسس مفاتيحه في الشهوة والخدر والتصاعد. نحن مجرد قطع من البلاستيك المتكاثف فوق القلب البشري. الحياة السابقة في دمشق جثة عفنة لا أدري أين أدفنها؟ هناك، حيث لم يكن ليحدث أمر، ولم يكن شيء ليتغير، لولا الثورة. كنا كمن تلاشى في خوفه، ونحن الآن كمن ظهر شبحياً فوق خوفه.

ليس هناك فارقٌ كبيرٌ بين حياتنا السابقة وهذه الحياة المعيشة آنياً. إلا أنَّ حديثاً عن الجسد والجنس، ورماديتهما الحالية، عند أكثرية من خرج من منهبة العمر هذه (التي ألحقها النظام السوري بالشعب، بعد الثورة السورية) قادني إلى استنتاج هو في أقصى حدود الألم: هل نحن كائنات آلية، بعد مجمل جنون صامت عشناه؟ إن شعوراً هائلاً ينتابني، بأن قدرتنا الضئيلة متاحة، فقط، في فعل تدميري ذاتي تجاه أنفسنا. نحن ندمّر هذا النظام الذي خُلقنا به، منذ عقود. ندمّره داخلنا، لأن تحديثاً غريباً ومختلفاً طرأ فينا بعد الثورة، إذاً ما هو مصير التركة الفكرية القديمة، التي أصبحت لاواعية، لا مصير واضحاً لها غير أنها في طريقها إلى تفتيت كل ما يشكلها؟ وهنا، لا يمكن أنْ نبقى الأشخاص ذاتهم، في أيّ الأحوال.

أكاد لا أتحرك. جسدي ينتفخ، ثم ينتفخ، لينتج كتلاً من الدهون، تدل على وجود مادي، في أقل الاحتمالات النفسية التحليلية لتغيّر الجسد، في المكان الجديد. أليس الجسد هو الحقيقة الوحيدة، والباقي مجرّد أفكار غير مدركة، في الملموس؟

لافتة بحاجة إلى الإصلاح

ليست المشكلة أننا ذُبحنا، وأن القتلى منا تكدّسوا في حفرة تشبه الوادي، لكنَّ الأمر الملحّ هو أن ذاك الجرف الذي اسمه سورية في حاجة حقيقية إلى النهوض من أجل إصلاح اللافتة الصغيرة المؤدية إليه كمكان وكمدفن جماعي. ونحن الأموات تعبنا، فكلما أصلحنا اللافتة، قصفها القائد المفدّى مجدداً، وعلى أحد ما أنْ يصلحها، هي تنص: «سورية، القبر الجماعي الشيّق». لم لا تصلحون تلك اللافتة؟ لعل أحداً ينتبه إلى أنّ في الأسفل من كومة أجسادنا، لا تزال هناك جثة تنطق بما يوحي بأنها تعيش في حياة جديدة سعيدة. إنَّ الجثة تعوي كذئبة جائعة، يسيل من لعابها حليبُ فاسدُ، هاهي تداعب رأسي، أنا الجثة ما قبل الأخيرة. أهناك أحد سيمرّ ويصلح شاهدة القبر؟

مع توالي الهلع، صرت مثل شجرة مقلوعة من صدر غزالة ميتة ومدفونة.

عام ونصف العام مضى علي وأنا في باريس أمام مقبرة غرونيل، في شارع سان شارل. لا أبرح المكان، أمارس طقساً شديد الغرابة، كي أهدأ من لعنة الموت ومن صراخ الغربان الحائمة حول المقبرة. أختار كل يوم شيئاً من ملابسي وأغراضي وأرميه، إما في السلة المخصصة للتبرع، وإما في زاوية من الشارع، حين أكون متأكدةً أنَّ هناك من سيمرّ فيأخذ ما رميت. كانت أغلب حاجياتي جديدة تقريباً، لكنني صرت أخاف من تجمّعها، أخاف أن تصير لي ذاكرة قابلة للتلاشي، ذاكرة تقصف أو تدمر. هناك مفاصل في حياتي، أتذكر في كل منها زياً أرتديه وناسبني واقترن مع لذة ما. أما في باريس، ومنذ وصولي، فقد كانت كلُّ الملابس عبارة عن لغز صعب الحل. صارت الأقمشة لعنة، الأحذية مؤلمة، مهما كانت فخمة وواسعة، على الرغم من أني اعتدت على الأحذية الضيقة، اعتدت ألّا يكون في وسعي سوى خيار واحد منها في سورية البعث. لا أريد أن أبني أيّ ذاكرة مع المكان، أي بهجة مقترنة مع الأشياء المستخدمة من قبل البشر، ستكون قاتلة.

لعل أحدا ينتبه إلى أن في الأسفل من كومة أجسادنا. لا تزال هناك جثة تنطق بما يوحي بأنها تعيش في حياة جديدة سعيدة. إن الجثة تعوي كذئبة جائعة. يسيل من لعابها حليب فاسد. هاهي تداعب رأسي. أنا الجثة ما قبل الأخيرة. أهناك أحد سيمر ويصلح شاهدة القبر؟

أحاول تصحيح هذا الرعب، أحاول تصحيح خطأ الموت.

في العام ٢٠١٢، أجرت مذيعة مختلة، مؤيدة للنظام السوري، مقابلة مع مصابين في داريا (ريف دمشق) لحظة وجودهم في موقع المجزرة، حاورتهم وهم ينزفون ويوشكون على الموت. لم أشاهد هذا الفيديو إلى حين خروجي من سورية. فتحته في صيف عام ٢٠١٣ في بيروت عندما تماهيت مع ضحية امرأة، وأصابتني، وقتها، أول نوبة هلع مريعة. تزامن ذلك مع عودتي من كوبنهاغن إلى بيروت دون حتى أن يكون في حوزتي تأشيرة دخول إلى لبنان، كفلسطينية سورية. منحتُ في مطار رفيق الحريري الدولي ختماً للمرور إلى سورية مدته يوم ويوم بعده، ومن وقتها بدأت الأشياء في التقلص، صغرت المدينة وشوارعها، وصرت أختنق من أي حادث عابر، صرت أخاف حتى من رجل الحراسة في المباني الفارهة.

البحر بلعني وبلع ذاكرتي

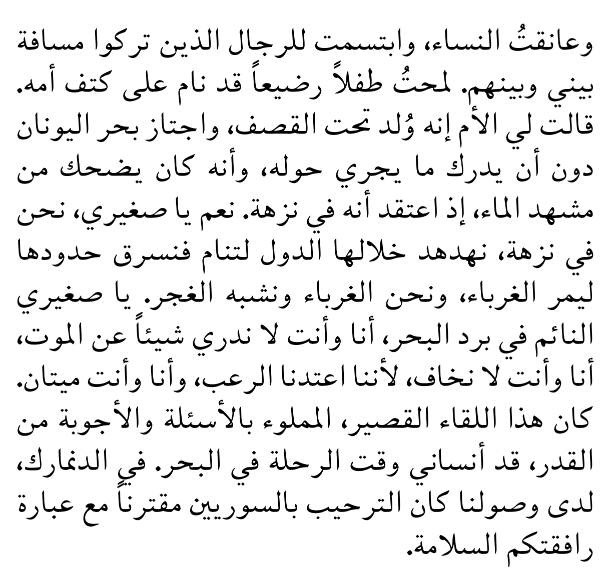
في طريق القطار الطويل، من باريس إلى كوبنهاكن، كانت رحلتي مشوبة بالألم الجسدي، فامتناعي عن استخدام الطائرة بسبب الخوف من الطيران لم يخفف من أهوال رحلة الأرض. عند الطريق البحري، الذي يفصل بين ألمانيا والدنمارك، كنت أفكر في كل رحلات السوريين التي تتالت في منتصف العام ٢٠١٥ في شكل يتجاوز مفهوم النكبة الفلسطينية، ويتخطاه في الرهاب والتنكيل. إنها رحلة تتجاوز القتل إلى الموت، وما يقص من مجريات الرحلات ما هو إلا مزحة عابرة.

كانت المقطورة التي أنا فيها مزدحمة بالركاب السوريين: كانوا مبتهجين، فالقطار لا يخيف. وحدي أنا الخائفة من الطريقة التي سيجتاز بها القطار المنطقة البحرية، هل سيكون هنالك جسر؟ القطار يسرع فوقه، كتلة حديدية هائلة، على سكة ضيقة؟

الراكب البريطاني الذي جلس قبالتي كان يجهل مثلي ماهية الطريقة التي سيقطع بها القطار هذه البقعة من الكرة الأرضية. قال لي: «أنا لا أعلم إن كان القطار سيتحرك فوق الأرض أم تحتها»، هكذا ببرود لا يمكن أن أستسيغه، هكذا يكلمني الرجل المتحضّر.

البحر بلعني، وبلع ذاكرتي، البحر أكلنا نحن السوريين كَحَسَك السمك، والأرض كلها كانت تشاهد، وتضحك. خاطبني أحد الركاب من المقاعد المجاورة باللكنة العامية السورية: القطار سيدخل السفينة، ثم سنصعد إلى طوابق السفينة العليا، وسنبحر نحو أربعين دقيقة في البحر حتى نصل إلى الدنمارك. شكرته. همس لي: «أحاول تخفيف خوفك. أنا فلسطيني سوري لاجيء، في الدنمارك». شعرت بقليل من الحرج، لكنّي بدّدت هذه الفكرة: نحن في معتقل واحد، والجلاد الذي يقود القطار يمارس علي وعليه السادية ذاتها. الفارق أن اللاجئ عاش هذا قبلي.

على سطح السفينة، التي فيها كل ما يحتاج إليه إنسان على الأرض، قابلتُ مجموعة من السوريين، التفّوا حولي لأنني كنت فضولية جداً. أجوبتهم كانت منهكة، لقد فقدوا أحبة في الطريق. شعرت أن خيباتي ومخاوفي تافهة جداً. هناك على سطح السفينة ضحكنا



وعانقتُ النساء، وابتسمت للرجال الذين تركوا مسافة بيني وبينهم. لمحتُ طفلاً رضيعاً قد نام على كتف أمه. قالت لي الأم إنه وُلد تحت القصف، واجتاز بحر اليونان دون أن يدرك ما يجري حوله، وأنه كان يضحك من مشهد الماء، إذ اعتقد أنه في نزهة. نعم يا صغيري، نحن في نزهة، نهدهد خلالها الدول لتنام فنسرق حدودها ليمر الغرباء، ونحن الغرباء ونشبه الغجر. يا صغيري النائم في برد البحر، أنا وأنت لا ندري شيئاً عن الموت، أنا وأنت لا نخاف، لأننا اعتدنا الرعب، وأنا وأنت ميتان. كان هذا اللقاء القصير، المملوء بالأسئلة والأجوبة من القدر، قد أنساني وقت الرحلة في البحر. في الدنمارك، لدى وصولنا كان الترحيب بالسوريين مقترناً مع عبارة رافقتكم السلامة.

نحن في نزهة. نهدهد خلالها الدول لتنام فنسرق حدودها ليمر الغرباء. ونحن الغرباء ونشبه الغجر. يا صغيري النائم في برد البحر. أنا وأنت لا ندري شيئا عن الموت. أنا وأنت لا نخاف. لأننا اعتدنا الرعب. وأنا وأنت ميتان.

القطارات الدنماركية السخية مهيّأة لنقل اللاجئين السوريين إلى مالمو السويدية، البلد الضئيل عدد السكان. في الدنمارك لم يكن مرحباً بهم، لكن ناشطين دنماركيين مخلصين للثورة السورية ساعدوا على إتمام الرحلة دونما ضغوط في العبور. لذا توجّه السوريون إلى بر آخر، بقلوب ملوثة بالطحالب وبعيون يقظة من أي طعنة ظهر.

أيها البحر، أنا هيكل بلاستيكي طافٍ، إلى نهاية الألم، في المضي، وفي العودة، صوب مقبرة غرونيل الباريسية.

العنوان للشاعرة السورية الراحلة دعد حداد (١٩٣٧ - ١٩٩١)





الرحيل إلى الأيديولوجيا

أسماء الغول

صحافية وكاتبة، غزة، فلسطين.

كنّا نزور جدي الذي يرقد في مستشفى في القدس، لم أكن أتجاوز الخامسة حين أبهرتني الحشائش الخضراء والمساحات الواسعة والمصعد الكهربائي الذي اعتقدت وقتها أنه يسافر بنا من مكان إلى مكان.

اشترينا البيض المسلوق وكعك السمسم الذي تشتهر به القدس. كان جدّي يعمل في أحد الفنادق هناك مثله مثل آلاف العاملين من قطاع غزة، وقد بدأ يعاني من مرض القلب الذي سيودي بحياته بعد ٢٣ عاماً.

في طفولتي، كانت القدس تعني الأشجار الكثيرة والوجوه المتنوعة، أي كل شيء عكس المخيم الذي تربيت في داخله، لم أشعر هناك سوى بالدهشة.

كنت أسأل جدي يوماً عن كل شيء اعتبرته غريباً عني، «ليش يا سيدي هديك بشعرها؟»، فيرد «هدول يهود يا سيدي»، «ليش في شجر كثير هين يا سيدي؟»، «هاي حديقة المستشفى لزيارة المرضى».

كان الجميع مشغولاً بوضع جدي الصحي وتعب قلبه، ورغم ذلك لم ينسَ أحد هذه الطفلة التي تنظر إلى كل شيء حولها فيردّون على أسئلتها وينادونها ويسحبونها من يدها. إنه الحب على طريقة المخيم، ولاحقاً سأكتشف أن هذه القسوة الحنون علمتني الكثير.

الآن أنا في الثالثة والثلاثين من عمري، ولأول مرة منذ تلك الأيام أزور القدس. أذكر أنني مررت بها من بعيد حين عدنا من الإمارات عن طريق الأردن إلى الضفة ثم إلى غزة في العام ١٩٩٧.

لم أصدّق أنني أخيراً سأزورها، فقد تقدّمت مرات عدّة للحصول على تصريح من الجانب الإسرائيلي، وكان يأتي الرفض لأسباب أمنية. ولكنني أخيراً أصبحت في السيارة متوجهة إليها من معبر بيت حانون «إيرز»، بعد أن استطاعت القنصلية الأميركية الحصول على تصريح لي ولسبعة عشر صحافيا آخرين، للمشاركة في ورشة عمل حول أخلاقيات الصحافة الاستقصائية تستمرّ ليومين، تحت إشراف المدربة الأميركية المصرية هدى عثمان.

في الطريق من المعبر للقدس، أول أمر لاحظته اقتراب السماء من الأرض، وهذا لا يحدث إلا إذا نظرت إلى أفق واسع وبعيد، فالأفق الوحيد في قطاع غزة هو أفق البحر. إن ما يجعل غزة غزة هو بحرها.

هنا تذكّرني الشوارع والمدن واللافتات المنظمة بأوروبا، لكنّ الجبال والطبيعة تذكّرني بأنه الوطن، إنه شعور بالانتماء وعدم الانتماء. سألت نفسي «هل يجب أن يكون مخيماً كبيراً كي أشعر بأنه وطني؟». بالتأكيد لا.

أعتقد أننا نحن من ولدنا في المخيمات، لا توجد عندنا عقدة المكان الأول، بل عقدة السفر، إلّا أن هذه الطريق لا شيء فيها يجعلها تشبه وطني، ليست لغة اللافتات أو شكل الشوارع، أو السائقين المحيطين بسيارتنا.

تبعد القدس ساعة ونصف ساعة عن غزة. الآن بدأت أراها واقعاً حياً، إن السياسة تشعرك أنها بعيدة جداً، والاحتلال يشعرك بأنها مستحيلة، ليست سوى ذاك الحلم في الشعارات الوطنية.

وصلت إليها في وعيي الحالي، وليس وعي تلك الطفلة. بقيت الدهشة من المساحات الخضراء ذاتها، لكن أشعر بغربة داخل الوطن... غربة لم تشعر بها جدتي يوماً وهي تروي ذكرياتها عن القدس والبلاد. وطن نقلته لي بالحكايات ذاتها، فكان وجودي كأنني لمست قصصها، لمست عالم الطفولة المتخيل الذي كان قطعة من الجنة وقتها.

إنّ الوصول للقدس أجمل بكثير من التغني بها، حتى أنه أسهل. رأيت شجر الياسمين بأنواعه في كل مكان، الأحجار القديمة والشوارع المرتفعة والمنخفضة. يقول لي الشاب الذي يعمل في الفندق «نحن هنا في القدس الشرقية

يعني الأراضي المحتلة عام **١٩٦٧**، وهناك في الشارع المقابل القدس الغربية يعني الأراضي المحتلة عام **١٩٤٨**». فأردّ عليه «إذن هناك احتلالان في القدس؟!»، وربما زمنان للاحتلال، وأهمس في داخلي، «كم احتلال تحتمل المدن، وكم الزمن سخي معه؟».

لم يسمح لي التزامي بورشة العمل التدريبية واليومين القصيرين بقضاء الوقت الكافي في المدينة بعد **٢٨** عاماً حرمني خلالها الاحتلال من زيارتها، كما لا يزال يحرم الآلاف غيري.

هذا الوقت القصير جعلني أخرج منذ السادسة صباحاً، لأتمشى، فقطفت الياسمين من أمام أحد المنازل القديمة في القدس الشرقية، وفكرت أنه يبقى أن أسمع صوت فيروز يصدح من مكان ما لتكتمل أيقونة القدس في متخيل ساذج.

سمعت ضجة أهل البيت، عجّلت خطوتي، فلا أريدهم أن يروني متلبسة بسرقة ياسمينهم، لكني في الوقت ذاته تمنيت أن يفتح الباب لأخوض نقاشاً مع العائلة عن الورد وغزة وأسئلة الانطباعات الأولى والزيارات الأولى، لكنني هربت.

مشيت. تذكّرني المدينة بعمان وبيروت، إلا أنها في الوقت ذاته مدينة لا تشبه إلّا نفسها. كانت أخبار التوتر في القدس تتصاعد، وتلقّيت على هاتفي رسائل إخبارية كثيرة حول ما يحدث، ولكني لا أرى شيئاً حولي.

أحياناً سطوة الإعلام، خصوصاً المؤدلج منه، تحوّل الأماكن إلى شيء آخر، وربما المشكلة في مفهومي للتوتر السياسي، فتعودته بغزة أن يكون قصفاً، وحرباً جديدة تطحن المدينة بكاملها.

غالباً نظرة الآتي من غزة إلى القدس تشبه نظرة أهل القدس لغزة. كل طرف يتعاطف مع الآخر ويعتقد أن مدينته حالها أفضل من الاخرى. سمعت أغاني وطنية من بعيد، كما تناهى إلى أذني حديث رجلين في الشارع، احدهما يقول للآخر «خربت الأوضاع».

أستمتع بالمشي، هناك هواء ومطر خفيف، «إنّها أوّل أيام المطر منذ الصيف»، كما قالت إحدى المقدسيات. أزهار الياسمين تنبت من بين الجدران العتيقة وليس فقط بجانب أبواب المنازل. إن الصراع يجعل لهذه المدينة سحرها وربما شجرها، فما أراه في هذه المدينة بغربها وشرقها، لا أستطيع أن أصفه بالتعايش، إنه سكون من نوع ما.

لا يمكن أن يكون تعايشاً إذا كان بضعة تلاميذ من اليهود الإسرائيليين ينتظرون حافلة معهدهم وبصحبتهم سيارة الشرطة، ولا يمكن أن يكون تعايشاً إذا كانت مسطرة الطفل الفلسطيني المكسورة تجعله متهماً بنيّة القتل، ويعتقله الاحتلال.





إنّ الأوضاع داخل القدس مختلفة تماماً عن المنظور الأيديولوجي الذي قد ننظر نحن من خلاله إلى المدينة. شعرت بأنّ هذا الصراع بقدسيّته يحميها من الانفجارات. هناك اتفاق ضمني على الهدوء أو كان كذلك، فلاحقاً بعد زيارتنا وصلت هبّة السكاكين لذروتها.

رجعت إلى الفندق لأجد فيروز تصدح في صالة الاستقبال. ابتسمت في سري. فقد اكتملت أيقونتي الآن.

إنّه اختبار صعب ومن نوع جديد عليّ، معاناة مختلفة أن تعيش مع محتلّك في المدينة ذاتها ويتصرّف الجميع كمدنيين، وربما في عبارتي هذه أنّني لا أزال أنظر من خلال أيديولوجيا مكونات غزة الى القدس! فكرت هل لو ولدت وكبرت في هذه المدينة فسأستطيع أن أعيش السكون والمدَنيّة ذاتهما؟

إذا كان البحرُ جمال غزة، فسحرها الآخر هو الأيديولوجيا. إنّ القدس فيها الصراع الذي ولدتُ من أجله تلك الأيديولوجيا في غزة، ولكنها مع ذلك تبقى مدينة غير مؤدلجة، بل فيها سحر الصراع الساكن، ولغزة سحر الأيديولوجيا المتفجرّ، ولطالما كان السحران في تبدّل بفترات تاريخية كما الآن، فانفجر سكونُ القدس وسكَنَ انفجارُ غزة.

إنّ ثبات الصراع يغذّي ديناميكيّة الأيديولوجيا، لكنّ الأخيرة نادراً ما غذّت الصراع في القدس. وإذا كانت عبارتي الأخيرة صحيحة، فكيف يحدث أنّ هناك أكثر من أربع وعشرين عملية طعن في أقل من شهر؟ إنها فورات الغضب التاريخية اللازمة لتُذكّرنا بالصراع، وليعرف الجميع قيمة السكون.

رجعت إلى الفندق لأجد فيروز تصدح في صالة الاستقبال. ابتسمت في سرّي، فقد اكتملت أيقونتي الآن.

إنّ حقيقة أنّ جدّي كان يعمل يوماً في هذه المدينة، ومشى في شبابه بشوارعها وهو ينتظر راتبه كي يعلّم أبناءه التسعة وبناته الثلاث في جامعات مصر وليبيا وغزة، هي ذكرى أثّرت فيّ أكثر من أيّ شيء آخر.

أمشي وأحاول أن أعرف ماذا كان يدور بذهنه وقتها، هل كان يفكّر أن يوسّع بيت المخيّم بغرفة أخرى؟ لقد كان دوماً يعطيني مصروفاً أكثر من صديقاتي وأنا في المدرسة الابتدائية، كما كان فخوراً بأبنائه وبناته جميعهم. توفّي قبل أن يعرف أنّ هذا البيت سيتحوّل إلى فتات في حرب ٢٠١٤.

لم أبكِ في القدس، لم أشعر بتلك المشاعر الكلاسيكية، ربما لأني أعايش الأيديولوجيا، ولا أعيشها داخلي، إلّا أنّني لن أنكر أنّني بكيت داخل المسجد الأقصى، وأنا أدعو لعائلتي. الذاكرة تعطي للأماكن هيبتها، إنّها مثل اللحظات التي تشبه لحظة ولادة طفلك الأوّل، أو لحظة تخرّجك أو حبّك الأوّل. إنّ الذاكرة تضخّم الأحاسيس، وتحوّل الواقع أسطورة، لذلك فإنّ سمعة الأماكن ولحظاتنا الأولى أكثر هيبة منها ذاتها.

يدخل من إحدى بوابات الأقصى السياح الأجانب ويلتقطون الصور. لم أشعر بأنّني أختلف عنهم سوى بدخولي للصلاة في المسجد. في داخلك غصّة ما تذكّرك أنّك غريب عن كلّ شيء هنا، أو ربما هذه هي المشاعر الاعتيادية لكن لا أحد يصرّح بها، فتكفي صورة «سيلفي» هناك لتبرهن العكس.

التقطت بضع صور تشبه كلّ الصور التي يلتقطها المئات يومياً، لكنّها أبداً لا تشبه صورة تلك الطفلة في ذاكرتي التي أكلت الكعك وحوْلها المئاتُ من الوجوه المتنوّعة والفرحة.

وقت زيارة الأجانب ينتهي عند الساعة الثانية والنصف ظهراً، هناك محاولات من قبل المستوطنين ليكون لديهم ساعات محدّدة. إنّهم يقسمون المسجد الأقصى زمانياً. دخل أمامنا مستوطن وحوله ثلاثة رجال شرطة إسرائيليين، وخرج من البوابة في الناحية الأخرى من باحة المسجد الأقصى، فتصاعدت تكبيرات المرابطين والمرابطات.

استفزاز مجّاني، وصناعة للكراهية، لتتذكر فجأة الصراع. إنّ هناك توازناً ما يجعل الأشياء لا تصل حدّ الانفجار، وسكوناً لا يصل حدّ التعايش. إنّها الهوية العقائدية القوية للمدينة، فهي مهبط الأديان الثلاثة، وهنا ميزان الضبط.

عدتُ إلى الفندق في القدس الشرقية. هناك ازدحام، اضطرت السيارة إلى أن تقف أمام البيت الذي قطفتُ ياسمينَه صباح اليوم. فُتح الباب، نظرت وانتظرت باهتمام لأرى مَن مِن المفترض أن يكونوا أصدقائي الخياليين، إلّا أنّ من خرج هو مستوطن وأبناؤه الذين يرتدون القلنسوات الصغيرة على رؤوسهم.

صُدمت، وأوّل ما فكرت هو كيف يكون بيتاً قديماً وحجراً مقدسياً، وعراقة وورد الياسمين ويعيش به من هو مستحدَث زمانياً ومكانياً. لاحظ السائق صدمتي فقال «كانت هناك عائلة عربية، لم تستطع الاحتفاظ بالمنزل، ووضعت خيمة لمدة طويلة أمامه، ثم رحلت». لحظتها لم يسعفني سوى تذكر كلمات جدي حين أتعبني التغيير في المدينة الجديدة، «ولا يهمّك، يا سيدي، ستعودين بعد قليل إلى غزة»، فاستعجلت الرحيل إلى الأيديولوجيا.

والدي والجيب المليء بالسكاكر

مريم حمّود

شاعرة وممثلة، لبنان.

«طبّ الختيار شبّ». هي العبارة التي طالما ردّدتها جدتي التي بلغت قرناً ونصف عقد من العمر. جدتي، من جهة والدي، حقّقت رقماً قياسياً في الخَرَف بل التَرَف في الخرف.

أنجبتْ السيدة والدة الأب المصون ثمانية أولاد، أربع بنات وأربعة صبيان. وبقدرة قادر، أنجبت أختها العدد نفسه من الأولاد بالترتيب نفسه، وعليه كان الاتفاق غير الموثّق: «تزويج الأولاد لبعضهم البعض» حتى لا تضيع جينات العائلة الثمينة جداً. هكذا تحوّلت العائلة الى مثلّثات أحادية صعبة الفهم، وتتطلّب برمجة دماغية خاصة جداً.

ابنة عمي هي ابنة خالتي أيضاً. خالتي هي زوجة عمّي. ابن خالي هو ابن عمّتي. وعمّتي هي امرأة خالي!

انطلاقاً من تنامي تشبيك القرابة، ومن تماهي الوجوه والشخصيات بعضها مع بعض، كنّا في عائلتي المعلولة المصغّرة، المتكوّنة من خمسة أطفال ووالدين، ثمرة زرع لا يخلو من العفن. لكنّه العفن الأقلّ نسبة من الآخرين!

تزوّج خضر من ابنة خالته. نعم هو كذلك، لماذا الكذب؟ حين علم والدي على حين غرّة أني سأرقص على المسارح وسأمثّل، لم يُبد أيّ رأي، أو لعلّه تجشأ.

أدركت أنا بدوري آنذاك أنّه يثق بي، وأنّه فعلاً رمز من رموز الانفتاح، open-minded للغاية، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لم يقلق عليّ. أبلغ والدتي أنني سأصبح بيروتية ولن أكون «عكورية». وأنا قلقت دائماً: ماذا إذا رآني أحدهم ألبس «شورت جينز». ماذا إذا صدمتني سيارة ومتّ وأنا لابسة شورت جينز؟ سيراني أبي بشورت جينز وسيغضب مني لأني متّ بطريقة غير لائقة؟

أبي هو ربي. ربّ عائلتي ووليّ أمري. عضو سابق في المجلس البلدي في ضيعة تعشق الملل بدل الحياة. أبي «مؤهل أول» متقاعد في الجيش يتحدّر من ضيعة تعشق المرض لا الدلال، الفقر لا المال، الأمل لا الندب فالإهمال.

تزوّج «خضر» من ابنة خالته «فاطمة» حتماً، كما ذكر في الاتفاق المذكور أعلاه. تبادلا الحب والسنابل معاً في الحقول الذهبية في مزرعة الأغوات، وكان لأمي سحرها الخاص. بيضاء كالثلج هي، فيما والدي يريد أن يكون آغا لتكون هي زوجة الآغا. آغا لتكون هي فقط زوجة الآغا، تليق بها التسمية ويليق به المنصب.

اعتاد الذهاب إلى المدرسة حافي القدمين، على الآغا المستقبلي أن ينال العلم، فحاز شهادة السيرتيفيكا! وهي شهادة كانت عالية في الماضي وتمثل الخامس الابتدائي في يومنا هذا. وهي اعتادت القنوع فالقمع وتوريد الخدّين. كل صباح والديك واحد!

«كيكوكيك صاح الديك» هكذا تصرخ جدتي، نستيقظ ورائحة القهوة تملأ المنزل، فقبلة الصباح والمدفأة فالشنكليش والزيتون فالباص والرحيل حتى العودة. لم أرَهما، خضر وفاطمة، يوماً يتشاجران. رأيتهما يتعانقان ويتغنجان. لم يعلُ صوته مرّة ولا هي بكت يوماً. فصار نموذج الزواج عندي أصعب مئات الدرجات.

كتبت هذا المقطع قبل ثلاثة أشهر من اليوم!

اليوم؟ نعم! لا تاريخ لهذا اليوم، هو اليوم الذي ستقرأون فيه النصّ، والذي استطعت أن أكتب فيه، وحلّلت فيه آلية انتقال مشاعري وتخلّصي من الشعور بالذنب أو التقنّع. وهو اليوم أيضاً الذي صرت أقرب فيه إلى أبي.

هو اليوم الذي كتبت فيه هذه الجملة الشعرية: أبي! لماذا تحرقني عيوني؟ ألم تتعوّدا على البكاء بعد؟ وكيف ينبت العشب الأخضر على قبري وأنا أعاود فتحه كل مساء قبل أن أنام!



وفي ذلك اليوم بالتحديد، كنت قابعة في المستشفى أتأمله. لا، كنت أحدّق به وبالأنابيب التي تخرج من يديه ووجهه وقدميه وقلبه. لم أستطع إنهاء النص آنذاك، لأنني كنت أريد أن أحفظ جسده ولن أدع ذاكرتي تخلو منه. وحفظته، حفظت عظامه، وتجاعيده، وشعر أنفه ورائحته، ورائحة العفن التي كانت تحاول أن تسيطر عليه، على فمه ولعابه.

كان الشعور بالذنب يقتلني، يغتالني، فما استطعت أن أغيب عنّي أو عنه. أجلس وأنتظر. أنتظر الحاضر كي يصبح ماضياً. ولم أستطع الصلاة ولا الدعاء ولا النذور. وفي حدّ أقصى استعنت بالبكاء الصامت وبالغضب من المستشفى والضجيج الهائل.

سابقا. كفنت جدتي ام الثمانين وغسلتها. وكانت أول مرة أرى كيف تنحت المرأة. وكانت أيضا المرة الأولى التي أرى فيها كيف يختفي الثدي في العظم عند الكبر. وكيف تصبح المرأة إنسانا. حينها أصبحت أنا إنسانة. لأني استيقظت قرب جثة في سرير واحد بعد أن مارست آنذاك فعل الصلاة.

فعلت ذلك عن سابق تصوّر وتصميم، وصرت أشرب من ذاكرتي البصرية حتى أشبع. أشبع من قدميه قبل أن تُبترا ومن وجهه قبل أن يُدفن، وشاهدته عارياً!

غريب أن تشاهد الفتاة والدها عارياً، أوتساعده على الحركة، ولكنّي أريد أن أثبت هذه الـ«داتا» في رأسي. سابقاً، كفّنت جدّتي، امّ الثمانين، وغسلتها، وكانت أول مرّة أرى كيف تنحت المرأة، وكانت أيضاً المرة الأولى التي أرى فيها كيف يختفي الثدي في العظم عند الكبر، وكيف تصبح المرأة إنساناً. حينها أصبحت أنا إنسانة، لأني استيقظت قرب جثة في سرير واحد بعد أن مارست آنذاك فعل الصلاة.

مستشفى في عكار

كنت أريد أن أكثّف التفاصيل، لأني شاهدت جدّي مبتور القدمين وأمّي تغيّر له حفاضه، ورأيت كيف ينصهر العظم باللحم والجلد، وكيف يختفي أفق القدم. كنت أريد أن أكون مستعدّة، وهو أيضاً كان يحاول بدوره أن يتأقلم مع الظروف الجديدة ومع ما يتطلب منه الاستعداد له.

في هذه الفترة كان الشبّاك الزجاجي هو المدى الوحيد الذي ينظر إليه أبي. ينظر ويبكي. يرى السهل ويتأسف ويتحسّر على حاله، ولأنه كثير الكبرياء ينزلق تحت اللحاف ويعود للبكاء من صداعه المدوّي، صداع السكتة الدماغية وصداع الضجيج من حوله. ضجيج مستشفى يستهلك المريض حتى يشفى. يشفى ربما فقط كي لا يبقى وسط الضجيج!

المستشفى! يا إلهيَ مستشفى في عكار. يشبه مخيّمات اللاجئين بظروفه الصحية، يشبه الحدود البرية بين الدول العربية، حيث الكثير من الزائرين والنفايات في كل مكان لا سيما الحمّام، طبعاً مصنوع من البورسلان: كان أبيض اللون فصار رمادياً، تفوح منه رائحة كل أنواع المأكولات وتحوّلاتها إلى براز، وتنقصه المياه والمحارم الورقية، إذ إنّه جورة تدفُق فيها ما استطعت وتخرج.

الحاج (مرتين)، العسكري المتقاعد برتبة مؤهل أول، عضو سابق في المجلس البلدي، راعي الماعز قبل الغنم والبقر، قبع في غرفة من الدرجة الثانية، واعتقد، والله أعلم، أنّها الثانية تحت الصفر.

جاوره في الغرفة رجل من وادي خالد، وما أدراك ما وادي خالد! بل ما أدراك ما يعنيه رجل من وادي خالد! يا لسوء حظ والدي! نعم أنا كنت طبقية، وشعرت وللمرة المليون أنني أجنبية، إفرنجية (مفهوم الإفرنجي في عكار أنه أكثر علماً وجمالاً وقوّة ويعرف كيف يعيش).

أطلقت كل الاتهامات التي خضعت لها ثلاثين عاماً ضدهم، استعملتها لأنقذ والدي من جحيم اللاتعقيم. أجبرت على أن أعشق الطبقيّة والعنصرية المتأصلة بين ضيع عكار والتي تتنافس بعضها بين بعض على من هو الأكثر حرماناً أو وسخاً أو خضرةً وموتاً، ولا شك الأكثر عدداً من المجنّدين العسكريين فيها!

وحين هربت إلى سطح المستشفى ليلاً لأبكي وأدخّن سيجارة عزاءً لحالي دون أن يراقبني أحد، ويتهامس الناس حولي وينتقدوا ثيابي وشعري الأحمر، عدت لأجد عشيرة كاملة تأكل اللحم مع المريض والثوم والمشروبات الغازية، ويناول الحاضرون أبي القليل فالمزيد وجننت! كان قد تعرّض لنوبتين قلبيتين وجلطتين دماغيتين، إلى التهاب البروستات، في يوم واحد!

يومُ الفاجعات تلا مشاجرة عنيفة بيننا، الأولى من نوعها. كنت قد تبنّيت الحركة المدنية المطالبة بعيش أفضل، واعتلى صوتي الساحات العامة ككل اللبنانيين. كان هو يخشى من الانقلاب العسكري ويخاف من حرب أهلية ثانية، ومن انقطاع الشرايين بين المناطق، وانقطاعي عنه، وأنا ابنته المدلّلة والأصغر والأكثر قرباً وتفهماً. وأنا اليوم،

حسب قوله، رجله الوحيد الأوحد. فلقد حضر أبي مجازر صبرا وشاتيلا ولملم الجثث وما تبقى منها، فلا يريد لابنته أن تصبغ ذاكرتها باللون الأحمر ذاته، ولا للذاكرة أن تحكم روزنامة العمر كله.

الجرس والروزنامة

تعجبني هذه الجملة: ولا للذاكرة أن تحكم روزنامة العمر كله! تعيدني إلى الطفولة، إلى مدخل باب بيتنا الخشبي المدهون بلون أبيض متصدّع، ودرج الباطون الذي يسبقه، ورنّة الجرس الكهربائي. كم كنت أعشقه! فالجرس إشارة إلى أنّ الكهرباء تزورنا ونخشى من غدرها ككل يوم، وأنّنا... لست أدري، لن أتفلسف، بصراحة، يكفي أنّ لدينا جرساً! الجرس يعني كابتن ماجد أيضاً، وطمطوم الشجاع، والحوت الأبيض وريمي وهايدي وهالة في البراري ونساء صغيرات، والحصن وصوت هادي شرارة الذي أقلّده، والأهم أنّه بعنب السيدة أم عمار.

نعم في الشمال كانت أمّ عمار، ماري دياب، مقدّمة برامج في التلفزيون العربي السوري الذي احتلّته اللبنانيّات بالدعايات والسوريّات بالمسلسلات واليابان بالكارتون والروس بالأولمبيات.

ما يطلبه الرياضيون!

إنها الروزنامة الورقية وقد علقها على الحائط قرب التلفاز. كل يوم تتجدد بسلخ ورقة منها ويوم من عمرنا. هل تذكرونها؟ تلك التي في خلفية أيامها لائحة من المقولات والأطباق والنكات والحزازير والمثل العليا. زوادة لليوم بكامله لصحة الروح والجسد. ومصدر للتسلية لا مثيل له.

الجرس يعني أنني أستطيع أن أتابع السيدة ماري دياب تقدّم لنا رقصاً على الجليد، لمدّة عشر دقائق، وبلاط أرضي جاهز، وجواربي أيضاً، أرقص وكلّ الجمهور يصفّق لي، الراقصة تنهمك في الدوران وأنا بالإيحاء حتى الدوران.

وهناك، دائماً هناك، وظيفة للجرس الأنيق وصوته الحادّ، الأكثر حدّة وحبّاً. يدقّ الجرس، أركض، أستعمل فراملي العضلية، أفتح الباب، أرى قدمين ببذلة عسكرية وحزام، وأنظر إلى الأعلى حتى تؤلمني رقبتي، إنّه أبي!

جلب معه لوحة البيت الوحيدة، اللوحة المقدّسة التي يأتي بها في بداية كلّ عام، إنّها الروزنامة الورقية وقد علّقها على الحائط قرب التلفاز. إنّها اللوحة المعاصرة، فكلّ يوم تتجدّد بسلخ ورقة منها ويوم من عمرنا، هل تذكرونها؟ تلك التي في خلفية أيامها لائحة من المقولات والأطباق والنكات والحزازير والمُثل العليا، زوّادة لليوم بكامله لصحة الروح والجسد، ومصدرٌ للتسلية لا مثيل له. كيف لا؟ وقد علّق والدي السنة المقبلة كلّها على حائطنا وثبّتها بالمسمار، هو كان يجلب الزمن معه، يثبته ونتحكّم به! هكذا كنت أعتقد أنّنا سنفعل بقيّة العمر! يثبت أبي الزمن، و«أشخ» أنا عليه ليلاً. أن أفكّر هكذا منذ طفولتي يزيدني استغراباً الآن.

النوم على البطن

أنتظر موعد النوم، أنام على بطنه، أيّ بطن هذا؟ إنه «كرش». يشخر خلال الليل، البطن يعلو وينخفض، وترتفع معه درجة الاسترخاء وصمت الليل وسواده.

- فاطمة
- ممم
- قومي
- شو؟
- قومي
- عمْلِتها
- إيَه
- يا الله هلّق
- إيه
- مْتَرّمِتها (مؤقتتها)
- ما تضربيها
- هلق
- إيه
- قمت قمت

وأنا أسمع كل هذا وأكمل النوم. على بطن والدي الذي يعود لاستقبالي.

لطالما اعتقدت أنّ تحكّمه بالزمن قويّ، كحين غيابه عنّا وعودته محمّلاً بالكثير من الأشياء. كنت أعتقد أنّه تأخّر في المجيء لأنّه يجلب معه الكيسين السحريين الغريبين، البرتقال والبصل، نعانق الأول ونشتم الآخر، ونأكل كالضباع كل ما نستطيع. وكي يغرينا أكثر، كانت الجيوب تمتلئ بالحلويات. أصلاً كان الزي العسكري بالنسبة لي منبعاً للسكاكر والحب واللعب، وعلكة غندور تحديداً، حتى لو كانت حارّة مشوّهة الملامح بسبب طول الطريق.

كان يأتي بالكيسين اللذين يتحوّلان إلى «ليف» الاستحمام، فما تحبّه سيؤلمك بعد قليل! أوّل درس حياة

تعلّمته والله يشهد على ما أقول. وكلّ بداية تعني اقتراب النهاية، والعكس صحيح.

حاضري على البلاط وماضيّ على بلاط آخر، ووعيي لاواع الآن واللاوعي يعي بمقدار عدم جهوزيتي لفقدانه.

اتّصل بي أخي ذلك اليوم، مردّداً أنّ الوالد أصرّ وألحّ على أن يراني فقط اليوم. تحسّبت من أنّه يودعني. ذهبت وجالسته حتى نمت مستيقظة واستمررت بالنظر إليه فيما استمرّ أبي بالنظر عبر الزجاج كمن يقلّب في بانوراما حياته وتدمع عيناه.

أريد أن أرى البحر

«أريد أن أتوقّف عن العمل، سآخذ أمّك إلى بيروت، إلى سينما سكالا! إلى الجنوب، إلى وادي رام، إلى كثير من الأماكن التي حلمت أن أزورها. أريد أن أخرج، أن أجلس على شرفة منزلي، أن أرى أرضي وزرعي، أريد أن أرى البحر أيضاً...».

- هل تذكر البحر ومشوار البحر السنوي يا أبي؟

- نعم!

- تضعنا حوالى العشرة أطفال في السيارة، وتسوق بنا.

- نعم!

- ننزل الشاطئ، نغيّر الملابس، ننزل الماء، فيما تتناول أنت ووالدتي البوظة العربية.

- نعم!

- وعندما تنتهي البوظة، سرعان ما تشعر بالحر فتشير لنا بيدك الصارمة أنْ نخرج من الماء وينتهي المشوار!

- نعم! تبّاً لك ولذاكرتك!

يضحك. يضحك أبي، وتتشعّب ذاكرتي وتغوص كما عيناي. صرت ابن بطوطة. وصرت أرحل عبر الزمن وأعود إلى الحاضر وأخاف من عدم جهوزيتي للمستقبل.

«اذهبي، لا توقفي حياتك، واعبريها، لا تتركي شيئاً تريدينه ولا تفعلينه، كوني مغامرة وتألّقي... لا تؤجّلي. فلا أحد سوف ينتظرك».

كم كنت أريد أن أسمع هذه الكلمات من قبل، وكم كنت أودّ أن أسترجع المغامرة منّي، والجريئة فيّ. فأنا يا والدي مزيج من جنونك وعصاميّتك، ومن أمراض أمي ونكرانها وقوقعتها على الذات. كم كنت محظوظة أنّك عايدتني الثلاثين هكذا، وأنّك الآن فقط عدْت كما كنت، كما كنت أراك أنت، حين كنت أنا بعيدة عنك، وكنت أنت كما أنت.

حقا هو ليس إلهاً، وكم انتقدته وكرهته أحياناً، لكن حين تحضر الحياة هكذا بكثافة تتداخل كل التصنيفات والمراحل.





تتضارب الأولويات وتنتهي كل أنواع المهن. نتّفق أنا وهو على أنّنا مدمنان معاً على العصامية وكلمة «لا».

أوّل «لا» قالها هو لوالده. «لا» لن أبقى في المزرعة، وهرب إلى أولاد عمّه.

أبوه الذي خلّف إمبراطورية وراءه من لا شيء، وأولاده من بعده ومن بينهم خضر، اعتقد أنّه هو أيضاً الأفضل. فمحمود قصته وحدها تتطلّب نصاً آخر، والعمّ الأكبر علي كنت أعتقد أنّه جدّي وأرفض ذلك لأنّه سمين وقصير، فيما خالد لا أفهم عليه أيّ كلمة، وأعتقد أنّ الأفق ينقصه والسماء لا تحتضنه.

الأنكى أنّ عدم محبّتي للعائلة، وبصياغة أخرى، عدم تقديري ربما، أو بعدي واختلافي عنها، سهّل عليّ نموّي وتصالحي مع أمراضي النفسية لدرجة أنني بُحت ببعضها، وبدرجات سطحية منها، أمام أبي أخيراً. بحت بها واجتزت أشواطاً سريعة من حياتي، ومن عُقَدي. أنا لا أملك الوقت ولن أبوح بما يعذّبه، لن أقول له كيف تكسّرت عظام وجهي، وأنني لم أقع عن الكرسي ولم أصطدم بالخزانة بل ضُربت. ضُربت حين حاول أحد ممارسة السلطة بغيابه. فعلاً لا يليق الصولجان بأيّ رجل ولا الأمومة بكل امراة ولا الحكمة بكل عمر.

لن أقول له كيف تكسرت عظام وجهي. وأنني لم أقع عن الكرسي ولم أصطدم بالخزانة بل ضربت. ضربت حين حاول أحد ممارسة السلطة بغيابه. فعلا لا يليق الصولجان بأي رجل ولا الأمومة بكل امراة ولا الحكمة بكل عمر.

أجبر والدي على ملازمة المنزل ومغادرته بالسيارة مرة أسبوعيّاً ليغيّر النمط. ومن كان يخزّن التبغ العربي في علب الحليب تحت السرير، توقّف بكلمة واحدة، فالقلب لا يتحمّل.

لعبة الموت

في الحقيقة، أبي جبان أيضاً!

يا للهول! هذا العصامي المارد، يختبئ من الإبرة، من كل دواء، في الزاوية، من أي بداية وجع، يرفع يده ويهرول، يعتقده الجميع أنّه قد خرف وهو يخاف الألم قبل أن يأتي. وعندما يزوره صديقه تختفي عنه ملامح التعب ويباشر الكلام والمديح والسياسة والذمّ.

لمّا غادر الرفيق، آه يا أمّي! يا أمّي وينك!

في الحقيقة يصعب التصديق. يصعب التصديق أنّنا متشابهان لهذه الدرجة: لون البشرة، العينان وأصابع القدمين، الرجْلان، اليدان، والحمد لله أنّني لا أملك أنفه وليتني أخذت منه غمازتيه. نتشابه أيضاً بمدنيتنا ونظرتنا إلى العالم وأحياناً إلى الدين: أعترف أخيراً بأنّ كل دين مسيّس، وكل فكرة هي دين، وأنّنا بالدين واختياره أحرار، وأنّه يضعف أمام الناس والنميمة فتذهب عنه هذه الأفكار ويمشي مع القطيع كي لا يعاكس التيار.

في المرض تحضر الذكريات، وفي الصحة يحضر المستقبل والأمنيات. في المرض يصبح كل زي عسكري بدلة مدنيّة وكل عيب مصارحة، ويصبح كل مكتوم مصارحة.

تقع الكارثة. تدرك أنّك وحدك حقّاً، لك أهل يحبّونك وبيت يضمّك إن لجأتَ إليه، ولكن لا مرايا تعكس صورتك هناك. لا قناع حتّى تلبسَه لهم، لا لباس، ترى نفسك شبح نفسك هناك.

تدرك أنّ صورة العائلة الجميلة والكبيرة، التي علّقتها عوضاً عن الروزنامة القديمة، صورة تضم جميع الأحفاد، فيها الشقيقان وزوجاتهما والأبناء والبنات، والأختان والصهر الأوحد ولهم بنت، والأب والأم، وأنا تائهة بأي زاوية أركن.

حالياً قرب والدي. غداً قرب أمّي حين تحتاج إليّ. بعد غد قرب الأخت. ومتى سأركن أنا قرب ناي؟

تدرك أنّها صورة، لحظوية، آنية، فانية، غير طويلة الأمد، وأنّ السلطة إذ تضمّك، عنك تبعدك، وأنّ الأنا لولاه ما تحقّقت ولولا مرضُه ربما لما انصهرت فانسلخت، وأنّي الآن جاهزة، ربما، إلى حدّ ما...

وأدرك الآن أن لي ولأبي لعبة تجمعنا منذ الطفولة: «يا عباد الله وحّدوا الله، انتقلت إلى رحمته تعالى، المرحومة مريم خضر حمود، وإذا كنت عنجدّ يعني عنجدّ عنجد ميتة ارفعي إيدك اليمين لفوق! إذا كنت عنجد عنجد عنجد ميتة، ارفعي إيديك الاتنين! وإذا كنت عنجدّ أربع مرات ميتة، ارفعي إجريك الاتنين!»، «ماتت ماتت ماتت»، و«يغرغرني» وإستيقظ من الموت لأموت وأستيقظ ضاحكة. حتى لعبتنا يا أبي أو «الكود» الخاص بنا ينبع من الموت، والموت لا ينبع إلّا من الحياة. فدمتَ حياً، أو مهما دمت فدُم ضاحكاً.

يتبع

جندي سوري في لبنان
مدّ يدك لنصافحك، يا غانم!

لينة عطفة

شاعرة من سورية.

أجمل شيء أنتقيه بعد خدمة اثنين وستّين عاماً في هذه الحياة القاحلة، هو ما عشته أثناء خدمتي الإلزاميّة في لبنان.

يأخذ الرّفاق إجازة ويذهبون إلى سورية، وأنا آخذ إجازة لأتمتّع بجنّة النعيم هنا! لبنان الأخضر بمشروباته وحشيشه وترفه وقحباته الرائعات. نعم! أنا المجنّد غانم أشرب وأدخّن وأمارس الحبّ أراقب رفاق السلاح كيف يعفّشون ذلك البلد الرّائع.

يسرقون كلّ شيء، ينسلون أسلاك الكهرباء من الجدران، يقتلعون البورسلين والبلاط، يحتطبون الأرز، يهرّبون التبغ والكحول والآثار، يهرّبون حنفيّات الماء ومقابض الأبواب. ثمّة وطن يُهرّب في صناديق التبغ!

صاحبي الذي تأخّر عن غزوة أصحابه لم يجد شيئاً ليعفّشه فصادر كلبا شارداً، وقال لي ضاحكاً: يا أخي، حتّى كلابهم تختلف عن كلابنا. بلد اقتصاد الفنادق والسياحة كلابهم كلاب سياحية خمس نجوم.

أنا غانم المجنّد العادي جدّا كنت طفلاً شقيّا ومراهقاً عنيداً ومواطناً يقف في طابور الفرن ستّ ساعات، عاشقاً يواعد نصف فتيات الحيّ ويحبّ أمّه فقط، طالباً جامعيّا يكتب الفقرات المهمّة من الكتب بالإبرة على ورق السجائر ليغشّ بسلاسة وينجح بدرجة ممتاز.

ولا شيء سوى أنّ أمّي توجّهت إلى القبلة ودعت ربّها: الله يوفقك بعسكريتك يا ابني!

فكان أن استجاب الله وكانت خدمتي في لبنان الأخضر، أزقّته خضراء، بحره أخضر، شوارعه خضراء، حشيشه أخضر، مواخيره خضراء، إنّه بلد الخصوبة.

أطير ويصير خيالي أخضر وأعود إلى عاطفة الخلق الأولى التي كنت عليها. لبنان يهيّج الغرائز مثل قراءة الشعر والرواية وسماع الموسيقى. إنّه بلد له أثر كحوليّ!

لم أحزن على رفاق سلاحي الذين قُتلوا في قضايا تهريب ودعارة وسُمّوا فيما بعد شهداء. لم أحزن على البلد الذي عفّشوه.

هذا قدر الجمال منذ الأزل: التّعفيش.

حزنت مرّتين في لبنان، مرّة عند انتهاء خدمتي الإلزاميّة، ومرّة قبل انتهاء خدمتي بعام.

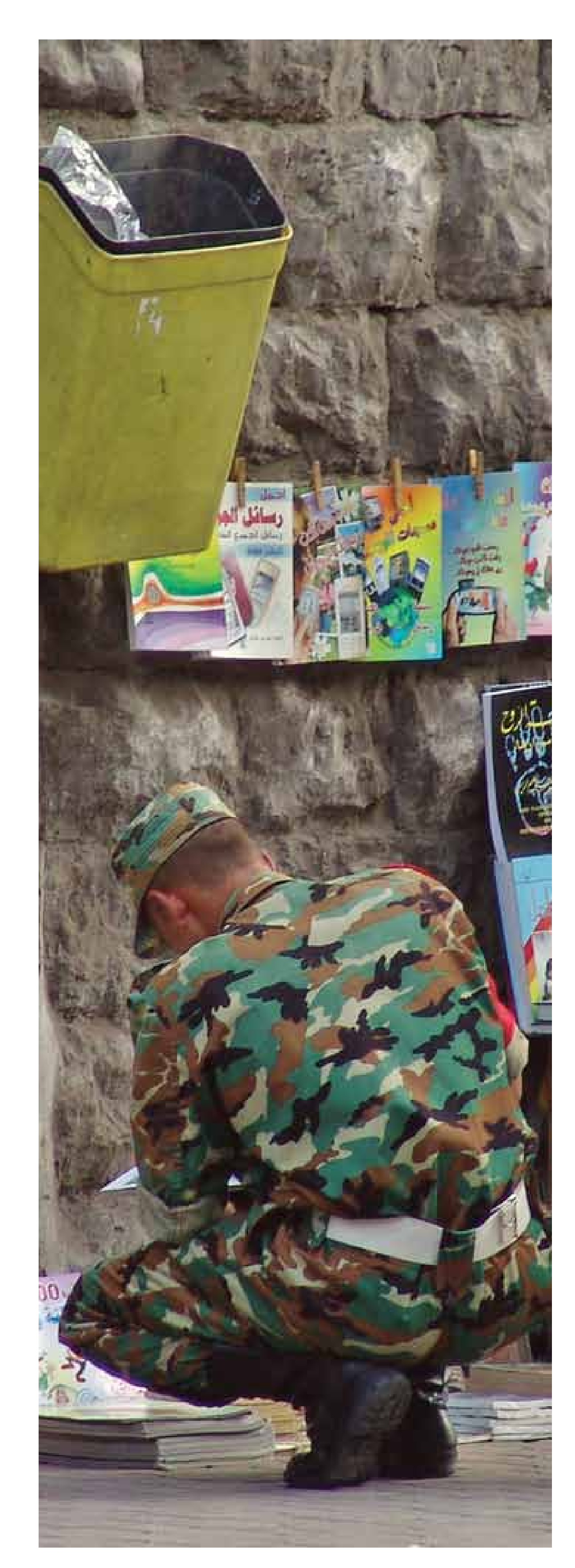
كنت في بيروت في فرن الشبّاك، الساعةَ الحادية عشرة ليلاً أمتشق بارودتي وأمشي مع صديقي نشرب الجعة ونقرط الفستق ونثرثر، فجأة سمعنا صوتاً مرعباً، صوت صراخ وعويل وتوسّلات، صوت بكاء فجائعيّ، لا أدري إن كان ذلك الضّيق في الصدر والقشعريرة في الأطراف تُسمّى خوفاً.

ركضنا باتجاه الصوت، كان خارجاً من قبو، نزلنا بسرعة ونحن نرتجف ونبعق مثل المجانين قبل أن نصل: «إيدك لفوق ولاك... هاتوا الهواوي».

سكنتْ كلّ الأصوات، ارتفع من داخل القبو صوت: «أهلا بالشباب». توقّفنا قليلاً بأنفاس مقطوعة، خرج شاب في العشرين، مجنّد سوري مثلنا عرف من لهجتنا أننا سوريون، اقترب وقال: تفضّلوا.

دخلنا بثقة وقوّة، إنهم مجنّدون سوريون مثلنا لكنهم في منطقتنا. كانوا ثلاثة مجندين يحاصرون امرأتين وثلاث فتيات وخمسة أطفال.

كانت وجوه المحاصَرين المساكين تنضح رعباً. نظرت في أعين الجنود الثلاثة وهمست لقائدهم: ما الأمر؟! فقال بابتسامة نتنة: نسوان، قليل من المتعة. تستطيعون مشاركتنا. شعرت أن حنجرتي تضخّمت وأني صرت بَجَعَةً من فرط المرارة، اقتربت من الفتى بهدوء، أحطته بذراعيّ ودمدمت: الآن سوف تذهبون من هنا بسرعة لأنّ ثمّة مؤازرة قادمة، نحن سوريون



ونُحسب على أنفسنا، لا داعي لفضيحة سوف تودي بكَ مع هذين الاثنين.

انسحب الثلاثة بسرعة دون ضجيج، التفتّ إلى المساكين المتجمّدين رعباً، كنت أتصبّب عرقاً و خجلاً. «أنا أعتذر» ــ خرج صوتي على شكل دمعة كبيرة ــ «أنا تحت أمركم جاهز لأيّة مساعدة».

أخرجتهم من القبو، طلبوا أن أساعدهم في عبور الجسر، ساعدتهم. أوصلتهم حيث يريدون، شكرونا وبكوا، تقدّمت أكبرهنّ صوبي عانقتني وقالت: شو اسمك يا ابني؟

- غانم يا سيدتي.

- المسيح يحميك، العدرا تحرسك، الله يوفقك يا غانم كيفما توجّهت.

رجعنا إلى منطقتنا ونحن في ذهول تام، لولا صدفة مرورنا قرب ذلك القبو اللعين كنّ الآن مغتصبات وغالباً قتيلات مع الأطفال الخمسة.

هكذا كان قرار العقاب على ما فعلته: خمسة عشر يوم حبس ومحروم من الإجازات حتى نهاية الخدمة. قابعا في عتمة الزنزانة أقرقش خبزة يابسة. أهمس بانتصار: الحمدلله أنه لم يغير لي مكان خدمتي ولم ينقلني. بقيت في لبنان الأخضر... زنازينه خضراء.

غفوت مرغماً تحت وطأة الكوابيس واستيقظت مذعوراً على سطل ماء اندلق عليّ، عسكريّان اثنان اقتاداني إلى مكتب العقيد.

دوت صفعته على خدّي وبعق في أذُني: اسمع يا مناضل يا كتلة الشرف اسمع، ورفع صوت المذياع عالياً: مُدّ يدكَ لنصافحكَ يا غانم، أنت عنوان الشرف والأخلاق يا غانم، أَدخِلْ رفاقك إلى مدرستك يا غانم.

دوت صفعة ثانية وثالثة على خدّي وبعق العقيد: مدرسة الشرف يا عرص؟! هذه إذاعة الكتائب يا حقير، كتائب بيت الجميّل، تستشرف على حساب رفاق سلاحك؟! يا حمار يا عتّين يا عاهر. سوف أعلّمك الشرف على أصوله، خمسة عشر يوم حبس ومحروم من الإجازات حتى نهاية الخدمة، خذوه.

قابعاً في عتمة الزنزانة أقرقش خبزةً يابسة، أهمس بانتصار: الحمدلله أنّه لم يغيّر لي مكان خدمتي ولم ينقلني. بقيت في لبنان الأخضر... زنازينه خضراء.



الحق في المدينة



أن نرسم بيروت من روايات مستأجريها

استوديو أشغال عامة

أشغال عامة هو استوديو يجمع عدداً من المعماريين/ات ومصممي/ات الغرافيك والباحثين/ات، أسّسته كلّ من عبير سقسوق ونادين بكداش في العام ٢٠١٢. في «أشغال عامة»، نجد قيمةً فعليّةً في الربط بين مجالَي التصميم والبحث من جهة، ومجال الدراسات المدينية والعمرانية من جهةٍ أخرى. ونهدف من خلال ذلك إلى تناول الشؤون العامة وقضايا الحقّ في المدينة بشكلٍ نقدي، وسياسي وخلّاق.

منذ إقرار قانون الإيجارات في نيسان ٢٠١٤ والنقاشات التي تلته، بدا واضحاً أن هناك أزمة حقيقية للسكن في لبنان، وفي بيروت تحديداً. كما ظهرت إلى العلن المعاناة التي يعيشها سكان بيروت وضواحيها في الوصول إلى السكن الكريم، وذلك جرّاء السياسات الإسكانية المتعاقبة منذ أوائل سنوات التسعينيات.

بالرغم من هذه الأزمة، ظل النقاش حول قضية الإيجارات القديمة والقانون الجديد يتمحور حول ثنائية المستأجرين مقابل المالكين، في حين يُخفى دور السلطات العامة في نشوء هذه الأزمة وفي مسؤوليتها لضمان حق السكن من خلال وضع سياسات إسكانية تأخذ بعين الحسبان أوضاع السكان كافّةً.

غير أنّ السياسات العامّة التي تبنّتها السلطة اللبنانية والقائمة على السوق والاستثمار العقاري، تسبّبت في تشكيل مستقبلٍ مديني لا يراعي القاطنين في المدينة على اختلاف قدراتهم وتنوّع حاجاتهم، وأدّت إلى الحدّ من إمكانية السكن في بيروت، وإلى إخلاء العديد من الأسر منخفضة ومتوسّطة الدّخل، من البيوت والأحياء التي لطالما عاشت فيها واستمدّت سبل العيش منها. وتمّ الترويج لفكرة أنّ السوق قادر على تأمين السكن للجميع، فاختزلت الدولة «سياسة الإسكان» وحوّلتها إلى زمرة محدودة من الوسائل القائمة على السوق، مثل القروض السكنية المصرفية وغيرها من التسهيلات من القطاع الخاص، علماً أنّ العرض السكني الموجود في السوق، إن كان للإيجار أو التملّك، غير متاح لأكثر من ٧٠٪ من العائلات اللبنانية، وهذه لا يتجاوز معدّل دخلها السنوي ١٠ آلاف دولار (أرقام تستند إليها وزارة المالية في دراسة لها عن عجز الخزينة في تسديد بدل الإيجار المثل للمستفيدين من الصندوق المزمع إنشاؤه مع إقرار قانون الإيجارات الجديد). كما أنّ هناك «تحوّلاً للمصارف التجارية اللبنانية إلى الموقع المتشدّد في إعطاء القروض السكنية، وذلك من منطلق زيادة عدد حالات عدم القدرة على دفع المُستحقات» (جريدة النهار، صفحة الاقتصاد، موريس متى «أفق القطاع العقاري ضبابيّة في غياب السياسة الضريبية» ٢١ تشرين الأول ٢٠١٥).

ضمن هذا السياق، تمّ تطوير مشروع «أن نرسم بيروت من روايات مستأجريها» والذي نحن بصدد العمل عليه. يمثّل المشروع مبادرةً لمناقشة إمكانات السكن في بيروت، وفهمها ضمن سياقها التاريخي والاجتماعي. فيه، نركّز على تجارب المستأجرين القدامى في تأمين السكن، وعلى المحاولات المستمرّة لإخلائهم. يهدف المشروع إلى إعادة صياغة النقاش حول قوانين الإيجار والسكن، وطرح وجهات نظرٍ جديدةٍ انطلاقاً من مفهوم الحقّ في المدينة، من أجلِ مواجهةِ الضغوطات القائمة، وإيجاد مساحةٍ لمناهضة السياسات الحالية.

استمددنا العنوان الأساسي لهذا المشروع – الإيجار – من الأهمية التي نجدها في بلورة مفهوم للسكن وللحق في البيئة المبنية والطبيعية لا يتطابق بالضرورة مع المفهوم الحصري للملكية الفردية والذي أيضاً لا يستطيع أن يؤمّن حاجة الناس، على اختلافهم، إلى السكن اللائق.

منهجيّة المشروع تعتمد على إشراك الشباب والطلاب من مختلف الأحياء والجامعات، في عمليات البحث والتفكير والإنتاج، من خلال ورش عمل عن عدة أحياء سكنية في بيروت، تمّ اختيارها بسبب كثافة المستأجرين القدامى فيها ولكونها أحياء «شعبية»،

أي أنّ سكّانها من الطبقات الوسطى أو دون الوسطى سكنوا أحياءها وبيوتها باستمرار على مرّ ثلاثة عقود على الأقل. هذه الأحياء تتغير جذريّاً، لكن ما زال يوجد فيها نسيج عمرانيّ واجتماعيّ متّصل بتاريخها، غير أنه معرّض أيضاً إلى تغيّرات عنيفة. ورش العمل تتوزّع على الباشورة، الطريق الجديدة، البدوي، المصيطبة، مار مخائيل/الروم، الشياح، وكتل سكنية متفرقة (في أحياء المدوّر، راس بيروت، عين التينة، الناصرة، المزرعة والبسطة). نعرض هنا بعض نتائج ورش العمل التي تم إنجازها: الباشورة، الطريق الجديدة، البدوي والمصيطبة.

حيّ الروم / مار مخايل

تكوّنت منطقة الرميل، الممتدّة من هضبة الأشرفية الى شارع مار مخايل، وشهدت نموّاً عمرانيّاً وسكانيّاً في وقت متأخّر، وذلك مقارنةً مع الأحياء «البرجوازية» القديمة الأخرى الكائنة في محيط وسط بيروت التاريخي. عموماً، ظلّت هذه المنطقة ذات أراضٍ زراعيّة حتى فترة الانتداب الفرنسي، باستثناء الحيّ المحيط بمستشفى السان جورج والمنطقة السفلى، وذلك عقب تأسيس السكك الحديدية ومحطّة قطار مار مخايل في العام ١٨٩١. وأدّى نشاط الإرساليات الفرنسية كالمدارس والمستشفى والكنائس فيها إلى جذب الكثير من سكان المناطق المجاورة إليها، أضف لجوء الأرمن من مخيم الكرنتينا إلى الحيّ. ومع إنشاء محطّة الترامواي في أول شارع مار مخايل، شهد الشارع خلال سنوات العشرينيات تصاعداً كبيراً في وتيرة التوسع العمراني. بعد الاستقلال في سنوات الأربعينيات، وتحديداً بعدما تحوّل شارع مار مخايل إلى شارع تجاريّ وحرفيّ بامتياز، وبعدما انتقلت إليه الكثير من العائلات منخفضة الدخل والعمال للاستفادة من الحركة التجاريّة، عمد بعض مالكي الأراضي الموازية للشارع (معظمهم من الروم الأرثوذكس) إلى بيع أراضيهم أو إخلاء بيوتهم وتأجيرها للقادمين الجدد من الأرياف. وهؤلاء بدورهم أخذوا يشترون الأراضي وينتقلون إلى التلال المحاذية في الأشرفية، مثال حيّ الروم. وهكذا أصبحت مار مخايل منطقة سكنية للفئات الاجتماعية متوسطة الدخل والفقيرة. لكنّ تلة حيّ الروم بدورها ــ وبعدما كانت مصيفاً للعائلات الثرية ــ استقبلت أيضاً الوافدين الجدد إلى المدينة، وذلك ابتداءً من سنوات الثلاثينيات عندما قدم إليها عمّال سكة الحديد أو العاملون في المرفأ أو موظفو شركة كهرباء لبنان ومعمل البيرة حتى سنوات الخمسينيات والستينيات عندما بدأت «الروم» تشهد زيادة قويّة في عدد السكان، ونقصاً في الخدمات العامة الأساسية. اليوم عدد كبير من مبانيها يعاني من انعدام الصيانة ويعاني السكان من عدم الاستقرار والتهديد بالإخلاء بسبب موجة الاستثمار العقاري والخدماتي التي حصلت في شارع مار مخايل خلال السنوات العشر الماضية. وتشير دراسات إلى أنّ ٧٥٪ من سكان الرميل هم من المستأجرين، كما أنّهم من أصحاب الدخل المتدني. وعلى الرغم من بعض التحوّلات في الملكية، ما زال حيّ الروم تحديداً محافظاً على نسيجه السكاني والعمراني. وبسبب قلّة المساحات العامّة فيه تاريخياً، يتميّز بكثرة الفسحات المشتركة بين الأبنية، الأمر الذي أدّى إلى خلق نوع آخر من المساحات العامّة تتمثّل بالممرّات والشوارع الضيّقة والأدراج العامّة، فتشكلت فسحات عامّة للّقاء والتسامر على هذه الأدراج.

المصيطبة

إنّ المنطقة التي تسمى اليوم المصيطبة كانت امتداداً صخرياً لما كان يُسمّى البريّة. وينحرف اسمها من كلمة «مصطبة»، فقد كانت ــ كما حالها اليوم ــ مرتفعة عن مستوى المدينة القديمة وبعيدة عن بحرها. تشير المصادر إلى أنّ المماليك حوّلوها إلى قاعدة عسكرية لمحاربة الصليبيّين في العام ١٢٩١، وضمّت أبراجاً عديدة عسكرية ومدنية سُميّت بأسماء عائلات للدفاع عن بيروت: برج أبي حيدر، برج بيّهم، برج سلام.

قبل أعمال التنظيم وشقّ الطرقات التي نفّذتها سلطات الانتداب الفرنسي، كانت المصيطبة عبارة عن أراضٍ كبيرة من الصبار. وبعد فتح سور بيروت القديمة وخروج العديد من العائلات منها خلال سنوات العشرينيات والثلاثينيات، أخذت العمارة تنطلق في قرية المصيطبة من مساكن وبيوت في الأراضي المحيطة بأطرافها. كانت المصيطبة وبرج أبي حيدر مصيفاً للعائلات البيروتية من رأس بيروت وأحياء أخرى لكونها منطقة مرتفعة مشجّرة ولأن مناخها معتدل.

وكانت العائلات المسيحية تشكل جزءاً كبيراً من مالكي الأراضي والسكان. أرثوذكس المصيطبة هم، عموماً، ملّاكو عقارات وسطى وكبرى. تملّكهم للأراضي

بدأ مع بداية سنوات العشرينيات عندما قامت وهبت سلطات الانتداب الفرنسي الأراضي إلى عائلات الروم الأرثوذكس في منطقة المزرعة. أمّا السريان، فخلال سنوات العشرينيات أتت عائلات سريانية من تركيا هرباً من المجازر، وسكنوا في المصيطبة حيث قدمت لهم السلطات الفرنسية أراضي وأسسوا مدرسة مار سواريوس وكنيسة مار بطرس وبولس.

في بداية الخمسينيات، ترك العديد من العائلات قراهم في الجنوب ونزلوا إلى بيروت. بعد نكبة فلسطين التي كانوا يقصدونها للعمل أتوا إلى بيروت وعملوا في المرفأ وفي أعمال البناء وعمال نفايات في بلدية بيروت واختاروا المصيطبة للسكن فيها.



القسم الشمالي من المصيطبة معروف بمنطقة «آل سلام»، العائلة التي كانت تملك معظم العقارات والأملاك في المنطقة. كانت منطقة ذات بيوت تشبه القصور، وتملكها عائلات سنّية من بيروت، وحولها مساحات من البساتين. كانت تلك العائلات السنية متوسّطة الدخل، ويعمل معظم أفرادها موظفين في مرفأ بيروت وشركتي الكهرباء والمياه. وكان قسم منها يملك إصطبلات في حي العانوتي القريب من قصر سلام، لتربية البغال المستعملة في نقل البضائع والخشب من المرفأ إلى سوق النجّارين والأسواق التجارية الأخرى.

في بداية الخمسينيات، ترك العديد من العائلات قراهم في الجنوب ونزلوا إلى بيروت، بعد خسارة فلسطين التي كانوا يقصدونها للعمل. أتوا إلى بيروت وعملوا في المرفأ وفي أعمال البناء وعمال نفايات في بلدية بيروت. اختاروا المصيطبة لأنه كان فيها ما يسمى ببيوت «الدار» التي يتكوّن الطابق الأرضيّ الرمليّ فيها من غرف متعدّدة كان بإمكانهم استئجارها بشكل تشاركي بين عائلات عدّة.

هذه العوامل جعلت من المصيطبة منطقةً متنوّعة وذات تلاحم سكني اجتماعي، إلّا أنّه لم يستمرّ من دون تحدّيات، لا سيما بعد شقّ طريق سليم سلام في العام ١٩٧٢ ثمّ تأثير سنوات الحرب الأهليّة.

الطريق الجديدة

تُعرّف الطريق الجديدة تاريخياً على أنها المنطقة الممتدّة من ثانوية المقاصد في الحرج من جهة الشمال حتى آخر شارع صبرا من جهة الجنوب. قبل أن تعرف العمران منذ نحو نصف قرن، كانت تسمّى تلة زريق نسبةً إلى إحدى العائلات المسيحية المعروفة بآل زريق التي كانت تملك مساحة كبيرة من التلّة المحاذية لمنطقة المزرعة والتي كانت تعرف من قبل باسم مزرعة العرب. وبسبب اتّساع هذه الهضبة الرمليّة وخلوّها من السكّان والعمران، كان البيروتيون يتّخذونها متنزّهاً ويقصدونها مع عائلاتهم لقضاء عطلهم الأسبوعية. بدأت عمليّات البناء والسكن في منطقة الطريق الجديدة في أوائل القرن العشرين، تحديداً مع بداية مرحلة الانتداب الفرنسي عندما انتقلت إليها عائلات من المدينة القديمة. في ذلك الوقت، كان يغلب الطابع الزراعي على المنطقة وكانت تستخدم لتربية الحيوانات والماشية. مع بداية سنوات العشرينيات، وهبَت سلطات الانتداب الفرنسي أراضي في الطريق الجديدة إلى بعض السّكان الروم الأرثوذكس القاطنين في منطقة المزرعة شمال الطريق الجديدة. خلال سنوات قليلة، فرَز المالكون الجدد العقارات الكبيرة من عشرة آلاف متر مربّع إلى عقارات صالحة للبناء. وأخذت العائلات التي انتقلت من المدينة القديمة أو البسطة تشتري قطع الأرض المفرزة وتبني عليها بغاية تحسين وضعهم السكني. في العام ١٩٣٥ أقامت فيها سلطات الانتداب سجناً سُمي سجن الرمل وتم ربطه مع المدينة من خلال طريق واحد: الطريق الجديدة.

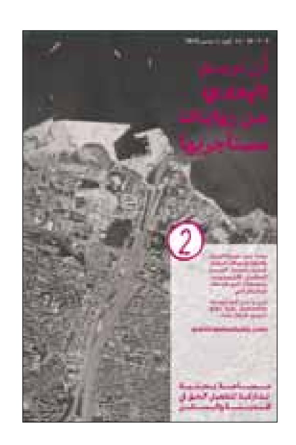
مع توسّع العاصمة في الثلاثينيات، قدِمت إلى الطريق الجديدة عائلات من إقليم الخروب بحثاً عن فرص العمل والدراسة في العاصمة. في العام ١٩٤٦ نزح الكثير من عائلات الساحل الفلسطيني إلى الطريق الجديدة. كان الحي حينها يعتبر منطقة عمرانية جديدة مع توفر مساكن غير مشغولة. مع توافد العائلات أنشئ الملعب البلدي ومطار بئر حسن وعدد من الخدمات العامة. إلى جانب هذه العائلات التي تسكن الحي منذ أكثر من سبعين سنة، هناك سكان استقروا في المنطقة في سنوات الستينيات مع تأسيس جامعة بيروت العربية. حينها تغير طابع الحي ليستقطب طلاباً لبنانيين وعرباً سكنوا في المنطقة وساهموا في تنوع السكان وإنشاء المقاهي. أما بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨٢، فقد كان تأثير المنظمات الفلسطينية قوياً في الحي. وكانت منظّمة التحرير الفلسطينية هي التي توفّر خدمات كالمياه والكهرباء في الحي. وبعد انسحابها عام ١٩٨٢، عانى

الحي من نقص حادّ في الخدمات. حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية، كان دور الدولة اللبنانية شبه غائب، ممّا أفسح المجال أمام الجمعيات، خصوصاً الإسلامية منها، لأن تلعب دوراً أساسياً في تقديم الخدمات والمساعدات للعائلات المحتاجة.

البدوي

يقع حي البدوي على حدود بيروت الإدارية من جهة الشرق، فهو آخر حيّ ضمن المنطقة العقارية التابعة للأشرفية حيث يشكّل نهر بيروت فاصلاً بينه وبين المنطقة التابعة لبلدية برج حمود. ومنطقة البدوي تُعرف تاريخياً على أنها المنطقة حول شارع خليل البدوي الممتدّ بموازاة نهر بيروت من تلال كرم الزيتون حتى شارع أرمينيا. قبل إنشاء شارع خليل البدوي، كانت المنطقة عبارة عن تلال حرجيّة وزراعيّة تمتدّ من خطّ سكة الحديد شرقاً نحو نهر بيروت.

وصل إلى بيروت ما يقارب عشرة آلاف أرمني هربا من المجازر في منطقة كيليكيا. في وقتها، اتخذت منظمات الصليب الأحمر وسلطات الانتداب الفرنسي إجراءات من أجل إقامة آلاف الخيم على أرض فارغة في الشمال الشرقي من بيروت.



في عام ١٩٢٢، وصل إلى بيروت ما يقارب عشرة آلاف أرمني هرباً من المجازر في منطقة كيليكيا. في وقتها، اتخذت منظمات الصليب الأحمر وسلطات الانتداب الفرنسي إجراءات من أجل إقامة آلاف الخيم على أرض فارغة في الشمال الشرقي من بيروت، تحديداً في منطقة المدوّر.

وتشكّلت مع قدومهم أولى الأحياء غير الرسمية في بيروت وذلك عبر إنشاء مخيم المدوّر في الكرنتينا. ابتداءً من عام ١٩٢٦، وبمبادرة من جمعيات أرمنية وبمساعدة من سلطات الانتداب، تم اقتراح حلول دائمة لسكن اللاجئين الأرمن خارج المخيمات، وبالتالي نقلوا تدريجياً إلى مناطق مجاورة خارج منطقة الكرنتينا، مثل برج حمود وكرم الزيتون ومخيم هاجين وخليل البدوي. كانت هذه الأحياء أيضاً في عهد الانتداب قريبة من فرص العمل بسبب وجود الثكنة وسكة الحديد والمرفأ وبسبب قربها من وسط بيروت.

منذ أن بدأ العمران في المنطقة، كان حزب الهنشاك الأرمني فاعلاً فيها. مع اندلاع ثورة **١٩٥٨** وقف الحزب إلى جانب اليسار اللبناني معارضاً الرئيس كميل شمعون. حينها تحوّلت منطقة البدوي إلى خطوط تماس. وإثر الصراعات السياسية التي نشبت بين حزبي الطاشناق والهنشاك، رحل داعمو الطاشناق من منطقة البدوي باتجاه برج حمود، فتحوّل عدد من البيوت إلى مساكن شاغرة، انتقلت إليها وسكنتها لاحقاً عائلات مارونية كانت قد قدمت من الشمال إلى بيروت بحثاً عن العمل.

في بداية الحرب الأهلية، تحديداً في عام **١٩٧٦**، قُصفت منطقة البدوي وتهجّر بعض أهاليها. عندها أيضاً قدم سكان جدد إلى الحيّ وأخذوا مكانهم.

خلال الأعوام القليلة الماضية، وقبل أن تتحوّل الطوابق الأرضية للأبنية السكنية إلى مقاه ومطاعم في شارع مار مخايل، كان انخفاض سعر متر الأرض وكلفة الإيجار في الحي مقارنة مع مناطق أخرى في الأشرفية جاذباً لسكان جدد. إذ اعتبرت البدوي على أطراف المدينة (كضاحية لها) لكن في الوقت ذاته تتمتع بميزات بيروت الإدارية كالكهرباء.

السكن في الإيجار

ركّزنا في رسم الخرائط على ناحيتين، الأولى تحديد الأبنية التي يسكن فيها المستأجرون والمالكون القدامى والثانية تحديد الأبنية التي يسكن فيها المستأجرون القدامى والجدد. في توزّع السكان القدامى، تمنحنا الخرائط قراءة عن نسبة الكتل السكنية التي لم تتعرّض لتغيّرات عمرانية منذ عام ١٩٩٢، وذلك حين أوقف العمل بمبدأ ضبط الإيجارات للعقود الجديدة وصدر قانون الإيجارات ٩٢/١٦٠ الذي مدّد العقود القديمة.

أما في توزع السكان الجدد غير المالكين، فوجدنا ترتيبات سكنية متنوعّة. تستقطب منطقة البدوي كثيرين يرون فيها ميزات لها علاقة بموقعها وقربها من وسط المدينة، كما بنسيجها العمراني، حيث تتراوح معظم أبنيتها بين الثلاث والخمس طبقات (خريطة). ففي هذه المنطقة سوق الإيجار حيوي يخلق العرض المناسب لطلب من شريحة متنوعة تضمّ طلاباً وعمّالاً. لجأ المالكون الى ترتيبات جديدة يقسمون فيها الشقق الى «فوايّهات»، فيخلقون شققاً صغيرة نابعة من حاجة سكان المدينة لها. هنالك كتلتان بالتحديد



سمحتا بحصول تنوّع في سوق السكن. الأولى حيث يقع كامب هاجين، وهو مشروع سكني بدأ عام ١٩٢٢ مع خروج الأرمن من المخيمات حيث تم شراء عقارين من قبل جمعية أرمنية وتقسيمهما إلى عقارات صغيرة وتصميم مشروع سكني وفق تصميم توجيهي. ويُتداول أنه يمنع الهدم داخل حدود كامب هاجين. أما الكتلة الثانية فهي كامب الأبيض، في الطرف الآخر من منطقة البدوي. يقع هذا الحي على هضبة متضرسة، تعرّضت مشارفه إلى إخلاء السكان وتخريب المباني، كما سنرى لاحقاً.

أمّا في خريطة المصيطبة فتشييد سليم سلام، كما المباني التي تمّ بناؤها بعد ١٩٩٢، يبدو واضحاً في تقليص المستأجرين القدامى. يقال في الحي إنه تم إخلاء الكثيرين بعد العام ١٩٩٢، إنّما بتعويض مرتفع «غالي»، كاف لشراء شقة من دون قروض مصرفية أو يسمح لهم بالبقاء في الحي، فنرى أن الأحياء التي ما زالت تحافظ على نسيج مترابط بعيدة عميقاً عن الأوتوستراد من جهتيه، وعن الأبنية الجديدة التي تم بناؤها على مشارفه. فنجد من جهة منطقة مليئة بالزواريب، يتناول السكان اسماً محدداً لكل زاروب منها (زاروب الصفح، زاروب الباشا، زاروب الفرن، حي آل عبلا). ومن الجهة الثانية، نجد حي اللجى وحي آل سلام، حيث مقهى المصيطبة الشهير. هذه الأحياء سكّانها خليط من مستأجرين ومالكين قدامى، يسكنون في المبنى ذاته بنسبة كبيرة من أبنية هذه الأحياء. أمّا المستأجرون الجدد فالواضح أنهم من منطقة البدوي، بعيدون عن السكان القدامى، مع وجود العديد من الاستثناءات.

تشير جميع هذه المعلومات إلى أنّ الإيجار لا يزال الوسيلة الأساسية والمتاحة للوصول إلى السكن في بيروت.

السكن خارج نطاق السوق

وفي غياب قانون إيجار جديد عادل وسياسة سكنية، وجدنا طرقاً بديلة للوصول إلى السكن يمكن البناء عليها لخلق فرص سكن خارج نطاق السوق. فبالعودة إلى منطقة البدوي، وجدنا ترتيبات سكنية مرتبطة بمؤسسات دينية أو أهلية تؤمّن السكن في الحيّ، وتحديداً تعمل لإبقاء السكان القدامى في أماكنهم، حيث ثمة عقارات عدة للدير توفّر السكن بأسعار زهيدة، في نوع من ضبط الإيجار. وهناك أيضاً ظاهرة «السكن الموقّت»، التي هي مبادرة محليّة يقوم بها المجتمع الأرمني من أجل الحفاظ على تماسكه الاجتماعي وتأمين السكن المدعوم. إذاً، بمبادرة من ناد أرمني، يوجد في البدوي مبنى يملكه النادي ويهدف إلى مساعدة العائلات غير الميسورة في السكن الموقت لفترة سنة أو سنتين من دون مقابل. يتألف البناء من أربع طبقات، يسكن المالك في شقة، وباقي الشقق تسكنها عائلات أرمنية غير ميسورة. وهنالك أيضاً عقارات مالكوها غير موجودين، توفّوا ولا ورثة لهم، تسكن فيها عائلات جديدة. لتأمين جزء من الحاجة إلى السكن الميسّر، تمنح هذه الأمثلة إمكانية تأمين أراض غير خاضعة للسوق العقاري، بحيث يمكن أن تتحوّل هذه العقارات إلى أراض تشبه نظام الوقف.

لكن تبقى هذه البدائل والترتيبات السكنية وحدها غير كافية لتوفير السكن الميسّر لمعظم الساعين إلى إيجاد مسكن. فدور الدولة كمساهم في توفير السكن انتهى مع إيقاف العمل بمبدأ ضبط الإيجارات وتحوّلت إلى داعم لرؤى الاستثمار العقاري. ويتّضح تأثير هذا الدور في ناحيتين. من الناحية الأولى نرى أبنية فخمة، تحتوي على شقق عديدة خالية، وظاهرة التأجير المؤقت للسيّاح التي تنتشر في أبنية قديمة يجري ترميمها لجذب المولعين بالتراث من الأجانب، ويصار إلى عرضها على المواقع الإلكترونية (مثل AIR BNB). ومن ناحية أخرى أكثر عنفاً، يكون الإخلاء المستمرّ للسكان القدامى من بيوتهم وطردهم من أحيائهم. يؤثّر هذا التوجّه مباشرة على العلاقات الاجتماعية والتركيبات المكانيّة للأحياء، وعلى السكن الهش للعديد من المستأجرين الجدد.

ففي المصيطبة مثلاً، هنالك شقة يشغلها، ما لا يقلّ عن ٦٠ مستأجراً من العمّال من الجنسية البنغلاديشية، والغرف مجهّزة بأسرّة مزدوجة. دخلها أحد المشاركين في الـ«ورشة» بعد أن ركل المالك الباب ودخل على المستأجرين بلا إذن. كما أنّ معظم الأبنية المهجورة في المصيطبة يسكنها حالياً عمّال من دون عقود مبرمة.

الإخلاء والهشاشة

لعمليات الإخلاء وقْع كبير على السكان، بالأخص المجموعات الهشّة المعرّضة للتعنيف والتي لا تمتلك ضمانات أخرى. فالقانون الجديد ــ أو عمليات السوق ــ لا تأخذ بعين الاعتبار الفئة العمرية أو مستوى الدخل أو الوضع الصحّي والجسدي.

في خريطة البدوي، على مشارف كامب الأبيض



المصيطبة
خريطة توزع الإيجار
أقلية
أكثرية
سكن مستأجرين قدامى
سكن مالكين ومستأحرين قدامى
سكن مستأحرين جدد
أرضي تجاري إيجار قديم
مبنى بعد ١٩٩٢
مبنى لم يشمله المسح
بيت سلام



تم إخلاء وتخريب حوالي ١٤ مبنى من قبل البلدية، كما يقال، كي لا يسكن عليها أحد أو يستولي عليها، وكان سكّانها مالكين ومستأجرين لكن لم يكن لديهم سندات ملكية. يُقال إنّ عائلة وحيدة لديها أسهم في الأرض، تم إخلاؤهم جميعاً ما عداها. وهنالك حركة شراء عقارات منذ ٢٠١٠، منها ما يضمّ أبنية يسكنها مستأجرون، ممّا يقتضي ضمناً إخلاءهم. بالإضافة إلى عمليّة تحويل مبانٍ خلال السنوات الأخيرة إلى مطابخ مطاعم، معظمها على شارع مار مخايل الرئيسي.

إن التغيير السكاني والاقتصادي للحي من خلال إخلاء السكان القدامى والتجارات الصغيرة يؤثر على حياة الحي وديمومة السكن الميسر.



والانتقال من البيت الذي لطالما سكنه الفرد، وخصوصاً عندما يضطر للانتقال في شيخوخته، يشكّل تعنيفاً نفسياً وعاطفياً. ويجابه هؤلاء من خلال البقاء في الحيّ حيثما استطاعوا، يساعدهم على ذلك علاقاتهم الاجتماعية. وجدنا هذا الإصرار في الطريق الجديدة، ونروي تفاصيله من خلال قصتين:

- جمانة: عائلتي مؤلّفة من ٧ أشخاص، نشأنا وترعرعنا في منطقة الطريق الجديدة والآن جميعنا نعيش معاناة انتقالنا من منزلنا الأساسي إلى برجا التي لا يربطنا بها سوى المنزل الجديد الذي نسكن فيه. معاناتنا اليوميّة هي توجّهنا إلى بيروت بسبب عملنا والعودة ليلاً، وما يتضمن ذلك من بُعد المسافة وزحمة السير وتكلفة المواصلات. المشكلة الكبرى تكمن في البعد عن المكان نفسه: العادات، الجيران، الأصدقاء. كل هذا أدّى إلى الشعور بالغربة، هذا الانسلاخ الذي لم أستطع التعوّد عليه. قرّرت العودة إلى السكن في بيروت واستئجار غرفة في منزل مشترك (فوايّيه) يضمّ عدداً من الصبايا حتى أتمكن من معاودة عملي والعيش ضمن المحيط الذي تعوّدت عليه. وكان قرار مشاركة السكن مع أخريات مشكلة أيضاً (فأنا في الأربعينيات من العمر)، لكنّه الأسهل والأوفر نظراً إلى ارتفاع الإيجارات واستحالة شراء منزل في بيروت.

هذا الإرباك وذاك التوتّر عانتهما العائلة كافةً وتحديداً الوالدة التي تأثّرت بالموضوع وشعرت بالوحدة وصعوبة الاختلاط بالمجتمع الجديد والبُعد عن مكان مكثت فيه ما يقارب الستّين عاماً! ممّا أدّى إلى تدهور صحّتها وإدخالها المستشفى عدّة مرات.

- الحاجة وفيقة: سيّدة مُسنّة من مواليد ١٩٣٢، استأجر والداها في الطريق الجديدة في العام ١٩٥٥، بقيت في المأجور حتى العام ٢٠١٢ عندما تمّ إخلاؤها، وهي في الثمانين، بتعويض قيمته خمسون ألف دولار. ومن شدّة حبها للمنطقة وعمق ارتباطها بأهاليها، ساعدها الأصدقاء والأهالي على إيجاد شقة في الشارع ذاته، تدفع إيجارها من التعويض الذي أخذته والذي سيكفيها بضع سنوات، وهي لا تستفيد من أي ضمان للشيخوخة في حال مرضها.

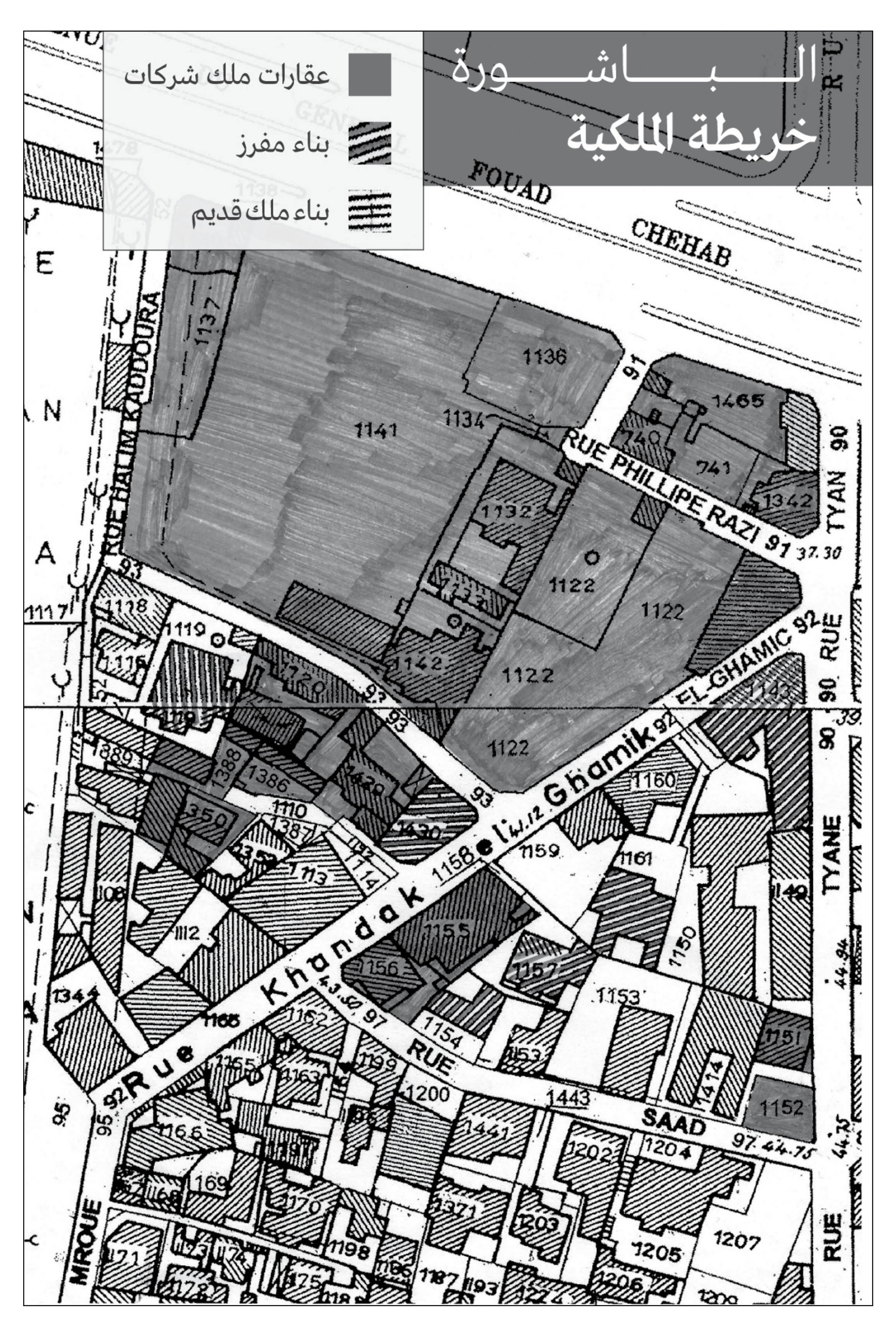
رصدنا خلال العمل الميداني في منطقة ضمن الطريق الجديدة ٣٢ مبنى خالياً أو قيد الإخلاء. أحد تلك المباني مؤلف من ٢٨ شقة، تقطنها أكثرية من المسنّين، مع وجود أشخاص مقعدين. وهنالك العديد من المباني المهدّدة بالإخلاء والهدم في منطقة المصيطبة. يسكن العديد من تلك المباني مالكوها فقط دون غيرهم، مما يثير السؤال حول مفهموم سائد يعتبر الإيجار القديم مسبباً حصرياً لهدم المباني القديمة.

إنّ التغيير السكّاني والاقتصادي للحيّ من خلال إخلاء السكّان القدامى والتجارات الصغيرة يؤثّر على حياة الحيّ دوديمومة السكن الميسّر فيه وق عرضنا بعضاً من جوانبه. فهذه الأحياء تعتبر من الأحياء «الشعبية»، وهذا عامل أساسي في جعلها متاحة للسكن من خلال الإيجار الجديد. لذلك فإنّ وضع سياسات تحافظ على نسيج الأحياء، يبدو الأنسب لخلق ديناميكية سليمة في الوصول إلى السكن بما يتناسب مع حاجات الناس.

رسم مستقبل المدينة السكني، في خدمة مَن؟

إذاً، لِمَن المدينة وكيف يُرسم مستقبلها السكني؟

عندما صدر قانون الإيجارات الجديد، كان شعاره الأساسي إنصاف المالك القديم. لكن تشير دراسات عديدة، ومنها التي أجرتها «المفكرة القانونية»، إلى أنّ الجهة المستفيدة من القانون الجديد تتمثّل في أصحاب الرساميل الكبرى. إذ تشير الدراسة إلى أنّ القانون يتضمّن في تفاصيله إجراءات بالغة التعقيد والكلفة ويحمل في طياته بذور تأجيج المواجهات والصراعات بين المستأجرين والمالكين. وتشرح الدراسة:



الباشورة
خريطة الملكية
عقارات ملك شركات
بناء مفرز
بناء ملك قديم
FOUAD
CHEHAB
RUE HALIM KADDOURA
RUE PHILLIPE RAZI
TYAN
EL-GHAMIC
Rue Khandak el Ghamik
RUE
SAAD
MROUE
TYANE



«تبعاً لذلك، تكون الجهة المستفيدة منه، ليست فئة المالكين القدامى، ما دامت هذه الفئة تتحمل مباشرة نتائج تعطيل أيّ من المؤسّسات المنشأة بموجب القانون ومخاطر أيّ مواجهة مع المستأجرين. إنّما تكون الجهة المستفيدة هم أصحاب الرساميل الكبرى الذين بإمكانهم وحدهم تقديم حلول مالية لتحرير المالكين والمستأجرين من أعباء المواجهات المرجحة بينهم بثمن يقلّ بقدر ما تزداد حدّتها وكلفتها... وإذا علمنا أنّه كان بالإمكان الوصول إلى تحرير الإيجارات من خلال اعتماد معايير أكثر بساطة (مثلما حصل في باريس)، لا نبالغ إذا قلنا إنّ تأجيج هذه المواجهة المنهكة هو الركن الأساسي الذي بُني عليه هذا القانون أو على الأقل سمته الأساسية. وهي خلاصة تشير إلى قوة التزام البرلمان بتغليب كفّة أصحاب الرساميل ومصالحهم، حتى ولو حتّم عليه ذلك التضحية بوظيفة الدولة الأساسية في تعزيز الوئام الاجتماعي».

من الناحية المدينيّة، كانت واضحةً في الأحياء التي أجرينا البحث فيها عملية تغيّر ملكيّة العقارات ورسم مستقبل بيروت لصالح هذه الفئة من المطوّرين العقاريّين. ففي البحث الذي أجريناه في حيّ الروم، على سبيل المثال، نرى كيف أنّ شارع الخازنين يتعرّض لبيع هائل للأراضي أو عروض للبيع بعد صدور القانون. هذه الخريطة تشير إلى العقارات التي انتقلت ملكيتها أو عُرضت للبيع خلال السنة الماضية، والتي بغالبيتها عليها مبانٍ سكانها من المستأجرين القدامى.

نحن مهتمون بفهم الوسائل التي من خلالها يفهم سكان بيروت القدامى وجودهم في المدينة عبر الإيجار وكيف تغير هذا المفهوم مع الوقت. الأمر الذي يطرح علينا مداخل جديدة للنظر.

من ناحية أخرى، وأبعد من قانون الإيجارات الجديد، يشكّل الإطار التشريعيّ الحاليّ حافزاً أساسياً لبيع المالكين القدامى لعقاراتهم لمصلحة شركات عقارية تسيطر كل السيطرة على إنتاج المدينة. فارتباط الطبقة السياسية والحاكمة ارتباطاً حميماً مع قطاع التطوير العقاري، وتقديم تسهيلات للمستثمرين من خلال تخفيضات في الضرائب العقارية والاستثمار، وصعوبة البناء على العقارات الصغيرة بسبب نسبة البناء مقارنةً بأسعار الأراضي، جميعها أنتجت عمليّات كثيفة لبيع الأراضي من المالكين القدامى إلى مستثمرين.

تظهر هذه الحالة في العديد من الأحياء. بالنظر إلى خريطة الباشورة التي تقع على حدود سوليدير وتتعرّض إلى تغيّرات جذريّة بسبب موقعها، نرى كمّية المباني المهجورة والعقارات الفارغة والمباني الجديدة على أطرافها. بالتدقيق في ملكية بعض هذه الأراضي الفارغة، جميع العقارات في اللون الزهري هي ملك ثلاث شركات عقارية: العالية، الباشورة وبلاتينوم، جميعها ملك طلال الزين وأفراد من عائلته التي أيضاً تملك المشروع الضخم المجاور في الباشورة الذي هو بشراكة مع وزارة الاتصالات أي Beirut Digital District.

حيّ الروم أيضاً، يضمّ ثلاثة مبان وكانت تسكنه خمس عائلات (٤ بالإيجار القديم ومالك قديم) ويضمّ محل «غارو» على شارع مار مخايل الرئيسي، اشترته منذ حوالي سبع سنوات شركة «ميكالانج» التي قامت بإخلاء السكان منه تدريجياً وتصميم مشروع كبير يهدم مبنى من المفترض أن يكون مصنّفاً تراثياً بما أنّه يقع على شارع مار مخايل الأساسي. المالك الجديد حجز أحد البيوت بالشمع الأحمر بعد وفاة المستأجرة القديمة التي كانت تسكن فيه وذلك قبل أن يتمكّن أولادها من الدخول إلى البيت وأخذ أغراضها. الأثاث والصوَر والأغراض ما زالت في أماكنها.

النتيجة أن إنتاج السكن ينحصر في مبانٍ فاخرة وأبراج لا مكان فيها للسّكان القدامى أو متوسطيّ الدخل.

خلاصة

في مشروع «أن نرسم بيروت من روايات مستأجريها» أردنا الانطلاق من أهمّية الإحصاء ومعرفة التركيبة السكنية للمدينة قبل صدور أي قانون يؤثر على سكان المدينة من جهة، ومن جهة أخرى، نحن مهتمّون بفهم الوسائل التي من خلالها يفهم سكّان بيروت القدامى وجودهم في المدينة عبر الإيجار وكيف تغيّر هذا المفهوم مع الوقت. الأمر الذي يمكن أن يطرح علينا مداخل جديدة للنظر بتأثيرات تغيّر دور الدولة من مؤمّن للسكن إلى داعم لرؤى الاستثمار العقاري. بهذا، يحاول هذا المشروع التركيز على الشقّ السياسي في نقاشات السكن ــ والسياسي بمعنى التوجّه أبعد من الملكية للتطرّق إلى الحقّ في المدينة وأسئلة أساسيّة عن الحقّ المكتسب في المكان.

التمتّع بالمساحات الخارجية
أفكار مدينية لدالية بيروت

مروان غندور

معماري، لبنان – الولايات المتحدة، عضو في «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة».

«عمّر وبيع». كانت تلك نصيحة والدتي بعد تخرجي مهندساً معمارياً في نهاية الثمانينيات. كانت خيبتها أنّ ذلك لم يحصل قط! بعدما عاشت في بيروت منذ الانتداب الفرنسي وعايشت فترات الاستقلال والحروب المتعددة، المحليّة والإقليميّة والعالمية، أصبح لدى والدتي أفكارها الخاصة عن كيفية تحقيق مدخول ثابت في منطقة غير مستقرّة اقتصادية. كما غيرها كثر، قد آمنت بأنّ الثروة لا تتحقّق سوى عبر التجارة، أيّ نوع من التجارة، وأفضلها التجارة الخاصة بالعقارات... «عمّر وبيع». ذلك هو التناقض المتأصّل في علاقتنا مع الجغرافيا التي نتماثل معها، إذ تقارن الأرض بقيمة رأس المال الذي تؤمّنه، وبالتالي هي مجرّدة ومن الممكن التخلي عنها. لا مكان في هذه النظرة تجاه الأرض للتفاصيل كتلك المتعلّقة بالنباتات المحلية التي تمثّلها الأرض، أو الطيور المهاجرة التي تستقبلها موسمياً، أو الممارسات الاجتماعية المرتبطة بها وطبقات الرواسب التي كونتها! إنّ النظرة المجرّدة للأرض تركّز على التبادل القيَمي للمناظر والمنحدرات والمنطقة والمنشآت المتعلّقة بها.

تحبّ والدتي التنزّه. أكثر ما تحبّه هو السيران، إذ تستمتع بالأشجار والنسيم والمناظر الطبيعية. مع النموّ الحضري لبيروت، شهدت والدتي على اختفاء الكثير من المناطق التي اعتادت أن تقصدها لتقوم بسيران، مثل حرج بيروت، والدالية، والغلاييني، والرملة البيضا، ووطى المصيطبة، والكوكودي، والأوزاعي، وعرمون وبشامون. نظراً لحركة البناء المكثف خلال الستين سنة الماضية، مع استثناء الدالية، فقد اختفت هذه المناطق أو أصبح الوصول إليها متعذراً. لا تزال والدتي تذهب برفقة أخيها وأختها في سيران تحت بضع شجرات صنوبر في عرمون محشورة بين المباني السكنية متعددة الطبقات. حالياً، لا توجد قوانين تضمن لنا استمرارية شجر الصنوبر بتغطية المنحدرات الغربية للبنان للأجيال المقبلة. رغم أنّ السيران كان وسيلة منتشرة للترفيه للعديد من سكان بيروت، فإنّ انخفاض المساحات المفتوحة داخل وحول المدينة جعل هذا النشاط الترفيهي مجهولاً للكثير من السكان الشباب. السيران هو النشاط الترفيهي الذي يتيح لفئات اجتماعية عدّة وبشكل متساو إمكانية الاستمتاع بالحياة من خلال التواصل مع المساحات الخارجية. على عكس النظرة المجرّدة للأرض، التمتع بالمساحات الخارجية أثر بكل التفاصيل والخصوصيات التي تجسّدها الأرض. أشكال الصخور، والنباتات، والوجود الموسمي للحيوانات وآثار وجود الناس، كلها مغامرات واستكشافات ذات قيمة عالية للاستمتاع بها في الهواء الطلق.

في سياق اقتصادي تقدر فيه قيمة الأرض وفق رأس المال الذي تنتجه، وذلك وفقاً لعامل الاستثمار وما تطل عليه والموقع مما يحولها سلعة للتبادل، ما هي قيمة الحصول على حقوق متساوية للسكان للاستمتاع بالحياة؟ لن أجيب على هذا السؤال، لكن سأتبعه بسؤال بلاغي لا يرتبط به: ما هو الحدث التاريخي السخيف الذي يجعل من موقع جيولوجي هام مثل الدالية ملكية خاصة؟! إنّ الدالية هي آخر الأماكن المفتوحة في بيروت والتي أصبحت حالياً هدفاً للتطوير العقاري الخاص بالفنادق. يمكننا الحديث عن الطمع، والفساد السياسي والخصخصة التي لطالما اعتمدتها أجهزة الدولة تاريخيا والتي قد تؤدي إلى تدمير للدالية بوصفها منطقة مفتوحة في المدينة، لكن الأهم هو إيجاد طريقة تمكّن سكان المدينة من تخصيص قيمة في الحق المتساوي في الاستمتاع



بالحياة وذلك من أجل سحب موافقتهم الضمنية (أو عدم اكتراثهم) بعمليات البناء غير المسؤولة. إنّ «الحملة الأهلية للحفاظ على دالية الروشة» هي محاولة في هذا الاتجاه. بدأت الحملة في العام ٢٠١٤ مع هدف «المناصرة من أجل حماية واجهة المدينة البحرية بوصفها مساحة مشتركة، ومنطقة مفتوحة تُستخدم من قبل كل سكان المدينة وزوارها بطريقة مدنية ولكن عفوية». مذّاك، نشرت الحملة دراسات عدّة وثّقت الأهمية الاجتماعية، والثقافية، والجيولوجية والبيولوجية للموقع، بالإضافة إلى حملات عامة، ورسائل رسمية للوزارات المعنية، وتنظيم نشاطات في الدالية، وإطلاق الشعارات، والصور والأشرطة للترويج لهذا الفضاء. كذلك قامت الحملة بأرشفة الصور القديمة الخاصة بالمكان، ونشرت بيانات صحافية ورفعت دعاوى قضائية.

الدالية والكورنيش هما المكانان المتبقيان اللذان يجمعان الناس من الفئات الاجتماعية المختلفة. ليلتقـــــــــــــــوا ويختبروا (وربما يتشاركوا) التجارب نفسهـــــــــــــــا.

في حالة بيروت، مفهوم الحق المتساوي لا يقتصر على الفروقات الطبقية، بل ربما الأكثر أهمية هو المجموعات الإجتماعية/الطائفية/الإجتماعية/الطائفية/السياسية المختلفة التي يتزايد تباعدها داخل المدينة. الدالية والكورنيش هما المكانان المتبقيان اللذان يجمعان الناس من الفئات الاجتماعية المختلفة، ليلتقوا ويختبروا (وربما يتشاركوا) التجارب نفسها. ينعزل عدد أكبر من سكان بيروت داخل الحدود السياسية والطائفية لمناطقهم والتي تصبح حدود فعلية. يضاف إلى ذلك قلق المسؤولين الرسميين من تأمين مساحات مفتوحة مشتركة حيث الحدود غير مرسومة بشكل واضح، وبدا ذلك واضحاً في التردد في فتح حرش بيروت خوفاً من تهافت السنة والشيعة والمسيحيين من المناطق المحيطة به إليه. إنّ الفضاءات المفتوحة أمام الجميع لا توفّر بالضرورة الاندماج الاجتماعي، الذي يمكن رؤيته على الكورنيش حيث تجتمع معظم الفئات الاجتماعية المختلفة في أقسام مختلفة من الفضاء الأفقي، وتعيد رسم حدود مناطقها بشكل عفوي. لكن الكورنيش، وبشكل أكبر الدالية، هي مساحات يلتقي

فيها المرء بقاطني المدينة من مناطق مختلفة وذلك خارج الخطاب الرسمي المسيطر المتعلق بمسألة لمن تعود ملكية المدينة. بما أنّ طريق الكورنيش والبحر يحدّان الدالية فهي تهرب من قبضة الفريق المسيطر، مما يسمح بدخول مجموعات مختلفة من مناطق مختلفة من المدينة إليها. بشكل مماثل، نجا الموقع حتى فترة قريبة من جشع المطورين العقاريين، ما سمح له أن يكون أكبر منطقة فيها أقل وجود لمبان على شاطئ بيروت، مما سمح بالحفاظ على النبات والحيوان فيها مقابل احتضانها مروحة واسعة من النشاطات التي فشلت المدينة بشكل متزايد في استيعابها.

تظهر فرادة الدالية وغناها بشكل أكبر في الوثائق المتنوعة التي أنتجتها الحملة وتركّز على أهميتها الجيولوجية، والأركيولوجية والبيئة والاجتماعية. لقد أطلقت الحملة مسابقة مفتوحة للأفكار في الربيع الماضي بعنوان «ألف دالية ودالية» لتقديم بدائل للتطوير العقاري الخاص الذي كان مخططاً له أن يحصل في المكان. ورغم أنّ الفترة الزمنية للمسابقة كانت قصيرة (٢٤ آذار/ مارس – ٢٦ أيار/ مايو ٢٠١٥) فقد تلقّت الحملة ٢٠ مشروعاً، وجزء منها كانت مشاريع معمقة ومبتكرة ومسؤولة مدنياً. تُظهر المشاريع الثلاثة الرابحة ثلاث مقاربات مختلفة للمنطقة من دون أن تكون مقتصرة عليها. في الملفّ الذي قدّمته للمسابقة تقول مجموعة «داليةⁿ» (Daliehⁿ): «اخترنا اعتبار الدالية وسيطاً مؤقتاً، وتفضيل المسار على المنتوج، واقتراح خاصية عدم الاكتمال بوصفها معطى نهائياً في اقتراحنا «النهائي». هذا المكان الطبيعي يتعلّق بما ينمو بقدر ما يتعلّق بالجامد، ويتكوّن من مواد وقوى وممارسات حيّة ومتغيّرة...».

يطوّر هذا المشروع استراتيجيات مكانية وقانونية ومؤسساتية لصالح «ثلاثة أنظمة زمنية» تتعايش مع بعضها البعض ويعزز كل منها الآخر. إنّ الإطار الثقافي والمدني محشور مكانياً بين النظام الجيولوجي والبري الساحلي والنظام البيئي المائي. إنّ هذا المشروع هو خارطة طريق لحماية وتطوير الدالية بوصفها مكاناً في بيروت حيّاً دائماً وبالتالي متغيّراً.

في المقابل فإنّ «الملاذ الأخير» (The Last Refuge) هو مشروع يستكشف التدخّل المادي في الموقع بوصفه وسيلة للتحكّم بالنشاط الاجتماعي على الأرض من أجل حماية القيمة الإيكولوجية والجيولوجية للدالية. يقدّم المشروع تقنيّات بناء وتدخّلات بناء ذات مواقع إستراتيجية للحفاظ على وصول مفتوح للبحر مع حماية ميزاته الإيكولوجية. في هذا الإطار، تكتب المجموعة في الملف الذي قدّمته إلى المسابقة: «الدالية هي آخر ملاذ للعديدين من أجل ممارسة حقهم في الوصول إلى الفضاءات العامة في المدينة، وبشكل أدقّ: حقّهم في الوصول إلى البحر... إنّ هدف تصميمنا سيكون مصالحة الحساسية الإيكولوجية والأركيولوجية للموقع مع الممارسات السوسيو – ثقافية الموجودة مسبقاً أو المقترحة حالياً. نركّز على حماية الدالية من خلال الممارسة، وفي الوقت عينه التعاطي مع كل التحديات التي يواجهها الموقع اليوم في ما يتعلّق بالملكية والتحدّيات الاجتماعية البيئية والتدهور الماديّ». يطوّر «الملاذ الأخير» تجربة شاملة عبر المكان حيث البناء هو عنصر واحد فقط، مما تجري مراقبته بوصفه تدخلاً زمنياً في إطار الوجود الأوسع وطويل الأمد للدالية.

يضع المشروع الثالث الرابح «ليس فقط عن الدالية» (Not Just About Dalieh) الدالية في إطار خطاب أوسع عن الوعي المدني. تعتبر الدالية جزءاً من شبكة الأماكن التي ينبغي أن يعي شأنَها سكانُ بيروت، ويهتموا بها ويستمرّوا في التواجد داخلها. يُظهر المشروع أهمية تلك المساحات العامة في المدينة، وذلك عبر تطوير تجارب تشاركية لمختلف المجموعات السياسية والإثنية التي تحتويها المدينة: «عبر الاعتماد على تنوّع الأشخاص المتواجدين على الكورنيش، نرغب في اعتبار الدالية منصّة تبادل من أجل جذبهم وتسهيل الحوار بينهم عبر الخبرات والتجارب المتشاركة... إنّ مشروع «ليس فقط عن الدالية» يتمحور حول استعادة الحق في الوصول إلى الطبيعة والإرث العام والحوار في المدينة التي تتوسع على حساب نوعية حياة الإنسان». يقترح المشروع حملة توعية يجري تطويرها من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، ووسم العلامات التجارية، وبرامج بناء في الموقع. بناءً على ذلك، ستحتوي الدالية ثلاث مناطق أساسية: ٢٠٪ من الموقع سيكون محمياً من أي نشاط بشري من أجل الحفاظ على النظم البيئية على اليابسة وفي البحر. ٢٥٪ من الموقع سيجري تطويره ليصبح متنزهاً عاماً مع كل متطلبات منشآته وخدماته، فيما ٥٥٪ من الموقع سيبقى منطقة مفتوحة مع أقل قدر ممكن من التدخل، وحيث يمكن تنظيم نشاطات اجتماعية، بشكل غير رسمي، في مكان مرتجل إلى حدّ كبير.



0
100M
25M
50M
125M



-الملاذ الأخير

الصورة الأولى

يمثّل الخط الأسود الأقسام التي يمنع فيها الوصول إلى الشاطئ فعلياً ومن خلال الرؤية. فقد شرّعت المراسيم المتعاقبة تخصيص الساحل. تمثل الدالية المكان العام الأخير في بيروت. هي الملاذ الأخير للعديد من المواطنين ليمارسوا حقهم في الوصول المجاني إلى الشاطئ.

الصورة الثانية

الهدف من وراء تصميمنا هو مصالحة حساسية الموقع البيئية والأركيولوجية مع الممارسات السوسيو -ثقافية الموجودة مع تلك المقترحة. نحن نركز على حماية الدالية من خلال الممارسة، وفي الوقت عينه التعاطي مع كل المعوّقات المتعلقة بالملكية، والتحديات الاجتماعية والبيئية، والتردّي المادي.

الصورة الثالثة

يهدف التصميم لتحديد طريقة حماية المناطق الهشة إيكولوجياً، وتحديد المسارات الواضحة، وإنشاء بنى خشبية خفيفة غير دائمة وذات تماس قليل مع الأرض. تساند هذه العناصر نشاطات عديدة رسمية وغير رسمية تعتمد بشكل أساسي على الخاصيات الفريدة للموقع.

منصات لممارسة الرياضة
الرقص و اليوغا

منشأت من الخشب و الخيزران

مكاتب لادارة الموقع
للجمعيات الأهلية
و المجتمع المدني

مدرج

منصة يوغا

وحدات
للأجار
للاستراحة, الأكل, الاستمتاع بالمنظر

5

منصة
للرقص

مسرح

حارس بلدية

الكورنيش

حمام
عام

3

امتداد
الكةرنيش

2

درج/ممر
خشبي

أكشاك للإيجار و غرف للصيادين مبنيّة من البامبو المحلي وبنى حشبية مرتفعة للتخفيف قدر الإمكام من التأثير على النبات والحيوان.

الصورة السابعة





منصات لممارسة الرياضة, الرقص و اليوغا

صيد

رحلات بالقارب

طائرة ورقية

المشي

ركوب الخيل

منصة لأخذ الصور

الرياضات الخطرة :الغوص, تسلق الصخور

لعب الأطفال

رموز النشاطات

خارطة النشاطات

غرف للخدمة

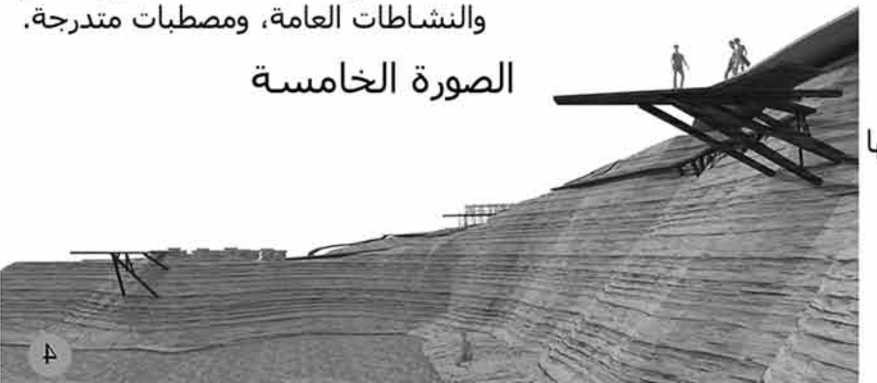
غرف للأجار

الصورة الرابعة

سيصار إلى بناء منشآت
وتقديم خدمات للمجتمع على الموقع لتأمين الإدارة المستمرة والربح المستديم، ويظهر الرسم البرنامج والنشاطات والعناصر التصميمية / البنيوية التي سيتم

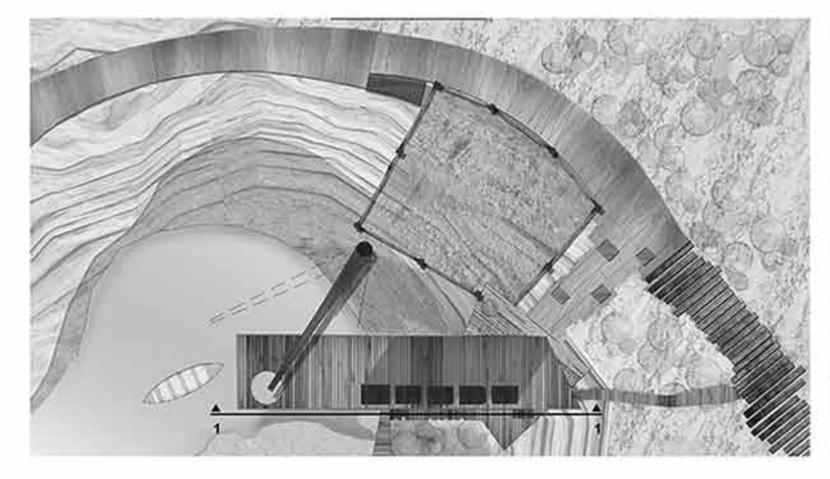
تتضمن الرسومات عناصر تصميمية أخرى مثل مراسي للمراكب، وبنى للرياضات المتطرفة، مساحات للسوق العام والنشاطات العامة، ومصطبات متدرجة.

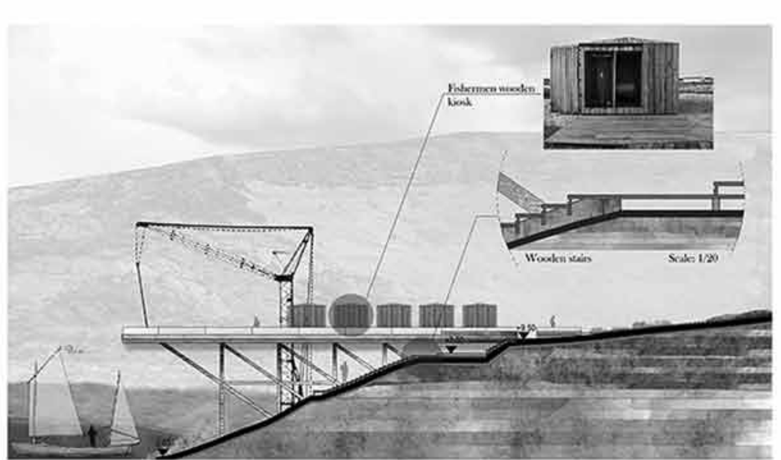
الصورة الخامسة



الصورة السادسة

مثل ذكريات الحرب تصبح تلك الكتل الاسمنتية عنصراً من المشهدية, يذكّر بالأيام التي كانت فيها الدالية في خطر. فبما أن الحرب لاستعادة الدالية انتهت بالنصر، سيسيطر الموقع والمستخدمون على المكعبات التي سيستخدمونها لنشاطاتهم الخاصة، مثل مكان للجلوس، وللتفيؤ ولنصب الأراجيح... سيبتكر الأولاد استخدامات جديدة للمربعات الباطونية: الرسم واللعب والتسلق. ستكبر النباتات في الموقع وتجتاح المربعات ويمكن زرع عرائش معيّنة محليّة، وستصبح المربعات بالتالي مغطّاة كلياً وتشكل استمراراً عمودياً للفسحة الأفقية الطبيعية.



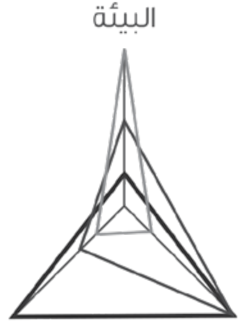


ليس فقط عن الدالية

الصمت يعني القبول. حان
وقت كسر الصمت.

الأمر يتعلّق ببيروت.
الأمر يتعلّق بالمساحات
العامة.
الأمر يتعلّق بالساحل.
الأمر يتعلّق بلبنان.
الأمر يتعلّق بالعدالة.
الأمر يتعلّق بكم.
والأمر يتعلّق
بالمستقبل.

مع الدالية
في الدالية
من أجل الدالية



المحافظة وإعادة تأهيل الدالية على ثلاثة مستويات: اجتماعي (تنوع المستخدمين وإدارة من قبل أصحاب المصلحة للموقع)، اقتصادي (اقتصاد رسمي وغير رسمي)، بيئي (إعادة التواصل مع الطبيعة، ومناطق محمية بحرية وعلى اليابسة).

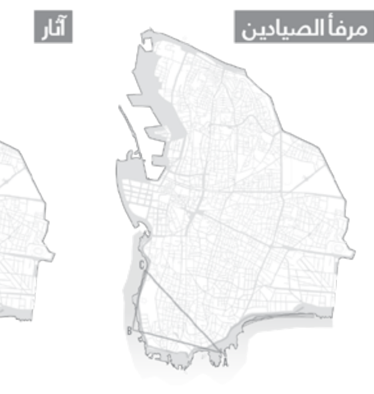
الدالية من ضمن شبكة بيروت

ترتبط الدالية بشبكة المدينة

التنوع البيولوجي



مرفأ الصيادين



آثار



مساحات عامة مفتوحة



حدائق عامة



التصنيفات



منطقة محميّة
نطاق غير رسمي
نطاق رسمي

القدرة على الوصول





المقاربة القانونيّة

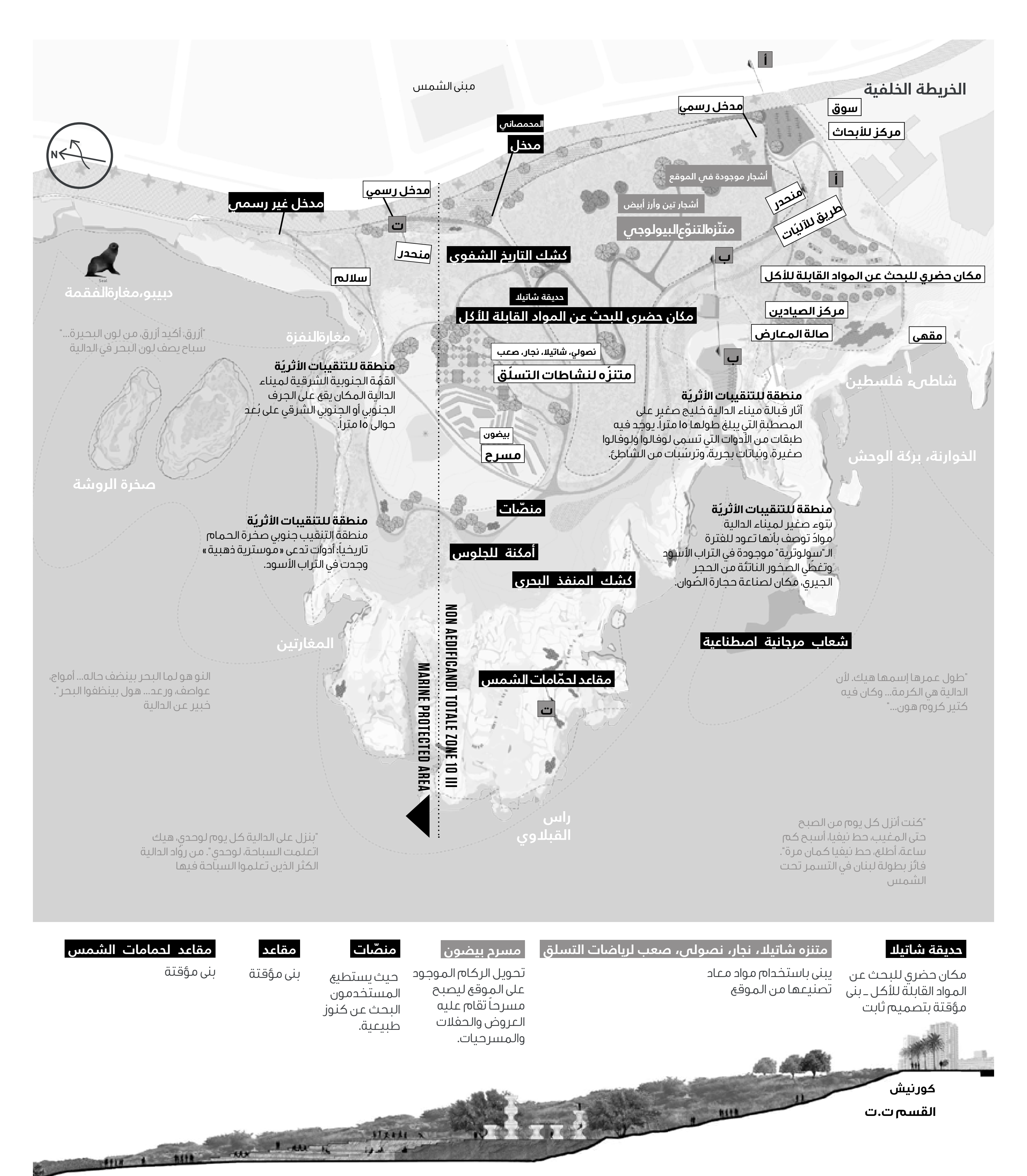


محفّزات لأصحاب العقارات:
تسمية الأمكنة الرسمية
بأسمائهم، مثل مسرح بيضون.

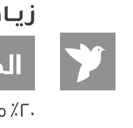
المقاربة الاقتصادية



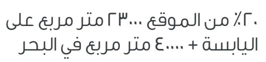
مكان لتشجيع القطاعات الاقتصادية: اقتصاد غير رسمي، زراعة حضرية، مركز أبحاث، نشاطات تجارية، سياحة بيئية، مركز للصيادين. كذلك يتضمّن فضاءً للمعارض ومسرحاً لتشجيع النشاطات التعليميّة.



الخريطة الخلفية
مبنى الشمس
أ
مدخل رسمي
سوق
مركز للأبحاث
المحمصاني
مدخل
أشجار موجودة في الموقع
أ
مدخل رسمي
مدخل غير رسمي
ت
أشجار تين وأرز أبيض
منحدر
طريق للآليات
متنزّه التنوّع البيولوجي
منحدر
كشك التاريخ الشفوي
ب
مكان حضري للبحث عن المواد القابلة للأكل
سلالم
دبيبو، مغارة الفقمة
حديقة شاتيلا
مكان حضري للبحث عن المواد القابلة للأكل
مركز الصيادين
صالة المعارض
مقهى
مغارة النفزة
"أزرق، أكيد أزرق، من لون البحيرة..."
سباح يصف لون البحر في الدالية
نصولي، شاتيلا، نجار، صعب
ب
متنزه لنشاطات التسلّق
شاطئ فلسطين
منطقة للتنقيبات الأثريّة
القمّة الجنوبية الشرقية لميناء الدالية المكان يقع على الجرف الجنوبي أو الجنوبي الشرقي على بُعد حوالى ١٥ مترا.
منطقة للتنقيبات الأثريّة
آثار قبالة ميناء الدالية خليج صغير على المصطبة التي يبلغ طولها ١٥ مترا. يوجد فيه طبقات من الأدوات التي تسمى لوفالوا ولوفالوا صغيرة، ونباتات بحرية، وترسّبات من الشاطئ.
بيضون
مسرح
الخوارنة، بركة الوحش
صخرة الروشة
منصّات
منطقة للتنقيبات الأثريّة
نتوء صغير لميناء الدالية مواد توصف بأنها تعود للفترة الـ"سولوترية" موجودة في التراب الأسود وتغطي الصخور الناتئة من الحجر الجيري، مكان لصناعة حجارة الصّوان.
منطقة للتنقيبات الأثريّة
منطقة التنقيب جنوبي صخرة الحمام تاريخيا: أدوات تدعى «موسترية ذهبية» وجدت في التراب الأسود.
أمكنة للجلوس
كشك المنفذ البحري
NON AEDIFICANDI TOTALE ZONE 10 III
MARINE PROTECTED AREA
شعاب مرجانية اصطناعية
المغارتين
"النو هو لما البحر بينضف حاله... أمواج، عواصف، ورعد... هول بينظفوا البحر".
خبير عن الدالية
مقاعد لحمّامات الشمس
"طول عمرها إسمها هيك. لأن الدالية هي الكرمة... وكان فيه كتير كروم هون..."
ت
راس القبلاوي
"بنزل على الدالية كل يوم لوحدي، هيك اتعلمت السباحة، لوحدي". من روّاد الدالية الكثر الذين تعلموا السباحة فيها
"كنت أنزل كل يوم من الصبح حتى المغيب، حط نيفيا، أسبح كم ساعة، أطلع، حط نيفيا كمان مرة". فائز بطولة لبنان في التسمر تحت الشمس
حديقة شاتيلا
مكان حضري للبحث عن المواد القابلة للأكل - بنى مؤقتة بتصميم ثابت
متنزه شاتيلا، نجار، نصولي، صعب لرياضات التسلق
يبنى باستخدام مواد معاد تصنيعها من الموقع
مسرح بيضون
تحويل الركام الموجود على الموقع ليصبح مسرحاً تقام عليه العروض والحفلات والمسرحيات.
منصّات
حيث يستطيع المستخدمون البحث عن كنوز طبيعية.
مقاعد
بنى مؤقتة
مقاعد لحمامات الشمس
بنى مؤقتة
كورنيش
القسم ت.ت

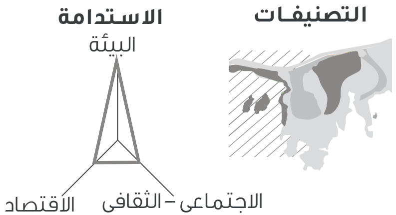


زيادة التنوّع



المنطقة المحمية

٢٠٪ من الموقع ٢٣٠٠٠ متر مربع على اليابسة + ٤٠٠٠٠ متر مربع في البحر



حماية الحياة الجيولوجية، النباتية، الأرضية والبحرية

اليابسة (متنزه التنوع البيولوجي): ٢٣٠٠٠ متر مربع
منطقة بحرية محميّة: ٤٠٠٠٠ متر مربع، وفق مواثيق "الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة ومواردها" والتصنيف الخامس فيه
٤٠ مترا عرضاً وكيلومتر واحد طولاً في البحر

المستخدمون

القاطنون في المدينة، محبّو الطبيعة، محبّو الرياضة، السياح، ممارسو الغطس، العائلات، الأطفال، المراهقون، الأزواج، الباحثون، مصمّمو المشاهد الطبيعية، المختصّون بالنباتات، المختصّون بالبستنة، علماء الآثار، المنظّمات غير الحكومية، الجامعات، المدارس

النشاطات

ترفيه، جلوس، مسارات للتعليم، أبحاث، تعليم، تريّض، مشي، رياضات، غطس، سباحة، استخدام قارب الكاياك، تجديف، لوح التجديف، من دون صيد السمك أو التعدين

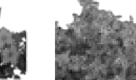
القدرة على الوصول إلى المكان

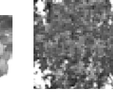
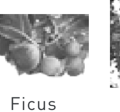
عبر اليابسة: سهل وآمن من خلال مسار بعرض ١.٤ متر (استناداً إلى الممر المستخدم حالياً)
عبر البحر: بواسطة المراكب

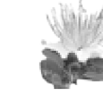
تأثير التدخل

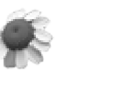
بسيط

البحث عن الطعام والمؤن في المدينة





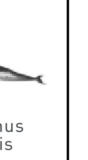
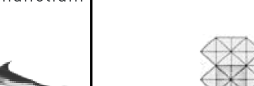


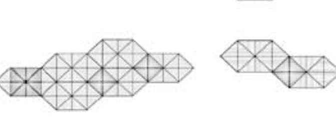
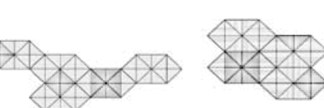
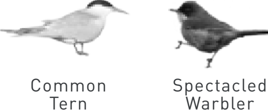
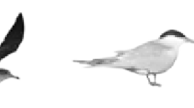
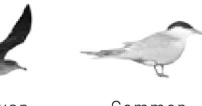


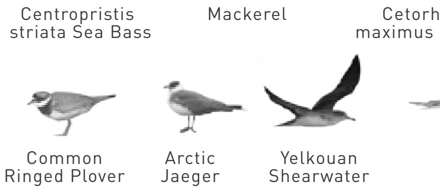
Thymus serpyllum — Oxalis pes-caprae — Salvia virdis — Ficus carica — Capparis spinosa — Matricaria chamomilla

المنصّات

ترتيبات عملية

زيادة التنوّع

المنطقة غير الرسمية

٥٥٪ من المنطقة ٦٥٠٠٠ متر مربع

التصنيفات
الاستدامة
البيئة
الاقتصاد
الاجتماعي – الثقافي

تستخدم للحفاظ على التبادلات السوسيو – ثقافية الحالية وتعزيزها، والحفاظ على الدالية كمكان تشاركي مفتوح والوصول إليهر

المستخدمون

القاطنون في المدينة، محبّو الطبيعة، محبّو الرياضة، السياح، العائلات، الأطفال، مالكو الحيوانات الأليفة، المراهقون، الأزواج

النشاطات

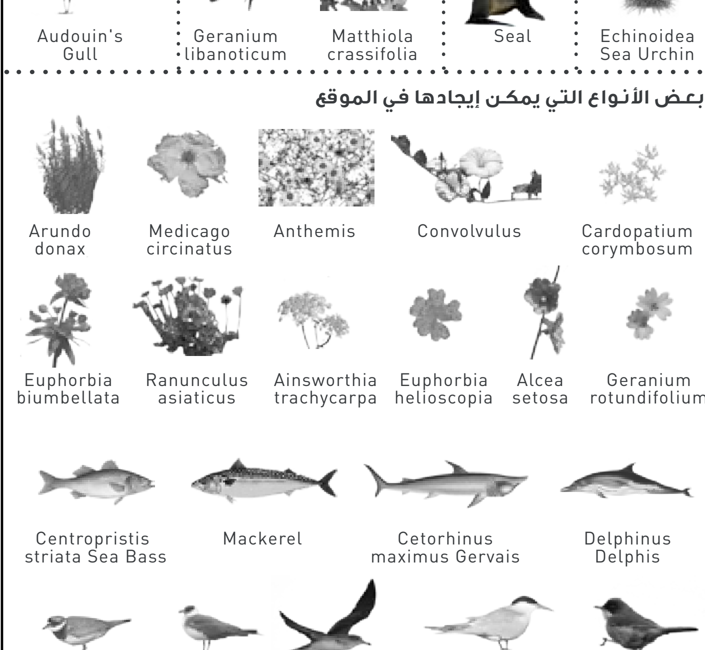
ترفيه، تريّض، مشي، يوغا، جلوس، تنزيه الكلاب، سيران، صيد، سباحة، غطس، حمام شمس

القدرة على الوصول إلى المكان

يجري الحفاظ على طريقة الوصول كما هي الآن، من الطريقة السهلة للصعبة وفق المناطق

تأثير التدخل

متوسّط

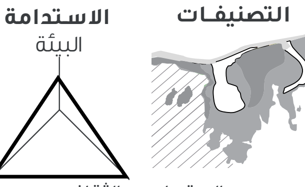


زيادة التنوّع

المنطقة الرسمية







المنطقة محدَدة بالأقسام السابقة التي تحاذي الكورنيش، وكذلك منطقة الركام وكاسرات الأمواج التي وضعتها وزارة الأشغال العامّة.

المستخدمون

القاطنون في المدينة، محبّو الطبيعة، محبّو الرياضة، السياح، محبّو الموسيقى: العائلات، الأطفال، مالكو الحيوانات الأليفة، المراهقون، الأزواج، المؤدّون، الفنّانون، البائعون.

النشاطات

ترفيه، لقاء، مشي، تريّض، يوغا، جلوس، عروض موسيقية، عروض، تنزيه الكلاب، ملاعب للاطفال، بيكنيك، سوق.

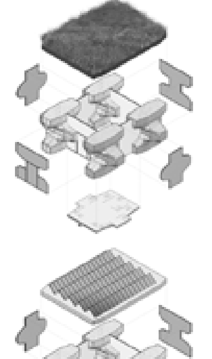
القدرة على الوصول إلى المكان

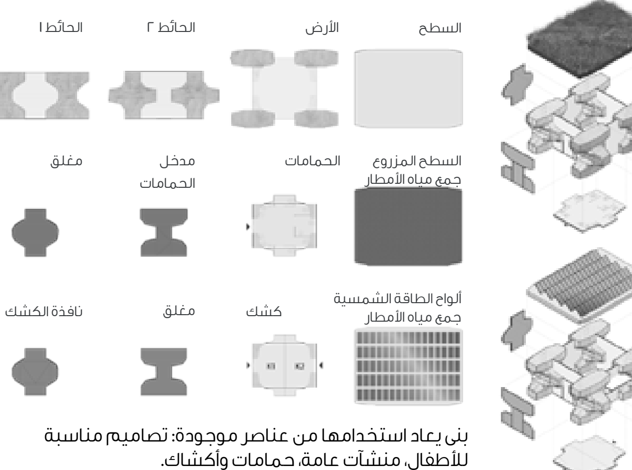
سهر وأمان. صالح لمستخدمي الكراسي المدولبة.

تأثير التدخل

متوسّط

متنزّه رياضات التسلق





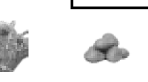
بنى يعاد استخدامها من عناصر موجودة: تصاميم مناسبة للأطفال، منشآت عامة، حمامات وأكشاك.

زراعة حضرية













سوق ومركز أبحاث

القسم أ أ



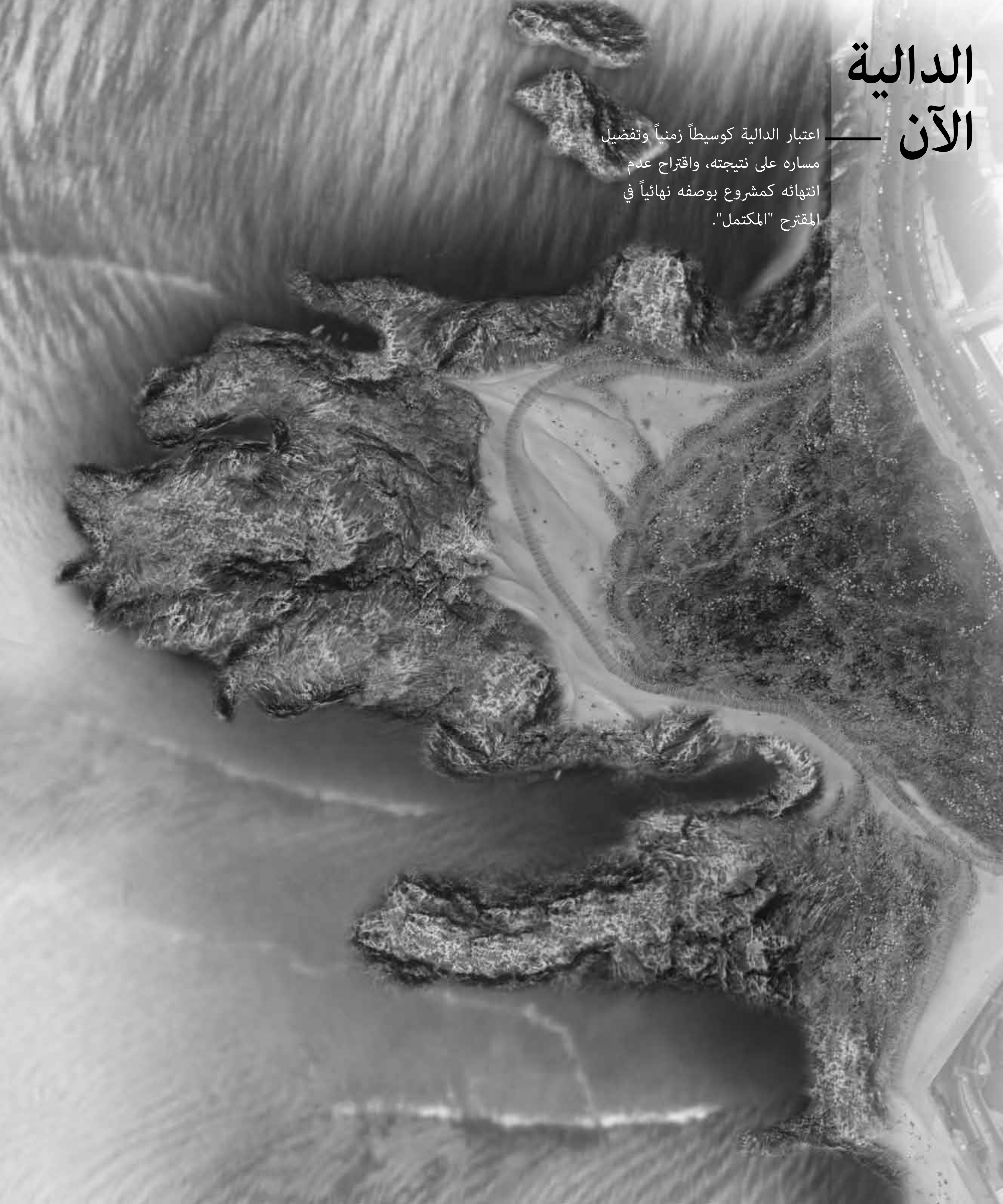
أسماك وخضروات من محيط الدالية، مؤمنة من قبل الصيادين ومن منطقة الزراعة الحضرية.
مركز الدالية للأبحاث: مركز مفتوح للعامة، تعاون بين صيادي السمك والباحثين لدراسة الأنظمة البيئية الخاصة بالبحر واليابسة.

مركز صيادي الأسماك ومركز المعارض

القسم ب ب



تم اقتراح تحويل الطبقة العليا من مركز صيادي السمك الموجود حالياً إلى مكان للعرض مفتوح للعامة ويعرض نتائج كل الأبحاث التي يقوم بها مركز الدالية للأبحاث.



الدالية الآن

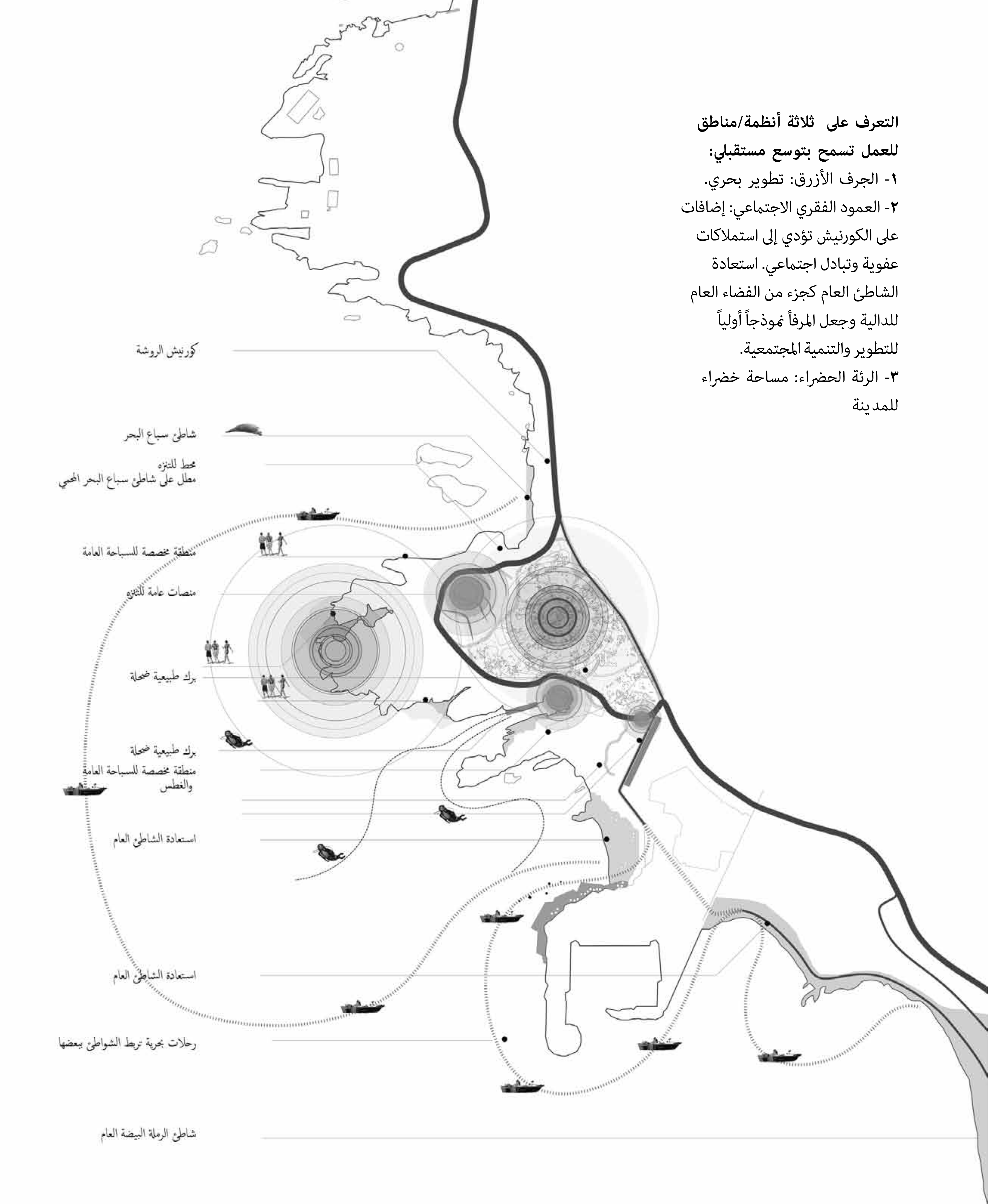
اعتبار الدالية كوسيطاً زمنياً وتفضيل مساره على نتيجته، واقتراح عدم انتهائه كمشروع بوصفه نهائياً في المقترح "المكتمل".

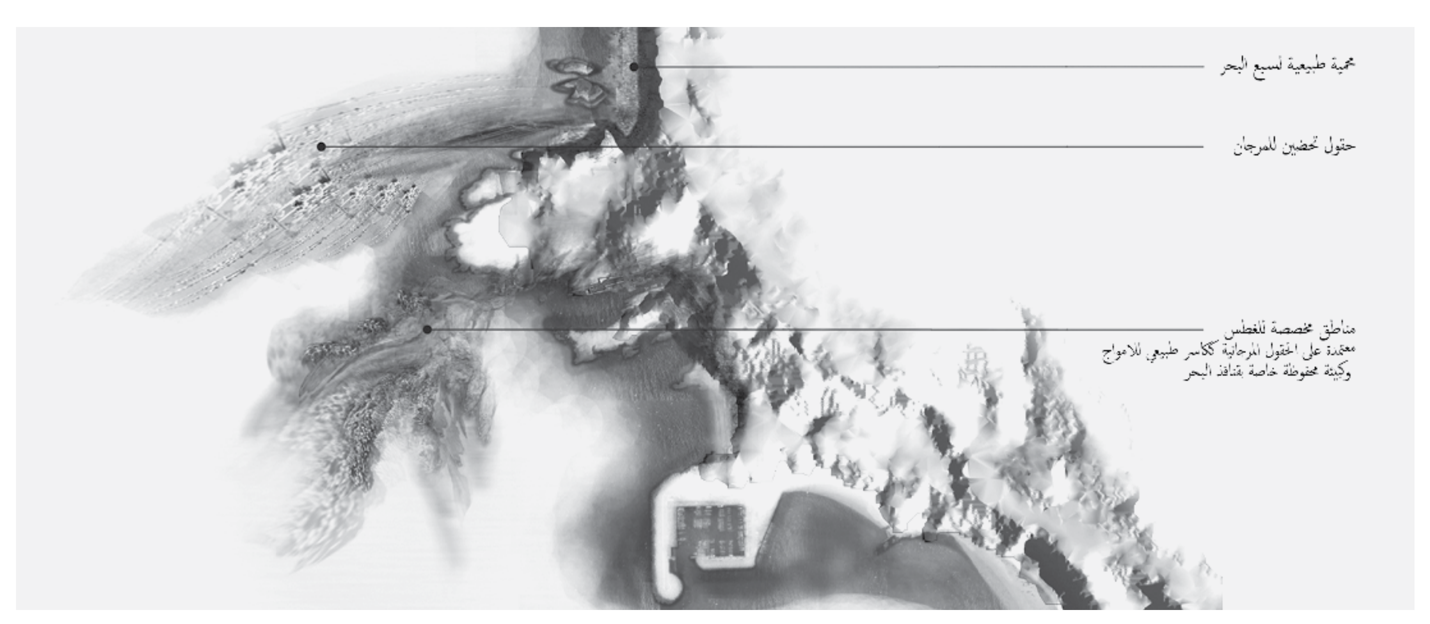
التعرف على ثلاثة أنظمة/مناطق للعمل تسمح بتوسع مستقبلي:

١- الجرف الأزرق: تطوير بحري.

٢- العمود الفقري الاجتماعي: إضافات على الكورنيش تؤدي إلى استملاكات عفوية وتبادل اجتماعي. استعادة الشاطئ العام كجزء من الفضاء العام للدالية وجعل المرفأ نموذجاً أولياً للتطوير والتنمية المجتمعية.

٣- الرئة الحضراء: مساحة خضراء للمدينة

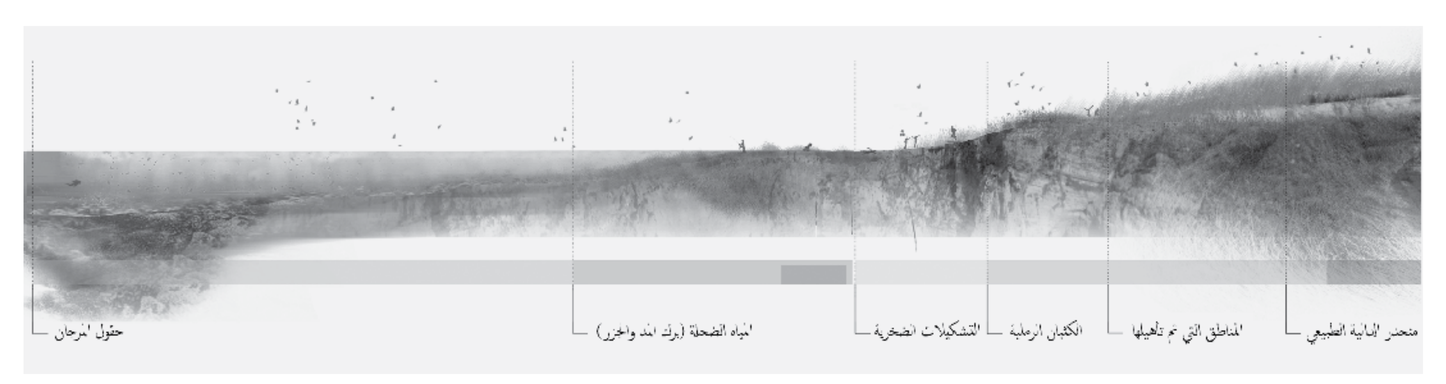




نظام أزرق (بحري): إعادة تأهيل نظام الشعاب الطبيعي وموطن سباع البحر المحميّ. إدخال ثقافات الشعاب لتطوير مواطن قنافذ البحر، وتكثيف السمك وإدخال بيئة منظمة للغطس. تأسيس نظام بيئي للشعاب يعمل ككاسر أمواج معزّز.

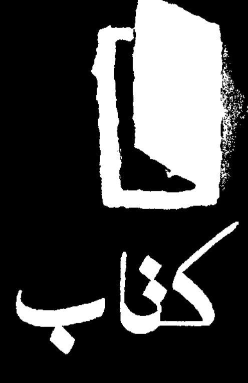


نظام برتقالي (اجتماعي): عبر جعل الهضبة الموجودة موقع غير رسمي للاستخدام المنظم، يمكن للدالية أن تصبح مكاناً للعروض على أنواعها، والاحتفالات، والتجمعات الاجتماعية – الثقافية أو مكاناً للتنزه.



منطقة خضراء: تدعيم الإنتاج الطبيعي للرئة الساحلية الموجودة أصلاً والتي أصبحت اليوم موطناً طبيعياً محافظاً عليه للزهور البرية مما يعيد للمدينة رئتها الخضراء.





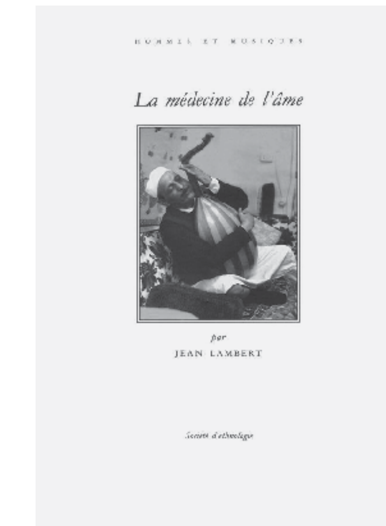
كتاب

كتاب

الغناء في السياق الاجتماعي الصنعاني

جمال جبران

كاتب وصحافي يمني.



Jean Lambert
La Médecine de l'âme.
Le chant de Sanaa dans la société yéménite
٣٢٠ صفحة - الطبعة الأولى ١٩٩٧
Société d'ethnologie

قد يلزمنا في فاتحة الكتابة عن «طبّ النفوس، في الغناء الصنعاني» (الهيئة العامّة للكتاب ـ صنعاء) ضرورة التعريف بصاحبه الباحث الفرنسي جان لامبير من أجل إزاحة فكرة مسبقة قد تأتي مبنيّة على تناقض بين هويّة الموضوع الذي يعرضه الكتاب وهوية مؤلّفه. وسوف يكون ذلك التناقض مبرراً سهلاً وساذجاً، له أن يضع الكتاب نفسه والذي كان ترجمه الباحث اليمني علي محمد زيد، في خانة الأعمال الاستشراقية الخاصة بأولئك العابرين والغرباء الذين يذهبون إلى بلاد «اليمن السعيد» من أجل التأكد من حقائق استقرّت في أذهانهم. هكذا لا يكون حضورهم الفعلي إلا من أجل التثبّت من هذه الحقائق لا إعادة طرحها على طاولة النقاش والتقليب والتدوير من أجل امتلاك معرفة حقيقية بالمكان وأهله. وهذه عادة ارتبطت للأسف بعدد غير قليل من باحثي الدراسات العليا أتوا إلى اليمن الذي اتخذوا من قضاياه الاجتماعية والتاريخية قاعدة لصلب رسائلهم الأكاديمية.

لن نعتمد هنا ونحن نقوم بإزالة «شبهة الاستشراق» بخصوص لامبير على السنوات الطويلة التي قضاها في اليمن. سيبدو ذلك هامشياً ونحن نرى عناصر يمنيّة تقيم في البلاد وتجلس على رأس سلطته الحاكمة وقد اكتفت بعلاقة سطحيّة مع الحياة الحقيقية الدائرة بداخل مجتمعها أو معرفة قشورها عبر شخصيات وسيطة. وقد ظهر الفرنسي لامبير على العكس من بعض اليمنيّين وهو يغوص في بحثه داخل البيئة الصنعانية بين مختلف الطبقات الاجتماعية والسياسيّة من رأسها وحتى القاع مُستمعاً ومستفسراً وسائلاً.

في الحالة الأولى يبدو باحثنا وقد استفاد من كونه في فترة من زمن إقامته اليمنية قد عمل موظفاً في الخارجية الفرنسية ورئيساً للمركز الفرنسي للدراسات اليمنية، ما جعل تواصله مع القيادة السياسية الحاكمة ممكناً ومُتاحاً بل وتفرضه مهامّ الوظيفة التي كان يشغلها. وقد استفاد من غريزة الباحث في تمكينه من خلق علاقات إنسانية مع طبقة اجتماعية وثقافية واسعة تنوّعت بين مختلف الفصائل الحزبيّة والفكريّة وحتى القبليّة.

ولم تذهب كلّ هذه الصلات الاجتماعية التي نسجها باحثنا

في الهواء، إذ استفاد منها لتكوين خلفيّة صلبة لعمله البحثي، فأتت الموسيقى الصنعانية التي كانت قلب شغله البحثي، مدعومة بقصص وتفاصيل لها علاقة بطقوس الحياة غير المرئية لعشّاق الطرب الصنعاني وتتعارض مع فكرة العلنية التي يخشاها أهل المدينة. مثل تلك التفاصيل المرتبطة بطقوس ليالي الطرب نفسها وما يجري فيها، لا يمكن لباحث العثور عليها مكتوبة أو موثّقة في أرشيف يُمكن الذهاب إليه حين حاجة. إنّه يروي لنا طقوس الحدث من داخله وعن طريق مُعاينة مُباشرة ومناقشة مفرداته وتفاصيله مع الحاضرين. إنه يستفيد هنا من تلك الميزة التي تُعطى للأجانب دون غيرهم في المجتمعات الباطنية التي لا ترغب في أن يخرج سرّها للعلن لكنّ أصحابها يرون في الأجانب المُقيم المؤقّت فهو عابر في نهاية الأمر ومكتوب عليه الرحيل وترك المكان مهما طال مكوثه. تتشابه المسألة مع تلك السهولة التي يلقاها الغرباء أنفسهم في إقامة علاقات مع فتيات المكان الأصليّات إذ يتعاملن مع أولئك على هيئة من سيأخذ أسرارهن ويرحل عائداً إلى وطنه الأصلي، ولا تظهر خطورة العلاقات إلّا حين حصولها مع ابن المكان والمُقيم الأبدي واحتمال استخدامه لتلك الأسرار كأداة تهديد وترهيب لو حصل خلاف لاحق بين أركان العلاقة.

ولا يبدو الباحث لامبير هنا وهو يحرّر دراسته على هيئة مَن خان الثّقة التي فُتحت له بداخل بنية المجتمع، فهو لا يشير إلى أسماء أو بيوت ولا يقصد التشهير حين يسرد وصفاً لطقوس ومحتويات الحالة المصاحبة لأوقات الطرب وما جاوره من تفاصيل. لنأخذ طقس تناول الكحوليات التي تأتي خاتمة لموعد تناول نبتة القات. قد تأتي هذه الصورة مخالفة في أذهان البعض لمقولة «صنعاء بلد الإيمان والحكمة» كما جاء في سياق التراث الإسلامي، لكنّها تتّفق مع عدد غير قليل من أصحاب الطريقة الصوفية الذين ما زالوا على إيمانهم بأنّ لا تحريم ثابتاً يخصّ شرب الخمر. ويأتي تناول الخمر استكمالاً لجلسة القات المرافقة للاستماع الطربي أو «المقيل» الذي يبدأ في مرحلة أولى حال وصول المشاركين في الجلسة وتحيّة من حضر قبلهم قبل الدخول في تبادل كلام مرِح وتناقل النكات بغرض تلطيف أجواء المكان نفسياً. بعد ذلك يبدأون في فتح حزَم القات التي تأتي على هيئة ربطات، ويرافق ذلك تقديم ما يلزم من لوازم الراحة من «ترموس» لحفظ المياه الباردة والمداعة (النرجيلة) أو السجائر. يأتي هذا الكرم من جهة صاحب البيت بهدف «تنشيط الألفة الاجتماعية» بين الحاضرين وعلى وجه الخصوص غير المعتادين على حضور الجلسة في هذا المكان بشكلٍ مُنتظم. وسيكون كل هذا تمهيداً لبداية مفعول النشوة التي تفعلها نبتة القات في ذهن متناوليها حيث يأتي التركيز والرغبة في الثبات على المكان نفسه دون رغبة في فعل تحرّك منه. يأتي أيضاً ثبات الحديث حول فكرة معيّنة ومناقشتها، ويكون الموضوع السياسي هو الغالب حيث يدور الحديث بانتظام، وقد يكون هناك شخص بعينه يقوم



بتسيير دّفة الحديث لو كان واحداً من المشتغلين في المجال السياسي. وهنا يحصل (في بعض المجالس الشهيرة) كشف لأسرار ومعلومات لا يجري تناولها علناً، ويسعى بعض الصحافيين إلى حضور مثل هذه الجلسات لحيازة معلومات لمشاريع كتابية يستندون إليها في أعمالهم، لكن من دون الإشارة إلى مصدر المكان والأشخاص الذين قدّموا لهم تلك المعلومات.

ولا يمكن فصل المقيل عن عادة تناول نبتة القات الذي تُمضغ أعشابه لاستخراج رحيق له سمات تعمل على تنبيه الذهن وشحذه. ويوازي هذه الرحيق جرعة ضئيلة للغاية من مادّة الأمفيتامين، ولهذا يبدو تأثيره الفيزيولوجي محدوداً. ويشير لامبير هنا إلى الباحثة في الأنثروبولوجيا شيلاوير التي قالت بضرورة البحث عن أسباب استهلاك القات في النتائج الاجتماعية المُصاحبة له «فهو قبل كل شيء نوع من المدخل إلى المؤسسة التي يملكها «المقيل» ويصعب على شخص لا يتناول القات حضوره، «فاستهلاك القات هنا وثبات التواجد في ذلك «المقيل» يسمح للفرد على نحو يومي بتكوين دائرة علاقات اجتماعية ومن ثم توسيعها مع الوقت».

كما يتيح المقيل مساحة للأشخاص «الباحثين عن متعة حميمة ونخبوية»، ويكون المُضيف هو الشخص الذي يقوم بضم هذه المجموعة، في حين يُسمّى المدعو إلى الجلسة «الطيرفي». ومن خصوصية «الطيرفي» البحث عن صحبة أشخاص «حاليين» وهي كلمة من اللهجة «تُعبّر عن كل ما في المتعة من غموض قد تذهب بالمرء من الروحانية المتطرّفة إلى المتَع الحسية التي قليلاً ما يُعترف بها». ويقصد لامبير هنا عادة التصقت ببعض مرتادي تلك الجلسات وهم من الذين لا يهنأ لهم «مقيل» دون وجود شاب شديد الوسامة أو «حالي» يبقى طوال الجلسة ملاحقاً بنظرات أحد الحاضرين ويتكدر مزاجه لو غاب هذا «الحالي» أو تأخّر عن الحضور أو حتى لو غاب لدقائق عن المكان لقضاء حاجة.

يبدو المناخ الذي يؤدّى فيه الغناء الصنعاني هو ما يجعله «نشاطاً نخبوياً (بامتياز) يجد في «المقيل» إطاره الطبيعي». إذ تنعقد، إضافة إلى النقاشات السياسية، ندوات فنية حقيقية ويجري الحديث عن «جلسات الطرب» مثلما يجري الحديث عن «جلسات الأدب». وإذا كانت الجلسة تأتي في سياق «المقيل» فلا تكون حينها مقتصرة عليه، إذ تمتدّ لتشمل «السَمرة» بمعنى السمر المتعارف عليه عربياً، مع إضافة حضور الكحول وقتها كختام للحالة الوجدانية التي صارت تعتلي رأس كل واحد من الحاضرين. وفي العادة لا يجري الحديث عن الأمر على نحو علنيّ بل في سياق هامشي أو من خلال رموز يتم تبادلها في الجلسة بين راغبي الشراب، وذلك احتراماً لأولئك الذين لا تقرب شفاههم أطراف الكؤوس.

في العموم يمكننا لمس حالة من المدنية في احترام أهل صنعاء القديمة لرغبات بعضهم البعض والتستر عليها إن لزم الأمر تماشياً مع حريّة الحقّ في الاختيار، ويكتفي من لا يشربون بتوديع المكان ومن فيه كي يسمحوا لهم بالبقاء والتصرف على راحتهم. لا يمكن التغافل هنا عن سمة بارزة عُرفت بها صنعاء وشهرة نبيذها المُصنّع من أجود أنواع العنب اليمني المعروف عالمياً، وقد تم توارث هذه الصناعة من يهود اليمن الذين أقاموا طويلاً في أرجاء المدينة وتركوا آثارهم واضحة في المباني عن طريق نمطهم المعماري المميز وفي الصناعات الحرَفية والنبيذ.

ومن المتعارف عليه عدم ذهاب الشخص لمقيل ما دون دعوة صريحة من صاحب المكان، وسيكون شعور المرء مزعجاً للغاية حين إدراكه بأن حضوره غير مرغوب فيه. تؤخذ المسألة هنا من باب العناصر التي من الممكن أن تؤدي لإزعاج المطرب، وعلى صاحب البيت أن يوفر له أفضل حالة ممكنة لأداء عزفه وغنائه، ومن واجبه أخذ مزاج هذه الفنان في الحسبان إذا أراد بقاءه في عداد من يحضرون مقيله.

وفي حالات بعض العازفين يقوم هؤلاء باختيار الأشخاص المدعوين إلى المقيل لتحاشي حضور غير القادرين على فهم وإدراك عمق الموهبة التي يحملها. كما أن نقطة البداية لا تكون إلا من جهة المطرب نفسه ولا تأتي استجابة لطلب مباشر من الحاضرين. فهذا أمر قد يعمل على تخريب الجلسة من أساسها.

يحكى في سياق التراث الصنعاني أن المطرب الشيخ علي أبو بكر باشراحيل كان لا يتحمل أن تُطلب منه أغنية، وحصل أن انتهك أحدهم هذه القاعدة ليتناول الفنّان عوده غاضباً ويغادر المكان.



يا عين

نص واقعي لا يمت الى الخيال بِصلة

احمد غصين

سينمائي، لبنان، من افلامه «أبي لا يزال شيوعياً» و «المرحلة الرابعة».

بيروي فارس فقيه بقصة نشرها بكتاب بعود لعام ٢٠٠٦، عن حرب ٢٠٠٦ بجنوب لبنان، انو في مقاتل كان كتير عطشان دق باب بيت ختيار بواحدة من هل الضيع، كان المقاتل بيعرف ان الختيار بعده قاعد ببيته. دق الباب عم بيطلب ماي، وعلى لسان العجوز، انه بس فتح الباب شاف المقاتل وعدد هائل من الملائكة بلباس القتال واقفين وراه، طلب المقاتل شربة ماء، فردّ عليه العجوز انو في مي لإلك ايه، بس ما في مي بيكفي لكل هذا الجيش من وراك. التفت المقاتل مذهولا من يلّي عم بيشوفو العجوز وهوي ما قادر يشوفو.

كيف فينا نوصف الخرافة يلي خلّت العجوز يشاهد مقاتلين ملائكة؟ او انو مؤلف الكتاب خلاهن يكونوا مقاتلين؟ كيف فينا نفهم ونفكك حجم الخرافه يلي اتضخم بعد حرب ٢٠٠٦.

ڤيديو للكتاب المصور

انا كنت عم بسوق بالجنوب، وقت يلي إشتريت هيدا الكتيب من شباب يبيعون هيدا النوع من القصص على طريق فرعيه من احدى شوارع مدينه النبطية، بيوقفوا على بسطة أشبه بحاجز، بيعرضو بضاعتهن عليك انت ومارق، فيك تدفع قد ما بدك، كلو هيدا تحت شعار دعم المقاومة.

لما قريت الكتاب، اجاني شعور ان العجوز لازم يشوف ملائكة عم تحمي المقاتل، مش عم بتقاتل معه، لو كانت بقدر غير بالقصة شوي، لاستطردت بالكتابه عن الملائكة لابسه ثوب ابيض طويل عم تحمي المقاتلين من الرصاص، عم تخفيهن امرار بتلف حولن الثوب الابيض لتحميهن، عم ترفعهم من القذائف.

بس في قصة ثانية من الكتيب نفسه بتآكد انو الملائكة كانت عم بتقاتل بسيوفها وعلى احصنتها جنباً الى جنب مع المقاتلين.

بعدين بمشوار ثاني، رحت فتش عنهن بلكي بلاقي غير كتيبات بس ما قدرت لاقيهن، نقال لي انو هيدي تجارة غير رسمية، ومش لدعم المقاومة، تجارة مربحة في زمن الحرب.

البحث عن شيكو

كل هذا وانا في طريقي عم بسوق بالجنوب، انا كنت طالع بالاساس لفتش عن شيكو. شيكو الساحر، لاعب الخفة. ساحر عم استدعيه من طفولتي ومراهقتي في النبطية. كنت انا وابنه نرافقه بمراهقتنا، ندور معه على الحفلات يلي بيعملها بالضيع كان يقدم عروضه بنوادي الضيع ومدارسها، انا وابنه كنا عم نتعلم العزف على «الاورغ»، اتفقنا انو نكون العازفين في عرضه، عازفي الإيقاعات على الخدع، منحمّس الجمهور ونخلق جو اضافي من الغرابة، لنقول انو كنا الموسيقى التصويريه للعرض.

كل مرا كنا ننهي العرض، كان يجي لعندي شيكو ويحذرني من كشف اية من العابه، انا يلي كنت اقف على طرف المسرح كنت شوف كل شي ومع الوقت صرت اقدر اكشف اسرار كتير من خدعه.

اجمل فقرة من العرض كانت فقرة زوزو الدمية يلي بتحكي، شيكو كان متكلم باطني، يتحاور مع زوزو الدمية يلي صانعها هوي من الخشب، وكان صرلّن مع بعض اكتر من عشرين سنه. شيكو كان يشتري الفن شراية، بداياته تعرف على الساحر او الكاتب المشهور داهش، ثم انهوس بالسحر. كان يقول انه عليك ان تشتري الخدع لتنمّي قدراتك، فنانو السحر يشترون من بعضهم من بعض فنونهم. اشتغل ببيروت بالسبعينات،

في الملاهي الليليه، متل التيكو تيكو، والاوتيلات. رجع شيكو الى النبطية أستأجر مسرح وقرر انو بدو يبلش يقدّم عروضاته .

هل اجا شيكو ببدلته يلي نادرا ما بيشلحها. ام اجا مجرد من اي خــــــــــــــــدع. مستسلم كليا لطاعة رجل الدين؟

عم بتخيل هلاّ الدعاية لشيكو على مسرح ريفولي، الثمانينات، النبطية، بأي فترة بالتحديد، قبل او بعد حرب ما بين حركة امل وحزب الله الاحزاب يلي كانت عم تتقاتل بوقتها، بعد او قبل عملية للمقاومة ضد اسرائيل على تلال النبطية. دعاية لساحر على مسرح ريفولي. الدعاية بتقول «تعالو الى عالم السحر، الى عالم الدهشة، الدكتور شيكو الساحر الفنان يقدم عرضه المذهل».

شيكو مشغول بتحضير عرضه، استآجر المسرح، جاب الخشب، المساعدة جاهزة لخدعة التقطيع، الإضاءة السوداء جاهزة ليخفي راسه، لو كان بيعرف من قبل انو هي الخدعة رح تسبب كل هذا الذعر، لفكر مرتين قبل ما يقدمها، كل شيئ كان بيوحي بالنجاح. شيكو متحمّس لاول حفله له بمدينته، عم نشوفو عم بيشتغل كل الوقت، لوحده عم بيعلق البوسترات، عم بيساعد النجار بالخشب، وبالليل بيحلم بنجاح العرض، ساعتها بيقدّر انه يقدم عرض دائم بلكي، بتتعدى شهرته الجنوب كله، بيتخيل العروض يلي رح تنهال عليه.

طيب اجا الموعد، الصالة مليانى ما كان في ولا كرسي فاضيه، كل شي مبيّن تمام. طلع شيكو الى المسرح كان عندو شعور لا يوصف، كان في قمة نشوته، من خدعة الى خدعة، الجمهور يتمتع، يندهش، يتفاعل، لحد ما اجت لحظة خدعة اخفاء رأسه، ساد الصمت الرهيب، حسّ شيكو بأنو في شي غريب صار بين الجمهور، بلحظتها كان عليه ان ينتقل للعبة مدهشة اكثر او انو يعمل فقرة زوزو الكوميديه، ليغير مزاج الجمهور، بس نقص الخبرة لعندو خلاو متلبك اكثر، واخذو شويّت وقت ليستعيد انفاسه ويقدر يكمل العرض. بالليل، كان شيكو مشغول بيلي حصل، شو يلي وتّر الجمهور وخوّفو هلقد. كان عليه ان ينتظر للصباح ليكتشف شو يلي صار.

فاق تاني يوم ونزل دغري على السوق، حسّ بنظرات تلاحقه، حس انو الناس عم تتحاشاه، على الاقل يلي بيعرفوه. حتى انو في واحد قطع الشارع الى الرصيف الثاني حتى ما يمرق من جنبه.

كِبرت القصة، إجا مين يقلو انو المدينة عم بتحكي، انك فيك تخفي الناس وان سحرك في يتحول لعمل شيطاني، بلكي فكرة الاخفاء هي يلي خوّفت الجمهور، الغياب والظهور، بس الجمهور بيؤمن بفكرة الظهور؟ يمكن لانو ما قدر يفسر هذ الفعل؟ انو كيف ممكن لرجل غير مقدس انو يكون عندو قدرات ما لها تفسير؟ السحر عَمَل غير مقبول وعند رجل اسمو شيكو، كان لا بد من تفسير، وكان من الطبيعي ان يلجآو لرجل الدين، لإمام المدينة، وحده الشيخ بيقدر يحد من سلطة هـالقوة الخارقة، قبل ان تصبح تهديد، حتى للساحر نفسه.

هل كان شيكو على استعداد انو يروح لبعيد ليخلق حوله هذا الغموض، بمعنى انو يتعايش من الاشاعات يلي رح تتحول مع الوقت الى خرافه ثم الى هالة قوة.

شيكو كان مرعوب، كان مرعوب، كيف كبرت القصة هل قد، السحر محرّم! ما كان هيدا قصدو ابدا.

بين الساحر والشيخ

الساحر في مواجهة رجل الدين، منعرف مسبقا النتيجة.

شو الحوار يلي دار يا ترى بين الشيخ والساحر؟ هل اجا شيكو ببدلته يلّي نادرا ما بيشلحها، ام اجا مجرد من اي خدع، مستسلم كليا لطاعة رجل الدين؟

لنعترف هون انو الشيخ ما كان عارف شو بدو يعمل بالاول، كيف بدو يقارب هذا الموضوع، وين الحقيقة من الخدعة، كان عليه انو يكون حذر من هل الساحر يلي رجع عل المدينة بقدرات غريبة. شو بيعمل اذا تحداه شيكو باشياء ما بيقدر يفسرها؟ هل هو منجّم.

حضر وبرأسه كل الاحاديث والآيات التي تثبت كذب هذه الافعال. رغم هيدا كان عم بيحس برهبة ما من انو يعمل هل الساحر افعال تجرّده من كل حججه وتهزمو بالمواجهة. اصلا ما بعمروا واجه هيك حاله من قبل، بس شيكو ما فسحلوا المجال لكل هذه المحاججة والتحدي.

اجا شيكو خالي الوفاض متل ما بيقولو. مستسلما كليا لطاعة الدين. لأ. اكتر من هيك كان عم يطلب المساعدة. تنفس الشيخ بارتياح، ابتسم ابتسامته الابوية المعتادة، استعاد سلطته، وحتى انو عيطلو باسمه الاول، قلو «يا (محمد) شو كل هل الضجه يلي عاملها بالمدينة، عم تعمل سحر صاير؟» هون بلش شيكو يبرر مفهوم

الخداع البصري والعاب الخِفة وان كل هذا هو مسرح ما في سحر ابدا. وراح بعيد حتى انو كشف بعض حيله وطرق الخدع واساليبو. ضحك الشيخ باطمئنان، ورجع وبجدية مطلقة قرر انه لازم ياخذ القرار اذا كان هذا اللعب (متل ما سماه) حلال او حرام. «بس يا شيخنا انت شفت بعيونك انو هيدا ما هو الا خفة ايد، العاب خفة، خداع بصري».

القى الشيخ كلمة صغيره عن مفهوم الحـــــــــلال والحـــــــــرام. ودعاه انو يفسر يلي عم يعملو. اضطـــــــــر شيكو من جديد ان يكشف بعض الخدع الخفيفة ليقنع الناس بأنو هيدا منو سحـــــــر.

بس لحل المسألة من اساسها، دعاه الشيخ ان يجي ثاني يوم على الحسينية بعد الصلا، ليجتمع بالناس ويثبت لهم ان يلي عم يقدمه هو خدع مش اكثر. باليوم الثاني، نزل شيكو على حسينية المدينه، كانت الناس مجتمعه، عيونهم مترقبه، وصل شيكو ببدلته، طلع عل المنصة. هون القى الشيخ كلمة صغيره عن مفهوم الحلال والحرام، ودعاه انو يفسر يلي عم يعملو، اضطر شيكو وهوي ومخنوق من القهر ومن جديد ان يكشف بعض الخدع الخفيفة ليقنع الناس بأنو هيدا منو سحر.

نصب اول ونصب ثاني

انا عم بدور على الساحر عم بفتش عنو، او عم ببحث عن السحر والخفة بهدي المنطقة؟

عم بسوق السيارة بالجنوب. باخذ طريق، بنزل على وادي بقلبو في سهل كتير حلو، اسمو سهل الميدنة، وانا وعم بسوق بهل السهل فجأه بيطلعلي نصب ضخم، لوهلة بيّن كتير ضخم.

نصب بنص تقاطع لثلاث مفارق صغيرة. شكلو غير مألوف، ايمتا إنحطّ هيدا الشي هون؟ مرقت من شي شهر من هون ما كان موجود. نُصب مرتفعه شاهقه نحو السماء، دائرية الشكل، بنصها في شكل عامودي لأسلحة مكسره ومجمّعة فوق بعضها البعض. مبيّن انو قصدون يعملو شكل فني من هل الاسلحة.

ما في اي علامة او لوحة رخامية للدلالة على مناسبة النصب او لأيو ذكرى إنحط. اكتفيت بتصويرو، لفّيت حولو، مدهون باللون الذهبي. بشع اكثر كل ما تقدمت منو.

كملت طريقي وانا مأخوذ بشكله، بمكانه، بلغته، بحجمه، بسرعة تنفيذه ووضعه. عم بسوق قررت غير الوجهة كليا لفوت اكثر لعمق الجنوب. بعد حوالي ساعة، قربت من وادي المشهور، اسمو وادي الحجي، يلي شهد ما يقال اشرس المعارك عام ٢٠٠٦.

بس قبل ما أوصل بشي نصف ساعة، وعلى طريق فاضيه بين ضيعة وضيعة، اصطدمت بنصب تاني، هذه المرة ما كان محطوط على طريق دائريه بوجّك دغري، ابداً. كان عن جد على جنب الطريق.

وقفت نزلت من السيارة، كان واضح ان نفس الشخص، نفس الجهة هي يلي عملت هيدا والثاني كمان، اللغة نفسها، نفس المواد، يلي داخلها من بقايا اسلحة على شكل فني جوا النصب. بس الفرق هو بالزوايا المختلفه، والشكل الدائري ايضا.

مين عم بينفذ هيدي النصب كلها؟ دورت ورجعت للنصب الاول وقررت اطلع على الضيعه لأسال عنو. لاول لحظه بين سؤالي كتير غريب.

«مين حط هيدا النصب التذكاري تحت بالوادي»؟ قالو: نصب؟ «قصدي التمثال».

الكل يتوافق على تسميتو، يسمونه «تمثال حزب الله». بس ما حدا بيعرف ايمتا نحط، «اجو جماعة الحزب وحطوا، فجاة لقيناه تحت». يبدو انو ما في داعي روح اسأل عن النصب الثاني. فالجهة واحدة، هيك مبيّن. خليني اقول انو ما اندهشت بعدم اكتراث وتعجب الناس بل الضيعه من هل النصب، بلا مبالاتهن، كان لازم ولحتى أتوقف عن كل هل التساؤلات ولانو باعرف انو رح سوق وصير فتّش عن نصب تاني وتالت ما بعرف موقعه، رح ابرم بالجنوب بالعرض وبالطول، اطلع على كل زاويه، وبدل ما اعمل كل هيدا، توجهت مباشرة لعندن. لاكتشف أنو في مكتب تصاميم قائم بحد ذاته، مكتب بيشرف على كل انواع هيدي النُصب. مجموعة من المهندسين قاعدين بيرسمو وبيخططو لافكار واشكال ومواقع كل هيدي الانصاب.

قال المهندس حسن: «نحن ما منشتغل على الطريقة الإيرانية، ما في حزن وبكائيات بعملنا هنا، نعم جزء من الاعمال، في شق اخر قائم على مفاهيم الظلم والتضحية، بس نحنا خرجنا من الحرب منتصرين، نحن قوايا، وبنعمل على هذه الاسس، اساس القوة والانتصار. اصلا صار فيك متل ما بدنا بالزبط، لازم تفوت على

الجنوب ودغري تشوفنا، تحس انو نحنا موجودين وين ما كان، تحس بعظمت انتصارنا».

السيرورة الطبيعية للحزب هي يلي وصلت المهندس الى هذه اللحظة. سيرورة طبيعية لتطور حزب سياسي. او لنقول لتزايد قوته.

المهندس حسن، خريج الجامعة اللبنانيه. قابلناه في مكتبه. مكتب هندسي عادي. المهندس حسن يرسم وبيخطط النصب، وبيرجع بكفي عملو بالعمارة، بعمر بنايات، كأي مهندس. في كتير سكتشات على مكتبه، لاشياء نفذت واشياء بعدا عم تنتظر التنفيذ.

شو بترسم، كيف بترسم؟ شو هيدي الخطوط؟ ليش هذه الدوائر؟ هذه الزوايا الحادة؟ من وين تستوحي هذه التصاميم؟ شو بتقرأ؟ ليش هيدي الاسلحة المكسّرة بمنتصف النصب. اسلحة العدو؟ شو هي اللغة، هل تكريم لحدا، لشهيد معين؟ رح تحت نصب لكل واحد من الشهداء؟ للشهداء المهمين؟ للقيدات فقط؟ كيف بتختار الموقع. ليش هيدي النصب مش بساحة الضيعه او بالساحات الاساسية للمدن؟ شو بتسميهن، نصب، تماثيل، اعمال؟ هل بتحط النصب في مكان الاستشهاد. كم بناية صممت لحد هلق؟

«من أنت؟». قلتلو «انا مخرج . عم بسأل عن النصب انو بدي صوّر كيف بتشتغلو». «لمين»؟ أحمد «لي انا، عم بعمل بحث حول هدي النصب ولغتها». المهندس: «حبيت شو عم نعمل، حبيت يلي شفتو»؟ أحمد: «اه، لا شك انه مثير للاهتمام». المهندس: «بدك تعمل فيلم عنن يعني»؟ أجاب: «ايه بالظبط».

فقال: «بدك تشوف بعد شو عم نعمل؟ تعا شوف هل السكتش، بعدنا عم نشتغل عليه».

أحمد: انا في المركز الرسمي للمكتب الاعلامي في مدينة النبطية.

«دبابة اسرائيليه واقعة بقلب فخ، اه كماشة، دبابة مطبقة عليها كماشة، ثم مجموعة دبابات محطمة على جسر مكسر، مفجّر»؟ أحمد: «رح تنفذوا كل هيدا الشي، عنجد؟ بس ما في جسر هيك بالجنوب»؟

«رح نبني جسر ضخم، مع دبابات بحجمها الحقيقي ومنرجع منفجرو. او بنبني جسر محطم، ومنجيب دبابات محطمة ومنحطها بهيدا الشكل يلي شايفوا. اظن وضع كل هيدا ومن ثم تفجيره هو المثير، ازبط. منفجّر العمل، ما قبل النصب، بعدين منتركه على حاله كيفما جاء التفجير او بعد التفجير. حتى لو ما في جسر ب بالواقع. منبني لنفجره».

مش مأكد اذا قال هيدا الشي حرفيا. مفروض متل هيك شخصية بتُوزن كل كلمة عم بتقولها، لازم احترم هيدا الشي. واضح انو عندي علاقة مش واقعية او ملموسة مع هذه الشخصية والحزب على العموم. بخاف من الاسقاطات. بخاف من خيالي بهل العالم السياسي، من البعد عن الواقع. عشان هيك اصلا قصدت مقابلة المهندسين في المكتب تبعن.

ما كان عندي اي تعليق، سألني رأيي، ما بعرف عن جد، اذا كان هذا الشئ على ضخامته ملّبك كفاية، مُدهش حقيقة، شو الموقف يلي لازم اخذوا من هيك اعمال؟ تجسيد المعركة بحرفيتها، لتجميد اللحظة، لغة بتحمل تجميدها بذاتها.

هيدا العمل، رح يتنفذ بوادي، محتمل في المكان نفسه للمعركة يلي صارت. اذا وانت وعم بتسوق بعدين بالوديان والمساحات الشاسعة، رح يطلع قدامك فجأة عمل ضخم، بيستعمل في ادوات ومركبات العدو لتمجيد انتصاره، ما كان في المهندس حسن يفكر بهيك مشاريع قبل عشر سنوات قبل خمسة، ان السيرورة الطبيعية للحزب هي يلي وصّلت المهندس الى هذه اللحظة. سيرورة طبيعية لتطور حزب سياسي، او لنقول لتزايد قوته.

هون وباللحظه يلي بلش فيها المهندس برسم تصور لمشروع ضخم بهل شكل، هي بداية اعلان التغيّر بالجغرافيا الي لا رجعة، بداية وضع خطاب بصري للمستقبل، رح يسود، لغة نصبيه جاي من تأثيرات ومدارس عده بالتاريخ، الها علاقة بسيطره سياسيه لحزب واحد، الها تاريخها الحضاري بس مش الديني ويطول الحديث عنها سياسيا. بس هيدي الاشكال الهندسية والاعمال\المجسمات هي الارث البصري يلي رح نحمله معنا، هي اللغه يلي رح تبتلع مخيلة المنطقة البصرية، يمكن؟

اربع مقاتلين على جبل

المهندس: «في المستقبل رح نحط مجموعة من الاعمال بكتير من المناطق».

فاجئني المهندس بعمل ثاني ما بقل ضخامة عن الاعمال الاخرى، «سلويت» اذا صح التعبير، او خيال على ارتفاع الف متر، على جبل مشهور هو «جبل الرفيع»، مشهور برمزيته بوقت المعارك مع اسرائيل. على هذا الجبل رح يتم وبحجارة بركانية سوداء، رسم وتصميم لاربعة مقاتلين مع اسلحتهم. طبعا الوجوه غير واضحة هون، هل هني شهداء سقطوا بهيدا الجبل، او لمقاتلين بعدون عم بيقاتلو لهلأ، او الاثنين مع بعض؟

المثيـــــــــــــــــر بالامر ان حزب بعرف عن نفسه كحزب شيعـــــــــــــــــي اسلامي بيبني نصب بلغة وخطـــــــــــــــوط هندسيه وتجريدية لما بعد الحداثة.

المقاتل يلي على اليمين، يبدو كأنه راجع من المعركة، سلاحه مصوّب نحو الارض، ظهره للحدود مع اسرائيل، مبين عليه تعبان شكلوا بعدو راجع من المعركة، اما المقاتل يلي على شمال الصوره، عم بيطلع الجبل، شكلوا متأهب، كانو رايح صوب المعركة من جديد، صوب معركة جديده، او يمكن ببساطه راجع لموقعه بس بعدو متأهب. المقاتلين الاثين يلي بالنص، واحد رافع سلاحه محتفلا على ما يبدو، منتصر، والاخر على شماله، وهوي الاقل وضوحا، وجهه مباشرة لنا، حامل سلاحه بانضباط تام، وجهه صوبنا بس ما في عيون عم بتطلع فيك، ما في احساس الا بضخامة العمل، ما بقا في صورة صغيرة لوجه شاب شهيد، ما في صورة عملاقة لعدد من الوجوه تتوزع بنفس الحجم، او اكبر بشوي حسب اهمية الشهيد.

هون عم نشوف الاجساد كاملة، اجساد بتختزل كل الشهداء يمكن، يبدو هذا العمل كأنه هربان من لقطة فيديو مفرزة، فيديو لعملية ما بالتسعينات، او لقطات مختلفة من عدة فيديوهات، لحركة جسد المقاتلين مُمَنتجة ومنفّذه على هذا الشكل.

ومتل ما قال المهندس حسن قبل «نحن منتصرين، اقوياء،» يمكن قصدو صار إلنا جسد كامل، النا الجبل كله. على هيدا الجبل سقط مئات الشهدا، فلترتفع اذاً اجساد مقاتلين اربعة، لذكرا كل الشهداء، هذا العمل بيختزل وجوههم جميعا، بيختزل القصة، ما رح يرسم ويحدد الوجوه، ما حيحدد الشهيد، خلي كل واحد يتخيل شهيده، خلي كل حدا يسقّط وجه شهيده على جسد اي مقاتل من هؤلاء المقاتلين الاربعة.

بس ليش اللون الاسود، بقترح عليه على الاقل تغير باللون؟ بلكي اللون الابيض؟ رح يتوسخ مع مرور الوقت، طيب شو عن اللون الاحمر، لون للشهادة، للتضحية، منلون الاحجار مثلا، الذهبي، لون بيشع في وجهك طوال النهار، يلمع، يبرق من بعيد. ليش الاسود، اذا مش لآسباب لوجستيه بحت.

قلتلو «وشو بصير بالارض، بالعشب والورود»؟

قاللي «في النصب للدبابات المدمره المهزومة ما ممكن للورد انو ينبت، هيدا بيدمّر الفكرة من اساسها».

أنا: «طيب، والعمل»؟

هو: «رح نحرق الارض، بمواد معينة وبأحجار بركانية. فيك تحرق الارض حتى ما ينبت فيها اي حياة».

أنا: «بس انت بتحب الورد، ما هيك»؟

هو: «عفوا»؟

أنا: «قصدي: طيب والعمل تبع المقاتلين الاربعة»؟

هو: «اه، من الحجارة البركانية نفسها رح نعمّر وننفذ هذا العمل».

انا: "فكرت بالزمن"؟

ما جاوب.

كيف يمكن تمجيد الانتصار؟

ما بصدق انو سألته إذا يحب الورد! شو خطر على بالي؟ طبعاً الملفت الصارخ هو لأي حد كنت متحفظ بمسآلته. تحاشيت كل الأسئلة يلي عم تضج وتعج في داخلي. مثلاً: كيف فيك او كيف ممكن تجميد لحظة الانتصار، وهي مش ثابتة، لا بل متتابعه مع الزمن من العام ٢٠٠٠، تجميد انتصارك بأنصاب، بلقطة مجمدة لمقاتلين عمالقة، في حركة دائرية لاسقاط طائرة، بابقاء اسلحه العدو مدمرة، بالدبابات المفجرة. وبنصب تجريدي هندسي، ما إلو رموز لتفكيك لغته من قبل الناس المارقين هونيك. مهندس بيصمّم نصب لحزب ايديولوجي هدفه تمجيد مقاومته، ونشر لغته البصرية وين ما كانت، بس ليش بالذآت هيدي النصب الباطونية، الاثار التذكاريه يراد منها انو تدوم للابد.

المثير بالامر ان حزب بعرف عن نفسه كحزب شيعي اسلامي بيبني نصب بلغة وخطوط هندسيه وتجريدية لما بعد الحداثة. هذا في الارث الحضاري، يمكن مش ضروري يكون في تأثير اسلامي، هون. في الارث



الاسلامي، ولتحريم النحت، والثلاثي الابعاد، ما في هيك ممارسات، بس في تجسيد للمجسّمات، مسموح ان تبني مجسم للقدس، للكعبة، بنسخة طبق الاصل. بس من مواد قابله للتلف، ما فيك تبني مجسم ثابت للقبة، للكعبة، النسخة، لازم يكون قابلة للهدم والتلف في اي لحظة، حتى لو كان التعاطي معها في المناسبات الدينيه هو التقديس لرمزيتها. في الارث الحضاري، بتحس انو المهندس حسن عم بيلهث نحو الما بعد الحداثة. هيك بيصمم البنايات، وهيك بيصمم نصب اديلوجي.

قلتلو: «ليش هل الدائرة بالنُص من فوق لهيدا النصب»؟

هو: «صممته وبيالي انه لازم يكون للاستشهاديين، لذكرى العمليات الاستشهادية. هو نصب الاستشهاديين على شان هيك هوي دائري مش حَدّ، مش عنيف».

وهذا النصب الثاني، شو يلي عنيته بهيدا الشكل؟

«اه هذا العمل، كان لشهيد واجه الدبابات مباشرة باحدى المعارك بحرب ٢٠٠٦، ودمّر عدد من الدبابات بصواريخه الصغيره الموجهة. هو لذكرى شهداء المواجهات البطولية».

انا: «عشان هيك هوي بهيدا الشكل»؟

المهندس: «ايه فيك تشوف الزوايا الحادة، البارزة، مش متل العمل يلي سبقه، هون بدي ابرز الالتحام مع العدو، المعركة، المواجهة المتكافئة. العنيفة».

التصوير من السماء

انا فيما بعد لما طلعت لصوّر هيدا النصب، كان من البديهي انو هيدي النصب المرتفعة الشاهقة والصاعده نحو السماء، انو تصويرها يكون من السماء، من اعلى نقطة، كيف فينا نشوفا من فوق. هي الاديولوجيا يللي عم بتسعى لتغيير الارض، نحو السماء، للسيطرة على السماء وعلى الارض، كيف بتطلع روح الاستشهادين من بوابة هذا النصب بلكي، كيف بتلتقي بالملائكة المقاتله، اللقطة الصاعدة، لتفرجينا خريطة جغرافيا المنطقة، وكانو اختزال الفضاء فيها، هو بين نصب واخر.

نحنا وعم بنصور هيدي اللقطة، فجآه اجا شاب من الجبل، كأنو طلع من بطن الجبل، مدني على «الموتو». طيب قلنا هيدا اكيد من الشباب المقاتلين.

سألنا: «شو عم تعملوا هون»؟

انا: عم نصور هيدا النصب. مين حضرتك؟ نحنا معنا اذن بالتصوير هون من المكتب الاعلامي.

رد: «هيدا المكتب الاعلامي بحب الكاميرات، والتصوير، بس نحن لا. منكره الكاميرا (يبتسم). بعدين شو هيدي الطائرة؟ كنا رح نسقطها!».

هون بيرتعب الكاميرا مان.

صرخت: له ! هيدي عليها كاميرا للتصوير.

أجاب: «ايه بس ما فيك تصور الجبل، والطائرة عم تصور من فوق. هيدا منو مسموح ابداً في شي امني هون».

قلت: طيب لك شو رح نعمل؟

وهيك تعاونا انا والمقاتل، لإخراج هذه اللقطة، قلت له كموش هيدا «المونيطور»، قول توقف او cut، بس بدك واين ما بدك.

نعرض اللقطة على الشاشة، نتركها لكي تصل الى نهايتها.

بلشنا التصوير من جديد، بلشت الكاميرا تطلع، تطلع، واللقطة تتحول الى روح، الى طائر، الى كشف، والمقاتل عم بياخذ وقته. الى ان بنوصل لهيدي لحدود يلي عم بتشوفوها هلاّ . قال وقّف بس، ما فيك تكشف اكثر من هيك. انا المخرج الثاني كان بدّي لقطة واسعة جدا من السماء، متل ما بتشوفنا الارواح، متل ما بتنزل الملائكة المقاتله، والنصب موجوده بنُصّها، بس هون قرر المقاتل انو هيدي هي الحدود.

هل رح يطلع العشب حول نصب على جنب الطريق، وبعدين تغمره غبرة الشارع، بيصير شكله مختلف كليا عن شكله الحالي، وبخجل بيبلشوا الناس بتفكيك مواده لإستعمالاتهم اليوميه، او لتبيعون، الاضاءة من حوله هي يلي رح تختفي بالاول، بعدين الحديد او بقايا الاسلحة يلي بنصفه، مع الوقت بصيرعاري بس الشكل الباطوني هو يلي رح يبقى. بعدين بيسحبوا شرايط الكهرباء الممدوده جواتُه، هون عند سحب الشرايط، رح ينشاف الحديد المسلح جوا، فيتم سحبه شوي شوي، طبعا بعد هيك رح توقع أجزاء من الباطون لحالا، بيفقد آجزاء منه، هل نقول انو بيصير طلل، أطلال؟

هل الناس رح تعمل متل ما صار بعام ٢٠٠٠ وقت انسحبت اسرائيل، من جنوب لبنان؟ بتذكّر كتير منيح كيف هجمت الناس بشكل احتفالي عنفي هستيري على المواقع المتروكة من قبل الجيش الاسرائيلي واجتاحت هذه المواقع، اخذت في طريقها كل شئ. حتى معتقل الخيام لم يزمط من هيدا الطقس، فاتت الناس محتفلةً مهستره واخذت كل شي فيها تاخذو من اغراض المعتقلين المحررين أنفسهم.

بعترف هون انو حتى انا شخصيا ساهمت بهيدا الشئ، دخلت مش مصدّق انو انا بالمعتقل يلي سمعت

هيك بكون الطقس الاسطوري. الغيبة والوعد بالظهور. بالانقاذ. والشهاده والقدره على تفسير التضحية. القربان من اجل الطائفه. الانتصار. عدم تصديق الانتصار.

قصص كتيره عنو، اخذتني نشوة اللحظة، اندمجت مع الناس ومع الهستيريا، فأخذت اول شي وقعت يدي عليه باحدى الزنازين، يلّي كانت بعدا بتفحّ بريحة المعتقلين، فما كان صرلو مارق ساعات على تحريرهم حتى فِضيت زنازينهن من كل غراضن. اظن ان بعض العناصر الحزبية حاولت تمنع العالم من انو ياخذوا غراض وإشيا، بس كان فات الاوان، انا نفسي لقيت حالي عم خبّي قطعة قماش مزخرفه اخذتها من تحت سرير وحدى من الزنزانات وخبيتها بين ثيابي، بعدين وعيت وانتبهت للكارثه يلي عم بتصير، فبلّشت صرّخ على بعض الشباب يلي كانو عم ياخذو غراض المعتقلين، للذكرى طبعا: «ان هذا خطأ كبير يا جهلة، كل شي لازم يضلو مطرحو متل ما تركوهن، بمكانه، انو هيدا مش من حقنا، لازم يبقوا للذكرى ولمتحف فيما بعد». انا عم اقولهن كل هيدا الشي بس عم ببعد عنهم، ويدي عم بتشد على قطعة القماش المسروقة.

لأ ما ح يصير كل هيدا الشي. والناس مش رح تدمّر نصب ما بيرمز الى شخص بعينه او دكتاتور لتنتقم من تمثاله، وهيدا مش موقع اسرائيلي مهجور. بس مع الزمن اذا الجهة السياسية أهملت هيدي الاعمال يلي نفذتها، نعم رح ياكلوا العالم شوي شوي، وبهدوء، ومتل ما كان في لا احتفال ولا افتتاح رسمي بوضع هيدي النُصب التذكاريه بمكانها، ما رح يتم الاحتفال بتدميرها.

هيك بكون الطقس الاسطوري، الغيبة والوعد بالظهور، بالانقاذ، والشهاده والقدره على تفسير التضحية، القربان من اجل الطائفه، الانتصار، عدم تصديق الانتصار، فلنستدعي الاسطوره بأحصنتها تحارب معنا، قبل حرب ٢٠٠٦، مش متل بعدو بجنوب لبنان.

قلت له، وانت وين من كل هيدا الشي؟

رد عليّ شيكو: «انا مؤمن كمان، مؤمن بالظهور، بحاول رغم كل هيدا الموت انو أعمل بالخفة الساحره. الناس ما بقى عم بتحب الخِفّة، السحر، بلكي انا رح أختفي قريبا. شو رح يقولو ساعتها: الساحر أخفى نفسه؟ هذه حيله تانيه من حيله؟ او انو ما حدا رح ينتبه انو ما عدت موجود اصلا؟ شكلو الاسطورة بلعتنا كلنا. بعدين قلي، بتعرف، يمكن كان لازم اكشف كل الخدع يلي بعرفها لما وقفت بالحسينيه قدام العالم. يمكن كان لازم اتوقف عن انو ادهش الاطفال بسحر خفيف، قبل ما يتجسد عشقهم الطفولي فيما بعد بقتال رح يخلّيهن يآمنوا بآنو الملائكه عم بتقاتل معهن».

تجميد لحظة الانتصار؟

طيب لازم اعترف اخيرا انو الموقف من مشروع سياسي اديولوجي عم بيفرض سيطرته البصريه بهيدا الشكل، لبّكني، ما تفاجئت فيه، ما تفاجئت، من منطلق الممكن، صرت متأقلم مع فكرة الممكن، ممكن وفيهن يعملو يلي بدن ياه . اصلا شو الاعتراض يلي انا حاملو، ليش؟ انو تغير بالجغرافيا وكل شي بيتبعوا؟ هيدا ما بيعني شي، اعتراض على الشكل الفني الهجين؟ اعتراض على المشروع السياسي الديني من اساسه ومحاولة تفكيكيه؟ انو الساحر عم بيختفي ليجي شي يحل محلو؟ مش كتير دقيق. او انو «الممكن» اثارة اسئله حول «السائد»، هل انا ضد السائد من منطلق السيطره، سيطرة الفكر الواحد؟ ام انو السائد بالمشروع السياسي الطائفي، اثار فضولي بمحاولته الفنيه اذا فينا نقول، يعني محاولة احاطت الخطاب التعبوي السياسي بلغة فنيه جديده عم تتطور بطريقه مش سائده.

لحد وقت قريب كان مفهوم ومألوف طريقه رسم الشهداء، المجسّمات الدينيه في المناسبات، التضخيم في ممارسه الشعائر وتنظيمها وانعكاس كل هيدي الممارسات شعبيا الى حد خلق سوق منظّم، كمجالس التعزيه التي تتولاها شركات خاصه، كل هذا كان انعكاس الخطاب السائد وأعلائه، حتى استدعاء الملائكه للقتال جنبا الى جنب، كان بعد تبلور حضور الأسطوره من اجل تكريس السائد، وهون فينا نسأل، هل هو استدعاء من الماضي ام من المستقبل، استدعاء الملاك من الماضي مع سيفه للمقاتله، اي استدعاء التاريخ، بسبب ولقوة اللحظه الحاضره (الحرب، الكارثة)، ام استدعاء من المستقبل لان الكارثه هي بدايه الخلاص الموعود.

وهون السؤال، لماذا اذاً كل هل الهوس بتجميد بتمجيد لحظة الانتصار؟

شارلي تشابلن وفن السقوط

جون برجر

حكواتي، روائي، كاتب مسرحي، ناقد ورسّام. آخر أعماله «رسوم شخصية» (٢٠١٥).

إنّه يرى أنّ مجريات الأمور في العالم بلا رحمة ويتعذّر تفسيرها. فيعتبر ذلك تحصيل حاصل. يتركّز كل نشاطه على الراهن: أن يتدبّر أمره، أن يجد مخرجاً نحو مزيد من النور. فقد لاحظ أن الحياة مليئة بظروف ومواقف تتكرّر حتى تصير مألوفة، بالرغم من غرابتها. منذ الطفولة المبكرة، ألِف الأمثال والنكات والنصائح وحيَل المهنة والمخاتلات، التي تشير إلى أحاجي الحياة اليومية المتكررة. ولذا يتصدّى لها بحِكَم استشرافية لما يتعرّض له. فنادراً ما يرتبك.

هذا بعض من بدهيات الحكم الاستشرافية التي اكتسبها:

العجيزة هي مركز الجسد الذكوري: إنها حيث يجب أن تركل خصمَك أولاً وهي غالباً ما تقع عليه عندما يطرحونك أرضاً.

النساء جيشٌ آخر. راقِب عيونهن قبل أي شيء آخر.

الأقوياء هم دوماً ضخام الجثة ومتوتّرون عصبياً.

المبشّرون لا يحبّون إلّا أصواتهم.

يوجد من ذوي الحاجات الخاصة حولنا ما تحتاج عرباتُهم إلى شرطي سير.

تعوزنا الكلمات لتسمية أو تفسير مسارات العناء اليومي والحاجات غير المشبعة والرغبة المكبوتة.

معظم الناس لا وقت لديهم لأنفسهم مع أنهم لا يدركون ذلك. إنهم ملاحقون فيستلحقون حيواتهم استلحاقاً.

وأنت مثلهم، لن تكون لك قيمة إلّا إذا وقفتَ جانباً، ومدَدْتَ عنقك للخارج، إذذاك يتوقّف أصحابك فجأة وينظرون إليك دهشين. وفي صمت هذه الدهشة يكمن كل الكلام الذي يمكن تصوّره في أي لغةٍ أمّ. فقد أنشأتَ فجوةَ اعتراف.

إن صفوف الرجال والنساء المحرومين من كل شيء أو من كل شيء تقريباً، يمكنهم أن يوفّروا فجوة من حجم مناسب لكي يختبئ فيه ولد الصايع.

الجهاز الهضمي غالباً ما يكون خارج سيطرتنا.

ليست القبّعة للوقاية من الطقس، إنها علامة على المقام الاجتماعي.

عندما تسقط سراويل الرجال ففي الأمر مذلّة، عندما ترتفع فساطين النساء فهذا إشراق.

في عالم بلا رحمة يمكن للعصا أن تكون رفيقاً.

وثمّة بدهيات أخرى حسب المكان أو الظروف.

لدخول معظم الأمكنة عليك أن تملك النقود أو الدليل على امتلاكها.

السلالم موجودة لنتزلج عليها.

النوافذ موجودة لرمي الأشياء خارجها أو لنتسلّق إلى داخل من خلالها.

الشرفات مواقع للزحف أو لإنزال الأشياء منها.

الطبيعة المتوحّشة مخبأ.

كل المطاردات دائرية.

كل خطوة تخطوها قد تكون خطوة ناقصة، فتعامل مع الأمر بأناقة لحرف الأنظار عن الخراء المحتمل.

أشياء من هذا القبيل كانت جزءاً من المعرفة الأمثولية للصبي ذي العشر سنوات.

لأول مرة عمرك له رقمان – يتسكع في جنوب لندن، في لامبث، مطلع القرن العشرين.

قضى معظم طفولته في «مؤسسات الرعاية الاجتماعية». أولاً في معمل، ثم في مدرسة للأطفال البائسين. أمّه، واسمها هنة، التي كان شديد التعلّق بها، لم تكن قادرة على الاهتمام به. قضت معظم حياتها في مستشفى للمجانين. كانت متحدرة من جنوب لندن من بيئة من المؤدين في القاعات الموسيقية.

كانت مؤسسات رعاية الفقراء، مثل المحرفات ومدرسة الأطفال المهجورين، تشبه السجون، وهي

لا تزال تشبه السجون، بطريقة تنظيمها وهندستها. إنها إصلاحيات للـ«خاسرين». وعندما أفكّر في الصبي ذي العشر سنوات ومعاناته، أفكر بصور زيتية لأحد أصدقائي.

ميشيل كوان، قضى أكثر من نصف حياته في السجن إلى أن بلغ الأربعين، محكوماً عليه لسرقات صغيرة. بدأ التصوير الزيتي وهو في السجن.

مواضيع لوحاته حكايات تجري في العالم الخارجي الحرّ، كما يراها ويتخيّلها سجين. والسمة الأبرز لتلك اللوحات هي الأمكنة والمواقع المغفلة الظاهرة فيها. الشخصيات المتخيلة والأبطال حيويّون، يحسنون التعبير عن أنفسهم ونشطون، لكن نواصي الشوارع والبنايات الشاهقة، والمداخل والمخارج، والآفاق والأزقّة، حيث نلقى تلك الشخصيات، جرداء، بلا هوية، بلا حياة، ولا مبالية. لا أثر أينما كان أو لمحة للمسة أمّ.

إننا ننظر إلى أمكنة في العالم الخارجي من خلال الزجاج الشفاف لكنه معتمٌ وقاسٍ لنافذة زنزانة سجين.

يكبر صبي العشر سنوات لِيصير مراهقاً ثم شاباً قصير القامة، نحيلاً جداً، له عينان زرقاوان ثاقبتان. إنه يمارس الرقص والغناء. وهو أيضاً إيمائي يبتكر حوارات معقّدة بين ملامح وجهه، وحركات يديه الحساستين والهواء المحيط به، هواء حُرّ ولا ينتمي إلى أي مكان. الممثّل، يصير معلّماً في فنّ النشل، ينشل الضحك من جيب بعد جيب من الارتباك والخيبة. يُخرج الأفلام ويمثّل فيها. لكن ديكوراتها جرداء، مغفلة، ولا أمّ لها.

أيّها القارئ، علّك خمّنت مَن أقصد، أليس كذلك؟ إنه شارلي تشابلن، الولد الصايع، المتسكّع.

عندما كان فريقه يصوّر «الهجوم على الذهب» العام ١٩٢٣، كان نقاش حام يدور في الاستوديوعن مساق القصة. وكانت ذبابة تحرفُ انتباه الحضور، فطلب تشابلن بغيظ أن يؤتى إليه المضرب للانقضاض عليها، ثم توقف فجأة وأعاد المضرب إلى مكانه. عندما سأله الآخرون: لماذا؟ تطلّع إليهم وقال: «ليست هي الذبابة ذاتها».

منذ عقد من الزمن، لاحظ روسكو آربكل، «القبضاي» الأثيرعند تشابلن، أن صديقه شارلي «عبقريّ هزلي متكامل، وهو بدون شك الوحيد في زمانه ممن سوف يَذْكُرهم القرنُ المقبل».

انقضى القرن وتبيّن أنّ ما قاله آربكل «السمين» قد تحقّق. لقد تغيّر العالم كليّاً خلال ذلك القرن، اقتصادياً واجتماعياً. مع اختراع الأفلام المحكية، ومع بناء صرح هوليوود الجديدة، تغيّرت السينما. على أنّ أفلام تشابلن لم تفقد شيئاً من فجائيتها أو فكاهتها أو سخريتها أو ألَقها. أكثر من ذلك، تبدو دلالتها أقرب إلينا، وأكثر إلحاحاً من أي وقت مضى: إنها تعليق حميم على القرن الحادي والعشرين الذي نعيش فيه.

كيف أمكن ذلك؟ أريد تقديم ملاحظتين متبصّرتين. تتعلّق الأولى بنظرة تشابلن الحِكَمية إلى العالم الموصوفة أعلاه، والثانية بعبقريته بما هو مهرّج، والمفارقة أنّ هذه العبقرية مدينة إلى أبعد حدّ بعيد للبلاوي التي عاشها زمن الطفولة.

إنّ الطغيان الاقتصادي الكوني لرأسمالية المالية المضاربة، في أيامنا هذه، التي تستخدم الحكومات المحلّية (وسياسييها) بما هو قوّاد العبيد، ومثلما تستخدم الإعلام العالمي بما هو مروّج المخدّرات التابع لها، هذا الطغيان الذي لا هدف أوحد له غير الربح والتراكم بلا هوادة، يفرض علينا نظرة ونمط حياة متقلقلين، هشّيّن، بلا رحمة وبلا تفسير. وهذه النظرة إلى الحياة هي أقرب الآن إلى النظرة الأمثولية لصبي العشر سنوات إلى العالم مما كانته الحياة في الزمن الذي صوّر فيه شارلي تشابلن أفلامه.

في الصحافة اليوم تقرير عن إيفو موراليس، رئيس بوليفيا، الذي يتمتّع بقدر من الصراحة وطيبة القلب، يفيد بأنه اقترح قانوناً جديداً يسمح للصبيْة بأن يبدأوا العمل عند بلوغهم العاشرة من العمر. وقد باشر نحو مليون من صبيان بوليفيا العمل من أجل المساهمة في تأمين معيشة أهلهم. وسوف يمنحهم القانون حداً أدنى من الحماية القانونية.

منذ ستة أشهر، في البحر المحيط بجزيرة لامبيدوزا الإيطالية، غرق ٤٠٠ مهاجر من أفريقيا والشرق الأوسط في مركب غير صالح للإنزال إلى الماء، وهم يحاولون دخول أوروبا بطريقة غير شرعية على أمل الحصول على عمل. على امتداد الكرة الأرضية يوجد ٣٠٠ مليون من الرجال والنساء والأطفال يبحثون عن العمل يؤمّن لهم الحد الأدنى من المعيشة. لم يعد «المُتَسكِّع» فريداً.

إنّ حجم الأمور المستعصية على التفسير يتّسع يوماً بعد يوم. ذلك أنّ سياسات الاقتراع العام فقدت معناها لأنّ خطابات السياسيين الوطنيين لم يعد لها



صلة بما يفعلون ولا بما يستطيعون فعله. القرارات الأساسية التي تقرّر مصائر عالمنا اليوم يتّخذها جميعاً كلّها مضاربون ماليون ووكلاؤهم، وهم بلا أسماء وبكمٌ سياسياً. وكما افترض ابن العشر سنوات: «تعوزنا الكلمات لتسمية أو تفسير مسيرة العناء اليومية، والحاجات غير المُشبعة والرغبات المكبوتة».

يدرك المهرّج أنّ الحياة قاسية. وزيّه البالي المرقّع ذو الألوان المبهرجة هو بحدّ ذاته تعليق هزلي على تعابيره الكئيبة. المهرّج معتادٌ على الخسران. الخسران هو مقدمة العرض الذي يقدّمه.

يكمن زخم أفلام تشابلن في أنّها تكرارية ومتصاعدة. كلّما سقط مرّة، انتصب على قدميه بما هو رجل جديد. والرجل الجديد هو الرجل ذاته ورجلٌ مختلف عنه في آن معاً. بعد كل سقطة يتبيّن أنّ سرّ قدرة تشابلن على أنّ البقاء على قدميه يكمن في تعدّده.

كلما سقط مرة، انتصب على قدميه بما هو رجل جديد. والرجل الجديد هو الرجل ذاته ورجل مختلف عنه في آن معا.

هو التعدّد ذاته الذي يمكّنه من أن يتمسّك بأمله التالي مع أنه معتاد أن تتبدّد آماله تكراراً. إنّه يتعرّض للمذلّة تلو المذلّة برباطة جأش. وحتى عندما ينتقل إلى الهجوم المضادّ، يفعل ذلك بشيء من الندم ولكن بجرأة. فتلك الجرأة هي سرّ مناعته، فهو منيعٌ لدرجة يبدو معها أنه من أهل الخلود. ونحن، إذ نستشعر ذلك الخلود في حلبة «سيرك» أحداثنا الخائبة، نحيّيه بواسطة الضحك.

في عالم شارلي تشابلن الضحك هو الاسم المستعار للخلود.

ثمّة صور فوتوغرافية لتشابلن عندما كان في منتصف الثمانين. نظرت إليها ذات يوم فلاحظت أنّ التعبير على وجهه أليف. لكني لم أعرف السبب. عادت إليّ الفكرة لاحقاً. تحرّيت عن الأمر. التعبير على وجهه يشبه تعبيراً على وجه رامبرانت في آخر صورة ذاتية له: «صورة ذاتية بما أنا فيلسوف ضاحك أو بما أنا ديمقريتس».

«أنا مجرّد ممثّل هزليّ لا أساوي أكثر من فِلس»، يقول، «كل ما أطلبه هو ضحِك الناس».



النزعة الأهلية والاشتراكية
في أعمال دييغو ريڤيرا

إيرمغالد أملهاينز

كاتبة ومترجمة، المكسيك، حائزة على دكتوراه من جامعة تورنتو عن «جان لوك غودار والقضية الفلسطينية».

في «بيان من أجل فن ثوري مستقلّ» (١٩٣٨) الذي وقّعه كلّ من أندريه بريتون ودييغو ريڤيرا وليون تروتسكي، يدين الموقّعون الخطر الذي يتهدّد الحضارة من قبل الفاشية مجسّدة بألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي. في استباق لاندلاع الحرب العالمية الثانية، يصفون ظروف الإنتاج الفكري على أنها منحطّة، ويدينون تبعية فنانين في ظلّ النظامين وتنكّرهم بالتالي لمبادئ الفن وقيَمه. ويرى موقّعو البيان أنّ كلا النظامين يشتغل وفق أشكال اجتماعية معادية للفرد. من هنا الحاجة إلى تحرير الإنسان والفنّ من فخّ العلوم والفنون البرجوازي الذي نصبه هذان النظامان. في معارضتهم للستالينية، يتعاهد بريتون وريڤيرا وتروتسكي على العمل من أجل تحرير الفن ومن أجل قيام فنّ يعمل لصالح الثورة الاشتراكية الحقّة. كتبوا يقولون:

«الفن الحق، الذي لا يكتفي بأن يقدّم منوّعات من نماذج جاهزة، وإنّما يصرّ بدلاً من ذلك على التعبير عن الحاجات الجوّانية للإنسان وللإنسانية في عصره ــ إن الفنّ الحقّ هذا لا يستطيع إلّا أن يكون ثورياً وإلّا أن يعمل من أجل إعادة التكوين الشاملة والجذرية للمجتمع. وهذا هو واجبه، على الأقلّ من أجل تخليص الإنتاج الفكري من القيود التي تكبّله، وتمكين الإنسانية من أن ترقى إلى تلك الذُّرى التي بلغها عباقرة معزولون في الماضي. إنّنا ندرك أنّ وحدها الثورة الاشتراكية هي القادرة على تمهيد الطريق من أجل ثقافة جديدة»[١].

النزعة الأهليّة في الفن

رأى موقّعو البيان الثلاثة إلى أنّ الفنّ الحقّ هو بالضرورة ثوريّ لأنّه يمكّن الإنسان والفن معاً من الانعتاق من القيود التي فرضتها الرأسمالية والاشتراكية البيرقراطية على المجتمع. فالفن الحق، في رأيهم، قادر على إعلان قدوم مجتمع المستقبل وإعادة بنائه. وقد انحازوا إلى استخدام التكنولوجيا الحديثة والاشتراكية معاً كأداتين من أجل تحقيق انعتاق الإنسانيّة، فيما أدانوا إساءة استخدام هذه وتلك في الاتحاد السوفياتي (عن طريق النسخة «البيرقراطية») أو الستالينية من الاشتراكية والمجتمع المنحطّ الذي أنشأته).

سوف يكون هذا الحد المزدوج للتكنولوجيا الحديثة ــ بما هو أداة إخضاع وتحرير معاً ــ موضوعاً مركزيّاً في جداريّات دييغو ريڤيرا ابتداءً من عشرينيات القرن الماضي. فقد نشأت تلك الجداريّات في إطار النقاشات حول نمط الحداثوية المميّز لما يجب أن تكونه المكسيك بعد الثورة. فقد ضمّن ريڤيرا جدارياته روايته الخاصة عن النزعة الأهلية indigenismo، وهي التيار الفكري والثقافي والسياسي والأنثروبولوجي الذي يركّز على إحياء الثقافات الأهلية ودمجها في الدولة الوطنيّة. تحقيقاً لانضواء السكان الأصليين في ظلّ سلطة الدولة الوطنيّة، جرى تمجيد الثقافة الأهلية بما هي جزء من تاريخ الوطن من خلال برامج رسمية متنوّعة في مجالات التربية والثقافة والمؤسسات والسياسات. وكما سوف نرى لاحقاً، سوف يقدّم ريڤيرا، بناءً على المُثُل الاشتراكية وعلى نقد الرأسمالية، رؤية للنزعة الأهلية بديلة عن تلك التي تعرضها الدولة بمثل ما هي بديلة عن الاشتراكية السوفياتية. ومع أن هذه السرديّة البصرية، كانت تتعاطى مع تناقضات عدة، فقد حوّلت نتاج ريڤيرا الفنّي نتاجاً ثورياً يقارب ما اعتبره هو وبريتون وتروتسكي «الفنّ الحقّ» في بيانهم.

وُلد دييغو ريڤيرا في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٦ في غواناغاتو، ونمّ منذ عمر مبكّر عن مؤهلات استثنائية في الرسم والتصوير. وعندما انتقلت أسرته إلى العاصمة وهو في العاشرة، انتسب دييغو إلى أكاديمية سان كارلوس

١ متوافر على مواقع التواصل الاجتماعي. انظر https://www.marxists.org/subject/art/lit_crit/works/rivera/manifesto.htm

للفنون، ودرس على يدّ رسامين بارزين أمثال سانتياغو ريبول وأندرياس ريوس وجوسي ماريا ڤيلاسكو وجوسي سالومي بينا. وفي تلك السنوات تعرّف أيضاً إلى الحفّار جوسي غواديلوبي پوسادا الذي سوف يكون له تأثير كبير على أعماله. وبعد ست سنوات من الدرس في أكاديمية سان كارلوس، تمرّد ريڤيرا على الواقعية شبه الفوتغرافية التي تطبع أسلوب أكاديميات الفنون وبدأ العمل على نحو مستقلّ.

في العام ١٩٠٧ حصل دييغو على منحة دراسية في أكاديميّة سان فرناندو في مدريد بإسبانيا، ثمّ عاش بين ١٩١١ و١٩٢٠ في باريس، حيث تمكّن من الأساليب الطليعية. لم يكتف بالتكعيبية، فدرس فن رسم «الفريسكو» في إيطاليا قبل أن يعود إلى المكسيك في العام ١٩٢١. وبعد سنة من ذلك، سوف ينفّذ جداريّته الأولى في مدرّج بوليڤار في المدرسة الوطنية العليا.

تعود لوحته الأولى إلى العام ١٩١٥ وعنوانها «مشهد زاباتيستي: المغاوِر» المعلّقة في المتحف الوطني في مكسيكو العاصمة. إنها مستوحاة من الثورة المكسيكية ١٩١٠-١٩٢٠ وتتضمّن عنصرين أساسّيين من سرديّة ريڤيرا الثورية: الاشتراكية والنزعة الأهلية. كانت الصيغة المكسيكية من النزعة الأهلية من تنظير المدير العام لوزارة التعليم حينها جوسي ڤاسكونسيلوس الذي صاغ مصطلح «العِرق الكوني» الذي يجسّد مثالاً مهجناً لا طبقياً من الوحدة الإثنية. على أنّ فكرة العِرق الكوني تنطوي على مضمرات عرقية آريّة، تنمّ عن نظرة جوهرية تمزج النزعة العرقية والاستعلاء الأبوي تجاه سكان المكسيك الأصليين. بالمقارنة، كان تصوير ريڤيرا للقيم الأهلية بعيداً كلّ البعد عن تعريف ڤاسكونسيلو، حيث يتحوّل هذا الأخير إلى أقسى نقّاده ابتداءً من ثلاثينيات القرن الماضي. يجسّد «المشهد الزاباتيستي» رواية ريڤيرا البديلة للنزعة الأهلية. إنّها توليفة قائمة على خدعة بصرية وعلى تأويل لصورة فوتوغرافية شهيرة للقائد الثوري إميليانو زاپاتا كانت شائعة في تلك الفترة. في هذه التوليفة التكعيبية المزوّرة، دمج ريڤيرا مصادر عابرة للثقافات ليس من أجل العودة إلى الجذور الأهلية، وإنّما من أجل التوليف بين زمنيات مختلفة بواسطة نزعة أهلية تحويلية، ليست منبتّة في الماضي وإنّما قائمة في الحاضر الحديث عينه.

لينين في جدارية روكفلر

فيما بعد، سوف يضمّن ريڤيرا جدارياته رؤى مثالية تعود إلى ثقافة المكسيك قبل الغزو الإسباني وثقافة أميركا الوسطى. اعتمدَ على المكتشفات الأركيولوجية في زمانه، ليعيد تصوير عمارة وأبطال وآلهة وأساطير ومعتقدات عائدة إلى تلك الحقبة التاريخية، فتتعايش في جداريّاته مشاهد من ماضي المكسيك الأهلي الممجّد مع صور الحداثة، يقرأ الماضي قبل الإسباني قراءة جديدة فيقدّم تاريخاً مشتركاً لجميع المكسيكيين. نجمت عن ذلك مقارنة بين الفلاح المكسيكي والركنين الاشتراكي والرأسمالي للتقدّم المتمثلين بالتصنيع والعلوم والتكنولوجيا، تظهر كلّها منفصلة عن الواقع المعاصر للسكان الأصليين.

«الخليقة» (١٩٢٣) عنوان أوّل جدارية له مرسومة في مدرج سيمون بوليڤار في المدرسة الوطنية العليا، وهي تصوّر نقاشات جارية في زمنه عن القومية والوطنية، واحتقار العالمَ الأكاديمي لما هو شعبي، وضرورة استنقاذ العالم قبل الإسباني والصلات القائمة مع الديانة والثقافة والصناعة الأوروبية. ولا عجب أن ينتقد ڤاسكوسيلوس هذه الجدارية على اعتبار أنّها ليست «مكسيكية» بما فيه الكفاية. في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٤، بدأ ريڤيرا العمل في كلية الزراعة في تشاپنغو، وهي دير يسوعي قديم، كلّف بتزيين القسم الإداري منه والكنيسة القديمة. وكان القصد من الجدارية إحياء ذكرى توزيع الأرض على الفلاحين بعد الثورة، أي عملية ثورية قيد التنفيذ، وبالتالي تصوير ريڤيرا للاشتراكية في الزراعة.

في العام ١٩٣٠، رسم دييغو ريڤيرا جداريته المثيرة للجدل في نيويورك. كان هو وزوجته فريدا كاهلو عضوين في الحزب الشيوعي يعكسان في فنّهما معتقداتهما السياسية. في العام ١٩٣٤، وسط الأزمة الاقتصادية الكبرى، كلّفت أسرة روكفلر الفنان برسم جدارية في مدخل البناية الرئيسة في «روكفلر سنتر»، والذي جرى تصوّره بما هو عمارة لمجد إنجازات الإنسانية ومركز تبادل اقتصاديّ وماليّ وثقافيّ وللتجارة الخارجية يشهد على التزام أسرة روكفلر بالمسؤولية الاجتماعية. وكان المفترض أن تحتلّ جدارية ريڤيرا «الإنسان على مفترق الطرق» تلك مدخل المركز. وكان ريڤيرا قد زيّن عدّة مبانٍ رسمية في مكسيكو ونظّم معرضاً فردياً كبيراً في متحف الفن الحديث في نيويورك العام ١٩٣١ وكلّف بالتصوير على جدران ساحة الحديقة في مؤسسة ديترويت للفنون.

في تلك الجدارية، صوّر ريڤيرا قلب الولايات المتحدة الصناعي بما هو ملحمة مديح للصناعة والآلة والعمل البشري والسيطرة على الطبيعة وتحرّر الإنسان. ورسم ريڤيرا في وسط جدارية روكفلر سنتر، الثالوث الثوري

المتكوّن من جندي وفلّاح وعامل (الذي سوف تكون له لاحقاً ملامح وجه لينين) يتشاركون في حمل المنجل والمطرقة. وفي الجدارية أيضاً مشاهد من مسيرة في ساحة موسكو الحمراء يتراءى في مؤخرتها مدفن لينين. وصوّر دييغو المعرفة العلمية والحداثة من خلال الطائرات ومناظير المراصد الفلكية ومجهر المختبرات وأنابيب الأشعّة الكاثودية وشاشات السينما. هكذا باختصار صوّر ريڤيرا الجبروت الصناعي للولايات المتحدة.

في سردية الجدارية، يقع على العامل أن يختار بين طريقين: الرأسمالية أو الاشتراكية، تظهر الرأسمالية ألى اليمين في مشاهد تصوّر الفساد والخراب والأمراض والفوارق الاقتصادية والبطالة. وفي تلك الجهة أيضاً، تتمثّل الرأسماليةَ بواسطة ألمانيا النازية وانحطاط الأثرياء وعذاب المستغَلّين وبالتظاهرات في «وول ستريت» تقمعها الشرطة الخيّالة إلى جانب البرجوازية التي تحتسي الشمبانيا وتلعب البريدج. أمّا في الجانب الشيوعي، فتلقى النساء الرياضيات والجماهير السوفياتية المحتشدة في تظاهرات «الساحة الحمراء». وبين هاتين اللوحتين، يبدو الثالوث يتوسطه لينين، متشابك اليدين مع العمّال والأفريقيين الأميركيين ومع جندي وفلّاح وأمّ وزوج شاب وممثلين آخرين عن الشعب.

في رسمه الشعوب الأفريقية الأميركية والقمع في «وول ستريت» وانحطاط الطبقات العليا، تحدّى دييغو أفراد الأسرة التي كلّفته رسم الجدارية واستفزّهم، فطالبه روكفلر باستبدال وجه لينين بوجه شخص مجهول، وحجّته أنّ وجود القائد الشيوعي في الجدارية يستفزّ عابري السبيل قرب العمارة. رفض دييغو، فدُمّرت الجدارية. أثار ذلك سجالاً حادّ الاستقطاب يدافع فيه البعض عن الفنان وعمله بحجّة أنّ تدمير الجدارية من قبيل فرض الرقابة على الفن، فيما دافع آخرون عن أسرة روكفلر، وحجّتهم أنّ الجدارية تكليفٌ خاص قائم على ملك فرديّ فيحقّ للمالك أن يدمّر الموادّ التي تتكوّن منه. عند عودة فريدا ودييغو إلى المكسيك بعد عام من ذلك، كلّفت الحكومة المكسيكية الفنان بأن يعيد بناء الجدارية في «قصر الفنون» بمكسيكو العاصمة، حيث لم تُثِر الجدارية ردود الفعل ذاتها التي أثارتها في نيويورك، مركز الرأسمالية المالية.

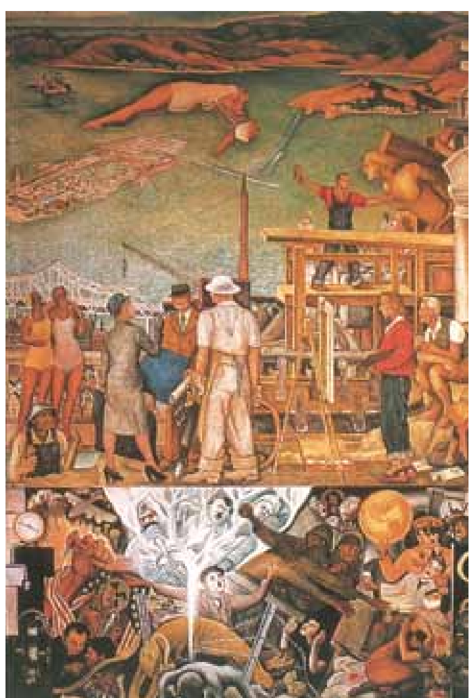
تناقضات الحداثة

في الجداريّات التي رسمها بين ١٩٢٣ و١٩٢٨ في وزارة التربية، كان ريڤيرا قد عزّز رؤيةً لنزعة أهليّة بديلة من خلال تصويره التفاوت في التطوّر التاريخي. فمثلاً، في «ساحة العمل» في وزارة التربية، صوّر التقدّم الذي حمله التصنيع والعلوم والتكنولوجيا، ولكن تظهر هذه جميعها منفصلة عن الواقع المعاصر للسكان الأصليّين. وعلى الرغم من ذلك، فمَشاهد العلوم الأوروبية الحديثة ــ كما هي مجسّدة في لوحة «الكيمياء» ــ تقابلها مشاهد من الفكر قبل الإسباني القديم، كما في مشهد «الجيولوجيا». هكذا تُعرَض على المُشاهد رؤية شاملة تعدّدية لتاريخ العلوم، ليس بما هو تاريخ غير أوروبي فحسب وإنّما بما هو أيضاً إنجازٌ غير مكتمل للثقافتين الأوروبية وغير الأوروبية، وبما هو جزء من مسار أوسع من التطور التاريخي المتفاوت.

على الغرار ذاته، ألّف ريڤيرا في العام ١٩٥٣ جدارية في مستشفي لا رازا في مكسيكو العاصمة عنوانها «تاريخ الطب في المكسيك: الشعب يطالب بعناية صحية أفضل». في تلك الجدارية، يتناول ريڤيرا الطب قبل الإسباني بالتوازي مع الطب الأوروبي الغربي. تعبّر هذه النظرة التعددية للطبِ عن تهجين في اللغة البصرية، إذ يصوّر ريڤيرا شخوصاً ممّا قبل الحقبة الإسبانية من أمثال تلازولتيوول (إلهة الذرة) مستخدماً تقاليد رسم عائدة إلى عصر النهضة الأوروبي من أجل توليد أشكال واقعية. هذا التهجين بين الأزمان والأشكال والمعارف المختلفة، حيث يتعايش الحاضر مع الماضي ويغذّي واحدهما الآخر، هو نفسه ما يميّز لوحة «مشهدٌ زاباتيستي» المرسومة العام ١٩١٥ حيث تشهد هذه الجدارية على تناقضات الحداثة غير المحلولة: ابتعاد التكنولوجيا والعلوم عن الواقع الفعلي للشعوب الأصليين، والتعايش والتنافر معاً بين الماضي التاريخي والحاضر، وطغيان البيروقراطية على الاشتراكية وفشل نزوع هذه الأخيرة إلى الاتّساق. فإذا كانت النزعة الأهلية الرسمية تمثّل تمجيداً سطحياً للثقافة قبل الإسبانية، فإن ريڤيرا، في نقلة جذرية، يقدّم لنا ماضياً قبل إسباني متشابكاً مع قضايا العِرق والطبقة، بمثل ما يصوّر لنا صورة مميّزة لاشتراكية المستقبل مخصوصة بواقع المكسيك بعد الحقبة الكولونيالية.

يقول ريڤيرا في مقابلة مع مجلة «آموتا» البيروڤية:

«ليس الفنان الثوري بمبدع روائع فنية يثير الاستهزاء أو التمجيد بل هو مقاتل من مقاتلي الطليعة [...] وهو أحياناً مقاتل غِواري بالسلاح [...] إنّ الفنان يكون ثورياً أو لا يكون [...] والشغف الطاغي عنده في زمننا الحاضر ــ كما في أي زمن آخر ــ يجب أن يلتقي مع التطلعات المشتركة للجماهير الشعبية».










PEACE
PAIX
МИР PAZ
FRIEDEN

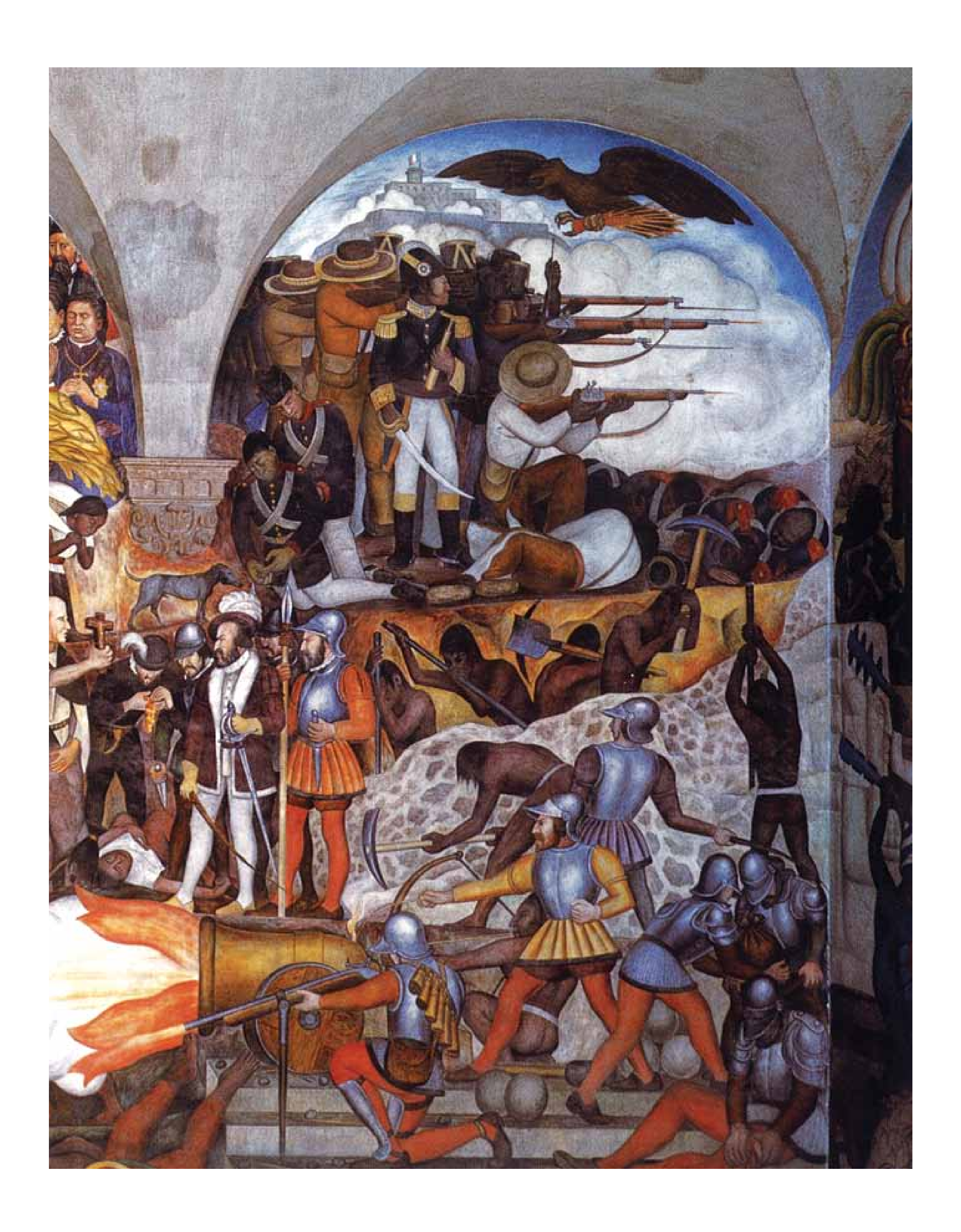


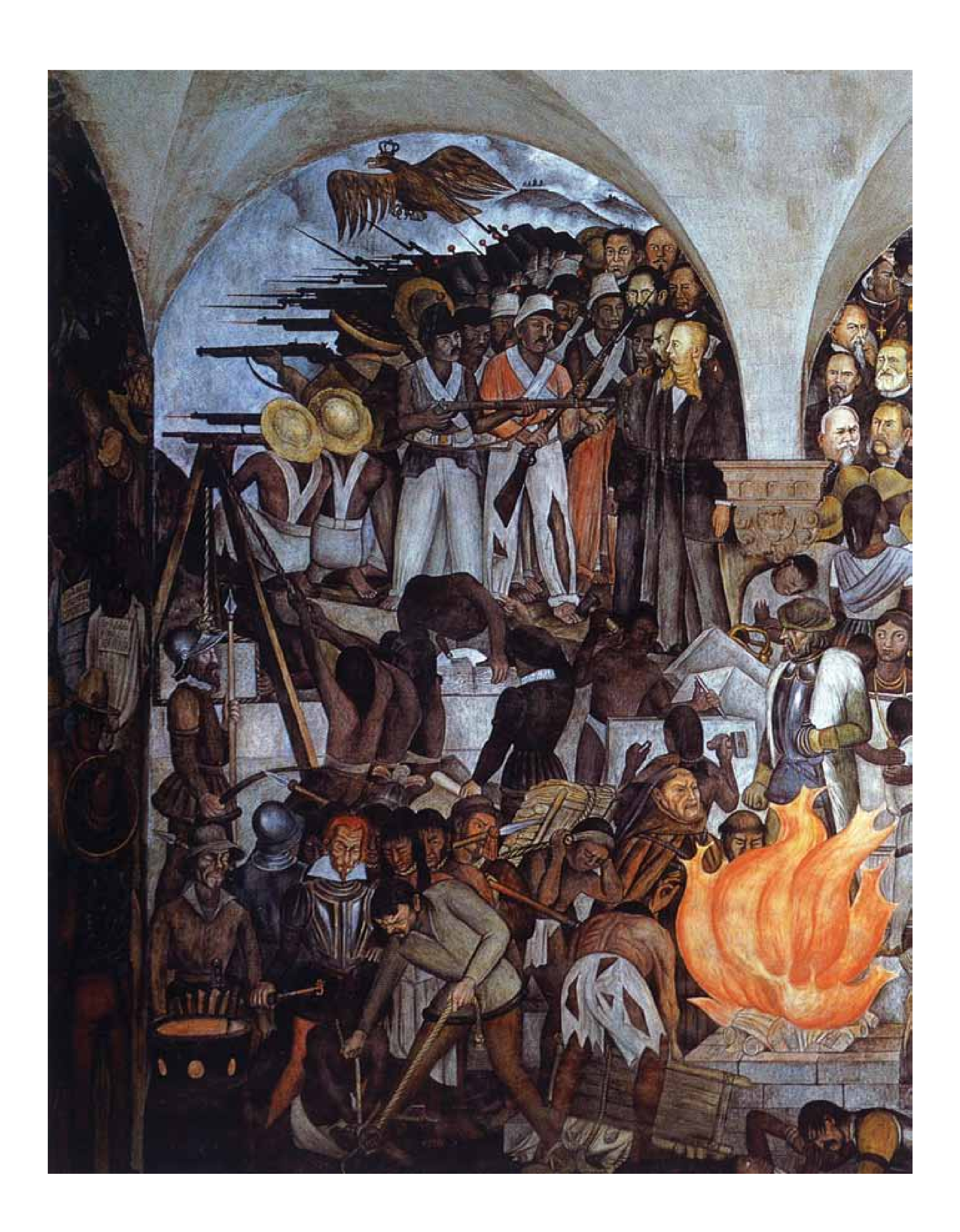






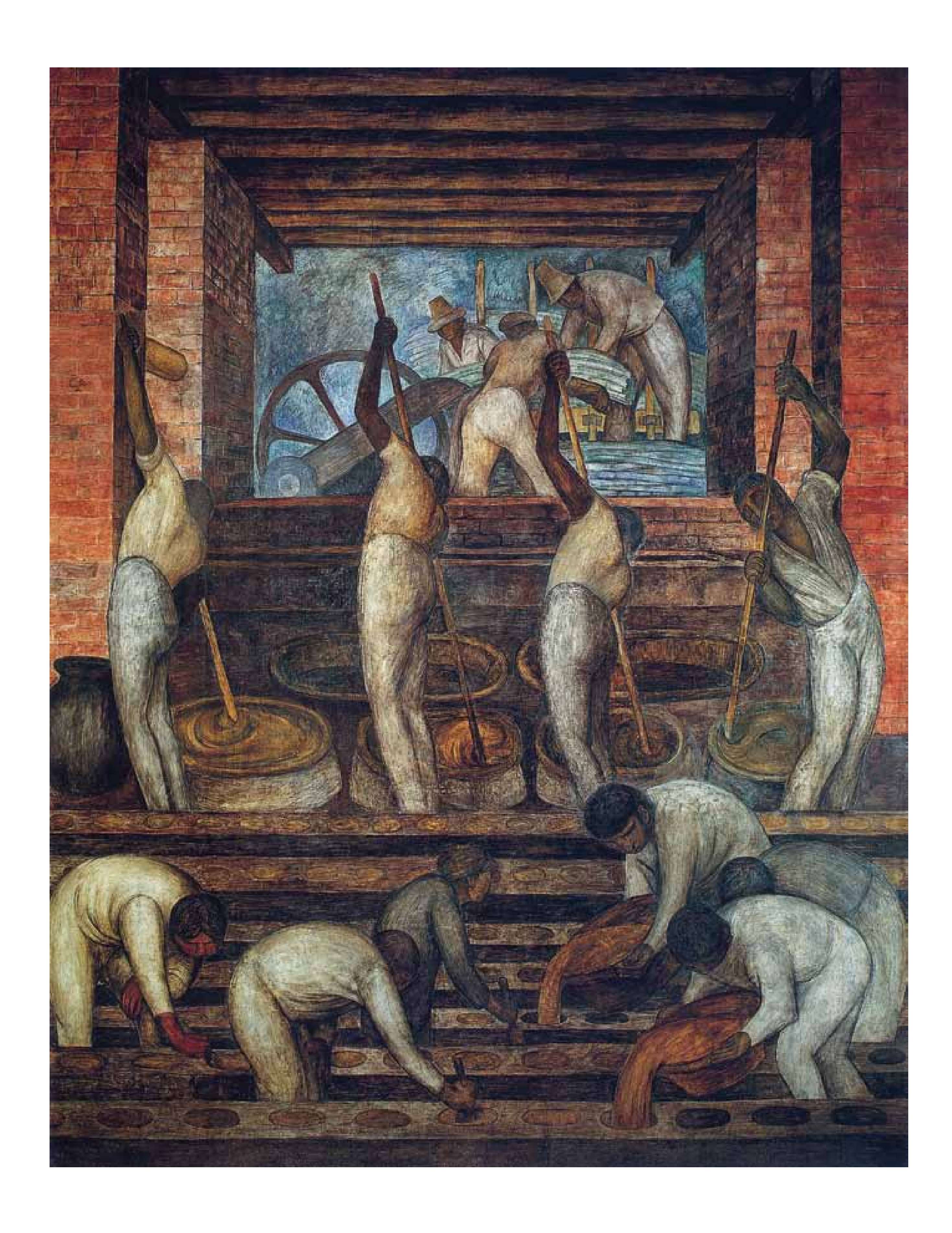

TIERRA

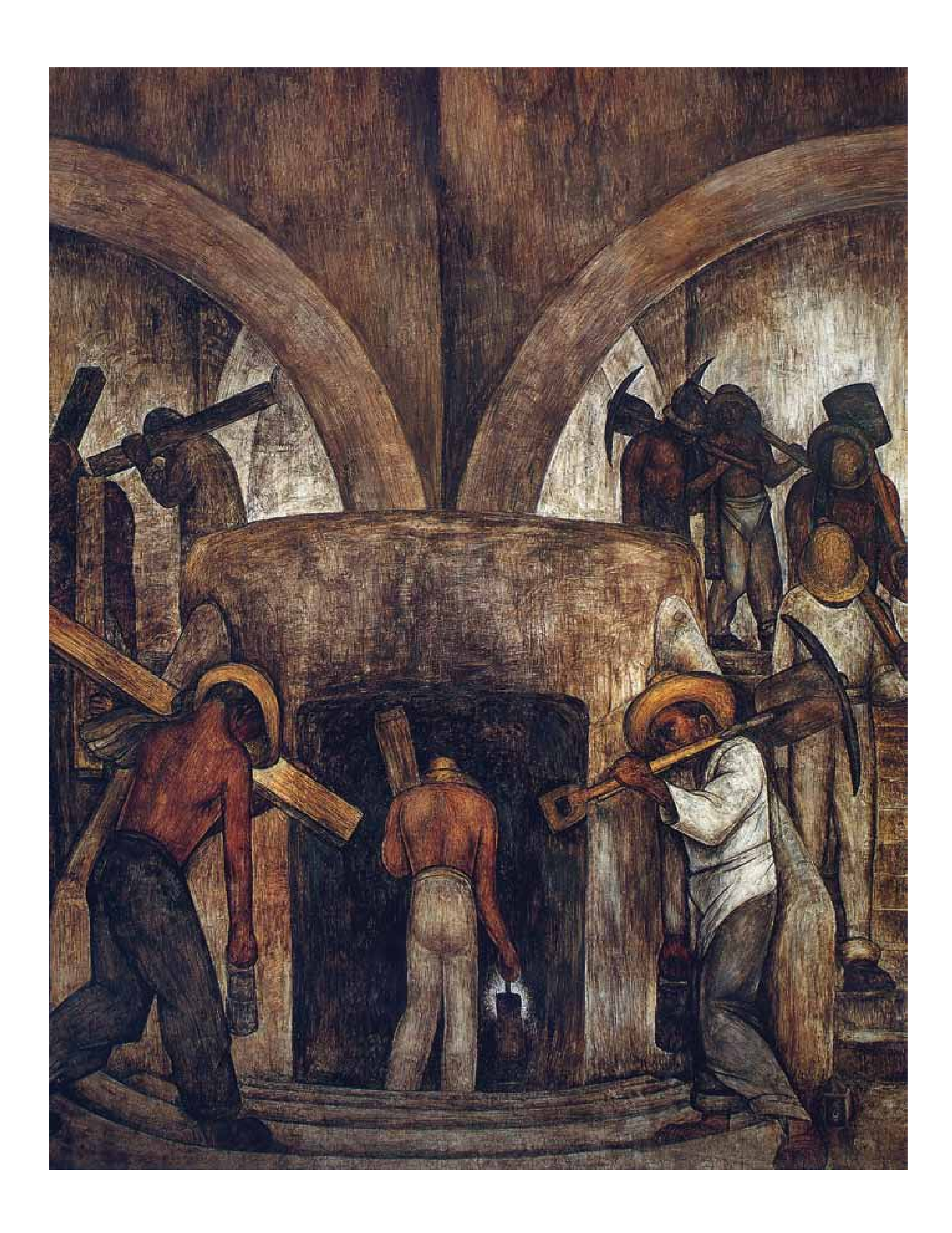




















ذاكرة

عن نهاية السلطنة العثمانية
فصل من سيرة

إتيل عدنان

روائية وشاعرة ورسامة ومؤلفة مسرحية من سورية ولبنان. من أعمالها المترجمة إلى العربية «الستّ ماري روز»، «سفر الرؤيا العربي»، «مدن ونساء: رسائل إلى فواز»، «قصائد الزيزفون»، «باريس عندما تكون عارية»، «في قلب قلب مدينة أخرى».

«إني لا آمركم بأن تقاتلوا بل آمركم بأن تموتوا». كان هذا مزاج العصر. وهو ما قاله مصطفى كمال لقواته في ذلك اليوم الحاسم من معركة المضائق (الدردنيل) في ٢٥ نيسان / أبريل ١٩١٥. هذا القول سوف يغيّر مصير تركيا. بلغ عدد الجنود العثمانيين القتلى ٢٥٣ ألف جندي. لكنهم كسبوا المعركة التي استمرت قرابة تسعة أشهر وانتهت بهزيمة كاملة. لقد أفشلت محاولة البريطانيين مع حلفائهم الأستراليين والنيوزيلانديين الوصول إلى اسطنبول.

وهكذا ارتقى إلى مصاف الأبطال قائدُ لواء المشاة ٥٧ الذي قال «لست آمركم بأن تقاتلوا بل آمركم بأن تموتوا. بعد قليل سوف تأتي وحدات جديدة وضباط جدد ويأخذون أماكنهم».

أبي، الذي كان ضابط أركان في السلطنة العثمانية، مارس دوراً قيادياً في تلك المعركة وقد أصيب في فخذه ومؤخرة الرأس. وسوف أعود إلى هذه الحادثة.

اعتقالات في صفوف الأرمن

قضت مفارقة ساخرة كبيرة في واقع أن ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩١٥، يوم بداية «معركة المضائق» الكبرى، كانت شرطة إسطنبول تعتقل مائتي وجيه أرمني بقصد نفيهم وربما تصفيتهم. القصة معروفة جداً، لكنها لا تمنع من إثارة السؤال: ما الذي أدّى إلى حملة الاعتقالات هذه؟

يقتضي الجواب أن نقوم برحلة إلى وراء. فلنعد إلى العام ١٨٢١، قبل مئة عام بالضبط من تفكيك السلطنة العثمانية العام ١٩٢١.

في العام ١٨٢١، نالت اليونان استقلالها. والغريب أن غزوات نابليون، وحلمه الإمبراطوري، أطلقا في أوروبا رغبة في تدمير مجموعات كبرى مكوّنة من أمم وشعوب وأوطان مختلفة. حدث أول شرخ في السلطنة العثمانية لحظة وفاة نابليون، في جنوب البلقان، في آخر موقع حيث كانت اللغة اليونانية لا تزال هي اللغة القومية بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية.

القرن التاسع عشر قرن غريب. بدأت خلاله إمبراطوريات الداخل تنهار ببطء ولكن بثقة، فيما إمبراطوريات الخارج، الإمبراطوريات الكولونيالية، يؤسسها الفرنسيون والبريطانيون والهولنديون والبلجيكيون في عموم أفريقيا وفي أجزاء كبيرة جداً من آسيا حتى لا نقول فيها كلها. فتلقى حركات تحرر من جهة، وتلقى من جهة ثانية وفي الآن ذاته شعوباً أخرى يجري إخضاعها بقسوة.

في ما يتعلق بشعوب السلطنة العثمانية، والأرمن منهم خصوصاً، يجب أن نُبرز قوة أوروبية جديدة. في العام ١٨٧٧، غزت روسيا تركيا عبر حدود القفقاز، وهناك كان يوجد القسم الأكبر من السكان الأرمن. لم يقف الأرمن إلى جانب الروس ظنّاً منهم أنهم بذلك سوف يكسبون بلداً مستقلاً. طبعا كانت توجد قرى تركية ويونانية في المناطق ذات الأكثرية الأرمنية. خلال تلك الحرب ١٨٧٧-٧٨ كان القمع التركي وحشياً. وكان الشيشان والأكراد في الصفوف الأمامية من قوى القمع الذي جرى على نطاق واسع جداً. وأقول إن ما كان يجري كان حرباً أهلية، مع أن الكلمة لم تلفظ حينها، والحروب الأهلية كاسحة بالنسبة إلى السكان.

هكذا تعرّضتْ السلطة العثمانية في إسطنبول لخطر مزدوج على امتداد السنوات: القوى الأوروبية المصممة على تدمير السلطنة العثمانية، خصوصاً في دفع أقلياته، «الأمم» داخله، والعالم العربي كذلك، إلى الثورة المسلحة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تمثّل الخطر في مجموعة من الضباط الذين راحوا يطالبون بإجراءات جذرية، وهم ضباط «تركيا الفتاة».

في البداية، لم تكن «تركيا الفتاة» قد اتخذت موقفاً

معادياً للسلطان بذاته. كانوا يريدون تحديث تركيا والتعاون مع مسيحيي السلطنة لتفعيل الأمور. في العام ١٩٠٥ أنشأ مصطفى كمال جمعية «الوطن والحرية»، لكنها كانت أكثر جذرية إذ نادت بضرورة إسقاط السلطان. قام انقلاب «تركيا الفتاة» العام ١٩٠٨، وانضم كمال إلى قيادة أركان الجيش في ١٩١١. وفي العام التالي اندلعت حرب بين تركيا من جهة وتحالف مونتي نيغرو وبلاد الصرب والبلغار واليونان من جهة أخرى. أخيراً، قاوم الأتراك وأمكن تحقيق نوع من السلام.

أبي، زميل أتاتورك

أريد أن أتحدّث هنا عن حياة أبي لأنها وثيقة الصلة بتلك الفترة التي تثير اهتمامي في هذه الآونة. ولد أبي في دمشق العام ١٨٨٠، العام ذاته الذي ولد فيه مصطفى كمال. يقول بعض المؤرخين بصدد هذا الأخير إنه ولد في تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٨٠ وآخرون في العام ١٨٨١. ومثله مثل جميع الفتية في العالم الإسلامي، درس أبي في «الكتّاب» إلى بلوغه الثانية عشرة. كانت أسرته تمتهن العسكرية. والده في الجيش لكنه توفي عندما كان أبي في الخامسة وشقيقته في الثانية. لكن الجد كان له ثلاثة أولاد وابنتان من زواج سابق وكان كل اخوة أبي غير الأشقاء ضباطاً عثمانيين من أم قوقازية.

في سن الثانية عشرة، خالف أبي إرادة أمه وقرر أن يذهب إلى إسطنبول للانضمام إلى المدرسة التمهيدية للكلّية الحربية. يروي أنه فرّ من دمشق إلى إسطنبول، عابراً كل أراضي الأناضول. وفي إسطنبول قصد عمه الذي كان على رأس الإدارة في تلك الكلية.

لم يكن أبي يتكلّم كثيراً. كان من الصامتين. لكن الغريب أنه كان يتحدث كثيراً عن أتاتورك. يقول إنهما كانا طالبين معاً وتخرّجا ملازمين شابين في العام ذاته. وسرعان ما حانت تجربتهما الأولى في القتال. كان الإيطاليون قد هاجموا السلطنة في ليبيا، فأرسل أتاتورك إلى طبرق وأبي كذلك. كان ذلك في العام ١٩١٢ بعدما كان قد أرسل إلى القدس. ذات يوم، في قديسة القيامة تفكك مسمار وسقطت أيقونة من على جدار. اختلفت السلطات الدينية المسؤولة عن الموقع على من سوف يحل المشكلة. عندما أبلغ أبي بالأمر، قصد المكان وأخذ مطرقة وأعاد تعليق الأيقونة على الجدار. لم يكن لُمسلم الحق أصلاً بدخول الكنيسة الشهيرة، فتقرر نقله تأديبياً إلى موقع بعيد في الجزيرة العربية.

في الحجاز، غرب الجزيرة العربية، اكتشف أبي الصحراء. غالباً ما كان يتحدّث عن مخيماته فيها وعن أنوارها. وأكثر ما أثار اهتمامه انتقال كثبان الرمان من موقع لآخر. «ينام المرء وأمامه سلسلة من التلال ويستيقظ فإذا هو أمام سلسلة آخرى!». ووقع حادث مؤسف جعله يغادر المكان من جديد. اتهم ابن شيخ قبيلة بالكذب، وتلك إهانة كبرى. طالبه الشيخ بأن يغادر سريعاً عند الفجر. قال له «أنت تحت حمايتي ولا أستطيع أن اؤذيك، ولكن إذا قبض عليك رجالي خارج المخيّم فسوف تلقى حتفك». ركب حصانه عند انبلاج الصباح وفرّ نحو الشمال حتى وصل إلى المحمية العسكرية التالية على طريق دمشق.

لعله عند انتهاء تعليمه بين ١٩١٠ و١٩١٢، تزوّج أبي في دمشق امرأة شابة اسمها لطيفة وولد له منها ثلاثة أبناء: سميحة ونضيضة وبرهان الدين. أما اسمه فهو عساف قدري وكان يسمى قدري بك. لما قرر الفرنسيون تسجيل نفوس المواطنين في لبنان في العام ١٩٣٢، وطالبوهم بأن يتخذوا لأنفسهم أسماء عائلية، أضاف أبي اسم أبيه عدنان إلى اسمه.

عندما انقسمت جماعة «تركيا الفتاة»، وجلّ أعضائها من زملاء الدراسة، حوْل بعض الأمور مثل النزعة الألمانية لدى أنور باشا وانجذاب كمال إلى إنكلترا وفرنسا، ومبدأ الدولة الوطنية، كان أبي يتمنى تحقيق إصلاحات، لكنه كان معجباً بالجنرالات الألمان الذين كانوا يُعدّون لمعركة الدفاع عن المضائق، أي حماية إسطنبول. وكان على صلة وثيقة بكمال وقد شارك في حملات ليبيا وبلغاريا وغاليبولي. لم يكن قومياً عربياً. كانت بريطانيا بالنسبة إليه مصدر كل مصائب السلطنة.

في بداية العام ١٩١٤، أو نهاية ١٩١٣، التقى والدي بأمي، يونانية من إزمير تصغره بنحو ١٨ سنة ومن أسرة فقيرة نوعا ما. تزوجها، وكانت الزيجات المختلطة نادرة جداً في تلك الأيام. لاحقاً، وأنا طفلة في بيروت، سمعتُ أنها قضت سنوات سعيدة معه عندما كانا في إسطنبول، يرتادان المقاهي حيث الغناء، ويصاحبان مغنّين ومغنيات من المشهورين.

عندما اعتقَل اليونانيين في معسكرات لمنعهم من الانضمام إلى الجيش اليوناني المحتشد في أوروبا قصد السيطرة على إزمير والساحل، عمل أبي على إسكان أشقاء أمي الثلاثة عندنا ولكن بـ«تكتم»، وتولّى تأمين حاجات أسرهم.

في العام ١٨٧٧ حاولتْ روسيا اجتياح المقاطعات الواقعة شرقي تركيا. وعندما اندلعت الحرب العام ١٩١٤، بين فرنسا وإنكلترا من جهة وألمانيا وتركيا من جهة أخرى،

أعلن الروس الحرب على تركيا فانضم أرمن المقاطعات الشرقية إليهم. وتلقّوا التشجيع من البريطانيين والروس فشنّوا حرب عصابات سموها حرب تحرير ضد تركيا. كان ذلك فعل خيانة في نظر الأتراك، وانطلقت حملة القمع الأولى للجيش التركي. تلى ذلك معارك أخرى، إحداها في كيليكيا حول أضنة، وداخلها، حيث كان الفوج الأرمني يقاتل مع القوات الفرنسية. من هنا بات الوضع في السلطنة كلها غير قابل للتوقّع إلى درجة أنّ البريطانيين كانت لهم أربع خطط مختلفة في نهاية الحرب العالمية الأولى. محاولة الاجتياح الروسي عن طريق القوقاز انتهت العام ١٩١٧ مع قيام الثورة البلشفية. ثم وقّع لينين معاهدة مع الأتراك لوقف الحرب على تلك الجبهة فوقع أرمن المناطق الشرقية والشمالية في الفخ. واستمرت معركتهم ضد الأتراك، التي حرّضهم عليها البريطانيون، لسنتين إضافيتين.

لويد جورج وتقسيم تركيا

عودة إلى الخطة الأثيرة لرئيس الوزراء البريطاني لويد جورج، الخطة التي لم يحالفها النجاح قط. قرر أنه يجب تقسيم تركيا كما نعرفها الآن، فيعطى الساحل المتوسطي إلى اليونانيين، خلا سيليسيا التي قرر منحها لإيطاليا. وتكون إسطنبول وجوارها من نصيب روسيا، وتمنَح الأراضي على البحر الأسود وصولاً إلى القوقاز إلى الأرمن، وتبقى أنقرة ومنطقتها تركية!

سألوني عدة مرات «هل قتل أبوك أرمنيين؟» وكنت اجيب دوما «لا». وهذا صحيح وأنا أكيدة منه.

بناء عليه، شن كمال هجوماً على الأرمن في شمال البلاد على مدى سنتي ١٩١٥-١٩١٦. وقد تعرّض الأرمن لحملات قمع قاسية بعدما تخلّى عنهم البريطانيون. في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨، أعلن عن هزيمة السلطنة العثمانية، وفي العام التالي وقّع السلطان محمد السادس معاهدة سرّية تضع السلطنة تحت الانتداب البريطاني. أما على الأرض فلم تكن الأمور قد حسمت على الإطلاق.

في أيلول /سبتمبر ١٩٢٠، بعد فترة من المناوشات المتواصلة بين أتراك وأرمن، طلب كمال من الجنرال كارابكير «تهجير الأرمن خارج حدود تركيا». ومع أن الأرمن وقّعوا معاهدة سلام في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٠، في غوروري، حاول سكان الشرق والجنوب الشرقي الفرار. وسارت قوافل من المهجرين إلى سورية ولبنان مشياً على الأقدام.

هنا يمكننا رواية قصتين.

في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وأنا بعد طفلة، التقيت في قرية بعبدات اللبنانية سيداً تركيا يدعى عبدالرحمن بغدادي زاده. كان يتحادث وأهلي بالتركية وكنت أفهمهم جيداً، أعني أنني كنت أستطيع أن أتابع أحاديثهم. كان عبد الرحمن بغدادي محافظ منطقة أضنة عندما قُتِل الأرمن، بمن فيهم النساء والأطفال. ويجب التذكير بوضوح أن السفن البريطانية والفرنسية الراسية في ميناء أضنة لم تُنزل جنوداً على اليابسة لحماية الأرمن مع أنهم كانوا قد شجعوهم على الثورة منذ عقد من الزمن. كان بغدادي زاده قد تأثر، إنسانياً، كثيراً بالمأساة التي تجري تحت ناظريه واتصل بالحلفاء للسماح للأرمن بركوب السفن والنجاة بأنفسهم. وعندما انكشف تدخّله هذا اعتُبر خائناً لدى الأتراك، ورشق بيتُه بالحجارة وأجبر على سلوك طريق المنفى. ذهب عبد الرحمن إلى باريس لبعض السنوات قبل أن ينتهي وحيداً في بعبدات وقد قررت زوجته وأولاده البقاء في البلاد. وكثيراً ما كان يقول إنه لم يكن ليستطيع أن يتصرّف بطريقة مغايرة. فقد اتّبع ما أملاه عليه ضميره، وهو ليس آسفاً على شيء.

قصة الحقيبة الجلدية الحمراء

قصتي الثانية: عندما كنت في التاسعة عشرة تقريباً، دخلت «كلية الآداب» في بيروت حيث كانت صديقتي المفضلة ماجدا إهماليان، من أسرة أرمنية تتكون من أب وأم وخالة عزباء وأختين، عائدة وبرجوي. كانت تلك السنوات الختامية للمراهقة وكنت أعاني صعوبات جمّة في علاقتي مع أمي، كنت أعيش في حالة غربة فعلية في أسرتي الصغيرة. فوجدت لنفسي أسرة أخرى، أسرة تقبلني كما أنا، لأني كنت مسكونة بحالة اضطراب عميقة وغريبة. كانت هذه الأسرة تدرك أن والدي كان زميلاً لأتاتورك وأنه كان لفترة في قيادة الأركان العثمانية التي يرأسها أنور باشا. سألوني عدة مرات «هل قتل أبوك أرمنيين؟» وكنت اجيب دوماً «لا». وهذا صحيح وأنا أكيدة منه.

كنت أزور تلك العائلة عدة مرات في الأسبوع، على امتداد خمس سنوات (عدا زياراتي لهم عندما كنت أعود من الولايات المتحدة إلى لبنان في بعض فصول الصيف). عرفتهم معرفة حميمة، كأنني واحدة من أفراد العائلة. غالباً



ما كانوا يتكلمون التركية، ذلك أن الوالدين لم يكونا يتكلمان الفرنسية. وغالباً ما يجري الحديث عن تركيا. وأستطيع القول بثقة إنهم كانوا يشتاقون إليها. ذات يوم، أبلغوني أن الأب كان رئيساً لمحطة قطار قونية، المدينة التي تضمّ ضريح الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي وحيث يجري احتفال سنوي على اسمه في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر من كل سنة. قال لي الأب إهماليان إن حاكم قونية كان رجلا تقيّاً يقدّس الرومي، وإنه أسرّ له بما يُعدّ للأرمن في منطقته، ففرّ هؤلاء إلى سورية وبعضهم إلى لبنان. فّروا مشياً على الأقدام وكثير منهم قضى على الطرقات. يذكر أن الفنان بول غيراغوسيان، الذي استقرت أسرته في القدس بفلسطين، أمضى حياته يرسم مشاهد ذلك الخروج من تركيا. (وأرغم هو نفسه على الهجرة إلى لبنان العام ١٩٤٨ عندما أجبر الإسرائيليون مئات الألوف من الفلسطينيين على مغادرة بلدهم! فإذا هو على الطرقات مرة أخرى!) للوحات بول غيراغوسيان أثر روحاني قوي. ففي كل لوحة من لوحاته، صغيرة كانت أم كبيرة، تحول عبقريتُه قافلةَ اللاجئين الطويلة إلى حَجيج مقدسيين.

ثمّة أحداث لا ندرك أهميتها إلّا بعد أن تنقضي. عندما توفيتْ أمي في بيروت العام ١٩٥٧، كنت أسكن كاليفورنيا لإعداد شهادة دكتوراه في جامعة بيركلي. كان عليّ أن أخلي شقتي بسرعة بأن أبيع بعض الأشياء وأعيد المفتاح إلى صاحب الشقة، بعدما سكنّاها منذ العام ١٩٣٠ (توفي والدي قبل ذلك بعشر سنين العام ١٩٤٧). ولما لم يكن لي غير غرفة طلاب في بيركلي، تعذّر عليّ الاحتفاظ بالشيء الكثير من متاع البيت. أنقذت بعض الأشياء: سجادة بوخاري، لجمالها، «كيليم» تركي كانت مربعاته ذات الألوان الحمراء والنِيلية مفروشة دوماً في أرض غرفتي. احتفظت أيضاً بحقيبة حمراء، من الجلد البقري الصلب، تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الحقيبة غير الوسيعة وضعت ألبوم صور العائلة: أذكر صور عمتي في دمشق مع ابنيها – وشقيقتين يونانيتين من صديقات أمي غادرتا إلى فرنسا، وعدداً آخر من الصور. لم يكن لدينا كتب، ولا أعمال فنية، لذلك قضيت الساعات تلو الساعات أعاين ذاك الألبوم! وقد عثرت أيضاً على مغلّف كبير يحوي رسائل موجّهة إلى أمي ارسلها أبي خلال معركة الدردنيل. كانت مكتوبة بالفرنسية وهي لغة كانت تدرّس جيداً في الكلية الحربية، وقد تعلمتها أمي في مدرسة دينية بإزمير ارتادتها حتى سن الثانية عشرة. ولما كان اسمها «روزا ليليا لا كورتي» (كانوا يسمّونها «مدام ليلي» في بيروت)، كانت تلك الرسائل، وبعضها مكتوب «تحت القنابل»، تبدأ كلها بـ«يا وردتي العطرة»! فاحتفظت بتلك الرسائل في الحقيبة، مع بعض الفضّيات التي أذكر أننا لم نستخدمها قط: مغرفة وملاعق وشُوك وصينية، إلخ. ثم أضفت إلى كل هذا صورة كبيرة على ورق كرتون، كانت أمي قد وصفتها لي غير مرة، لقيادة أركان السلطنة العثمانية خلال الحرب. كان ثمة ثلاثة صفوف من كبار الضباط. في وسط الصف الاول يتربّع مصطفى كمال، وكان أبي هو أيضاً في عداد الصف الأولى على مبعدة بعض الأمكنة من كمال. كانت صورة مؤثّرة.

ولمّا كان عليّ أن أعود سريعاً إلى كاليفورنيا، تركت سجادتيَ والحقيبة عند آل إهماليان على أساس أني سوف أستعيدها بأقرب فرصة. في نهاية صيف ١٩٥٧ غادرتُ بيركلي لقضاء سنة في هارفارد. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨ بدأت تدريس الفلسفة في كلية في شمالي خليج سان فرانسيسكو. استمرت سنوات التدريس إلى العام ١٩٧٢. خلالها، كنت أعود دورياً إلى لبنان في الصيف وأزور صديقتي ماجدة. وقد لاحظت أن الكيليم تحت فراش أحد أسرّتهم، وسجادة البوخاري تغطي الديوان في قاعة الاستقبال، حيث تجلس الأسرة كل يوم. مرة أو مرتين سألتني ماجدة متى سوف أستعيد أغراضي، لكنني أحسست بشيء من الخجل عندما ساورني شعور بأني «أسحب السجادة من تحت أرجلهم»! مضت السنوات. وفي صيف ١٩٧٢ قمت بزيارة قصيرة لبيروت، أو هكذا كنت أظنّ لأني ما لبثت أن أمضيت فيها ثلاث سنوات. حينها التقيت صديقتي سيمون فتّال ووجدت عملاً كمسؤولة للصفحات الثقافية في جريدة بيروتية تصدر باللغة الفرنسية.

تحدثت لسيمون عن حقيبتي، لكني ظللت اؤجل اليوم الذي سوف أذهب لاستعادتها. اندلعت الحرب الأهلية وغادرت وسيمون إلى كاليفورنيا، مع أني لم أعد إلى التدريس حينها. نحو العام ١٩٨٠ أمضينا فترة في بيروت. ما أن وصلت إليها حتى وعدت نفسي بأن أزور آل إهماليان لاستعادة أغراضي. كنت قد حزمت أمري. كان ذلك يوم إثنين، مثلاً، فقلت لنفسي «سوف أذهب إليهم يوم الجمعة بالتأكيد. سوف نذهب كلتانا». بعد يومين، أي يوم الأربعاء، كنت في «باب إدريس» أسير وسيمون على الرصيف عندما ظهرت الشقيقات إهماليان الثلاث. انخفضت أصواتهن. ولما كنت أتأهب لابلاغهن بأني قررت أخيراً أن آتي لاستعادة أغراضي، علمت أن والديهن قد توفيا. وأضافت ماجدة «تعرفان، سوف نغادر إلى لوس أنجلس بعد غد. لقد هوجم «بنكو دي روما» حيث نودِع مجوهراتنا وأموالنا وخسرنا كل

شيء، إلى درجة أننا اضطررنا لبيع أثاث البيت، وأغراضك، لحاجتنا إلى المال. لم يكن لدينا عنوانك في أميركا!». سيطر عليّ إحساس غريب. لم أنبس ببنت شفة. أعطيتهن عنواني في كاليفورنيا. وافترقنا. فقد مضت ٢٥ سنة منذ أن تركت أغراضي عندهم!

مسؤولية فرنسا وبريطانيا

لم أتجاوز قطّ هذه الخسارة العائدة إلى إهمالي كلياً. ولكن بعد بضع سنوات، ذات ليلة تمكن فيها مني الأرق، أحسست وقد سرت قشعريرة باردة في ظهري. عادت إلى ذاكرتي اللحظة الماضي عليها ٢٥ سنة حين تركت حقيبتي في خزانة غرفة ماجدة، عندما فتحت وأهلها الحقيبة وشاهدوا الصورة التي كان أبي جد فخور بها: لقد آووا في منزلهم صورة الجنرال كمال باشا المسؤول عن وضع حد للوجود الأرمني في الأناضول. لا بد أنّ تلك كانت لحظة صادمة. لا أزال أعاني منها إلى الآن. قابلت الأخوات إهماليان في كاليفورنيا والمؤكد أننا لم نتطرّق للحديث عن تلك الأحداث. (ولا أنا استطعت أن أقرأ رسائل أبي!).

إن مجمـــــــــــــــــــل ما طالبت به تركيا الحالية من العام ١٩١٧ تقريبا. كانت جماعات مختلفـــــــــــــــــة موعودة به: الأرمن واليونانيون والإيطاليــــــــــــــــون.

إن مجمل ما طالبت به تركيا الحالية من نهاية العام ١٩١٥ إلى العام ١٩١٧ تقريباً، كانت جماعات مختلفة موعودة به: الأرمن واليونانيون والإيطاليون. ومع ان الأرمن لا يذكرون ذلك إلا نادراً، وكان لليونان حضور هام ومطالب تاريخية، ذلك أن الإغريق قبل سقراط ظهروا على ساحل بحر إيجه والإمبراطورية البيزنطية سيطرت على آسيا الصغرى وما يتعداها. وكان لويد جورج يؤثر اليونان مع أنه وعد بمنح الجهة الجنوبية من تركيا إلى الإيطاليين! وكانت وزارة الخارجية البريطانية منقسمة بصدد كل هذه القضايا. في كل الأحوال، في كانون الثاني/ يناير ١٩٢١، انتهى حكم السلطان رسمياً. ومضى يونانيو أوروبا إلى احتلال ثراسيا وقاموا بالإنزال على الساحل الآسيوي من تركيا ودخلوا إزمير في أيلول/ سبتمبر ١٩٢١. في تلك اللحظة، انحاز يونانيو السلطنة إلى جانب الجيوش اليونانية الغازية. فوقعت اشتباكات في قرى كابادوس وارتكبت مجازر من الطرفين. وخان الإيطاليون اليونانيين الذين كانوا طامعين في المناطق الساحلية ذاتها. وكان اليونانيون يعتقدون بإمكان غزو المزيد من الأراضي في الداخل، أي ما يزيد على أراضي الساحل وحدها. استغرقت الحرب سنة كاملة وكسبها كمال ودخل إزمير في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٢، حيث كانت هزيمة اليونانيين الكاملة، وعقد البريطانيون معاهدة مع تركيا الجديدة. ولا بد من أن نضيف هنا أن اليونانيين كانوا قد ضمّوا إلى خريطتهم المنطقة المسماة «الجسر»، أي الجانب الشمالي من تركيا على ساحل البحر الأسود، وهي منطقة كان الأرمن يطالبون بها هم أيضاً.

استغرقت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات، واقتضى الأمر أربع سنوات إضافية لكي يرسم كمال باشا وجنرالاته خريطة تركيا كما هي اليوم.

يبدو أن انتصارات كمال، وحسْن الطالع الذي لم يفارقه، قضت على عدة مطالبات إقليمية (ونحن لم نتطرق إلى المطالب الكردية) وعلى العديد من الأحلام. مع بداية العام ١٩٢٤ تمّ الاعتراف بالجمهورية التركية رسمياً! وإذ نعاين تلك الفترة المزعزعة، غالباً ما ننسى مسؤولية الحلفاء، أي مسؤولية البريطانيين والفرنسيين خصوصاً، أو نستبعدها.

الفرنسيون

كانت الثقافة الفرنسية تهيمن على أوروبا، بما فيها روسيا، منذ القرن الثامن عشر. وكان العديد من كبار الروائيين الروس، بمن فيهم تولستوي، يجيدون الفرنسية. وكان للعثمانيين علاقات دبلوماسية على قدر من الأهمية مع مملكة فرنسا منذ القرن السادس عشر. أما بالنسبة إلى الحقبة التي تعنينا، فيجب التشديد على أن اللغة الفرنسية، جنباً إلى جنب التركية والالمانية، كانت تدرّس في الكلية الحربية المرموقة، في إسطنبول. وكان كمال يفتخر بأنه يتحدث الفرنسية بطلاقة. وكان نابليون بطلاً أسطورياً في السلطنة العثمانية على امتداد القرن التاسع عشر وصولاً إلى القرن العشرين. وكان نابليون، الغازي الشاب، قرين «الإسكندر المقدوني» في عصره، البطل الأثير لدى كمال باشا شخصياً، وهو المعروف بعدائه لألمانيا والمعجب بفرنسا، الدولة القومية التي كان يرى فيها النموذج الذي يقتدى بالنسبة لتركيا. ومن المؤكد أن دولة قومية مثل فرنسا قد شيّدت على مجازر مختلفة وجماعات سكانية مختلفة، فملوك فرنسا ارتكبوا المجازر بحق «الكاثار» و«الألبيجوا»

والبروتستانتيين. سوف يقال إن هذا كان منذ زمن طويل جداً، لكن للفرنسيين مشكلات كبيرة عندما نحدّثهم عن الهجرة. في كل الأحوال، احتل نابليون مكانة كبيرة في مخيلة الصف الأول من الضباط العثمانيين. وفي مناسبة أو مناسبتين نظّم أبي حفلات استحضار للأرواح طلب ورفاقه خلالها من «وساطةَ الطاولات الدائرة» أن يبلغهم نابليون ما إذا كانوا سوف يكسبون الحرب أم لا!

الإنكليز

منذ الثورة البلشفية العام **١٩١٧** وخروج الروس من الحرب، قاد البريطانيون دفّة الحرب. وقد أخذ الإنكليز المبادرة في صياغة مصير الألمان في أوروبا ومصير العثمانيين في الشرق. وصلت سلطتهم إلى درجة أني سمعت أبي يقول عدة مرات «لن تسقط ورقة شجر واحدة من أي شجرة في العالم دون إرادة الإنكليز!». وكان في ذهن الإنكليز، وكذلك الفرنسيين، فكرة بسيطة جداً: استخدام أقليات السلطنة ومكوناتها لتقويض بنيانها كلياً، فقد أقنعوا عرب الحجاز بالثورة وانضموا إليهم واعدين إياهم بتأسيس مملكة عربية شاسعة تضم العراق وسورية وفلسطين وأجزاء من الجزيرة العربية. وبالتأكيد ما إن كسبوا الحرب حتى خانوا العرب خيانة موصوفة وقطّعوا أوصال المملكة العربية التي قد نشأت للتو! شجعوا الأرمن على التمرّد وعندما بدأ الأرمن يخسرون المعركة ويتعرضون للمجازر، تخلّوا عنهم كلياً. في النهاية، كان الإنكليز والفرنسيون موجودين في شرقي المتوسط كله، يسيطرون على كل شيء، وامتنعوا عن إنزال الجنود لنجدة اليونانيين أو الأرمن عندما كان هؤلاء في حالة كارثية. إن البريطانيين، كما الفرنسيين، يتحمّلون المسؤولية الكبرى عمّا جرى. ثم إننا لسنا نسمع أبداً اليونانيين أو الأرمن يتذمّرون من دور هاتين القوتين العظميين في المآسي التي تعرضوا لها.

كان الإنكليز والفرنسيون موجودين في شرقي المتوسط يسيطرون وامتنعوا عن إنزال الجنود لنجدة اليونانيين أو الأرمن عندما كان هؤلاء في حالة كارثية.

في نهاية الحرب العالمية الأولى، هل كان رسم خريطة جديدة للشرق الاوسط بعد زوال السلطنة العثمانية لزوم لازم؟ فالكذبة التي فرضت على العرب في ما يتعلق باستقلالهم كانت جليّة. أخرج الفرنسيون مشروعهم: إنشاء لبنان كدولة، إضعاف سورية إلى أبعد حدّ ممكن، خصوصاً بمنح تركيا مناطق شمالية يقطنها عرب مسلمون وأرمن ومسيحيون سريانيون بالدرجة الأولى. في العام **١٩٣٩**، منحوا الأتراك الإسكندرون المدينة التي أنشأها الإسكندر الكبير، وأنطاكية، المدينة السورية التاريخية، مسقط رأس متى الإنجيلي. وقد اضطر العديد من الأرمن الذين كانوا يعيشون في تلك المدينة إلى الهرب منها من جديد.

والآن إلى سؤالنا الأخير: ما الذي نستطيع فعله الآن؟

خلال قرن، أدّى إنشاء الدول القومية مثل لبنان وسورية والعراق وفلسطين إلى الإفلاس إلى هذا الحد أو ذاك. لقد اختفت فلسطين، كما يبدو بوضوح، بسبب رفض الإسرائيليين السماح للاجئين بالعودة إلى حيث كانت منازلهم خلال قرون من الزمن. وكان العراق بحاجة إلى سلطة قوية لمنعه من أن يتفكك وقد دمّره الاميركيون بوحشية. لم تنجح سورية ولبنان في توحيد الجماعات التي تكونهما وعاش البلدان أو هما قد عاشا أو يعيشان الآن حروباً أهلية مخيفة. أمّا تركيا، البلد الأكثر استقراراً، فأمامه مشكلة كردية عسيرة يتوجب عليه حلّها. وثمّة طريقتان لحل هذه المشكلات: تمنح تركيا للأكراد مواطَنة كاملة وشاملة وتنشئ نوعاً من النظام الفيدرالي على الطريقة السويسرية، حيث يمكن لشعوب ذات فروقات لغوية أو سواها أن تعيش معاً. والأرمن؟ في القفقاس دولة أرمنية. وعندما نفكّر في الوضع بالأناضول، خلال الحرب العالمية الأولى، فقد عولجت تلك المسألة بطريقة لم تكن لتؤدي إلا إلى الحرب: شعبان يريد كل منهما دولة استئثارية على الأرض ذاتها، فلو كسب الأرمن لما كان ثمة وجود لتركيا. وقد كسب الأتراك، ولا بد للأرمن الآن من أن يعترفوا بأنّ قادتهم وقفوا إلى جانب أعداء تركيا وأن هؤلاء قد خانوهم فخسروا. وعلى تركيا أن تعترف بأنّ كبار الجنرالات العثمانيين الكبار، كاراكبير باشا خصوصاً، استخدموا الحرب للتصفية النهائية للأرمن من أجل إنشاء دولة قومية تركية وهذا يسمّي: إبادة جماعية. وما أن يحصل هذا الاعتراف، يمكن للشعبين التطلع إلى المستقبل بهناءة أكبر. ينبغي معالجة مشكلات قديمة، لأن المشكلات الجديدة والملحّة، ذات الصفة الكونية، تنتظرنا: فائض السكان، نقص المياه، التلوّث، إلخ. وهي مشكلات لا بد من أن تعبئ الإنسانية طاقاتها لمعالجتها: فإمّا أن نبقى معاً على قيد الحياة أو نزول معاً. من جهتي، أعتقد أنّ غريزة البقاء سوف تنتصر.



غسيل الكِلى السوري

رياض نجيب الريس

صحافي متقاعد يعمل في النشر. فصل من كتاب لا عنوان له حتى الآن، يصدر قريباً.

مَن تأخر تدبيره تقدّم تدميره،
ومن طالت غفلته زالت دولته
قول عربي قديم

عندما بدأت الثورة في سورية، تعطّلتْ كِليتاي. كان ذلك في الأسبوع الأول من أحداث درعا. أُدخِلتُ إلى المستشفى. وكان تشخيص الحالة بسيطاً من الناحية البيولوجية، أو قل غير فريد طبياً. إنني أعاني من فشل كلوي. فلترا جسمي الإثنان توقّفا عن العمل. باتا تقريباً معطّلَين. ما يعني أنني سأحظى من الآن فصاعداً بصديق جديد، وهو ماكينة غسل الكلى. وأنّ الرحلة التي سأقوم بها بصورة منتظمة، لثلاث مرات في الأسبوع، لن تكون صحافية أو سياحية من أي نوع. بل ستكون رحلة إلى المستشفى. وهي بوتيرتها المنتظمة، تشبه إلى حد ما الرحلات التي كنت أقوم بها خلال عملي في الصحافة. لكني الآن لن أحمل دفتراً أو كاميرا. لن أسجل أية ملاحظات ولن أجري أية حوارات، عدا تلك الروتينية والباهتة مع الطبيب المُشرِف على علاجي. لو كنت أصبتُ بمرض آخر، لاختلف الوضع، لكانت حالتي أكثر سهولة لي وللآخرين.

ربما كنتُ توفيتُ بكل بساطة، وانتهى كل شيء. ذلك أن أسوأ ما في هذا المرض هو أنه ضرب صميم حياتي الخاصة والعامة. إذ لم يعد بمقدوري أن أسافر حول العالم. لقد جُمّدت كل المشاريع والمخططات التي أردت بها إقفال بيوغرافيا الأسفار في حياتي. وهي مفارقة نوعاً ما. فأنا لطالما حلمت بأن أعيد زيارة بعض الأماكن التي سبق أن زرتها في رحلاتي الصحافية، كفييتنام وحضرموت. لكن ماكينة غسل الكلى هي الوحيدة التي ستحظى بهذا الشرف، شرف أن تكون الـ«revisited» دون سائر البلاد والأقطار. علماً أنها برتابتها، بثقلها وبلادتها، محجَّةٌ أو وجهةٌ واحدة لأشخاص كثر. وبالتالي فإنني أمامها لا أحظى بأي تمايز سوى أنني مريض كغيري من مرضى الكلى. أنا لست الصحافي هنا، بل مجرد زائر مؤقت يعاني عطباً في جسمه. لست الناشر ولا المغامر أو صاحب المشاريع الثقافية المشاغبة ولا الرجل الذي لم يتعلم قط من خساراته. إن لي تاريخاً، لا علاقة له على الأرجح بتاريخ المرضى الآخرين، لكنه لا يعني شيئاً لتوليفة المعدن والأنابيب التي بات عليّ لزاماً الاتصال بها وإعارتها دمي لبضع ساعات. هذه الماكينة المصمّمة كي تُصغي للدم فقط، ولنسبة الأملاح - تحديداً البوتاسيوم، وضبطها في معدل ما كي لا يتوقف نبض القلب، لا يعنيها دمٌ بعينه. مع ذلك، فهي تُمدِّد حياتي أياماً قليلة أو ربما أسبوعاً في كل مرة. تعينني لكي أبقى على قيد الحياة، لكي أتذكر وأحاور محدّثِيَّ القلائل وأعترض وأرفع صوتي وأسخر وأسترخي وتدمع عيناي وأفكر بخساراتي دون أن يعني ذلك أنني نادم.

ثم أن أضحك بعد هذا كله.

ثلاث مرات في الأسبوع، تستقبلني الآلة بجمودها الذي يهيأ لي بأنه مستمر إلى ما لانهاية. كما لو أنها تجري معي حواراً صامتاً وبحيادية تامة. حوار بالدم. أعود بعدها إلى البيت منهكاً كأن جسدي صُودِر مني، وعليَّ أن أستدعيه بالنوم. أن أعيد جمعه جزءاً جزءاً أو قطعة قطعة.

هذا الجسد الذي ألقيتُ به في أمكنة بعيدة وقريبة

حول العالم، تارة من طائرة، وتارة من قطار سريع أو ترام أو سيارة، لم أشعر يوماً بأن واقعة ما، أو ذكرى، أو مناسبة أليمة استطاعت أن تجرفه بعيداً عني. وحتى وإن حدث الأمر فإنني لم أكن لأفصح عنه بسهولة. إنني كصحافي عاش متنقلاً، مدين له. مدين لشغفه، طاقته، وعدم اعترافه بكسل أو تعب من أي نوع. لقد كان خلوّه من العيوب شرطاً عندما كانت الصحافة مهنة تتطلب من المرء أن يمدَّ يده إلى داخل فم الذئب ليسحب خبراً ما، أو أن يتقصّى مسار أحداث معيّنة بالمقلوب حتى بلوغ الجُحر الذي وُلدت فيه. لقد كان جسدي ماكينتي الخاصة التي حملتني من مكان إلى آخر وفي يدي شبكة الطفل الكبيرة التي وضعها والدي في يدي لا لأصطاد بها الفراشات، بل الأشباح الأكبر حجماً بكثير. لم تغفل عيناي حدثاً منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي. ولم أعتذر أمام مناسبة كبرى أو حرب أو انقلاب أو غزو. أما الآن، فعليّ أن أكون بطريقة ما غائباً ثلاث مرات في الأسبوع، لا غائباً عن العالم وحسب، بل عن سورية تحديداً. سورية التي تعنيني أكثر من أي وقت الآن. فأنا مجبر في كل مرة على أن آخذ قسطاً طويلاً من الراحة قبل أن أعود إلى وعيي لأراقب سقوط العالم في بلادي. لقد تلقيتُ من مرضي تلميحاً قوياً جداً، بأن حياتي لن تكون كما اعتدتُها في السابق. وأنَّ على الإنسان أن يكون جاهزاً للتكيّف في نهاية المطاف مع جموده الذي لا يُحتمل. وأنّ مرضي هو الحاجز الذي شطر حياتي قسمين.

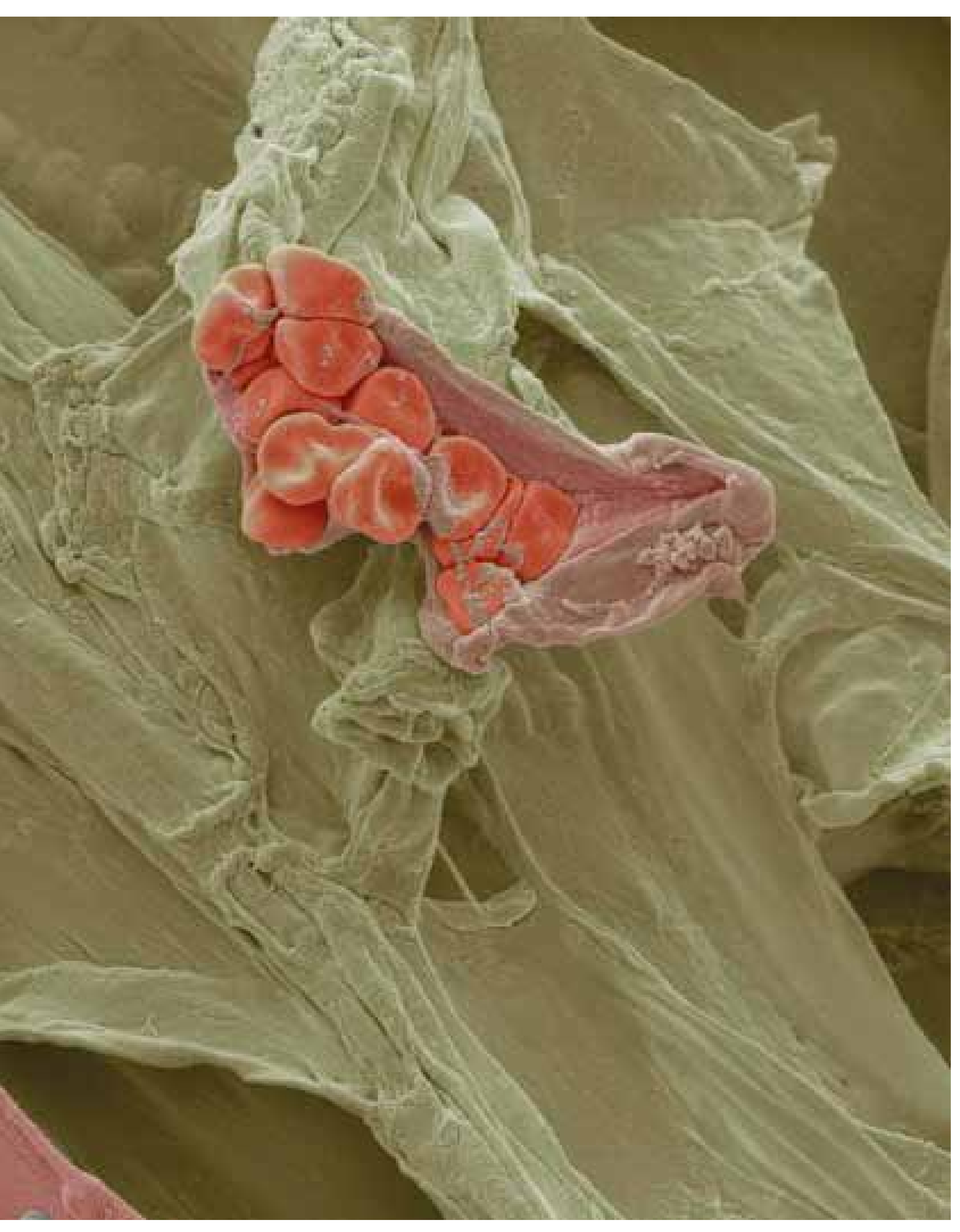
يتغير الصحافيون ولا يتغيّر العالم.

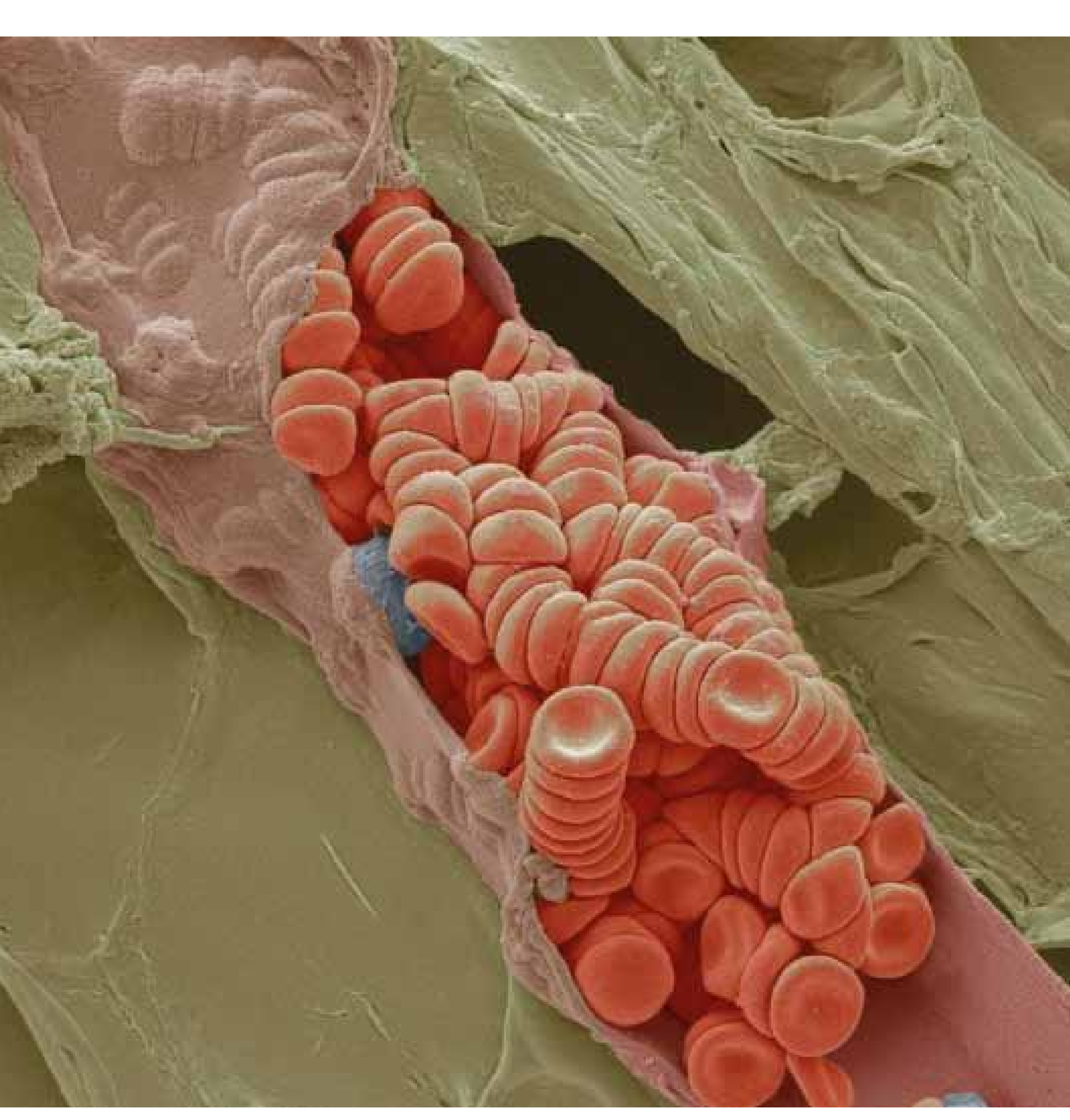
أنتبه الآن، وأنا أقول هذه الكلمات، إلى أن الصحافي يمضي حياته دون أن ينجز تحقيقاً واحداً عن نفسه. إنه ممنوع من ذلك. الصحافة التي عرفتُها لم تكن يوماً كتابةً عن الذات. فأنا لست الخبر، والخبر لم يكن يوماً أنا. وإن كنت أجد نفسي الآن أكتب ولأول مرة هذا التقرير الروائي، الشخصي فوق العادة، كمن يعرِّف عن نفسه أخيراً لعائلته، لابنه وابنته وأولادهما، بعد كل تلك العقود. أن يُدلي بما يختزنه من انطباعات ووجوه، حوارات ومفارقات وزلّات وأخطاء. فالصحافي أشبه بالفلاح الذي يحمل مذراة يذرّي بها قمح التاريخ. بحبّاته المسوّسة والسليمة. يُعرِّض الأحداث للهواء ثم ينكفئ. إنه أشبه بخزان صامت. قد لا تتيح له الحياة فرصة أن يفرغ ما في ذاكرته إلى العلن. أو قد يدهمه مثلاً مرض لئيم، يتنافى وطبيعته ويتعارض تماماً مع أسلوب حياته، كما في حالتي هذه. وعليه عندئذ أن يعرف كيف يتعايش معه. تماماً كتعايش نقيضين. خصوصاً عندما يكون مرضه مرضاً لم يفلح في أن يصبح شللاً مكتمل الهيئة ولا يروق له ربما أن يمكث في جسد مكابر لطالما اعتاد الإحاطة شخصياً بأحداث مصيرية وَسَمتْ النصف الثاني من القرن العشرين، وحدّدت مصائر شعوب ورسّخت نكباتها.

وأنا بقيتُ أطاردُ ظِلَّ التاريخ من بلد إلى آخر. غير أنني لم أصل إلى سورية. لم أصل قط إلى الحدث السوري. بلادي القريبة، والتي بت اليوم بعيداً عنها، شأن أي لاجئ. في أشد لحظات بلادي وحدة ومرارة، أُبقيتُ في مكاني. لقد عُطِّل الجسد وأنا في أمسّ الحاجة إليه، ولم يتطلب الأمر سوى عطب قريب من رئتين اغتسلتا بهواء ثقافات الأرض. غير أن هذا لم يكن كل شيء، إذ وقعتُ بعدها وكُسرتُ ذراعاي معاً، الأمر الذي فاقم من عزلتي فلم يعد بإمكاني من بعدها أن أكتب أو أن أقوى حتى على حمل قلم، أو أن ألوّح لسورية وهي تبتعد. سورية التي كان لعائلتي دور أساسي في استقلالها، ما يزيد من شعوري بأنها توأمي، كما لو أن مصاباً واحداً ضرب جسدينا معاً.

لقد استُبعدتُ عن الناس بدنياً وفكرياً. لكني لا أملك الآن إلا أن أكون مطيعاً. عالمي تقلّص في حدود خارطة ضيقة من النقاط ضمن بيروت، بين بيتي والمستشفى والمقهى بعض الأحيان، لتصبح القراءة وسيلة احتكاكي الوحيدة تقريباً بعالم السياسة. أما المطارات التي أمضيتُ فيها مئات الساعات، فقد بات دخولها اليوم محرماً أو خارج خياراتي. قبل إصابتي بالمرض، كنتُ أذهب في كل ويك إند إلى الشام. ألتقي في مقاهيها بأصدقاء طفولة ومعارف قدامى. أما الآن ففقدت الاتصال بمن بقي حياً من أصدقائي على وجه العموم. إنني بالنسبة لهم مريض ولا أحد منهم مستعدّ لإزعاجي. المرض يخلّف في المرء ندوباً سيكولوجية. وهو نكبتي الشخصية.

لقد طاردتني الصحافة وطردتني. وأنا بدوري لم أكفّ عن مطاردتها. إلى أن كان سلامٌ بيني وبينها، عندما غادرتها عام ٢٠٠٠ غير نادم، ولم أكن الكاتب الذي ينظر بعين الحسرة إلى مهنة في أوج تألقها. لقد





تركت الجسم الصحافي عندما كان مريضاً فيما أنا بصحة جيدة. أما الآن فأشعر بأنني بحاجة لأن أكون صحافياً دون أن أستطيع. أشعر بأن سورية، كل سورية، تمر في النهر من أمامي. وليس بمقدوري أن أعايش راهنها كصحافي، وليس أمامي إلا أن أكتفي بما حفِظَتْه ذاكرتي. لقد أزيلت أماكن وهدمت معالم وتوارى عن المشهد أناس عرفتهم ملياً. باتت سورية مختزلة. كما لو أن ما يحدث في بلادي أتى ليكمّل مشهد الموت الطويل الذي خبرته منذ كنت طفلاً، «موت الآخرين» فيّ.

في الأسبوع الذي خرج فيه أطفال درعا ليكتبوا - الأرجح بدافع التسلية - شعارات على حيطان مدرستهم، مرضتُ. هُم سرعان ما اعتُقِلوا ونُكِّل بهم، وأنا سرعان ما استدعيتُ إلى العناية الفائقة. حياة سورية ستتغيّر بعد تلك اللحظة كما حياة السوريين. وأكاد أجزم، جميع السوريين. سواء من هم في داخل البلاد أو من هم خارجها. وستدخل البلاد في مرحلة «احتضار طويلة»، فيما سيفعل الأطباء، في الأيام الأولى للأزمة، كل ما في وسعهم لإبقاء جسمي متوازناً. لقد أدين أطفال درعا بواقع سياسي لم يكن له أي أثر عندما كنتُ طفلاً حموياً في الشام. هم ممنوعون من أن يحولوا الأخبار إلى مادة للهو أو أن يكتبوا ما سمعوه تواً وبطريقة محض أوتوماتيكية، على الجدران. وربما، لو صنعوا على سبيل اللهو قارباً ورقياً من أية جريدة، على مرأى من الضابط الذي قام باعتقالهم وتعذيبهم، للاقوا أيضاً المصير نفسه.

هل يعقل أن يكون تراب الأرض السورية قد أبقي في كليتي طوال تلك السنوات؟ إنه سؤال شعري. أدرك ذلك. والطب يستطيع أن يدحضه بجملة واحدة. لكنني أعرف أن لا إجابات مطلقة في الشعر وأفضل الآن أن ألقي بالسؤال جانبا.

قصة أطفال درعا تعزّز فيّ الشعور بأنني عشت طفولة سورية مترفة، على قلّتِها وعاداتها البسيطة. أنا أيضاً لطالما كانت الأخبار ووسيطها الورقي تسليتي المفضّلة وأنا طفل. أرى نفسي في بيتنا الأول في «حي بستان الرئيس» بالشام، أنشر الصحف على حبال الغسيل في القبو الذي تسللتُ إليه عبر المطبخ، وألعبُ بيّاع جرائد. أو أخرج إلى الشوارع التي لم ليكن لحزب البعث أثرٌ فيها أو سلطة، وأخطّ شعارات على جدرانها رفقة أولاد آخرين، قبل أن نذهب إلى البساتين المحيطة ببيتنا في حي «بستان الرئيس»، نطارد الخضروات التي لا يمكنها الركض إلى أي مكان، نقتلعها وندسُّها في أفواهنا، بلمعان أوراقها أو صفرتها، وسواء كانت ناضجة أو لا. نبتلع معها بعض الأتربة والجراثيم، ولا أعلم ماذا أيضاً. كما لو أننا مستعجلون لتخبئة الأرض في أجسامنا.

بأية حال، فإن المشهد يثير فيّ، حين أربطه بوضعي الآن، تساؤلاً فيه من الرمزية ما يفوق واقعيتي بطبيعة الحال: هل يعقل أن يكون تراب الأرض السورية قد أبقي في كليتيَّ طوال تلك السنوات؟ إنه سؤال شعري، أدرك ذلك، والطبّ يستطيع أن يدحضه بجملة واحدة. لكنني أعرف أن لا إجابات مُطلقة في الشعر. وأفضّل الآن أن ألقي بالسؤال جانباً، أو أتركه لقارئي. وأن أعود إلى ذلك الاتصال المبكر والخافت بالتراب السوري، والذي ستظل صورته قائمة لعقود في ذهني. صورة انحنائي إلى الأرض، المشهد الذي كنت أراه كلما اشتقت إلى سورية أو ابتعدتُ عنها. كأنني دأبت على القيام بذلك لمعرفتي المسبقة بأنني سأظل بحاجة إلى ما يعوّضني عن المسافة التي ستُنصب بيني وبين موطني سورية. كما لو أن يداً خفية في تلك اللحظة كانت تدفعني لأنحني إلى الأرض وأقترب بهذا الشكل منها. إنه المشهد الذي يحفظ تماسي الأول بيني وبين ترابها، والذي سيكون نيغاتيفاً لتماس أكبر، بين صحافي جوّال وبين بلاده التي ستُمحى معالمها لاحقاً. فتلك البساتين، المنخفضة والهادئة، لم تعد موجودة اليوم إلا في رأسي. لقد اقتلعتها الحفارات والبلدوزر معبّدة الطريق في الهواء أمام عمارات شاهقة. إنها من علامات دمشق القديمة التي يحفظها الطفل رياض فيّ. رياض الذي كان فرداً في عصابة أطفال أطلقنا عليها اسماً لا يخلو من البلاغة والمبالغة في آن: «الأسد الكاسر». الأسد الذي كان بعد أن يغزو الحيطان والبساتين، يلقى توبيخ أمهات الأطفال وآبائهم في آخر النهار.

تلك هي سورية التي غادرتها، أو ربما سورية التي لم أغادرها قط.

عقدٌ ضائع من حياة العراق[1] (٢/١)

عصام الخفاجي

كاتب وأستاذ جامعي، عضو سابق في الحزب الشيوعي العراقي. آخر أعماله «ولادات متعسّرة: العبور إلى الحداثة في أوروبا والمشرق» (٢٠١٣).

هي الحرب إذن!

ليست الحرب على عباس. وهو صبيّ كان، وفقاً للبلاغات العسكرية، أول ضحية مدنية أصيب في قصف الحلفاء في الأيام الأولى من الحرب فتبرّع أمير الكويت بإرسال طائرة خاصة نقلته للعلاج على نفقته. بثّت قناة فوكس المتحمّسة للحرب الخبر مفصّلاً. فسقوط ضحية مدنيّة في هذه الحرب ليس إلّا حدثاً عارضاً في حرب يُراد تصويرها إنسانية وسمّاها الرئيس بوش نفسه «الصدمة والإيلام» Shock and Awe. بعد سنوات قليلة لم يعد الضحايا المدنيون أفراداً متناثرين يصابون عرَضاً. هل كان الأمير والأميركيون يتوقّعون أن يأتي يوم لن تكفي فيه كل طائرات الكون لمعالجة المصابين كما عولج علي عباس؟ ظلّ للصبيّ اسم على الأقلّ. أمّا من سيلحقونه فلم تعد لديهم أسماء، بل صاروا أرقاما. صاروا يتجرّعون الألم والصدمة التي ستصاحبهم حتى اليوم.

هكذا كان الحال يوم التاسع من نيسان / أبريل ٢٠٠٣. لم يعد ثمّة اسم لما حصل: سقوط، تحرير، احتلال. تتلوّن تسمية الحدث كما تريد أن تراه أو لا تراه. ولم يكن هناك وصف للملامح. كان الارتباك المصاحب للسقوط المدوّي للتمثال يشي بالارتباك الذي سيليه في ما بات يعرف بـ«العملية السياسية».

صعد الجندي الأميركي وغطّى رأس صدام حسين بعلَم بلاده، لكنّ القادة أزالوا العلم فوراً. فلا بد للحدث أن يظهر عراقياً.

سقط التمثال وخرج «الحواسم»

نقلت وسائل الإعلام صورة الكهل الذي أمسك ببوستر الرئيس المخلوع وأخذ يضربه بالنعال. لكنها لم تنقل صورة مراسلة قناة «الجزيرة» التي أغمي عليها حين شاهدت سقوط تمثال معبودها من مقرها في فندق الميريديان. ولم تنقل كذلك ما انفرد الصحافي جون لي أندرسون بالحديث عنه في كتابه «سقوط بغداد»: في الأيام الأخيرة للتراجيديا شاهد أندرسون للمرة الأولى حوالى خمسين شخصاً ملتحين يرتدون جلابيب قصيرة ينزلون من سلالم الفندق. كان هؤلاء من المجاهدين الذين سمح لهم صدام بالمجيء (أو أطلق سراحهم من السجون) على أمل أن يقلبوا الوضع إلى جحيم بوجه القوات الغازية. حين سقط التمثال، تولّى بعض الإعلاميين نقل هؤلاء إلى جامع الفردوس المقابل حيث اختبأوا.

بدأت معالم الطبقة الصاعدة تتوضّح مع صعود «الحواسم»[2]. مئات، بل آلاف ممّن أجهزوا على ما تبقّى من دولة نخرتها الحروب والاستبداد وجوع حصار وحشيّ دام ثلاث عشرة سنة وغرفوا كلّ ما وقعت عليه أياديهم من أموال عامّة وخاصة. لم يكن قد مضى أسبوع على سقوط «الصنم»، كما صار إسلاميو الشيعة يسمّونه، حتى تم اكتشاف شاحنة ملأى بسبائك الذهب في حديقة فندق الشيراتون وسط بغداد. كانت الشاحنة تعود لمن نصّب نفسه محافظاً لبغداد. كان هذا «المحافظ» ركناً من أركان حركة سياسية ستلعب دوراً في ما بعد ٢٠٠٣، لكنّ الحركة سارعت إلى التنصّل منه. في الوقت نفسه تسرّبت الأخبار عن الهجوم على قبو البنك المركزي والمتحف العراقي ونهب ما فيه. من «طبقة» الحواسم هذه، ومن آخرين انضمّوا إليها، سيشهد العراق توزيعاً جديداً للعمل بين أفرادها: عصابات الخطف و«العلّاسة» ووظيفتهم مراقبة الضحية / الهدف وتشخيصه، و«القباطنة» المتخصصون في تهريب النفط ومشتقّاته إلى الخارج، و«الكابتن» المتخصص في تجارة المخدّرات. لكنّ الحواسم الأهمّ هم من سيتحوّلون إلى رجال أعمال العراق الجديد.

[1] فصل من كتاب يروي، مع بعض التحليل، العقد الممهد لغزو العراق عام ٢٠٠٣ والعام اللاحق له من خلال تجربتي الشخصية في التعاطي مع المؤسسات السياسية الأميركية ومراكز أبحاثها ومع ممثل الأمين العام للأمم المتحدة السيد الأخضر الإبراهيمي.

[2] أطلق العراقيون هذه التسمية على اللصوص المنبثقين إثر الغزو نسبة إلى تسمية صدّام حسين لمعاركه المقبلة مع الأميركيين بالحواسم.

عدا الانفلات العارم للحواسم وانتشار العصابات، لم يكن ثمّة تحرّك جماعي يُذكر. خدر وذهول يلفّان الشارع. لا تجد تظاهرات معارضة للاحتلال، ولا جماهير تحيّيه، ولا داعين إلى استعادة السيادة وإقامة نظام حكم ديمقراطي جديد. كان ذبح المعارض مجيد الخوئي على يد المعارض الصاعد مقتدى الصدر في حرم الإمام علي مؤشّرا مبكّراً إلى المسار الآتي لـ«العملية السياسية». وكان عدم الإكتفاء بقتل مقاولين أميركيين قيل إنهم كانوا من «السي آي أي» بل الرقص فوق جثثهم وصراخ المعارضين بأن رؤوس هؤلاء ستكون «باجة»[3] ومن ثمّ تعليقهم على سارية الجسر مؤشراً إلى اعتياد شعب على دمويّة تربّوا عليها طوال عقود من تفنّن الحكّام بالقتل والتعذيب.

لماذا لم تتكرّر انتفاضة ١٩٩١؟

عند ذاك أدركتُ الوهم الذي دافعتُ عنه لسنوات، وَهم اقتنعت به. دافعت عنه في ورشة «مستقبل العراق» الشهيرة التي جرت برعاية وزارة الخارجية الأميركية أواخر عام ٢٠٠٢ وكتبت عنه في دراسة نشرها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن في الفترة ذاتها. لا أظنني جانبت الصواب حين أكّدت في محافل دولية عدّة على سلبية وتشكك العراقيين تجاه الغرب بسبب موقف الولايات المتحدة الذي مكّن صدام حسين من إجهاض انتفاضة عام ١٩٩١. ولم أجانب الصواب حين كتبت وعبّرت عن رأيي في مناسبات لا حصر لها بأن الحصار الوحشي الذي تم فرضه أفاد النظام فيما مزّق النسيج الاجتماعي وجعل الناس ينطوون على أنفسهم ويركضون وراء لقمة العيش. وكان رأيي، ولا يزال، أنّ انبعاث الهويات «تحت الوطنية» وتجذّرها يعود إلى هذا الحصار لا إلى طائفية وعشائرية متأصّلتين في المجتمع. الهوية الطائفية ظلّت قائمة لكنّ بُعدها السياسيّ لم يتّخذ منحىً متفجّراً إلّا خلال التسعينيات. والهوية العشائريّة أَفَلَتْ أو كادت في الجنوب والشرق، فيما ظلّت عامل تماسك في المناطق غير الزراعية في غرب العراق وشمال بغداد. حذّرت مراراً من أن سياسة الحصار ستنتج «جيل فرساي» عراقياً كناية عن الشباب الألماني الذي خنقه الحلفاء إثر الحرب العالمية الأولى حين تم انتزاع مناجم الفحم من ألمانيا وأوصل البؤس والبطالة إلى مستويات بشعة سهّلت على هتلر اللعب على العواطف بتصوير الغرب مسؤولاً عن مآسيه وولّد حقداً عارماً ضدّ المنتصرين. لكنّني ارتكبت خطأً فاحشاً إذ تصوّرت بأنّ سيناريو انتفاضة ١٩٩١ الشعبية سيتكرّر ما إن تتبدّى معالم هزيمة نظام صدام.

لم تتكرّر انتفاضة ١٩٩١ في عام ٢٠٠٣. وإذ أسعى إلى تفسير هذا الأمر تحضُرني بعض أسبابه:

كانت الانتفاضة فعلاً مدنياً لم يلعب الريف أو العشائر دوراً يُذكر فيه. لكن العشائر «الوهميّة» صارت ظاهرة مستشرية في المدن والبلدات بفعل الحصار. انهارت أجهزة البعث في تلك الفترة أو تفكّكت وانضم كثير من البعثيين الشيعة إلى الانتفاضة وما عاد بوسع الحزب التحكّم بكل مفاصل حياة المجتمع. وعلى أنقاضها استحضر صدام، أو اخترع، شيوخ عشائر يغدق عليهم المنافع المادية ويقرّبهم إليه في خطوة ذكيّة نجحت إلى حدّ ما في تكوين جدار عازل ووسيط بين النظام وقطاع كبير من سكان المدن. كانت الخطّة الصدّامية تقوم على إنشاء سلّم متحرّك يسير باتجاهين: من الأعلى إلى الأسفل، إذ يُفترض في الشيخ أن يوزّع بعض المنافع الآتية من أعلى على أفراد عشيرته، ومن الأسفل إلى الأعلى إذ ينقل الشيخ إلى القمّة معلومات عن التحرّكات المعارضة ليسند مهمّات ذوي البدلات الزيتونية (كما بات العراقيون يسمّونهم) من فيالق القدس وفدائيي صدّام وغيرها من أجهزة القمع التي تكاثرت بعد الحصار. هكذا تقطّعت معظم المدن لتتحوّل أجزاؤها غير الحديثة إلى «ديَر» عشائرية تعيق تكرار سيناريو ١٩٩١ حين هبّ سكّان المدن والبلدات متجاوزين تلك التقسيمات وإن لم يتجاوزوا الانقسامات الطائفية. لعب الانقسام الطائفي دوره الخطير على صعيد آخر برغم الخطاب التزويقي الذي تتبنّاه معظم القوى السياسيّة. وإن كان التباعد الطائفي وباءً، وهو كذلك، فلا بدّ من الاعتراف بوجوده كمدخل لعلاجه. إذ كيف يمكن أن نفسّر بقاء محافظات صلاح الدين والأنبار والموصل السنّية ساكنة آنذاك؟ وكيف نفسّر أن المحافظات المختلطة مثل ديالى وبغداد لم تشهد تحرّكات تُذكر إلّا في مدينة الثورة/ الصدر الشيعية؟

وكان ثمّة فارق آخر لم أعطه ما يستحقّ من تفكير. في عام ١٩٩١ أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش الأب وقف العمليّات العسكريّة عند وصول قوات التحالف إلى الناصريّة، ممّا دفع غالبية الشعب إلى الانتفاض على نظام أدركوا أنه ما زال واقفاً على قدميه برغم ترنّحه. ولكن ضد من ستثور هذه المرة وقد وصلت القوات الأميركية إلى بغداد بسرعة فائقة مسقطة النظام؟ وبرغم هذا الإنتصار الساحق، كان ثمّة خوف لعب هو الآخر دوراً في

٣ وجبة ثريد الخبز مع رأس البقر المسلوق.

عدم تكرار الانتفاضة. خوف قد يبدو مثيراً للاستغراب حين نسترجع الأمر بعد أكثر من عقد على انتهاء الحرب. خوف من عودة صدّام سرى على ألسنة أناس بسطاء التقيتهم بعد شهر من سقوط التمثال. تسمعه متمثّلاً في صورة تشكّك في نوايا الأميركيين. قد يتّخذ الخطاب شكلاً سريالياً. قال لي سائق التاكسي: قد يكون الأمر لعبة أميركية تعيده إلى الحكم فينقضّ علينا كما فعل في ١٩٩١. لكنّ خطاب عشرات آخرين التقيتهم كان أكثر واقعيّة وإيلاماً: وماذا سيحدث لنا إذا تركنا الأميركيون كما فعلوا في الحرب الأخيرة؟

الجنرال والسياسي والخبير

كنت في واشنطن يوم السقوط المدوّي للتمثال في التاسع من نيسان / أبريل ضمن فريق من مئة وأربعين شخصاً هم أعضاء المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتطوير. تسمّرنا أمام شاشات التلفزيون وهي تنقل الحدث حيّاً. هل دمعت عيناي فرحاً بانتهاء كابوس جثَم على صدورنا طوال ربع قرن أم حزناً لأنّ حلمي بأنّ ثورة عراقية ستتكفّل بالانقضاض على ذلك التمثال لم يكن سوى أمنية بأن يستحيل الحدث مفخرة للعراقيين عوض تعاملهم معه بارتباك؟

خوف من عودة صدام سرى على ألسنة أناس بسطاء. قال لي سائق التاكسي: قد يكون الأمر لعبة أميركية تعيده إلى الحكم فينقض علينا كما فعل في ١٩٩١.

جنرال سيكون الأكثر عداءً لهذا المجلس لعب دوراً في تأسيسه. في نهاية عام ٢٠٠٢، وبعد إكمال مشروع ضخم باسم «مستقبل العراق» أشرفت عليه وزارة الخارجية الأميركية تم سحب ملف العراق من الأخيرة لتصبح وزارة الدفاع مسؤولة عنه وليكون تحت الإشراف المباشر لوزير الدفاع المفوّض للشؤون السياسية، الدكتور بول فلفوفتز[٤]. كان من أولى المشاريع التي خطط لها البنتاغون تأسيس هيكل من الخبراء الذين يمكن أن يساعدوا في إعادة إيقاف الدولة العراقية على قدميها بعد الاحتلال.

لا أعرف إن كان المشروع وقُدة ذهن أم أن الأميركيين كانوا يتسابقون مع آخرين سبقوهم إلى التخطيط للأمر، إذ ليس بوسعي تأكيد أو نفي معلومات متواترة سمعتها من مطّلعين بريطانيين عن فكرة مماثلة شجّعت حكومتهم الراحل السيد مجيد الخوئي على تنفيذها. ولعلّ الولايات المتحدة استبقت الأمر فأجهضتها. كما أشير إلى مجموعة من العراقيين المقيمين في كاليفورنيا، كنت واحداً ممن كانوا على تواصل معها على شبكة البريد الإلكتروني، كانت تسعى لذلك بدعم من الدكتور أحمد الجلبي.

جاء وفد من البنتاغون برئاسة الجنرال جاي غارنر إلى ديترويت للقاء قادة «المنبر الديمقراطي العراقي» وهو تجمّع من الكفاءات العراقية المعارضة لنظام صدّام حسين. كان جاي غارنر مسؤولاً عن حملات إغاثة كردستان إثر انتفاضة ١٩٩١ وصار أول حاكم لعراق ما بعد صدّام، لكنه ابتعد فيما بعد عن النقاشات والصراعات الدائرة في إدارة بلده. دعا غارنر قادة المنبر إلى اجتماع مع فلفوفتز في واشنطن. أصرّ البنتاغون على أن يكون الجسم الرئيس للمجلس من بين العراقيين الأميركيين. ذهب وفد من خمسين شخصاً إلى ذلك الاجتماع الذي استغرق ساعة ونصف ساعة بعد أن كان مقررا له أن يستغرق ثلاثة أرباع الساعة. في هذا الإجتماع تم الاتفاق على تشكيل المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتنمية Iraqi Reconstruction and Development Council.

ولتكريس المباركة الأميركية للمجلس، وجّه البيت الأبيض دعوة لممثلين عن المجلس للقاء الرئيس بوش. كان تشكيل الوفد مصوغاً بعناية إذ تمّ اختيار عربي شيعي وعربي سنّي ومسيحي لعضويته. وكان غياب ممثّل كردي عن اللقاء لافتا للنظر مع أن المجلس سيضمّ عدداً كبيراً من الأكراد في عضويته. كان الأكراد غائبين لأنّهم أخذوا يتعاملون مع العالم الخارجي باستقلالية عن العراقيين.

لم أكن من بين مؤسسي المجلس، لكن منسقّه اتصل بي مرات عدة طالباً منّي الالتحاق بهم، وكان قد بعث لي برسالة قبل ذلك تحمل أطناناً من المديح. لكنّ مصدر الإلحاح، كما عرفت فيما بعد، كان بول فلفوفتز، وزير الدفاع المفوّض، الذي صار المجلس مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمكتبه. اتّصل بي فلفوفتز بنفسه حيث أقيم بهولندا طالبا منّي أن ألتقي بـ«أصدقائي» المؤسسين للمجلس على الأقل. وبالفعل، كان ولايزال لي أصدقاء حميمون في المنبر شرّفوني إذ دُعيت كأول مساهم من خارج الولايات المتحدة لحضور مؤتمرهم السنوي وتقديم مداخلة فيه.

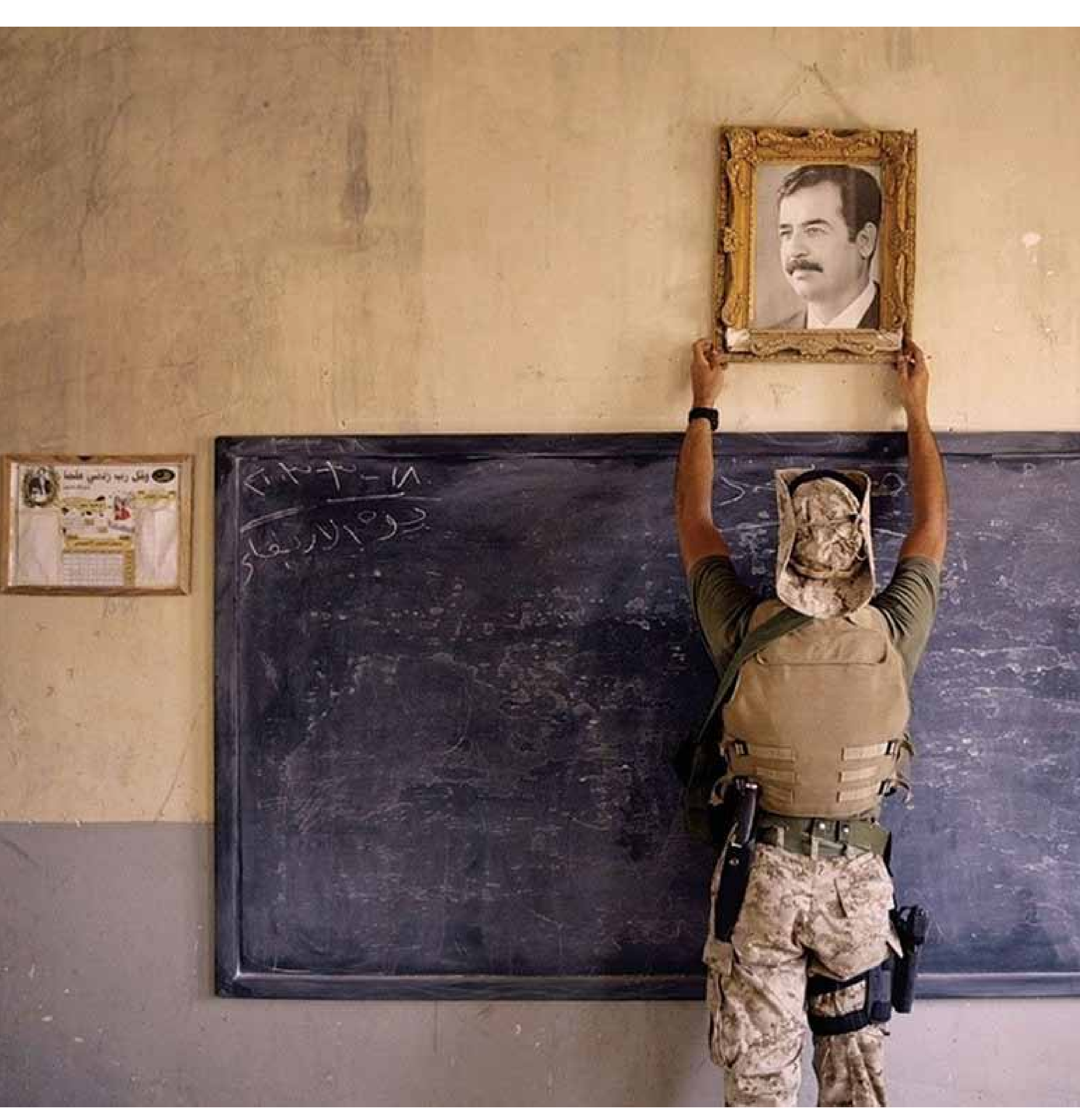
٤ سأتناول مشروع «مستقبل العراق» وفلفوفتز ببعض التفصيل في ما بعد.



تحفّظات وقبول

فوجئت بطلب الالتحاق لثلاثة أسباب، أوّلها وأهمّها أن موقفي من المشروع الأميركي كان معروفاً: لا للحرب، نعم لرفع الحصار المدمّر للمجتمع العراقي لا لنظامه الحاكم، نعم لضربات إلى مراكز قوة النظام الاستخباراتية والعسكرية، نعم لتجريم قادة النظام ومحاصرتهم بتجميد أرصدتهم المالية والتحرّي عن واجهاتهم المالية، نعم لمطاردتهم حيثما حلّوا كمجرمي حرب ومجرمين ضد الإنسانية. وفوجئت بطلب الالتحاق ثانياً، لأنني كتبت في مقال طويل في شهرية «اللوموند دبلوماتيك» الباريسية واسعة الإنتشار والتأثير عن الصراعات بين وزارتي الخارجية والدفاع حول الموقف من العراق. وفوجئت ثالثاً، لأنّ ما طرحت في مداخلتي بمؤتمر المنبر الديمقراطي العراقي، الذي كان نواة مجلس إعادة الإعمار، أفكار تتقاطع كلياً مع أفكار البنتاغون. ولأن المؤتمر انعقد في فترة حاسمة إذ سبق إعلان الحرب على العراق بأشهر قليلة، كان الحضور الرسمي الأميركي، فضلاً عن وسائل الإعلام الحكومية الأميركية مثل «صوت أميركا»، كثيفاً، وأذكر أنّ السيّد توماس كراتشيفسكي مساعد وزير الخارجية الأميركي كان من بين الحاضرين.

في مداخلتي تلك، أبديت قلقي من وهمين روّجهما مقرّبون عراقيون من البنتاغون وصارا مسلّمتين في أعين إدارة بوش. أوّل هذين الوهمين وأخطرهما، في نظري، كان افتراض أنّ عقوداً من الإستبداد وسيادة الفكر الواحد ومفهوم القائد الواحد والتسميم الفكري الذي ربّى الناس على عداء الديمقراطية والتعددية وتصويرهما كمؤامرة غربية لشقّ وحدة الصف الوطني لم تترك تأثيراتها المدمّرة في الثقافة السياسيّة للشعب العراقي الذي سيستقبل القوّات الأميركية كمحرر يقابله بالترحيب. والوهم الثاني هو تخيّل العراق جزيرة لا محيطَ إقليمياً حولها سيرمي بكل ثقله لإنهاك وتمزيق أي تجربة ديمقراطية تهدّد الدول المحيطة، وكلّها (باستثناء تركيّا) تخضع لنظم تسلّطية. بتعبير أكثر دقّة، كان ثمّة وهم قائم على أنّ الوجود العسكري والسياسي لأكبر دولة في العالم سيشلّ أيّ محاولة لإضعاف تلك التجربة، بل أنه سيلعب دور العامل الحاسم في إطلاق ظاهرة الدومينو [سخافة الوهم العربي عن الفوضى الخلّاقة] حيث تتساقط النظم الاستبدادية واحداً تلو الآخر بفضل إشعاع التجربة الديمقراطية العراقية، لا سيّما أنّ تلك النّظم، باستثناء إيران وسورية، تعتمد اعتماداً وثيقاً


وقل رب زدني علما

على التحالف مع الولايات المتحدة. لم يكن هذا الوهم متعامياً عن الثقل الإقليمي وقدرته على تغيير الخريطة السياسية العراقية فحسب، بل إنّه تعامى عن حقيقة أنّ

هناك الزميل الإعلامي الذي رجاني أن أصـــــــــــوغ له مذكرة إلى بريمر باللغة الإنكليزية تناشـــــــــــده إرسال قـــــــــــوة عسكرية تصاحبه إلى تكريت.

معظم الحكّام الآتين إلى العراق مرتبطون بهذا القدر أو ذاك بالقوى الإقليميّة، وأنّ الديمقراطية ليست مطروحة على أجنداتهم، إذ برغم الاستنتاجات المتواترة عن أن حليفّي الولايات المتحدة الرئيسين في العراق لم يكونا يتمتّعان بوجود جماهيري مؤثّر، ظلّت الإدارة الأميركية تدفن رأسها في الرمال مفترضةً أنّ احتلالها للعراق سيخلق واقعاً محليّاً جديداً.

«ميثاق شرف» في واشنطن

في السابع عشر من آذار/ مارس **٢٠٠٣**، تسلّمت رسالة موقّعة من الجنرال جاي غارنر، مدير مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية «أورها» يدعوني فيها إلى الحضور إلى واشنطن «للتباحث مع منسّق المجلس ومسؤولين في وزارة الدفاع في الأمور المتعلّقة بمجلس إعادة الإعمار والتنمية العراقي ومهمّة «أورها» ORHA في عراق ما بعد النزاع». كانت صيغة الرسالة، ومن ثمّ القناعة التي تكوّنت لديّ منذ وصولي بعد يومين من تسلّم الرسالة، أنّ ثمّة غموضاً في العلاقة بين المجلس و«أورها». فالرسالة تدعوني إلى الحضور لمناقشة أمور مع هيئتين مستقلتين لا مع هيئة واحدة تتبع إحداهما الأخرى. ومن الواضح أنّ وزارة الدفاع أنشأت الهيئتين حديثاً من دون أن تحدّد العلاقة بينهما. في اليوم الأول من التحاقي بالعمل، جاءني منسّق المجلس بمسوّدة تعرض صيغة تلك العلاقة تضمّنت «أن يؤدّي أعضاء المجلس المهمّات التي تكلّفهم «أورها» بها». وطلب منّي أن أقدّم مقترحاتي بشأنها. اعترضت على ذلك وأعدت صياغة المسوّدة لتكون «العمل المنسّق والمتكامل بين المجلس و«أورها»». ولم تكن الصيغة التي اقترحت ابتكاراً عبقرياً، فالرسالة التي وجّهها جاي غارنر لي نصّت حرفيّاً على أنّ «أورها» «طلبت مساعدة المجلس العراقي لإعادة الإعمار والتنمية في تأمين استمراريّة عمل الحكومة والاستقرار والنظام العام وإعادة إعمار البلد». بعد فترة قصيرة عاد المنسّق فرحاً لأنّ وزارة الدفاع وافقت على الصيغة التي قدّمتها.

ساهمت في وضع «ميثاق شرف» أترك لغيري الحكم على درجة الالتزام به: «أتعهّد أن أقوم بمهمّتي كعراقي يتجاوز انتماءه الطائفي أو السياسي، ألّا أسعى إلى الحصول على مركز وظيفي قبل انتهاء عمل المجلس وحلّه حيث تكون للفرد حرية التقدّم للعمل في أجهزة الدولة أو ممارسة النشاط الخاص أو العودة من حيث أتى. وأتعهّد أن أكون عضواً في فريق من العاملين يضمّ العاملين الحاليين في تلك المؤسسات أو الوزارات التي تمّ تكليفي بالمساهمة في إعادة إعمارها».

لم نعرف وظائفنا لأنّنا لم نعرف من أين نبدأ. ولم نعرف من أين نبدأ لأن الأميركيين أصرّوا منذ اللحظة الأولى على تهميش دور العراقيّين. كان الفريق المكوّن من **١٤٠** عضواً يتوزّعون إلى أربعة أفراد لكل وزارة بالإضافة إلى عدد مماثل من العاملين في الوزارات آنذاك والمحافظات غير الكردية التي استقرّ وضعها نسبياً بعد أن خرجت عن إدارة بغداد منذ عام **١٩٩٢**.

كان بيننا من جاء طامعاً بأن يكون وزيراً في المجال الذي اختير من أجله في واشنطن. ولعلّ هؤلاء هم الذين كانوا الأبرع في تمثيل دور الخبير المتحمّس المجتهد في واشنطن، إذ لا بدّ أنّ من يتابع العمل سيرفع تقارير تشيد بكفاءته. ستظلّ حال الزميل المكلّف بالعمل في وزارة العدل عالقة في ذهني ككوميديا. كان يتحدّث بصراحة عن ضرورة تأمين فيلّات «لنا»: «لنا» تعني نحن الوزراء القادمين. فمنصبه كوزير أمر مفروغ منه، كما كان يعتقد. ومع أنّه رجل قانون (يقال إنّ أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه كانت حول الفكر القانوني لصدّام) فقد كان من بين ما عرض عليّ، بصفتي منسّقاً ثانياً، مرسومٌ يقضي بحلّ حزب البعث. وبرغم خبرتي المحدودة في هذا المجال، أجبت، متّخذاً هيئة التلميذ الذي يطرح سؤالاً بهدف التعلّم: ألا يجب أن يصدر أمر كهذا عن سلطة قضائية مستقلّة تبيّن فيه الأسباب القانونية الموجبة ثم تأمر السلطة التنفيذية، وهي هنا وزارة العدل، باتخاذ ما يلزم لتنفيذ قرارها؟ كما كان هناك الزميل الإعلاميّ الذي رجاني أن أصوغ له مذكّرة إلى بريمر باللغة الإنكليزية تناشده إرسال قوة عسكرية تصاحبه إلى تكريت التي عاش فيها لأنه قادر على تعبئة أبناء المدينة ضد صدّام وإقناعهم بتأييد عملية «تحرير العراق». وزميل ثالث

استجلب طاقماً تلفزيونياً من البلد الذي كان لاجئاً فيه ليصوّر عودته الظافرة وجهوده في بناء البلد الذي لم يكن مضى على وصوله إليه غير أيام.

منتفعون وطالبو وظائف

حين وصلنا بغداد، تمنّيت أن أمتلك موهبة الإخراج السينمائي لكي أصوّر تلك الحالات التي لم تكن كلّها كوميدية كموقف الكهل المسكين الآتي من السويد والذي كاد أن يصاب بنوبة قلبية حين أجابه موظّف الاستقبال في فندق الرشيد بأنّه لايعرف اسم «الوزير» الذي وعده بالحصول على وظيفة رفيعة.

حصل بعضُ من انتمى إلى هذا الصنف من أعضاء مجلسنا على ما يريد لأنّه نجح في الرهان على الطرف السياسي الذي سيكون له دور فاعل في الدولة الجديدة، وغادر آخرون محمّلين بما استطاعوا كسبه من أموال.

ثمّة صنف ثان من الزملاء، عرف الزميل المنسّق وعرفوا أن «خبراتهم» تنتمي إلى مجالات أخرى: التكسّب والحصول على «القوت اليومي» والاستفادة من وجودهم في بلد الخراب الجائع للبحث عن عقود في مشاريع لايفقهون من أمرها شيئاً. ابنه أحمد الذي أنهى الدراسة الثانوية ولم يدخل الجامعة بعد، و«عبد حمود»، كناية عن مرافق صدّام، وغيرهم كثير ممن سيوقّعون عقوداً تمنحهم مبالغ تراوح بين ٣٠٠ دولار و٥٠٠ دولار يومياً إذ كانت المساومات والتوسّلات لرفع تلك المخصّصات جارية قبل وصولنا بأسابيع.

وتفريعة ثالثة: خبراء لا يجادل أحد في كفاءتهم في مجالات اختصاصهم، وآخرون ذوو خبرات متواضعة لم يكونوا معنيين بالمكافآت الشهرية ولم يدخلوا في بازارها. خطّطوا منذ البدء لغَرف أكبر ما يمكن بأسرع وقت. تعدّدت أساليبهم في تحقيق ما يريدون: طبيب محسوب على حزب الدعوة، حقّق طموحه في رئاسة الهلال الأحمر ثم تبخّر عائداً إلى الولايات المتحدة بعد أن «قيل» بأنّه استولى على ملايين الدولارات، ابنة مسؤول كردستاني كبير كانت تعمل في شركة اتصالات مغمورة في إنكلترا نجحت في إحالة عقد ضخم إلى شركتها برغم احتجاج شركة ماركوني ذات الشهرة العالمية التي عرضت وثائق تثبت أنها قدّمت عرضاً بسعر يقلّ بكثير عن عرض شركة ابنة المسؤول بمواصفات أرقى بكثير، خبير لم يكن بحاجة إلى كسب أموال من عراق ما بعد صدّام تحدّثت عنه الصحف الأميركية ولذا أجد نفسي في حلّ إذ اشير إلى اسمه الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس» للحظة، ليتبخر ما إن انتفت الحاجة إليه. في عام ١٩٩٨، قدّم الدكتور خضر حمزة، الذي كان مستشاراً أقدم في لجنة الطاقة الذرية العراقية، مسوّدة كتاب بعنوان «خدعة: العراق والقنبلة النووية». كان العنوان واضحاً: لا قدرة للعراق على امتلاك سلاح نووي. لم يصادف موضوع كهذا هوى لدى الناشرين. لكنّ الدكتور حمزة كان مثابراً! بعد عامين فقط، أنجز الرجل مسوّدة كتاب جديد يقلب سابقه رأساً على عقب ليحقّق انتشاراً واسعاً. كان عنوان الكتاب هذه المرّة «صانع قنابل صدّام: قصّة أجندة أسلحة العراق النووية والبيولوجية من الداخل» (أي من شاهد عيان من داخل المشروع). في هذا الكتاب، تحدّث حمزة عن دور مفترَض له كمساهم في مشروع نووي على وشك الاكتمال.

تعمّدت أن اؤجل الحديث عن مجموعة أظنّها الأكثر نبلاً في اندفاعها للانخراط في مشروع المجلس. لم يكن هؤلاء ولا من منحت نفسي الحقّ في تصنيفهم في خانات، قلت في البدء إنها تتشابك عنكبوتياً، غافلين عن طبيعة المشروع الأميركي تجاه العراق. غير أنّ من تحمّس للغزو ومن عاداه ومن وقف متردداً ضمن هذه المجموعة كان ينطلق من قناعة مبدئية ولا أظنه كان باحثاً عن مال أو عن منصب. أشير هنا إلى أمثلة اؤكّد أنها ليست حصرية: د. محمود ثامر أحد أهم اختصاصيي الطب الباطني، د. عزام علوش خبير الريّ الذي اكتسب شهرة عالميّة بفضل عمله في إعادة إحياء الأهوار، إلى جانب أسماء علميّة مهمّة أخرى: د. محمد الحكيم، د. محمد علي زيني وشباب رائعين مثل هاري حبيب وسامي كريم. وأضيف إلى هذه المجموعة مناضلين، منهم عدنان الزلفي الذي كان فتى تعرّض للتعذيب في سجون صدّام قبل أن يتمكّن من الفرار إثر انتفاضة ١٩٩١، والعميد توفيق الياسري الذي لعب دوراً بارزاً في انتفاضة ١٩٩١.

أيّ وطن ينتظرك أيّها الخبير؟

بعد شهر بالضبط من انهيار التمثال الذي بات نقطة القطع في تاريخ العراق، حطّت الطائرة التي حملتنا في «مطار» بغداد. كان يمكن للمكان أن يكون أيّ بقعة في الأرض. ظلام دامس تعجَب كيف تلمّس الطيار المكان الذي حطّ فيه. لم أقبّل الأرض. صار الطقس في عيني مسرحية مبتذلة. لا أذكر إن كنت بكيت وقتها، كما فعل بعض الزملاء، أم لا. كنت أشعر بذهول وخدر. تظل تحلم لمدّة ربع قرن حتى تأنس للحلم وتريد له أن يبقى يؤنسك.

كأنّ عصا ساحر حوّلتنا جميعاً إلى أصنام. لا أذكر أحداً رفع صوته مخاطباً الآخر «الحمدلله عالسلامة». لا أذكر أحداً أطلق ضحكة تعبّر عن فرحة العودة. معظم من أقبلوا على تلك المغامرة حقّقوا الهدف الذي جاءوا من أجله: الانتقام من المنفى.

كان آخر ما توقعت هو أن يختار الحاكم العسكري رمز السيادة العراقية مقرا له. أعلنوا، لفظيا على الأقل، أنهم جاؤوا محررين. هذا ما فعله مود، الجنرال البريطاني يوم دخل بغداد عام ١٩١٧.

مرّ الباص الذي قادنا بمحاذاة سور مرتفع خيّل إليّ أنّه لن ينتهي. قدّرت أنّه قصر الرضوانية الرهيب الذي كان مقرّ حفلات التحقيق والتعذيب للمشتبه في مشاركتهم في انتفاضة ١٩٩١[٥]. كان السائق الأميركي قد أدار الراديو نحو محطّة «سوا العراق» التي سمعتها للمرّة الأولى. فبعد أن فشل راديو «صوت أميركا»، بإسلوبه الدعائي الفاضح، في الوصول إلى المستمع العربي، صوّت الكونغرس الأميركي لصالح إنشاء تلك القناة الإعلامية لتبثّ نشرات أخبار وبرامجَ خفيفة مخصّصة قناةً مختلفة لكل من مناطق العالم العربي. وكان راديو «سوا العراق»، بالطبع، محطّ الإهتمام الأكبر لدى المشرفين على الإذاعة.

وصلنا أخيراً إلى القصر الجمهوري.

أولى الصدمات.

كان آخر ما توقّعت هو أن يختار الحاكم العسكري رمز السيادة العراقية مقرّاً له. أعلنوا، لفظيّاً على الأقلّ، أنّهم جاؤوا محرّرين. هذا ما فعله مود، الجنرال البريطاني يوم دخل بغداد عام ١٩١٧. كان بوسعهم إنشاء منطقتهم «الخضراء» أينما أرادوا، فقصور صدّام الفخمة تملأ بغداد، لكنّهم اختاروا القصر.

حتّى القصرُ كان حالك الظلام. وقف صفّ من العسكريّين أمامنا وطلبوا أن نضع حقائبنا على الأرض. لم تكن حقائب بالضبط، بل أكياساً عسكرية زيتونية اللون حشونا داخلها ما يلزمنا وما كان وجوده مثار سخرية: أقنعة مضادّة للغازات السامّة وسترات واقيةً من الرصاص وألبسة عسكرية لم نستخدمها قط. توسّط جاي غارنر الصف وصافحنا، كما صحْبه، ببرود لافت. ثمّ تفرّقنا نتعثّر على السلالم التي قادتنا إلى قاعات اصطفّت فوقها عشرات الأسرّة والأفرشة الملقاة على الأرض. مذّاك صار كل سرير ألقى أحدنا نفسه عليه سريرَه الخاص. وصار هذا السرير مكتبه الخاص. لم نكن الوحيدين الذين عشنا هكذا. فإلى جانبي كانت أسرّة «مكاتب» مهندسي وفنيي شركة بكتل العملاقة: يفرشون خرائطهم ومخططاتهم على الأرض ويجتمعون حولها للدراسة. ولم يحظ بعضنا حتى بأسرّة ففرشوا أغطيتهم على الأرض. لم يكن عددنا يقلّ عن ثلاثين شخصاً في القاعة.

لم تكن سلطة التحالف الموقّتة قد أنشئت بعد، بل كانت إدارة البلد المحتلّ في أيدي «أورها» ORHA، مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية الذي تشكل في أوائل عام ٢٠٠٣ بقيادة جاي غارنر. وكان الأخير قد جلب معه عدداً من العراقيين لمساعدته في تلك المهمة، لذا لم يستسغ وصول فريق من مئة وأربعين عراقيّاً يقومون بالمهمّة ذاتها. عرفتُ فيما بعد أن غارنر كان من الداعين إلى تسليم السلطة للعراقيين في أسرع وقت ممكن. ولم يكن هذا موقف وزارة الدفاع، لذا عدّنا غارنر «من جماعة» الأخيرة. لقد انتقل الصراع المرير بين أجنحة الإدارة الأميركية من واشنطن إلى بغداد. ظلّت «أورها» تدير العراق حتى تم حلّها في نهاية يونيو/ حزيران لتحلّ محلّها سلطة التحالف الموقتة ولتتّخذ الحرب بين قبيلتي وزارة الدفاع ووزارة الخارجية شكلاً جديداً لعب دوراً كبيراً في تعطيل، بل وتخريب أيّ مسعى لتحسين الوضع في العراق.

في إطاعة غارنر

حين تبيّن أنّ غارنر قرّر التعامل بشكل فوقي كامل مع فريق المجلس، طلبت من المنسّق أن يتّصل بواشنطن لكي تبلغ غارنر بأنّ مهمّتنا هي العمل بالتنسيق مع «أورها». صدمتني ابتسامته المرتبكة، واعترف بأنّه لم يخبرني الحقيقة إذ لم يوافق البنتاغون على الصيغة التي قمت بإعدادها ونحن في واشنطن، وأننا نعمل تحت إمرة «أورها» لا بالتنسيق معها. وصف أحد الصحافيين غطرسة غارنر قائلا إن هذا الرجل يعتقد أنّ مجرّد طلبه من الآخرين مناداته باسمه الأول كافٍ لإعطاء الانطباع بأنّه متواضع.

بعد حين أبلغني الزملاء الذين لحقونا إلى بغداد أن أول جملة خاطبهم بها غارنر «أنتم هنا لتنفيذ ما أكلّفكم به. وإذا لم يعجبكم الأمر فبإمكانكم العودة فوراً إلى ديربورن» (وهي البلدة التي يتركّز فيها العراقيون في

٥ بالرغم من الكشف عن مئات المقابر الجماعية لضحايا نظام البعث وتقصّي كثير من وثائق إدانته، وثبوت كون قصر الرضوانية مقراً رئيساً لممارسة جرائم التعذيب، لم يردْ ذكرٌ له قطّ بعد سقوط النظام. فقد تحوّل القصر إلى «كامب كروبر» الذي احتفظ فيه الأميركيون بالسجناء «عالي القيمة» مثل صدام حسين وطارق عزيز.



ديترويت). وفسّر لنا ذلك بعض ما كان غامضاً في أذهاننا وأهمّه تأخير سفرنا إلى العراق إلى ما بعد شهر من سقوط صدّام. كنّا آنذاك في ولاية نيومكسيكو، واحدة من أكثر الولايات الأميركية تخلّفاً وتقع في أقصى الجنوب. لعلّها المكان الوحيد في أميركا وأوروبا الذي تشاهد فيه مبرّدات الهواء التي نستعملها في العراق لا أجهزة التكييف. فاستعداداً للعودة إلى العراق تمّ تدريبنا على استخدام الأقنعة الواقية من الغازات السامة وعلى استخدام المسدّس للدفاع عن النفس. تخيّلت الدكتور الوقور محمود ثامر، السبعيني الذي لا يتجاوز وزنه خمسين كيلوغراماً يجابه قوة عسكرية. تسلّمنا سلاسل تُعلّق على الرقبة ويحمل كل منها رقماً للتعرف إلى جثثنا في حالة الوفاة، إذ كانت مصنوعة من معدن يقاوم درجات الحرارة العالية التي يسبّبها الانفجار، كما تمّ تصوير أسناننا شعاعياً للغرض نفسه.

في نيومكسيكو كلّفني الزملاء من أعضاء المجلس بكتابة مذكّرة إلى بول فلفوفتز تعبّر عن عدم اقتناعنا بالتفسيرات المقدّمة منْ أنّ الظروف الأمنيّة لا تسمح بالتحاقنا، إذ إنّنا لم ننتم للمجلس إلّا للمساهمة في إعادة الأمن والشروع في المساعدة على إحياء مرافق الدولة. والواقع أنّ المجموعة التي وصلت بغداد في التاسع من أيار وكنت من بينها، لم تكن تضمّ أكثر من عشرين شخصاً من أعضاء المجلس المئة والأربعين. قيل لنا وقتها بأنّنا المجموعة «الأكثر أهميّة». أمّا الغالبية الساحقة «الأقل أهميّة» فقد سافرت إلى الكويت وبقيت هناك حتى نهاية مايو/ أيار. وكان التبرير هذه المرة سوء الأحوال الجويّة. عرفت فيما بعد، أنّ مساعيَ محمومة كانت تُبذل لحلّ المجلس حتى بعد أن وصلنا إلى بغداد.

القصر يتأمرك

خرجت من القاعة لأدخّن، فجاءت موظّفة من غرفة مقابلة عرفت فيما بعد أنّها غرفة «وكالة التنمية الأميركية» تأمرني بإطفاء السيجارة، فالتدخين ممنوع في القصر. لست في بلدك إذاً. هم يشرّعون ما يمكن وما لا يمكن عمله هنا. منذ البدء، كان للوكالات الرسمية الأميركيّة، على عكس «بكتل» وغيرها، مكاتب وغرف مستقلّة.

صباح اليوم التالي خرجنا إلى الحمّام. كان فاخراً لكنّه لم يكن مترفاً، فلم يكن هذا مقرّاً لإقامة صدّام حسين. صبية ينظّفون المغاسل والأرض قابلونا: هلو سير، غود مورننغ مستر. صعقوا حين أجبتهم بالعربية. عرفت منهم أنّهم من مدينة «صدّام» التي لم يكن قد صار اسمها مدينة الصدر. هزّوا رؤوسهم بلا مبالاة حين قلت لهم بأنّ اسمها مدينة الثورة.

يا لهذه المدينة التي ظلّ اسمها هاجساً لكلّ الحكّام. كنّا، كبغداديين، نمارس عنصريّتنا فنسمّيها «خلف السدّة». سكّانها كائنات سمّيناهم «شراكوة» ألقى بهم الجوع على تخوم مدينتنا. وجاء عبد الكريم قاسم الذي حوّل أكواخ القصب إلى مساكن متواضعة تمتدّ إلى مساحات شاسعة فصار اسمها «مدينة الثورة». وقرر صدّام، في زيارة نادرة له إلى مدينة يعرف كم تكرهه، أن يسمّيها باسمه.

لم يكن في الحمّام ماء ساخن. ولم يكن حمّام واحد ليتّسع بالطبع لكلّ هذا الحشد من الوافدين. في الأيام التالية اشترى كلّ منّا «شامبو» من كشك أقيم على عجل على أحد الأرصفة خارج القصر، وتمّ بناء كابينات لتصبح حمّاماتنا.

بدأ القصر يتأمرَك. صار اسم الفسحة الدائرية التي تتوسط المكاتب «الروتندا» (الساحة المستديرة). كان في وسط الروتندا مجسّم للقصر الجمهوري استلفتتني مفارقة في وضعه. فمع أن الأميركيين لم يقصفوا القصر الذي ظلّ على حاله، كانت قبّة المجسّم متآكلة والمجسّم يعلوه الغبار. حشد من العراقيين يملأ الممرّ الخارج يساراً كلسان من تلك الروتندا طالبين تزويدهم بـ«بادجات» تسمح لهم بالدخول إلى القصر.

كان من بينهم إعلاميون يرأس بعضهم الآن تحرير صحف، ونوّاب حاليّون. أمّا نحن فقد حظينا بـ«بادجاتنا» التي تحمل كلّها الحرف A الذي يعني أنّنا في الدرجة الدنيا من الثقة الأمنيّة. كانت القاعة الفسيحة على يمين الروتندا هي مكان عملنا، لكنّها لم تكن مكتباً خاصاً بالمجلس. كان فيها ما لا يقلّ عن أربعين جهاز كومبيوتر يعمل عليها أفراد ينتمون إلى جهات شتّى. إلى يسار الروتندا كان مكتب السفير البريطاني ومساعديه الذي دخلته مرّة واحدة للقاء السفير لسبب لا أذكره، لعلّه كان لإبداء اعتراضي على الدور الهامشي الموكل إلى مجلسنا. أمّا الطابق الثالث فكان محاطاً بسرّية تامّة ولا يقترب منه إلّا حمَلة «بادجات C» أعلى درجات الموثوقيّة. دخلته مرّة واحدة بطلب من أستاذ في جامعة جورج تاون التي سبق أن ألقيت فيها عدّة محاضرات. قابلني مَن فتح الباب لي باستنكار شديد، فقد اكتشفت في ما بعد أنّني في مكتب مجلس الأمن القومي التابع للرئيس الأميركي مباشرة. تعرّفت في المطعم بعد حين بشاب اسمه أحمد يعمل في هذا الجهاز قال لي إنّه الوحيد من أصول عراقيّة فيه.

ثم جاء تلفون «الثُريا»

بعد حوالى الشهر في القصر الجمهوري بدأنا نترفّه. تمّ بناء صفّ طويل من الكابينات الخشبيّة وخُيّرنا بين السّكن منفردين في واحدة منها أو البقاء في غرفة تتّسع لحوالى عشرة أشخاص في القصر فاخترت الكابينة. واختار آخرون البقاء. قبلها جاء تلفون «ثريّا». في البدء، كانت لدينا أجهزة لاسلكي لا ندري ما نفعل بها سوى أنها تمنح حاملها شعوراً بالأهميّة. قال منسّق الفريق بلهجة قائد عسكري إنّها ضرورية للاستخدام في حالات الطوارئ لكنّنا استخدمنا تلك اللُعب للتحاور في ما بيننا عبر الغرف. تشارك كل اثنين منّا في في واحد من أجهزة ثريّا، وكان شريكي الصديق العميد توفيق الياسري. لا أذكر أنّني استخدمت الجهاز إلّا للإتصال بزوجتي وبصديق آخر هو هشام ملحم مدير مكتب قناة «العربية» في واشنطن الذي كنت أنقل له ما يدور من مهازل.

كانت لـــــــــــــــــدينا أجهزة لاسلكي لا ندري ما نفعل بها سوى أنها تمنح حاملها شعورا بالأهميــــــــــــــــة.

لكنّ المؤسسة التي أحاطتنا «بحنانها» التجاري العسكري منذ البدء كانت «كيلوغ براون أند روت» وهي شركة فرعيّة لمؤسسة هاليبرتون العملاقة التي كان ديك تشيني نائب الرئيس بوش عضواً في مجلس إدارتها. تولّت كيلوغ تزويد العاملين الذين كانوا بالمئات بكل حاجياتهم اليومية، بدءاً بالطعام والقرطاسية وصولاً إلى غسل الملابس وكيّها. لكن ما إن تصل الملابس المكويّة ونعلّقها على مرافق الشبابيك (إذ لم تكن ثمّة خزانات ملابس بالطبع) حتى ينقضّ عليها تراب بغداد كأنّه يريد الانتقام من ترف العاملين بعيداً عن هموم الناس. وكانت المفاجأة حين اكتشفت أنّ كلّ تلك الخدمات من دون استثناء، بما فيها غسل الملابس الداخلية تتمّ في الكويت، وكل حاجياتنا ابتداءً من القرطاسية حتى الطعام تجلب من الكويت. كتبت مذكّرة تقترح إصلاح مصانع الموادّ الغذائية العراقيّة، فضلاً عن إنجاز الخدمات الأخرى بهدف تشغيل بعض من قوّة العمل العراقية العاطلة، فجاء الجواب بأنّهم يخشون من تعرّض المنتجات والملابس للتسميم، علماً أنّه كان بوسعهم أخذ عيّنات للتأكّد من سلامتها. وكتبتُ مذكّرة أخرى تقترح إحياء معامل الإسمنت الحكومية للشروع في عملية البناء من جهة، ولخلق جو من الثقة لدى رجال الأعمال بأنّ المناخ الاقتصادي مقبل على الانتعاش، فكان الجواب هو أنّ الأولويّة الآن للخصخصة كأنّ المشاريع في عزّ ازدهارها ولم يبقَ إلّا بيعُها.

فرض النيولبرالية

بعد أشهر قليلة، أكّدت إدارة بوش نيّتها في فرض توجّهها النيولبرالي فوراً على العراق، وهو ما كان لا بدّ من أن يؤدّي إلى قيام رأسمالية متوحّشة لا اقتصاد سوق يمتلك آفاق الازدهار، وهو ما توقّعت حدوثه قبل سقوط صدّام في محاضرة دعاني البنك الدولي إلى إلقائها في عدد محدود من الخبراء والشخصيات أذكر منهم الأمير الأردني زيد بن طلال (أو ابنه رعد؟). أنشأت سلطة التحالف «مجلس التنسيق الدولي لسلطة التحالف الموقتة» وتولّى ماريك بلتكا رئاسته. كان بلتكا وزير مالية سابقاً في بولونيا تولّى الإشراف على عمليّة انتقال بلده بعد انهيار الشيوعيّة. في مؤتمر عن دروس انتقال أوروبا الشرقية في أواخر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٣، طرح بلتكا آراءه بوضوح تام: الإصرار على اللبرلة الفورية للأسعار، رفع الإعانات التي توفّرها الدولة للسلع التي يعتمد عليها الناس، الخصخصة الفوريّة، واعتبار أنّ إصلاح مؤسسات قطاع الدولة، حتى وإن كان هدفه تهيئتها للبيع إلى القطاع الخاص، أمر كارثيّ.

حكَم القضاء الأميركي على «كيلوغ براون أند روت» في ما بعد بدفع غرامات عالية بتهمة تضخيم الأرباح بالمشاركة مع تجّار كويتيين. كان التعلّل بأجواء الحرب وسيلة سهلة للقيام بذلك من خلال الادعاء باضطرار المؤسسة إلى دفع تكاليف خياليّة لنقل الموادّ، وتلف المعدّات والبضائع وضياعها. هكذا صار الأمن باباً للأردنيين وغيرهم من الساعين إلى غرْف أكثر ما يمكن وبأسرع ما يمكن من أموال سمّتها الإدارة الأميركية نفقات إعمار للعراق. كان هؤلاء يأخذون عقوداً لتجهيز سلطة التحالف بأيد عاملة رخيصة من بنغلادش وغيرها. فمع بدء الهجمات ضدّ القوّات الأميركية، تناقص عدد العاملين العراقيين في المطعم حتى انعدم، وكانت الحجة هي ذاتها: الخوف من تسلل الإرهابيين. وقد سمعت من مقاول أردني بأن العقود بينهم وبين كيلوغ تضمّنت شرطاً غير مكتوب مفاده عدم تشغيل أيّ عراقي.

أدركت فيما بعد سبب كرم كيلوغ المبالغ به في التعامل معنا، فحين انتقلنا إلى فندق الرشيد قيل لنا بأننا غير مطالبين بإعادة ما تم تزويدنا به من بطانيات ومراوح وسترات واقية من الرصاص سعر الواحدة منها ٥٠٠ دولار. وما إن صدر الحكم على الشركة حتى أعلنت مؤسسة «هاليبرتن» العملاقة انفصالها عنها وتحوّلهما إلى مؤسستين منفصلتين في مسعى للتبرؤ من فضائح «كيلوغ براون».

تعمل «سايك» في إنتاج تكنولوجية فائقة السرية تمثل جوهر عمليات التجسس التي تمارسها وكالة الأمن القومي و«السي آي أي».

لا أحد يسمع ما تقول، أو قل إنهم يسمعون ما يودّون سماعه فقط. عبّر الصديق مؤيد الحيدري عن الأمر ببلاغة شديدة حين التقى بول فلفوفتز بالإعلاميين في إحدى زياراته الأولى لبغداد. قال له: «كان صدّام يملأ أفواهنا بالقطن فجئتم وأخرجتم القطن منها لتضعوه في آذانكم».

هذا هو ربّ عملنا إذن

لم تكن حالات الترابط بين العلاقات السياسية والشخصية والمصالح الإقتصادية مقتصرة على مؤسسات «بكتل» و«هالبرتون» و«كيلوغ براون آند روت» وغيرها، فبعد أن تركت عملي في مجلس الإعمار، صرت أنقّب في الوثائق والتقارير بحثاً عمّا يلقي مزيداً من الضوء على الخيوط المتشابكة للّعبة التي كنّا ضحايا لها. كان الاكتشاف الأكثر إثارة لذهولي هو ما حصلت عليه من تفاصيل عن «ربّ عملنا» «سايك» SAIC، وهو مختصر Science Applications International Corporation إذ لم تكن عقود عملنا في المجلس تتمّ مع وزارة الدفاع مباشرة، بل عبر «سايك» التي نالت عقداً من الوزارة لتأمين لوجستيات تشغيل الأطقم ومتابعة شؤونهم.

لكن هذه المؤسسة التي تولّت عملية تجهيز وتأمين مستلزمات سفرنا وإقامتنا تستحق اسمها «التطبيقات العلمية العالمية» بكل جدارة. تعمل «سايك» في إنتاج تكنولوجية فائقة السرية تمثّل جوهر عمليات التجسّس التي تمارسها وكالة الأمن القومي و«السي آي أي» وغيرها من الوكالات التجسسية. ففي العام **١٩٦٩** ترك العالم النووي بيستر Beyster وظيفته المريحة في صناعات الدفاع وعمره ٤٥ عاماً ليؤسس SAIC في غرفة صغيرة بكاليفورنيا. وخلال أربعة عقود لم تتعرض «سايك» إلى الخسارة في أي سنة، إذ صارت أكبر شركة خاصة لتكنولوجيا المعلومات ووصلت عوائدها عشية غزو العراق إلى ٦،١ مليار دولار.

لا تعلن وكالات الاستخبارات أسماء مَن تتعاقد معهم ولا عن حصتهم من إجمالي العقود الممنوحة، لكن المصادر تفيد بأن «سايك» كانت المتعاقد الأكبر مع وكالة الأمن القومي ومن بين أكبر خمسة متعاقدين مع «السي آي أي» عشية الحرب على العراق. ففضلاً عن أن تكنولوجيا «سايك» في التقاط المعلومات وتحليلها هي التي مكّنت الولايات المتحدة من اعتقال عدد كبير من أعضاء القاعدة، فهي مصنّعة لمَجسّات حرارية تحت البحر تستطيع تتبّع الغواصات ومنتجة للبرامج التي تستخدمها الأقمار الصناعية التجسسية لمسح العالم وإيصال المعطيات الدقيقة حول مواقع الأهداف، لاسيما في حرب ٢٠٠٣، ومطوّرة لمعدّات تستخدم أشعة غاما التي تخترق الشاحنات وتفحص محتوياتها عن بعد.

لعل أهم إنجازات «سايك» برنامجا «تيراتيكست» TeraText وبرنامج التصنيف اللغوي الكامن Latent Semantic Indexing (LSI). بفضل هذين البرنامجين تتحول مليارات مليارات مفردات كل لغة مكتوبة في العالم والتي ترد في الكتب والمجلات والمكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني وغيرها إلى معطيات يمكن الإستفادة منها في عمليات المراقبة والتجسس. إذ بوسع «تيراتيكست» تحليل مليارَي وثيقة خلال أربع ثوانٍ، أي ثلاثين مليار وثيقة في الدقيقة، من خلال كشف ترابُطات وتكرار المفردات والمصطلحات والأسماء. ففي عملية اعتقال القيادي في تنظيم القاعدة خالد شيخ محمد، المدان بالتخطيط لعمليات سبتمبر ٢٠٠١، وكان في باكستان، جمع برنامج تيراتيكست عبارات مشتّتة مثل «خالد»، «نائم»، «تاريخ غير محدد» لعملية متوقعة تقوم بها خلية نائمة.

وبفضل هذا الدور الهائل والعلاقة الوثيقة مع الإدارات الأميركية، منح البنتاغون سبعة عقود لسايك لإعادة إعمار الحكومة وإنهاض الإعلام في العراق في شباط/ فبراير ٢٠٠٣، أي مع بدء الحرب بالضبط، على أن يتم تنفيذها جميعا تحت إشراف دغلاس فيث، الذي

سيرد ذكره فيما بعد، علماً أنّ كبير مساعدي فيث في البنتاغون هو كرستوفر هنري الذي كان نائب الرئيس الأقدم لسايك حتى تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢.

بموجب أحد العقود، تقوم سايك بتوظيف «خبراء ينفّذون محتوى العقد» وهم ١٥٠ شخصاً، يحدّد العقد طبيعة عملهم بـ«تشخيص، والاتصال وتوظيف أفراد من المنفيين العراقيين من الراغبين في تكريس جهودهم لإعادة الإعمار وفرض الاستقرار في العراق» (أي نحن)، وينصّ العقد كذلك أنّ على «سايك» استئجار شقق وتغطية تكاليف المعيشة وتوفير الطاقم الداعم والمقدم للخدمات لهؤلاء الأفراد. وينص العقد على إرسال الفريق إلى العراق لفترة لا تقلّ عن الشهر.

ويدعو عقد ثان «سايك» إلى توظيف جهاز لإعادة بناء جهاز الإعلام الجماهيري وتجهيزه وتدريبه يتكوّن من أربعين شخصاً، تكون مهمّته تشغيل ثلاث محطات تلفزيونية في بغداد والبصرة وإربيل وإصدار صحيفة تصدر ستة أيام في الأسبوع بتوزيع يومي مقداره ٣٠٠ ألف نسخة. ويحدد عقد ثالث ثلاثة أسماء بالإسم: شاها علي رضا (التي سيرد ذكرها كذلك) وأحمد دبّوس وأوين كربي «للمساعدة في تسهيل التحول السياسي لعراق ما بعد النزاع إلى أمّة ديمقراطية حرة» بمخصصات ٢٠٩ دولارات في الساعة (نعم، في الساعة الواحدة).

«بدأنا نعمّر العراق»

أخذ منسّق «مجلسنا» يجتمع بنا مساء كلّ يوم في حديقة القصر. ثمّة نافورة سيظلّ شكلها عالقاً في ذاكرتي. نافورة يكفي تأمّلها لتكوين صورة عن سيكولوجيا صدّام حسين. يستمتع الناس بشرب قهوتهم الصباحية أو المسائية جالسين أمام نافورات تضخّ الهدوء مع انسياب مياهها: ماء يتدفّق من فم دولفين وديع، من إبريق تصبّه صبّية. نافورة القصر الجمهوري لم تكن كذلك. هل انتبه لها أيٌّ من زائري صدّام؟ كانت النافورة تجسّم سمكة ضخمة تخنق أخرى تتقيّأ الماء. أيّ ذوق ساديّ! في الفترة التي كنّا فيها هناك، كانت الحديقة قاحلة بسبب انعدام المياه، فصار لون النافورة وأسماكها أقرب إلى حقيقتها: حقيقة الموت.

يأتي المنسّق متبوعاً بشخص شبه أمّي عيّنه عضواً في المجلس الذي يُفترض أنه يضم مئة وأربعين اختصاصياً في شتّى مجالات إعادة إعمار العراق، لكنّنا سمّينا التابع «عبد حمود» تشبيهاً له بمرافق صدّام حسين. «عبد حمود» الجديد يحتلّ الآن مركز مدير عام ويعلن أنه يحمل شهادة الماجستير. يتبختر المنسّق في مشيته، يرسم على وجهه وحركاته مظهر الجدّية ويوزّع علينا ابتسامات باهتة محسوبة، ويجلس مقابلاً أعضاء المجلس كأنّه يتّخذ قرارات استراتيجية. كان الاختصاصيون قد بدأوا يرافقون المستشارين الأميركيين إلى الوزارات، لكنّهم كانوا يشتكون جميعاً من أنّ الأخيرين لم يسمحوا لهم حتى بالتحدّث إلى المسؤولين أو العاملين العراقيين فضلاً عن تقديم اقتراحات بشأن عمل تلك الوزارات أو سبل المساهمة في إعادتها إلى سابق عهدها. عاد الزميل المعنيّ بالعمل في وزارة الداخلية يشعر بالإهانة إذ لم يسمح له الأميركيون بالإطلاع على قرص مدمج يحوي أسماء العاملين في أجهزة صدّام الأمنيّة، وهو الذي كان مفترضاً به أن يساهم في إعادة بناء تلك الأجهزة. وجرّبت هذا بنفسي في الزيارة الوحيدة التي قمت بها وكانت إلى وزارة الثقافة مع المستشار الإيطالي. فقد عهدت قوّات التحالف بمهمّة الإشراف على الوزارات الثانوية إلى غير الأميركيين لإضفاء طابع أمميّ على احتلالها للعراق. كان هذا المستشار منتشياً بدوره. يصطحب عدداً من المصوّرين ويزور شارع المتنبّي لكي يوحي باهتمامه بالثقافة. شعرت بالعار لأنّ الموظفين تعاملوا معي كمسؤول وصاروا يستعطفونني مؤكدين أنّهم لم يكونوا من أنصار نظام صدّام حسين.

لكنّ هذا بالضبط كان محور اجتماعاتنا اليومي وما يسأل عنه المنسّق: كم بعثياً شخّصت في «وزارتك»؟ هكذا كان المطلوب أن يتولّى مختصّون المهمّات التي كانت أجهزة الأمن تقوم بها في ظلّ البعث. لا حاجة إلى القول بأنّ بعض أعضاء المجلس لم يكونوا يحضرون الاجتماعات وكان قسم كبير من الحضور يتندّر على ما يجري.

منسّق مجلسنا هذا الذي ظننته اختفى عن الأضواء بعد اختفاء محتضنيه اللبراليين الجدد في أميركا ظهر مؤخراً مثيراً قنبلة سياسيّة في العراق. قرار بتوليته منصب الأمين العام لمجلس الوزراء كجزء من حملة «الإصلاح» التي دعا إليها رئيس الوزراء الحالي د. حيدر العبادي تحوّل إلى معركة سياسيّة ضارية انتصر فيها خصومه الذين اتّهموه بأنّ قراره جاء تنفيذاً لمطالب أميركية. منسّقنا إذن صار أوباماويّ الهوى.

كان تشخيص البعثيّين وطردهم من الوظائف من المهامّ المطلوب تنفيذها من جانب المستشارين الأميركيين





كذلك. لكنّهم كانوا بحاجة إلى عراقيين يساعدونهم في التعرف إلى هؤلاء. ومع أنّ الدور المنوط بالمستشارين الأميركيين كان شكلاً ملطّفاً متناسباً مع العصر بالمقارنة مع شبيهه البريطاني عند تأسيس الدولة العراقية، فقد كانت الصلاحيّات الممنوحة لهم لإدارة الوزارات وإعادة رسم سياساتها وأساليب عملها إمبراطورية بامتياز.

مؤهّل الخبير: الولاء لبوش!

ولكن من هم مستشارونا ومن أين جاؤوا؟

يلقى راجيف شانراسيكاران، مدير مكتب بغداد للواشنطن بوست أهمّية كبيرة في أوساط صنّاع القرار في الإدارة الأميركية وأحد أنشط الصحافيين العاملين في بغداد آنذاك وأكثرهم ثقافة وتوقّداً ذهنياً، أضواءً مهمّة على نوعية العاملين الأميركيين في سلطة التحالف وكيفية اختيارهم[٦]: «بعد سقوط نظام صدّام اجتذبت فرصة العمل في بغداد كلّ أصناف الأميركيين: مهنيين ضجرين من وظائفهم، أكاديميّين يتحدثون العربية، اختصاصيّين في التنمية، ومغامرين راغبين في الذهاب إلى مناطق الحرب». ولكن كان عليهم المرور على دائرة خاصة في وزارة الدفاع قبل أن يُسمح لهم بالعمل هناك. لم يكن على المتقدّمين أن يكونوا خبراء في الشرق الأوسط أو في مجالات إعمار مناطق ما بعد النزاعات. أهمّ المؤهّلات كان الولاء لإدارة بوش. كان العاملون في هذا المكتب يطرحون أسئلة فظّة بشكل مباشر: هل صوّتّ لجورج بوش؟ هل تؤيّد طريقة الرئيس بوش في محاربة الإرهاب؟ كان طبيعياً في مثل هذه الحال أن يكون كثير من العاملين في سلطة التحالف مفتقدين للمؤهّلات اللازمة للعمل. شابّ في الرابعة والعشرين من العمر لم يسبق له العمل في مجال المالية قطّ، قدّم طلباً للعمل في البيت الأبيض فأرسل إلى بغداد لإعادة تشغيل البورصة. ابنة معلّق بارز من المحافظين الجدد تخرّجت حديثاً من جامعة إنجيلية أرسلت لإدارة ميزانية العراق البالغة ١٣ مليار دولار. صُعقتُ حين سألني من سيكون مسؤولاً عن عمل البنك المركزي إن كانتْ للعراقيين تجربة في العمل على الكومبيوتر. أجبته بأنّ ثمة عموداً يوميّاً في جريدة الجمهورية البغدادية لتعليم الشباب على برنامج «بيسك» الذي كان سائداً حين ذاك، وأنني تدرّبت على برنامج «فورتران» في سنة دراستي الجامعية الأخيرة.

تمّ تعيين البعض بفضل مكالمة هاتفية أجراها عضو نافذ في الحزب الجمهوري مع بريمر لصالح صديق شخصي. من بين هؤلاء جيمس هافرمان الذي اختير لإعادة تأهيل نظام الرعاية الصحية، ولم يكن إلّا عاملاً في مجال الخدمة الاجتماعية واسماً مجهولاً في أوساط اختصاصيي الصحة في العالم التحق بعمله في بغداد. قبلها كان مديراً لوكالة مسيحية لتبنّي الأطفال. جاء خلفاً لشخصيّة من بين أكبر اختصاصيي العالم في مجال الصحة العامة وبخاصة في البلدان التي تشهد صراعات عسكرية، اختصاصيّ عمل في كوسوفو والصومال ودرّس في جامعة جونز هوبكنز المرموقة. لكنه لم يستمرّ في عمله سوى أسبوع واحد لأنّ الاختيار وقع على هافرمان. وعلى حدّ تعبير راجيف: «كان «بركل» الذي تمّ استبداله يملك من الشهادات العلميّة ما يملأ جداراً من المجلّدات لكنّه لم يمتلك صورة تجمعه بالرئيس بوش. أمّا هافرمان فكان من أوائل مشاريعه في عراق مُبتلى بكلّ أنواع الكوارث الصحية والمفتقد لأبسط الحاجات واللوازم الطبّية شنّ حملة للتثقيف بمضارّ التدخين».

تحاشى البيت الأبيض عن عمد خبراء الشرق الأوسط المحترفين والمخضرمين وخبراء مجتمعات ما بعد النزاعات، الذين عمل كثير منهم في وزارة الخارجية أو الأمم المتحدة لأنّهم لم يكونوا متحمّسين لنشر الديمقراطية وذوي نزعات ليبرالية.

تمثّلت الحالة الأكثر تراجيدية في تعيينات العاملين في سلطة التحالف في اختيار المشرف على وزارة الداخلية. ففي أيار / مايو ٢٠٠٣، أي بعد اكتمال احتلال بغداد بشهر واحد، توصّل فريق من خبراء وزارة العدل الأميركية إلى أنّ العراق بحاجة إلى أكثر من ٦٦٠٠ مستشار أجنبي لإعادة تأهيل جهاز الشرطة. فكيف استجاب البيت الأبيض والبنتاغون لهذه التوصية؟ تمّ إرسال شخص واحد فقط هو بيرني كيرك، الذي كان نجماً في الإعلام الأميركي، بوصفه قائد شرطة نيويورك أثناء الهجوم على مركز التجارة العالمي عام ٢٠٠١. لكنّ خبرة الرجل في العالم الخارجي اقتصرت على عمله مسؤولاً أمنياً لمستشفى حكومي أميركي في السعودية وطُرد بعدما توصّل التحقيق إلى أنه كان يتجسس على الطاقم الطبّي هناك.

ما إن حلّ كيرك محلّ خبير وزارة الخارجية في تطبيق القانون الدولي روبرت غيفود، وقبل أن يتعرّف على الوضع في العراق، عرّف مهمته بأنّها «جذْب اهتمام وسائل الإعلام لعملنا الجيّد في إعداد الشرطة لأنّ الوضع الأمني ليس بالسوء الذي يعتقده الناس». وقبل

٦ Rajiv Chandrasekaran «Ties to GOP Trumped Know-How Among Staff Sent to Rebuild Iraq: Early U.S. Missteps in the Green Zone» *The Washington Post*, Sept. 17, 2006.

أن يُمضي أسبوعاً واحداً في بغداد، أجرى كيرك عدداً كبيراً من المقابلات التي أكّد فيها أن الوضع آخذ في التحسّن مع أنه عيّن فريقاً كاملاً من الحرّاس الشخصيين من جنوب أفريقيا.

تم ترتيب اجتماع بين بريمـــــــــــــــــــر وبعض أعضاء مجلسنا. أردنا أن يتركز الاجتماع على ضـــــــــــــــرورة إعطاء المجلس دورا رئيسا في عمليـــــــــــــــــة إعادة الإعمار.

ومع هذا فقد جاء بعض من هؤلاء المستشارين مدفوعاً بنوايا طيّبة وأحلام رومانسية بالفعل. وحاول آخرون القيام بأعمال إصلاحية لأسباب أخرى، منهم دكتور العلوم السياسية الثلاثيني إيردمان الذي أراد اختبار استنتاجات أطروحة تخرّجه برؤوسنا. في تلك الحالات القليلة كان ثمّة تبادل مثير للأدوار بين المستشار الأميركي وبين أعضاء فريقنا العراقيين. كنت حين أراه مصحوبا بأربع مصفّحات أو أكثر، عندما أخرج لتدخين سيجارة الصباح عند مدخل بناء القصر، أعرف أنّه ذاهب إلى البنك ليحمل أكداساً من النقد لتوزيع رواتب الأساتذة والعاملين. لم تكن اجتماعاته مع الأساتذة الجامعيين لقاءات «بريميرية» تزيينية. كان يسجّل أدقّ التفاصيل والمقترحات ابتداءً من توفير معدّات مخابر الكيمياء إلى تحديث مكتبات أقسام اللغة الإنكليزية في كليّات الآداب التي لم ترَ مطبوعاً جديداً منذ نهاية الثمانينيات. ولأنّ إيردمان وفريقه العراقي كانا ينتميان إلى هذه الفئة النادرة، فقد كانت محنته الدائمة، كما صرّح فيما بعد للنيويورك تايمز، هي التوفيق بين عمله كموظّف في سلطة التحالف الموقتة عليه تنفيذ المرسوم ١٦ حول إقصاء أعضاء المراتب الثلاث العليا من حزب البعث ومن لهم علاقات أخرى بالنظام المباد من جهة، وبين سعيه لإعادة إيقاف الجامعات وتحديثها من جهة أخرى. لم يرد إيردمان أن يتحوّل إلى مفوّض سياسي وظيفته مطاردة الآخرين. ولحسن الحظ كان المستشارون العراقيون لهذه الوزارة من فريقنا، وأهمهم الدكتور محمد الربيعي، من ذوي الخلفيات العلمية الجدية والاستقلالية السياسية. لم تربطني علاقة وظيفية مع الدكتور إيردمان، لكنّنا تقاربنا بحكم الخلفية الأكاديمية المشتركة.

غادر غارنر، جاء بريمر

كان آخر عهدي به حين تجاوب باهتمام مع مقترحي بعقد اجتماع يضمّ رؤساء الجامعات العراقية العشرين بوصفهم الأقدر على تحديد المشاكل وتعيين احتياجات كل جامعة وترتيبها حسب درجة إلحاحها وأولوياتها. شعر إيردمان بالخجل حين تم إبلاغه بأنّ الدكتور سامي المظفّر، رئيس جامعة البصرة، شتم الحرس الذين أرادوا تفتيشه قبل الدخول إلى قصر المؤتمرات وعاد من حيث أتى.

تم حل «أورها» وأزيح غارنر ليحلّ محله بريمر. كان وجه غارنر متجهماً وهو يصافح بريمر ببرود. وصل بريمر المحسوب على وزارة الدفاع إلى بغداد ليتولّى منصب رئيس «سلطة التحالف الموقتة» التي حلّت محلّ «أورها». تجمّع العاملون في الروتندا حيث توسّط الحاكم الجديد الجمع وألقى كلمة: أمنيات، وعود وتأكيدات على تصميم الولايات المتحدة على العمل لضمان مستقبل زاهر لعراق ديمقراطي يكون نموذجاً يشعّ على المنطقة. تم ترتيب اجتماع بين بريمر وبعض أعضاء مجلسنا. أردنا أن يتركز الاجتماع على ضرورة إعطاء المجلس دوراً رئيساً في عملية إعادة الإعمار. كان الارتباك وترقّب الحدث السعيد الجلَل بادياً على وجه المنسّق حتى إنه أراد إجراء بروفة لكيفية توزيع الأدوار بيننا: ماذا يقول كل منّا؟ كيف نخاطبه؟ كيف نعرض ملاحظاتنا من دون إبداء تذمّر؟ أذكر أنني وزميلين، خالفنا الأعراف إذ جلسنا على حافة الشبّاك المواجه لمقعد بريمر المتصدّر للطاولة. حاول المنسّق مداراة حرجه من عدم احترامنا لأصول اللقاء بابتسامة اعتذار عن «رعونتنا». كلّ ما علق بذهني من ذلك اللقاء هو توجيه بريمر التحية لي باللغة الهولندية حين عرف أنني آت من هناك، فقد استُدعي لتولّي مهمّة حكم العراق من وظيفته سفيراً لبلده في ذلك البلد ثانويّ (وربما ثالثي) الأهميّة. لم يعلَقْ شيء في ذهني لأنّ الحوار، إن صحّت تسميته حواراً، لم يكن غير تبادل للأمنيات بأن تسير الأمور على ما يرام. خرجنا من لقائنا بعد أن وعد بريمر بأنه سيغيّر الأمور. لكن الأمور لم تتغيّر.

مغادرة فندق الرشيد والعودة إليه

أوائل حزيران / يونيو ٢٠٠٣ تم إصلاح ما يمكن إصلاحه من فندق الرشيد فانتقلنا إليه. لا أزال أذكر ممسحة الأقدام في مدخله لأنّ صورة بوش الأب كانت مطبوعة عليها بهدف أن تدعس عليها بأقدامك إذ تدخل إلى الفندق. كانت تلك من آثار حرب تحرير الكويت. دهمهم الوقت

فلم يتمكّنوا من نسج ممسحة جديدة تحمل صورة بوش الابن. لا أذكر كم بقيت هناك قبل أن نُعطى خيار الانتقال إلى سكن خاص خارج المنطقة التي لم تكن قد منحت اسم «الخضراء» بعد. اغتنم الصديق صادق الصائغ الفرصة فتشاركت معه في استئجار شقة في شارع السعدون قريباً من سينما أطلس. منطقة تعجّ بالعصابات والحشّاشين السودانيين وكل كائنات الله المهمّشة. ومع هذا كان صادق أكثر شجاعة مني. ينزل للتجوال ويعود حاملاً قصصاً طريفة ومخيفة. صار لدينا زوار «عاديون» لا ينتمون إلى عالم السياسيين والقادة «المهمين»: باحثون ومثقّفون ربطت صادق وربطتني بهم علاقات قديمة، أدباء ومراسلو وسائل إعلام، وأشباه مثقفين غربيون باحثين عن الشهرة يأملون بالعودة إلى الغرب حاملين كتابات أو أفلاما أو تسجيلات لا توثّق بل تعرض لبطولة المنتج الذي تحدّى الموت في رحلته البطولية المفترضة. ملأ كلّ هؤلاء حياةً كادت تجفّ داخل عالم لم ننتم إليه. حياة ثقافية هي انتماؤنا، هي هويتنا. من جزيرة الحرية هذه انطلقنا إلى شارع المتنبي، إلى سوق السراي.

لنا كمثقفين نحط أقدامنا في شارع المتنبي. كان لتلك البشاعة وجهها. كنا بحاجة إلى أن يقوم أصدقاؤنا الشيوخ بالتعريف بنا لجمهرة من المثقفين الذين لم يسمعوا بأسمائنا ولآخرين سمعوا بها ولكن لم يعرفوا ما أنتجنا.

ما أبشع الغربة! ما أبشع أن تقرّر خوض المعركة ضد الطغيان مبكّراً فتخرج منفيّاً. أو لعلّ أسلوبنا في المجابهة كان انتحارياً. ليست تلك مأساتنا وحدنا. هي مأساة عرفها ثوريو العالم كلّه. خرجنا مبكّرين قبل أن يتصاعد الكرْه للنظام فصار هذا سُبّة. لكنْ، على عكس السياسيين، لم يصفنا أحد بـ«جماعة الخارج». احتضنّا بعضنا، مزهر مرسومي، مؤيد الحيدري، لطفية الدليمي، سلوى زكّو، عبد الرحمن طهمازي وأحبة آخرون. تعرفت إلى مثقّفين لم أعرفهم من قبل، حيدر سعيد، يحيى الكبيسي، أسماء جميل. تظاهرنا أنّ الزمن توقّف منذ افترقنا، لكنّه لم يتوقّف. يعرفون أنّنا لم نأت قادة نفتتح عصراً جديداً يخنقهم الآن باسم الديمقراطية. لعلّ بعضهم أحسّ بأنّنا سنكون مخنوقين مثلهم في ظلّ نظام توهّمنا أنّه سيأتي بجديد فلم يأت به.

أليست تلك المأساة المعروفة: الثورة التي تأكل أبناءها؟ لنا كمثقفين نحطّ أقدامنا في شارع المتنبي، كان لتلك البشاعة وجهها. كنّا بحاجة إلى أن يقوم أصدقاؤنا الشيوخ بالتعريف بنا لجمهرة من المثقفين الذين لم يسمعوا بأسمائنا ولآخرين سمعوا بها ولكن لم يعرفوا ما أنتجنا. خفق قلبي فرحاً حين عرفت بأن مازن لطيف قام بنسخ كتاب ممنوع لي بخط اليد ووزّعه في ظلّ نظام البعث. ولكن كم قارئاً كان بوسعه الحصول عليه؟ وكم قارئاً كان مهتمّاً بقراءة عمل غير شعري أو ديني؟ ما أبشع شعور الغربة!

ما أبشع أن يُشعرك آخرون لا بالغربة عن عالمهم، بل عن فضاء صار ملكاً لهم عن جدارة. وصفتُ حياتي في شارع المتنبي مذ كان عمري خمس سنوات: منذ ١٩٥٥. لكنهم يعيشون الشارع ويصنعونه اليوم.

قلت لماجد وأنا أشير إلى بناء مهدّم: هذه مكتبة المثنّى. علّق بلامبالاة: «إذن، كانت هنا». هو ابن الحاضر، وإن لم يكن شابّاً. فهو لم يعش المتنبي إلّا الآن. ما همّه إن أشرت إلى بناية عبد الكريم قدّوري المقابلة لمكتبة المثنى حيث مكتب أبي للمحاماة؟ إنه ابن شارع صنعه وما عاد لي فيه غير فضاء متخيّل. عليّ أن أتعامل معه كما يودّون تخيّله. مقهى الشابندر الذي لم يكن له أي علاقة بالثقافة، بل كان مقهى العرضحالجية ومراجعي المحاكم حوّلها خَيالهم إلى «كافّيه» المثقفين كأنه «كافّيه» كلوني الباريسي.

في فندق الرشيد وفي القصر الذي كان جمهورياً، وكان لابد أن نتردّد عليهما باعتبارهما «مقرّ عملنا»، كان جدول أعمال معظمنا يتضمّن قضاء ساعات في الكابينة التي أقامتها شركة MCI والتي تضم عشرات أجهزة الكومبيوتر التي يمكن استخدامها للتواصل عبر الإيميل. وكانت هذه الشركة، التي يبدو أنها كانت طامعة في الحصول على السبق في بناء شبكة الهواتف النقالة، قد زوّدتنا، عبر سلطة التحالف، بجهاز لكلّ منّا نتّصل به مجاناً. هكذا غادرنا عصر« الثريا».

لم نكد نبدأ التعود على حياة الحرّية في شقّة أطلس حتى اضطررنا إلى العودة خائبين إلى فندق الرشيد بعد أن تردّدت شائعات بأنّ البناية ستتعرض لهجوم بعد ورود «معلومات» بأنّها مقرّ لعملاء إسرائيليين! وقد حدث الأمر ذاته مع فندق في عرصات الهندية تم تفجيره بالفعل. لم تُشعرنا الدورية الأميركية التي جابت شارع السعدون مساءً بالاطمئنان.


حضور
الغياب





المطران غريغوار حداد

العدالة الاجتماعية جواباً على الطائفية

المطران غريغوار حداد

مواليد ١٩٢٤ درس اللاهوت وتدرّج في المناصب الكنسية. عزل عن منصبه كمطران لبيروت العام ١٩٧٥ لمقالاته التجديدية الجريئة في الفقه المسيحي في مجلة «آفاق». دعا إلى علمانية شاملة وإلى العدالة الاجتماعية لقطع الطريق على انفجار النزاعات الأهلية. أسس في ستينيات القرن الماضي «الحركة الاجتماعية اللبنانية»، وفي عام ٢٠٠٠ شارك في تأسيس «تيار المجتمع المدني». لغريغوار حداد عدة مؤلفات في اللغة والعروض والعلمانية والروحانيات.

ننشر هذا المقال للمطران الراحل غريغوار حداد الذي توفي بعد نزاع طويل مع المرض في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٥ الماضي. صدر المقال مطلع الحرب الأهلية في جريدة «لوريان لو جور» اللبنانية الناطقة باللغة الفرنسية في ١٥ تموز / يوليو من العام ١٩٧٥. وهو يعطي فكرة عن موقع العدالة الاجتماعية في فكر المطران ونشاطه.

في حين يبدو أنّ الجميع في هذه البلاد يحاول عن عبث شرح الأسباب الحقيقية للأزمة المأساوية التي تهز لبنان واكتشاف السُبل الفعّالة التي تتيح الخروج منها، تقترح صحيفة «لوريان لو جور L'Orient-Le-Jour» كلمتين باللغة اللاتينية لمساعدتنا في فهم ذلك جيداً!

«فلنعش أولاً، ثم نتفلسف»، يفيد القول اللاتيني المأثور. والمقصود بذلك أنّه قبل المباشرة بأي نشاط، على المرء أن يسعى إلى ضمان حياته وسبل معيشته. بعبارات معاصرة: تتقدّم الاحتياجات والمتطلبات البيولوجيةً على أي نشاط أو مسعى، سواء فلسفياً كان أو ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً، إلخ.

في إطار أزمتنا، يمكننا أن ننسب ثلاثة معانٍ إلى هذه الأولوية البيولوجية، إلى «فلنعش أولاً»:

- نتيجة الأزمة
- سبب الأزمة
- ما العمل للخروج من الأزمة؟

العودة إلى ما هو بيولوجي

بعد ثلاثة أشهر من القتال، ومن الدمار، ومن الجنون، ومن المعاناة، ومن الموت، ومن الخوف، ومن الكراهية، يتمثل الوضع الاقتصادي لدى السواد الأعظم من الناس في أنّه لم يعد لدى هؤلاء سوى هاجس واحد: البقاء طبعاً، والتمكن من إنقاذ حياتهم وحياة أولادهم، إنما أيضاً التمكّن من إيجاد السُبل الأسرع لتلبية احتياجات الحياة الأساسية: المأكل، والمسكن، والملبس، والعناية الطبية.

مقابل طبقٍ من العدس، بلغ المطاف بالكثيرين، بسبب جوعهم، وخصوصاً جوع أسرَتهم، إلى «بيع حقوقهم»، وجعل مقولة «العيش أولاً» تتقدّم على أي اعتبار آخر، أي قناعة، أي طموح، أي مطلب إيديولوجي، مذهبيٍ، سياسي. هذا هو واقع الحال، النتيجة الدراماتيكية لهذه الأشهر الثلاثة من سفك الدماء، والحداد، والذعر. يعود المرء إلى احتياجاته البيولوجية الأساسية.

قبل أن يكون نتيجة للأزمة، شكّل هاجس الاحتياجات البيولوجية الأساسية هذا أحد أهم أسبابها. فقد بات الوضع الاقتصادي لعدد أكبر وأكبر من المواطنين، في السنوات الأخيرة، هشاً لدرجة أنّه بلغ حداً من البؤس لا يمكن تحمّله. ما عادت هذه ظاهرة فردية وباتت تتخذ أشكالاً جماعية: أصابت بالكامل قرى ومناطق في لبنان، كان النزوح الجماعي ينقل البؤس من المناطق الريفية ويزرعه في ضواحي المدن، خصوصاً بيروت، وصولاً إلى قلب بعض أحيائها.

خلال هذا الانتقال، كان البؤس يتبع مساراً كاملاً. وقد نما إدراكٌ لدى أولئك الذين كانوا حتى الآن ريفيين مسالمين: إدراكٌ لبؤسهم، ولبؤس الطبقات العاملة، وللفارق الفاضح بين مستوى معيشتهم ومستوى معيشة أقلية تعيش في ترف فاحش، بحيث تنفق في سهرة واحدة ما يكفي لإعالة أسرةً لعشرة وعشرين سنة.

إنّه إدراكٌ لحقهم في العدالة، والمساواة، والحياة الكريمة، حيث ما من أحدٍ مُحسن وما من أحد «يتلقى الإحسان».

من شأن هذه العملية الإفضاء، أو عدم الإفضاء، إلى الالتزام بحزبٍ «يساري». تتضافر القوى الشعبية، وتتضاعف، ولا يمكّن للنتيجة، عاجلاً أم آجلاً، أن تتمثل إلا في انفجارٍ ضد هذا الوضع الجائر وضد القيّمين عليه لأنّهم يجدونَ في ذلك مصلحة لهم. مقولة «فلنعش أولاً» مع متطلباتها المزعجة، ما عادت تمثل واقع حالٍ ثابت: باتت تشكّل أحد الأسباب الأساسية، السبب الأكثرَ أساسية ربما، لأزمتنا: ذلك الذي يثير الأمواج، والمدّ البحري القادر على تدمير كل شيء في طريقه من أجل إعادة إعمارٍ أفضل.

بعض الأرقام البليغة

يمكننا تقديم وقائع وإحصاءات لا تُعدّ ولا تحصى كمستندات إثبات في هذا المجال. سأكتفي ببعض الأرقام التي كُشِف لنا عنها من خلال مسح «القوى العاملة» الذي أجرته وزارة التخطيط عام **١٩٧٠**: هناك **٢،٩٠٠،٠٠٠** لبناني، من بينهم **١،٢٠٠،٠٠٠** مقيم في بيروت وضواحيها. ماذا عن دخلهم؟ لا يأتي التقرير أبداً على ذكره ذلك أنّ النتائج كانت ستبدو مرعبة ليُكشف عنها أمام الشعب اللبناني. وبالعودة إلى النسب المئوية الشهيرة لبعثة «إيرفد IRFED» التي وضعتها عام **١٩٦٢** والتي لم تتغيّر كثيراً كما ينبغي (إن لم يكن بمعنى استقطاب أكبر وإفقار للطبقات الوسطى)، ومن خلال زيادة المداخيل بمعدل الضعفَين (مدخلات الأسرة زادت بمعدل الضعفين لا أكثر خلال **١٣** عاماً)، نحصل عن عام **١٩٧٥** على الجدول التالي:

صحيفة لوريان لوجور، بتاريخ ١٥ تموز/ يوليو ١٩٧٥
ملف رقم : ٠٠١

دخل الأسرة السنوي (بالليرة اللبنانية)		العدد التقريبي (عام ١٩٧٠) للـ		٪ من السكان
عام ١٩٧٥ (x٢)	عام ١٩٦٢	أُسَر ٦ أشخاص لكل أسرة	أشخاص	
٢٤٠٠	١٢٠٠	٣٣٠٠٠	١٩٨٠٠٠	٪٩,٠٠
٥٠٠٠	٢٥٠٠	١٣٠٠٠٠	٨٨٠٠٠٠	٪٤٠,٠٠
١٠٠٠٠	٥٠٠٠	١١٠٠٠٠	٦٦٠٠٠٠	٪٣٠,٠٠
٣٠٠٠٠	١٥٠٠٠	٥١٣٠٠	٣٠٨٠٠٠	٪١٤,٠٠
ما فوق	ما فوق	٣٣٠٠	٨٨٠٠٠	٪٤,٠٠

إذا قارنّا مدخلات الفئات المختلفة في ما يخص قسمين فقط من نفقات الأسرة، الإيجار والمأكل، ماذا نجد (بالنسبة إلى بداية عام **١٩٧٥**)؟ إنّ إيجار شقة ذات غرفتي نوم في بيروت وضواحيها، لا يمكن أن يقل عن **٦٠٠٠** ل.ل. سنوياً. ومع أخذ الإيجارات القديمة بعين الاعتبار، يمكننا الإبقاء على متوسط يُقدَّر بـ **٤٠٠٠** ل.ل. سنوياً، هذا بصرف النظر عن رسوم المياه، والكهرباء، والرسوم الضريبية والبلدية.

يصعب تقدير تكاليف الطعام بالنظر إلى الارتفاع الجنوني في الأسعار. غير أنّ بعض المقارنات بين ميزانيات الأُسَر وميزانيات المجموعات الكبيرة تشير إلى أنّه عام **١٩٧٠** كانت كلفة إطعام ولدٍ واحد تبلغ **٢** ل.ل. يومياً، في حين أنّه عام **١٩٧٥**، تبلغ **٣** ل.ل. على الأقل. وبالنسبة إلى أسرة متوسطة، تتألف من ٦ أفراد، فإنّ الميزانية الشهرية الدنيا المخصصة للطعام ستبلغ ٦ x ٣ ل.ل. x ٣٠ يوماً = ٥٤٠ ل.ل. أو ٥٤٠ x ١٢ شهراً = ٦٤٨٠ ل.ل. سنوياً.

وهكذا فإنّ إضافة رسوم الإيجار وتكاليف الطعام تعطي سنوياً: ٤٠٠٠ + ٦٤٨٠ = ١٠،٤٨٠ ل.ل.

بالتالي فإن الخلاصة الباردة والمأساوية التي تنبثق



عن هذه الأرقام التقريبية (التي لا تتضمن أياً من الأقسام الأخرى: الملبس، والنقل، والرسوم الدراسية، والرعاية الطبية، إلخ) تتمثل في أنّ راتب ٧٩٪ من اللبنانيين هو أقل من ١٠،٤٨٠ ل.ل.، الحد الأدنى تحديداً للتمكن من تسديد التكاليف السنوية للمأكل والإيجار لأسرة واحدة.

ماذا يفعلون لسد هذا العجز؟ يلجأون إلى وسائل استثنائية:

- سوء التغذية، عدم الالتحاق بالمدرسة، المساكن غير اللائقة.
- بيع الأراضي والمباني.
- الاستدانة من المرابين بفوائد باهظة.
- هجرة مؤقتة أو دائمة، وغالباً تفكك الأُسرَة.
- الاستجداء من الجمعيات الخيرية.
- الغش والرشوة.
- مدخلات خفية، لم يصرَّح ولا يمكن أن يُصرَّح عنها.
- جرائم، وجنايات وعمليات فساد أخرى.

لا يسهم ذلك كله إلا في مضاعفة عدد ضحايا مجتمع غير عادل، لا يرحم، غير واعٍ، وغير مسؤول وبالتالي عدد المتمردين، والقوى الراغبة في التغيير.

نتفلسف لنعيش

لا تكمن نتيجة واقع الحال هذا في المقولة اللاتينية المعكوسة وحسب: «لكي نتفلسف، لا بد لنا من أن نعيش أولاً»، إنما لا بدّ الآن من إضافة: ولنتمكن من العيش وإنقاذ حياة الجموع، لم يعد من الممكن أن لا نتفلسف أولاً، أي:

- تحليل معطيات هذا المجتمع غير العادل، والجائر والساحق وتركيباته وبناه الفوقية.
- اكتشاف سبب هذا الوضع الذي يكمن بشكلٍ كبير في العداء الطبقي، وتضارب مصالح هذه الطبقات الاقتصادية والبيولوجية.
- تعميم هذا الإدراك وبخاصةٍ أمام أولئك الذين كانوا دوماً مخدوعين بإيديولوجيا الطبقات المسيطرة، المموّهة غالباً بأسباب طائفية أو دينية أو ثقافية، ومساعدتهم في «فلسفة» وجودهم، بدون أن يعني ذلك أنّ عليهم أن يأخذوا كل شيء «بمأخذ فلسفي»، أي القبول بالوضع الراهن غير العادل.
- تنظيم إدراكهم من خلال قوة حاضرة وفعّالة في سبيل إحداث تغيير والحؤول دون العودة إلى نظام آخر جائر وقمعي.

صحيح أنّ أسباب الأزمة لا تكمن في الظروف المعيشية الاقتصادية والمادية للسواد الأعظم من اللبنانيين وحسب. وصحيح أنّه من بين هذه الأسباب هناك هذا المرض المستوطن المسمى بالطائفية. بيد أنّ هذا المرض يظهر بشكلٍ خاص في أوقات الأزمات الاقتصادية والاجتماعيّة وخصوصاً في الأماكن حيث تنتمي الطبقات المحرومة بأغلبيتها الساحقة إلى الطائفة نفسها. فمن شأن إرساء العدالة الاجتماعية أن يساعد في القضاء على هذا المرض بشكلٍ نهائي.

ومن الصحيح أيضاً أنّه يبدو أنّ القضية الفلسطينية تشكّل عنصراً هاماً من هذه الأزمة. هنا أيضاً فإنّ الظلم الذي تخضع له غالبية الشعب اللبناني لا يمكن إلا أن يقترن بالظلم الأكبر بكثير للشعب الفلسطيني. وهكذا فإنّ العدالة الإجتماعية اللبنانية ينبغي أن توفّر عدالة متساوية لجميع الذين يعيشون على أراضينا وخصوصاً جموع الفلسطينيين. وسيكتشف الشعبان بالتالي صراعاتٍ مشتركة ضد العدو المشترك وضد قضايا الظلم الأكثر راديكالية في العالم الثالث بأسره.

فمن الصحيح أيضاً أنّ الصهيونية، والإمبريالية والرأسمالية العالمية تشكّل جميعها قضايا أهم بكثير، وأن وضع حدٍ لها أصعب بكثير. لكن إذا حُلّت مشاكلنا الداخلية، سيقل عدد الضعفاء كما العملاء المستعدّين للتعاون مع هؤلاء الأعداء ضد أبناء وطنهم.

للخروج من الأزمة

يقودنا ذلك كلّه إلى القول، مع المجازفة بتكرار أنفسنا، إنّه بغية وضع حدٍ لهذا الوضع المأساوي الذي، على الرغم من الهدوء المؤقت السائد ما زال يعتبر متفجراً بسبب استمرارية الأسباب التي أدّت إلى تفجّره، إنّ أحد أهم السبل التي ينبغي اتباعها تتمثل في ضمان «العيش أولاً» لهذه الأغلبية التي تعاني، في زمن السلم كما في زمن الحرب الأهلية. ولعل الأكثر إلحاحاً هو تأمين العمل، والمسكن، والمأكل، والطبابة لهذه الجموع وذلك بكرامة وبشكلٍ مستقر.

اختارت «وزارة السلامة العامة» شعاراً لها، كلمة واحدة: الأمن. فقد كرر قادة سياسيون ومعلّقون كثر أنّ المطلب الوحيد الذي هم متمسكون به في هذه





المرحلة الأولى من هذه الوزارة «الممتدة»، هو الأمن. أما الباقي فسيأتي لاحقاً، بعد توسيع الوزارة.
غير أنّ الرغبة في إرساء هذا الأمن من دون السعي إلى «العيش أولاً»، والمباشرة في الوقت عينه بتأمينه، هي مجرّد وهم.

إن كان الأمر ما زال يتعلق بالاقتصاد الليبرالي الوحشي وإن كانت المعجزة اللبنانية ستظل تترجم من خلال الارتجال وقصر النظر، والصيغ التقريبية، فسنشهد بسرعة على تعرض الأمن الإيجابي للأغلبية للمخاطر الأشد خطورة وسنغرق مجددا في الأزمة. ويعني ذلك هذه المرة في كارثة لن ينهض منها لبنان مجددا.

ذلك أنّ الأمن قد يكون سلبياً وإيجابياً في آن. فالأمن السلبي تضمنه «قوى الأمن»، ووزارة قوية ورئيس وزراء ووزير داخلية حريصان ومتّحدان يحاولون تهدئة المواطنين الذين يحرصون على أن تكون «الطرقات كافة مفتوحة وآمنة»، وعلى عدم تعرض أحد للاختطاف أو إصابته برصاصة طائشة. ومن شأن هذا الأمن أن يقضي على الخوف من موت عنيف ويطمئن المواطن. أما الأمن الإيجابي فينبغي أن يؤمّن سبل العيش بطريقة أكيدة ومستقرة جداً حتى أنّ المواطنين لن يطاردهم بعد الآن هاجس الخوف من الغد، الخوف من أن يحتاجوا إلى العمل، إلى الطعام، إلى المسكن. فهو يقضي على الخوف من الموت البطيء، ومن الألم المبرح الذي لا ينتهي أبداً.

هذان النوعان من الأمن مترابطان بشكلٍ أساسي:

ـــــ في حال عدم توافر الأمن السلبيّ، تصبح الاستفادة من سبل العيش غير ممكنة، حتى وإن كانت مؤمنة ومستقرة.

ـــــ وعلى العكس، في حال انعدام الأمن الإيجابي، يهدد ذلك مباشرة الأمن السلبي أي حياة الجميع.

عندما يكرر السياسيون، والتجار، والصناعيون والصحافيون بلا كلل: «أعطونا الأمن، ونحن اللبنانيين نتكفّل بالباقي: سنعيد بناء اقتصاد البلاد وازدهارها، وسنعيد لبنان إلى زمن المعجزة اللبنانية!»، يحقّ لنا أن نسألهم:

ـــــ أيّ اقتصادٍ تقصدون؟

ـــــ عن ازدهارٍ من تتحدثون؟

ـــــ أيّ معجزة لبنانية تقصدون؟

ـــــ أيّ لبنان سينتعش؟

إن كان الأمر ما زال يتعلّق بالاقتصاد الليبرالي الوحشي، حيث سيستمر الأقوى بقمع الأضعف واستغلاله، وإن كان يعتمد على ازدهار الأقلية الرأسمالية القليلة وازدهار المجتمع البرجوازي، وإن كانت المعجزة اللبنانية ستظل تترجم من خلال الارتجال وقصر النظر، والصيغ التقريبية، والمدخلات الخفية (وغير الخاضعة للضريبة)، وإنتاج الخلايا الرمادية وحسب، وإن كان الأمر يتعلّق في نهاية المطاف بلبنان خاص ببعض المحظيين، فسنشهد بسرعة على تعرّض الأمن الإيجابي للأغلبية للمخاطر الأشد خطورة وسنغرق مجدداً في الأزمة، ويعني ذلك هذه المرة في كارثة لن ينهض منها لبنان مجدّداً.

بالتالي على لبنان أن يتغيّر! كيف؟ فيما، خلال ٣٢ عاماً من الاستقلال، وعد الحكام الذين تعاقبوا المطالبين، باسم الجموع التي باتت أكبر عدداً وأكثر وعياً، بالعدالة والتنمية. وبما أنّ الوصول إلى «الحدّ الأدنى للمعيشة» لم يتحقّق حتى الآن، يقودنا ذلك إلى أن نطرح على أنفسنا أسئلة عدّة:

ـــــ هل كان الحكام جادين في وعودهم؟

ـــــ هل حاولوا أن يفوا بوعودهم وفشلوا في ذلك؟

ـــــ أكان بإمكانهم الوفاء بهذه الوعود في إطار «النظام» الاقتصادي والطائفي المعمول به؟

ـــــ هل علينا أن نتحدّث عن عجز أشخاصٍ أم عجز «النظام»؟

لطالما رفض قادتنا والمستفيدون من هذا النظام اتباع هذه الطرق المحفوفة بالمخاطر. بالنسبة إليهم، كانت المقولة: «العيش أولاً، وعدم التفلسف أبداً!» فالتفكير متعبٌ وخطير! بيد أنّه وبشكلٍ مفاجئ، يصبح من الأخطر بكثير عدم «التفلسف»، وعدم السعي فعلياً إلى التغيير الذي من شأنه أن يتيح للأغلبية الحصول أخيراً على معيشة وعلى عيش كريم.

كان قادتنا يحمون أنفسهم من خلال هذه الكليشيهات التي كانت بمثابة أفكار:

ـــــ «يعتمد اقتصادنا كلياً على القطاع الثالث، فالبلاد خالية من الثروات الطبيعية. لن تتمكّن الاشتراكية من التكيّف مع وضع مماثل».

ـــــ «بلدنا عبارة عن فسيفساء من الطوائف: لن تحصل يوماً ثورة قائمة على الصراع بين الطبقات».

ـــــ «تصون الدول الكبرى «الصيغة» اللبنانية:

فهي تلائمها. لا داع لأن نقلق، أكثر من اللازم، حيال الشغب الذي يثيره بعض المحرضين».

— «اليسار منقسم جداً! لن ينجح أبداً في تشكيل قوة حقيقية لتبوّء السلطة أو حتى تمنّي ذلك»».

إنّها كليشيهات مُعدّة في سبيل ضمان الأمن الأناني للأقلية المحظية. ولم يتمّ القبول بالتغييرات الصغيرة المنجزة إلّا لتعزيز المكتسبات وحماية امتيازات هذه الأقليّة نفسها. كان يفترض بهذه التغييرات أن تكون بوضوح أكثر جذريّة، وأن تطاول القوانين والتركيبات التي سمحت بوجود طبقات محظيّة ومستغِلّة في يومنا هذا وأخرى محرومة ومستغَلَة.

المعيار الوحيد الصالح

وفق أيّ معيار علينا تصميم التغيير؟ إنّ المعيار الوحيد الحاسم الذي يضمن صلاحية النظام واستدامته هو ذلك الذي يصون حقوق الأغلبيّة. فالإنسان هو القيمة المطلقة التي ينبغي أن يوضع ويطبّق كل نظام، وكل منظومة وكل قانون لخدمتها. والمقصود بالإنسان، مطلق أي إنسان، الناس كلّهم.

بيد أنّه إن كانت الأقلية المحظية تستفيد دون غيرها من نظام ما أو من تغيير في إطار النظام، فلا يمكن للمعيار المعتمد إلّا أن يكون خاطئاً. لكن إن كان يصبّ في مصلحة الأغلبية، فسيشمل ذلك تلقائياً الأقلية: بذلك يكون في خدمة الناس جميعاً. لسوء الحظ، لم تكن هذه الحقائق واضحة بالنسبة إلى الحكام والطبقات المسيطرة في بلادنا. هل كانت ثلاثة أشهر من الأزمة والحرب الأهلية كافية لفتح أعينهم، وأذهانهم وقلوبهم وتحديد إرادتهم؟

لا يعرف التاريخ الحل اللبناني: «لا غالب. ولا مغلوب» ولعل أمنياتنا أن يتحقق نصر الشعب من خلال الأساليب «اللاعنفية» ذلك أن أيا من مشاكلنا الداخلية لم تحل بالعنف الذي تدفق على البلاد. بيد أنها يمكن أن تحل من خلال قوة اللاعنف التي بدأت بالتشكل.

ينبغي أن يُحكم على كل عمل تقوم به الدولة وفقاً لهذا المعيار. وهذا ينطبق أيضاً على عمل، الأحزاب والمجموعات والمجموعات الصغيرة التي تكافح في سبيل التغيير ومطالباتها وبرامجها. لا يكفي أن تأتي الشعارات على ذكر «مصلحة الشعب»، بل ينبغي أن تكون هذه المصلحة مرجوّة فعلاً وقابلة للتحقيق بشكل موضوعي. وألّا ينتهي هذا التغيير بتغيّر الأشخاص الذين يدّعون أنّهم بخدمة الجماهير، والذين سيستغلّونهم في الواقع بأسلوب جديد.

فضلاً عن ذلك، سيساعد هذا المعيار حتى في علمنة بعض المطالبات الغامضة، كتلك المتعلقة على سبيل المثال بـ«المشاركة» في تعديل الدستور اللبناني، وبإحصاء السكان، وبقانون الجنسية إلخ.

في لبنان، كما في كل مكان آخر في العالم، هناك «طاقتان» تتصارعان، بمزيد من الوضوح والضراوة:

— طاقة «بعض الأشخاص»، الممثلة برأس المال (المُركَّز في دول معيّنة وشركات معيّنة متعدّدة الجنسيّات)، والتي تقوّيها أسلحة القمع والدمار وإيديولوجيا قمعية.

— طاقة الجماهير الشعبية التي تستيقظ من كبوتها في كل مكان، وترتبط، وتتّحد، وتخرج عن صمتها، وتجعل صوتها مسموعاً، أملحدة كانت أم مؤمنة بالله، لكنها تؤمن دوماً بالإنسان، بصرف النظر عن إيمانه، وطائفته، وإلحاده.

يبدو أنّ المحظيين في كل دولة، وفي العالم، يشكّلون لبعض الوقت، الطاقة الأقوى. لكن على الرغم من المظاهر الخادعة، يبدو أن كفّة الميزان تميل أكثر فأكثر لناحية الجماهير الشعبية.

لو يستطيع هؤلاء «الأشخاص القليلون»، في بلادنا، أن يكونوا أكثر شفافية بقليل، ويضعوا أنفسهم حقيقة في خدمة الشعب من خلال تبنّي برنامج «الأمن الإيجابي»، ليس من خلال «إعلان وزاري» وحسب، بل من خلال عملهم، وذلك في القطّاعين العام والخاص. وإن شعروا بأنّهم عاجزون عن تحقيق هذا التحوّل العميق، عليهم أن يتمتّعوا بالشجاعة للتنحّي وإفساح المجال أمام أولئك الذين سيضعون أنفسهم حقيقة في خدمة الشعب، لإنجاز كافة التغييرات اللازمة مع تجنيب البلاد والشعب مآسي جديدة، لأنّه عاجلاً أم آجلاً، الكلمة الأخيرة هي للشعب، والنصر النهائي هو له وحده.

لا يعرف التاريخ الحل اللبناني: «لا غالب، ولا مغلوب!» ولعل أغلى أمنياتنا أن يتحقق نصر الشعب هذا من خلال الأساليب «اللاعنفية»! ذلك أنّ أياً من مشاكلنا الداخلية لم تُحَل بالعنف الذي تدفق على البلاد. بيد أنّ مشاكلنا كافة، وأولها تلك المرتبطة بـ«العيش أولاً»، يمكن أن تُحَل من خلال قوة اللاعنف التي بدأت بالتشكّل. لكن يتعلّق الأمر هنا بمشكلة مختلفة تماماً.





حسين آيت أحمد

حقوق الانسان ناقصة دون حقوقه الاقتصادية والاجتماعية

حسين آيت أحمد

أحد القادة التاريخيين للثورة الجزائرية (٢٦ آب / أغسطس ١٩٢٦ - ٢٣ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٥) من مؤلفاته كتاب عن حقوق الانسان في أفريقيا ومذكراته بعنوان «روح الاستقلال. مذكرات مكافح» (٢٠٠٩).

في الأول من كانون الثاني/ يناير المنصرم، شيّع عشرات الآلاف من الجزائريات والجزائريين حسين آيت أحمد، أحد القادة التاريخيين للثورة الجزائرية، إلى مثواه الأخير في قريته بمنطقة القبائل.

وكان آيت أحمد قد توفي في سويسرا في ٢٣ كانون الاول/ ديسمبر ٢٠١٥ عن ٨٩ عاماً.

أعلنت السلطات الجزائرية الحداد الرسمي عليه لثمانية أيام، وفي تلك المناسبة أصدر الرئيس عبد العزيز بوتفليقة قراراً باعتماد الأمازيغية لغة رسمية في الجزائر إلى جانب العربية وهو المطلب الذي ناضل آيت أحمد طويلاً من اجل تحقيقه.

بدأ حسين آيت أحمد حياته النضالية قائداً لـ«المنظمة الخاصة» التي بادرت إلى ممارسة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي منذ العام ١٩٤٧.

بعد انطلاقة الثورة العام ١٩٥٤، تولى مسؤولية مكتب جبهة التحرير الوطني الجزائرية في القاهرة ومثّل الثورة في مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز ودافع عن القضية الجزائرية في الأمم المتحدة. وكان أحد قادة الثورة الخمسة الذين اختطفت فرنسا طائرتهم العام ١٩٥٦ وأودعوا السجون الفرنسية إلى حين انتزاع الجزائر لاستقلالها العام ١٩٦٢.

في العهد الاستقلالي، انتُخب آيت أحمد عضواً في المجلس التأسيسي للجزائر المستقلّة لكنه عارض فرض حكم الحزب الأوحد وانفراد أحمد بن بللا بالسلطة، فأسس أول حزب معارض «جبهة القوى الاشتراكية» العام ١٩٦٣.

سجنه بن بللا واستصدر بحقه حكماً بالإعدام. لكنّه هرب من السجن بعد سقوط بن بللا وسلك طريق المنفى العام ١٩٦٦.

عاد آيت أحمد إلى الجزائر العام ١٩٨٩ مع عهد الانفتاح وحظي باستقبال شعبي عارم. شارك وحزبه في العملية الانتخابية وعارض وقفها بعد مرحلتها الاولى التي فاز فيها الإسلاميون بأكثرية الأصوات.

رفض عرضاً من الطغمة العسكرية. الأمنية التي سيطرت على السلطة لانتخابه رئيساً للجمهورية، مصرّاً على تنحّي العسكر والأمنيين عن التدخل في السياسة والعودة إلى الدولة المدنية والمسار الديمقراطي. وما لبث أن غادر البلاد مجدداً بعد اغتيال الرئيس محمد بوضياف العام ١٩٩٢.

أدان حسين آيت أحمد «الحرب الأهلية» التي أطبقت على الجزائر، محمّلاً المسؤولية للتسلّط الأمني العسكري ولعنف الإسلاميين على حد سواء، داعياً إلى حلّ سياسي يرسّخ «السلم الأهلي» وإلى انتخاب مجلس تأسيسي يشرّع لجمهورية ثانية.

ننشر في ما يأتي مقابلة أجرتها مجلة «زوايا» الفصلية الصادرة في باريس مع حسين آيت أحمد في عددها الرابع الصادر في آذار/مارس ١٩٩٠. وهي تعطي فكرة عن هذه الشخصية الآسرة لسياسي يتحدث بشغف رؤيوي يجمع الوطنية إلى تطلّب عنيد للديمقراطية، ويعبّر عن عشقه للغة العربية في الوقت الذي يطرح فيه المسألة الامازيغية كمكوّن من مكوّنات النضال الديمقراطي في إطار وحدة الوطن الجزائري.

إلى أين الجزائر؟ سؤال يكثر تداوله هذه الآونة وتكثر الأجوبة عنه. أحزاب المعارضة تقاطع الانتخابات البلدية. وأوساط في جبهة التحرير تبحث عودة أحمد بن بللا في الاجتماع الأخير للّجنة المركزية.

حسين آيت أحمد من القادة التاريخيين لحرب التحرير وللجبهة. عاد إلى بلاده بعد إجازة حزبه «جبهة القوى الاشتراكية». في لقائه مع «زوايا» يمزج ملاحظات عائد من المنفى بعد ٢٣ سنة مع تركيز متماسك على أولوية الديمقراطية.

◆ تطرح بإلحاح الآن مسألة شرعية السلطة في الجزائر. قامت السلطة بُعيد الاستقلال على دور جبهة التحرير الوطني في حرب التحرير. أنت من القادة التاريخيين للجبهة ولحرب التحرير. إلى أية شرعية للسلطة تدعو؟ إلى تجديد الشرعية الأصلية (الثورية) لحرب التحرير أم إلى بناء شرعية جديدة؟ وما هي؟

■ لنبدأ من البداية. لم تسلّم الجزائر سيادتها للنظام الكولونيالي، مثلما كانت الحالة بالنسبة إلى تونس. ارتكز النظام الاستعماري على مرتكزين: استسلام الحاكم العثماني يوم ٥ تموز/ يوليو ١٨٣٠، وهو استسلام عسكري محض. والمرتكز الثاني هو تسليم الأمير عبد القادر، الذي لم يكن له أية صفة قانونية بل كان هو أيضاً تسليماً عسكرياً.

نتج من ذلك أنّ السيادة التي كانت مجسّدة في الدولة الجزائرية انتقلت إلى الشعب الجزائري الذي ظل يقاوم خلال عقود من الزمن حتى سنة ١٨٨٠. وما يميز الفترة الكولونيالية هو أن الشعب الجزائري عاد فصار موئل السيادة. وعندما سنحت الفرصة، لم تتكون الحركة الوطنية الجزائرية حول الدولة، كما كان الحال في المغرب وتونس، بل حول الشعب تكونت، أي حول أفكار حقوق الإنسان والافكار الديمقراطية، مما أعطى قاعدة أصلب لفكرة السيادة الوطنية، سيادة الشعب الجزائري.

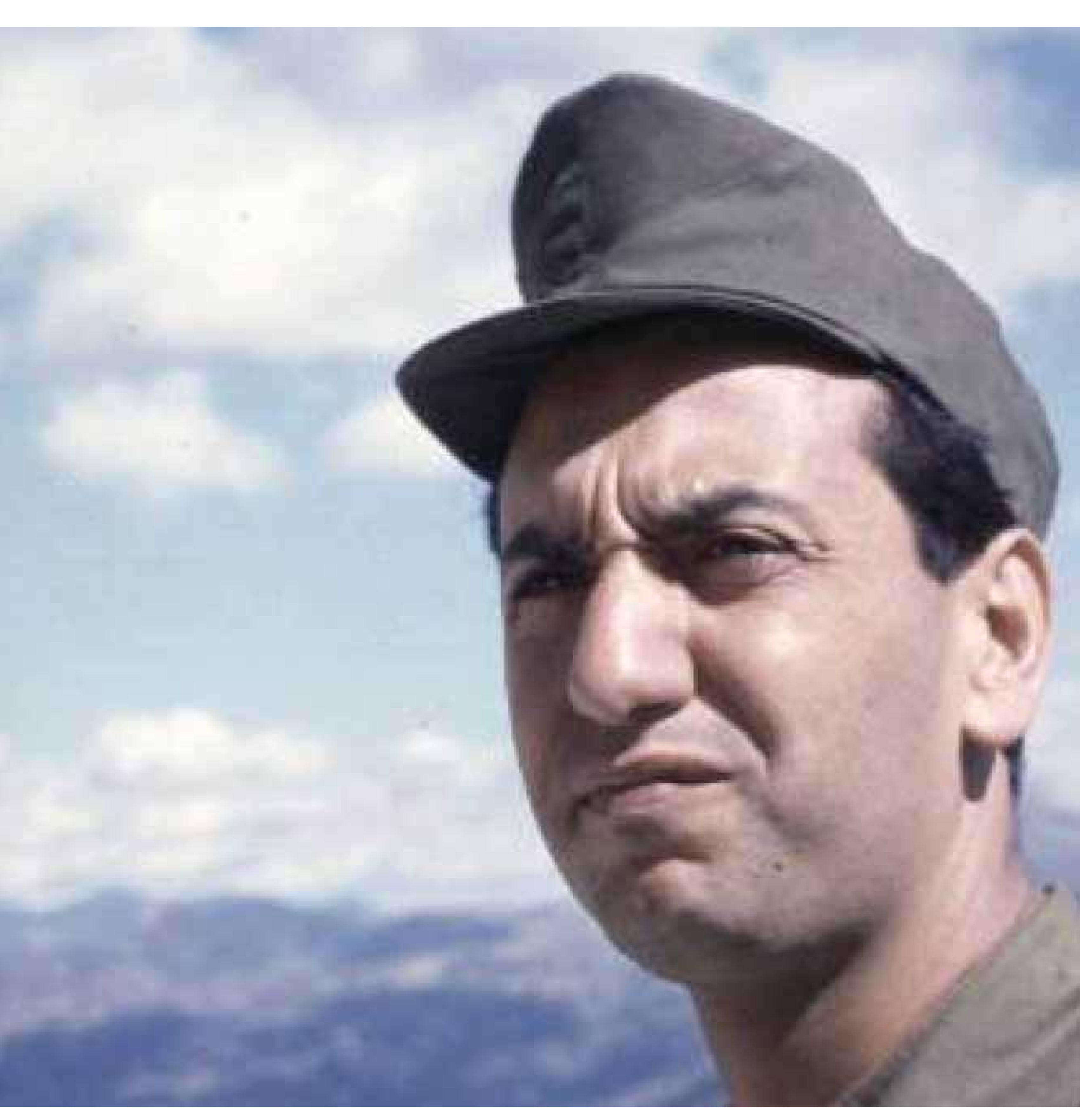
خلال العقد الذي سبق انتفاضة ١٩٥٤، كانت الحركة الوطنية ترفض كل حقوق للجزائريين تتصدّق بها السلطات الاستعمارية، وتعلن أن الكلمة يجب أن تكون للشعب، وتطالب بانعقاد الجمعية التأسيسية. من هنا كان الاستقلال بمثابة العودة لتكريس تلك السادة الوطنية الشعبية تكريساً دستورياً.

عند الاستقلال، أعلنت جبهة التحرير نفسها حزباً وحيداً حاكماً وفرضت انتخاب الجمعية التأسيسية الوحيدة بلائحة انتخابية وحيدة. بل إنها لم تحترم تلك الجمعية التأسيسية، إذ وضعت الدستور بمعزل عن تلك الجمعية وفرضته فرضاً، مما أثار أزمة. ولقد أقدمت على تأسيس «جبهة القوى الاشتراكية» في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣ ضد ما سمّيته «الانقلاب الدستوري». وأودّ التشديد على أنه لم يُتخذ أي قرار بتأسيس حزب أوحد، أي إنه لم يكن ثمة من شرعة تشرّع لتأسيس الحزب الأوحد. طبعاً، جبهة التحرير الجزائرية هي التي خاضت الحرب. ومثّلت الكثير من التنظيمات السياسية التي قاتلت في داخلها لا بصفتها تنظيمات سياسية ــ فقد طلب منها أن تحلّ نفسها وأن ينضمّ مناضلوها إلى صفوف الجبهة بشكل إفرادي. لكنّني أقول الآن إن جبهة التحرير هي نتاج الحرب أكثر مما هي سببها. ولو تعمّق علماء الاجتماع والسياسة في دراسة ظاهرة الثورة الجزائرية، لاكتشفوا أنّ هذه لا يمكن اختزالها، في المطاف الأخير، بجبهة التحرير ولا بجيش التحرير. إنما كانت ظاهرة استثنائية من التعبئة الذاتية للأفراد والجماهير. من هنا إنّ جبهة التحرير لم تكن تملك أية شرعية في تنصيب نفسها حزباً حاكماً أوحد. وقرارها الانفراد في الحكم هو قرار اتخذته شلّة أو تحالف من الشلل.

شرعية شعبية في مؤسسات دستورية

بصدد الشرعية، لن تكون هناك شرعية إلّا عندما تتم العودة إلى الشرعية الشعبية. فهذا الوجه التاريخي الذي أشرت إليه يملي لضمان استمرارية الأمة الجزائرية أن يقوم دستور حقيقي تضعه جمعية وطنية تأسيسية على قاعدة التعددية وبعد مرحلة انتقالية تؤمن لكافة القوى السياسية فرصها المتكافئة. من هنا إن «جبهة القوى الاشتراكية» تناضل من أجل أن تعود الكلمة فعلاً إلى الجزائريات والجزائريين بما هم مواطنون، ومن أجل حقهم في انتخاب ممثليهم إلى تلك الجمعية التأسيسية. ولن تكون ثمّة شرعية فعلية للحكم إلّا عندما يوضع دستور وتقوم مؤسسات دستورية. الآن توجد حكومة تحاول إجراء إصلاحات بعد أحداث تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٨ الدامية. حتى ذلك الحين كان الجمود كاملاً وكان الحزب الأوحد قد وهب نفسه الشرعية بنفسه. وأقول إنه حتى بعد الأحداث الدامية، كان المؤتمر السادس لجبهة التحرير مؤتمر انغلاق يرفض أي تطور أو إصلاح ليبرالي، أو بالأحرى تعدّدي، رفضاً قاطعاً.

غير أنّ الأمور سارت باتجاه مخالف. فالأنظمة البوليسية تملك حاسة شمّ قوية للتعرف إلى المزاج الشعبي





وإلى التطلعات الشعبية. وقد أدرك النظام الجزائري أنّ قطيعة وقعت بين دولته، المفتقدة لأية شرعية، وبين الناس. فأدرك أنه لا مخرج له إلّا بالانفتاح. وقد تم هذا الانفتاح بواسطة قوانين دستورية عُرضت على الاستفتاء الشعبي. من هنا نعتبر أنه توجد الآن شرعية، ونلعب لعبة تلك الشرعية. هي شرعية هشّة، مجزّأة، وناقصة، نسعى إلى توسيعها نحو عقد جمعية وطنية تأسيسية. ولكن لا يمكن القول إنه توجد شرعية دستورية في الجزائر. بل يمكن القول إن كل شيء سار باتجاه وكأنه أريد تنصيب الجزائر كلها ضد دستوريتها.

◆ إلى أيّ مدى انصاع النظام للضغط الشعبي، في إجراءات الانفتاح هذه. وإلى أي مدى شكلت تلك الإجراءات تنازلاً للضغوط الخارجية، ضغوط الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي، التي تضع شروطاً باتت عالمية حول التعددية الحزبية ـ إنهاء حكم الحزب الأوحد وخوصصة القطاع العام وحدّاً أدنى من الالتزام بحقوق الإنسان، حسب الصيغة الاميركية؟

■ أكيد أن الجزائر تعيش في محيط دولي. وهي قد عاشت علاقاتها بالاتحاد السوفياتي على أمل أن تستمدّ من تلك العلاقات شرعية ثورية لنظامها. بمثل ما عاشت طوال تلك الفترة علاقات مع الولايات المتحدة سمحت بنشوء رأسمالية دولة وبرجوازية جديدة. والثابت هو الابتعاد عن أوروبا وآثارها الديمقراطية. والغرض تأمين غلبة الأجهزة العسكرية والأمنية وإشراك قسم من السكان في المنافع من خلال إنشاء «السونطراق».

غير أن الذي يجب أن نتذكره هو أن جبهة التحرير الجزائرية قد ناضلت من أجل حقوق الإنسان منذ أن وجدت. بل إن هذه الحقوق تشكل جزءاً من الهوية الوطنية الجزائرية، لا الحقوق السياسية والمدنية وحدها، بل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية كذلك. فمنذ مطلع النضال الاستقلالي الحديث، وجهت الجزائر خلال عامي ١٩٤٨ – ١٩٤٩ عدّة مذكّرات إلى الأمم المتحدة تطالب فيها بحقوق الإنسان وتدين الهيمنة الاستعمارية والاضطهاد الثقافي. توجد إذن صلة بين المطالبة الاستقلالية من جهة وبين احترام الديمقراطية واحترام الكرامة الإنسانية من جهة أخرى.

◆ تقود حزباً يسمى «جبهة القوى الاشتراكية»، أية علاقة تقيم بين الاشتراكية والديمقراطية؟

■ إن الحرية السياسية لا تنفصل عن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. ومن أجل إحقاق حقوق الإنسان، يجب أن يستمر الشعب الجزائري في ممارسة سيادته مثلما مارسها خلال الحرب. وأعتقد أن حرمانه تلك الحقوق هو الذي سمح بقيام دولة استبدادية وقيام طبقة اجتماعية تحتقر الشعب احتقاراً شبه كولونيالي هي تلك البرجوازية المتوحشة التي تصمّ أذنيها وتشيح بنظرها عن بؤس الأكثرية الساحقة.

الديمقراطية السياسية قاعدة انطلاق

فيما يتعلق بمقاربتنا للديمقراطية، نعتبر أن الديمقراطية السياسية ضرورية ولكنها ليست كافية. إنها قاعدة الانطلاق لنيل سائر الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وتجسيدها. فبقدر ما يسمح للشعب بأن يستعيد سيادته وللمواطنين بأن يسترجعوا حرياتهم ومواطنيتهم، يستطيعون بالتالي فرض تطور يسير بالاتجاه الذي يرغبون فيه. ليس الخيار في رأينا بين ليبرالية متوحشة وبين اشتراكية متوحشة. إننا نرفضهما معاً. منذ ١٩٦٣، تضمّن الإعلان التأسيسي لـ «جبهة القوى الاشتراكية» رفض دكتاتورية البروليتاريا وما سمّيناه آنذاك «البرجوازية المجردة» في آن معاً. يجب تمكين الشعب الجزائري من أن يسيطر على مصائره السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

ثمّ إننا نرى أن الليبرالية المتوّحشة ليست قدراً مقدّراً. واضح ان بلدنا بحاجة إلى اقتصاد سوق. والعالم كله يتراجع عن المقاربات البيرقراطية في بناء الاقتصاد والمجتمع. وأعتقد أنه إذا كان شعار الاشتراكية لا يزال له صدى في الجزائر، رغم انعدام الثقة بكلمة اشتراكية لارتباطها بالكوارث التي عانى منها الناس في حياتهم اليومية، أقول إذا كان لا يزال ثمّة سمعة للاشتراكية في الجزائر، فلأن الناس تتذكّر أننا ــ في «جبهة القوى الاشتراكية» ــ قد ناضلنا من أجل الديمقراطية ومن أجل حرية الصحافة والتعددية. وأعتقد أنها فرصة تتيح لنا أن نظل أوفياء لمنظومة قيم معيّنة هي قيم الاشتراكية.

◆ ما حاجة النظام الجزائري إلى الديمقراطية الآن؟

■ سأحاول الإجابة عن سؤالك بالقول إنني الآن صرت أفهم أكثر لماذا قتلوا صديقي المحامي مسيلي في باريس. كانت تصفيته الجسدية تندرج في استراتيجية تسمح للانفتاح الـ «الديمقراطي» بأن يكون انفتاحاً مسيطراً عليه، انفتاحاً شكلياً. لأنهم شكّلوا لنا فيما بعد حركة قبائلية غرضها إضعاف «جبهة القوى الاشتراكية» في المناطق القبائلية ومنع انغراسها فيها. طالما نشرت

الأكاذيب عن تلك المنطقة، والحقيقة أنها تلعب الآن الدور الوطني ذاته الذي لعبته خلال حرب التحرير، ولكن هذه المرة على مستوى الديمقراطية. فقد خلقوا «التجمع الثقافي الديمقراطي» RCD ثمّ أرادوا خلق تنظيم آخر تسيّره أجهزة أمنية معروفة، وهذا كله لقطع الطريق على قيام بديل شعبيّ يعبّر عن التطلعات العميقة للناس وعن مصالحهم. هكذا استبقوا مثل هذا التطوّر. قالوا سوف نشيع الديمقراطية لكنّ الانفتاح سوف يولّد حركة شعبية، وكانت الشركة تملك ما يكفي من المعلومات لتدرك أن لمثل تلك الحركة كل الحظوظ لتصير حركة ذات تمثيل واسع النطاق.

من أجل نقابات حرّة

يدور الآن حوار حول عقْد ميثاق وطني بين الأحزاب السياسية، وهي فكرة يكثر الحديث عنها في أوساط الأحزاب الجديدة كما في أوساط السلطة السياسية. خلال الفترة الأخيرة استقبلنا العديد من ممثلي الأحزاب السياسية، منها وفد من «حزب الطليعة الاشتراكية» الذي كان يتحدث عن عقد ميثاق وطني. وقد أجبنا بأننا مستهدفون من قبل السلطة التي تحاول تصفيتنا وتخريب حزبنا. لسنا نملك مقرات لحزبنا ونواجه مصاعب جمة. ونخشى ألّا تعود الديمقراطية السياسية مجزية إذا كانت الجماهير المهمّشة وأشباه البروليتاريين والمليونان من العاطلين من العمل والنساء والشرائح الاجتماعية المهمّشة، لا تعتبر تلك الديمقراطية وسيلة لمنحها الثقة والأمل.

ندعـــــــــــو إلى حل كافة المؤسسات النقابية. وليقـــــــــــرر العمال أنفسهم إذا كانوا يريدون اتحادا نقابيا ديمقراطيا واحدا أو عدة اتحادات نقابيـــــــــــة.

المهم الآن أن نساعد العمال الجزائريين على تأسيس نقابات حرة حقيقية، علماً أن «حزب الطليعة» ممثّل في المجلس الوطني للاتحاد العام للعمال الجزائريين، وأنّ القطاع النقابي لجبهة التحرير يسعى إلى دعوة مؤتمر يجدّد الثقة لاتحاد نقابي ممتثل لأوامره. فيما القاعدة العمالية تخترقها شتى التيارات الديمقراطية. نحن ندعو إلى حلّ كافة المؤسسات النقابية. وليقرر العمال أنفسهم إذا كانوا يريدون اتحاداً نقابياً ديمقراطياً واحداً أو عدة اتحادات نقابية. لكن لا نريد أن يكون لحزبنا نقابة خاصة به.

المهمّ أن نقول للناس نظّموا أنفسكم على نحو ديمقراطي. أما دورنا نحن في هذه المرحلة من المسار الديمقراطي فهو أن نساعد العمال والفلاحين والشبيبة والنساء على أن تكون لهم بنى على الصعيد الوطني وأن نساعد كافة الشرائح الاجتماعية المهمّشة على أن تنتظم في جمعيات، لأن حركة الجمعيات تبدو لنا الآن أهمّ حتى من الأحزاب السياسية.

◆ أفهم من حديثك أنك تدعو إلى ديمقراطية «من تحت»، رافضاً الديمقراطية التي يجري التصدق بها «من فوق» والتي تتجاهل الإرادة الشعبية.

■ في أول اجتماع في رأس الحرفة تحدثت عن الحرية السلبية. قد يبدو أنّ ثمّة مفارقة في الحديث عن حرية وسلبية. لكن واقع الحال هو الحرية الممنوحة كهبة من فوق. بعد سنتين من المسار الديمقراطي، لا يزال الإعلام كما هو عرضة للتلاعب والكيفية. مثلاً، جرى تصوير لقائي مع الرئيس الشاذلي بن جديد على أنه تم بناء على طلبي. ليس عندي من اعتراض على أن أطلب مقابلة الرئيس. لكن الحقيقة أنه هو الذي طلب مقابلتي. فكان عليّ أن أضع الأمور في نصابها الصحيح في مهرجان وهران.

ثمّة صحافيون يعتقدون أنهم يكسبون رضى الرئيس بتقديم الأمور على هذا النحو، أي بنفي أن يكون الرئيس هو الذي أخذ المبادرة في دعوتي للقائه، بينما من واجب الرئيس في نظام ديمقراطي أن يلعب دور الحكم.

استقلال القضاء والإعلام

بادرت في اجتماع وهران إلى إدانة الموقف المشين للتلفزيون الذي أعطى ١٢ دقيقة للنائب العام للإدلاء بمطالعة حول جريمة بليدا. أنا أدنت جريمة الاغتيال في بليدا وأدنت العنف وقلت إنه لا يجوز أن نتهاون في مثل هذه الأمور. لكنّ المدّعي العام لجأ إلى التهديد. في حين أن على القضاء أن يكون حيادياً وهادئاً ومستقلاً عن السياسة. وكنت أودّ لو أن التلفزة خصصت ولو صورة واحدة لحوادث جامعة وهران عندما خرقت الشرطة الحرم الجامعي وأخذت تقمع الطلاب داخل الجامعة ذاتها. هناك إضرابات مهمة في الحجّار وفي أماكن أخرى، فضلاً عن النضالات الاجتماعية. وهذه كلها لا تشير إليها التلفزة.

إن التلفزيون قلعة من قلاع النظام القديم. أقولها



على الماشي. عندما عدت، خصّصوا لخبر عودتي دقيقة ونصف الدقيقة. وأية دقيقة ونصف؟ صوّروني وأنا أطالب بالصحافيين الأجانب! مع أنني كنت قد أدليت بمداخلة طويلة استغرقت ساعة ونصف الساعة لم يأخذوا منها ولو لقطة واحدة. عندما نزلت من الطائرة، فصلوني عن الصحافيين الأجانب. قد يكون هذا الأمر طبيعياً إذ أرادوا أن أخصص حديثي للصحافة الجزائرية. وبعدما انتهيت، كان الصحافيون الأجانب، المعتمدون في الجزائر والآتون منهم معي في الطائرة يريدون الاجتماع بي، ويمررون لي الرسائل طالبين السماح لهم بالدخول إلى القاعة. وبعد ساعتين من لقائي مع الصحافة المحلية، سألت: أين هم الصحافيون الاجانب؟ فكانت تلك هي اللقطة التي اختاروا عرضها على الناس. وفي الليلة ذاتها، خصصوا أكثر من ربع ساعة لمؤتمر «تجمّع الثقافة والديمقراطية».

نحن مسلمون. لكننا هنا في صدد قضايا مدنية لا دخل للدين فيها. غير أننا لن ندخل المعركة السياسية على أساس التحليل والتحريم.

هذا هو منطق الصدقات والهبات «من فوق»، ولمّا كان الإطار هو ما هو عليه، فيجب أن نناضل لنملأه بمضمون آخر، يجب أن نعبّىء الجزائريات والجزائريين من أجل أن ينتزعوا حقوقهم بأنفسهم وأن يحوّلوا هذا المسار الديمقراطي إلى مسار حقيقي.

دور المسلمين إغناء الديمقراطية

◆ كثر الحديث خلال الفترة الأخيرة عن تطوّر على الطريقة السودانية في الجزائر أي عن سيناريو انقلاب عسكري يعتمد على الحركات الإسلامية. إلى أي مدى تعتقد بإمكان هذا الاحتمال؟

■ ليكن واضحاً كل الوضوح: نحن مسلمون. لكنّنا هنا في صدد قضايا مدنية لا دخل للدين فيها. غير أنّنا لن ندخل المعركة السياسية على أساس التحليل والتحريم. نرفض في الشؤون المدنية أن يقال هذا محرّم في الدين وهذا محلّل. وليكن واضحاً. نحن مسلمون ونحن ديمقراطيون. نعتقد أنّ دور المسلمين هو أن يُغنوا الديمقراطية لا أن ينهبوا الشعب. فإرادة الشعب من إرادة الله.

عن الظاهرة الإسلامية أودّ أن أقول أوّلاً إن الإسلام شكّل خلال مقاومة الاستعمار الهوية التي بها قاوم الشعب، ولم يجد من ملجأ له وملاذ غير المساجد والزوايا.

عدتُ إلى وطني فوجدت وجه الحياة السياسية فيه وقد انقلب رأساً على عقب. لم تعد الهيمنة فيها لجبهة التحرير التي أدارت البلد خلال ربع قرن بل هي الآن للإسلاميين. إن احتكار جبهة التحرير للسلطة قد أضحى أسطورة فالسيطرة الفعلية الآخذة في التكوّن أمام أعيننا هي سيطرة الإسلاميين. في وجه ذلك، يجب بثّ الأمل في الناس ودفعهم إلى النضال. بديهي أن الأمر ليس سهلاً. لا نملك السلطة ولا الوسائل اللازمة لتنظيم حركتنا بسرعة، ولا نحن نمتلك وسائل الإعلام والتنظيم التي تمكّننا من أن نلحق بالسرعة التي تتدهور فيها الأوضاع التي نحن عليها شهود.

ما هي السيناريوهات الممكنة؟ أنا متفائل كمناضل، بكل شيء وبحماسة مهما تكن التوقعات عن النتائج، وإلّا فلا نقوم بها على الإطلاق. تقوم فكرتنا على تنظيم المناطق الحساسة في حياة البلد الاقتصادية والسياسية والثقافية، ودفع المثقفين إلى اتخاذ المواقف والخروج من عزلتهم بحيث إنّ المدّ الجاري لا تصادره شعبوية معيّنة بل يفضي إلى بناء حركة ديمقراطية منظّمة. رغبتي وحلمي معاً أن أبني حزباً ديمقراطياً حقيقياً.

◆ ألستَ تخشى من انشقاق أهليّ بين قطاعين من الشعب الجزائري: أي بين الشرائح الحديثة وبين شرائح شعبية واسعة وتقليدية مهمّشة لم تطاولها الحداثة وتسيطر عليها الأصولية؟

■ أعتقد أنّ هذا هو الخطر الأفدح. في تيزي أوزو، حذّرت من العواقب الوخيمة المترتبة على مثل هذا الشقاق. الفئات الأشدّ بؤساً من السكان في انتظار ظهور المهدي، وهناك احتمال أن تلتقي هذه القوى الاجتماعية المخلعة اجتماعياً ونفسياً مع جناح في الحكم يريد العودة إلى الخلف.

◆ غالباً ما نتناسى حجم الانشقاق بين المدينة والريف في بلادنا. ما حجم تواجد الأصوليين في الأرياف؟

■ الأصولية موجودة في الأرياف المتمدّنة. هناك ترييف للمدن الجزائرية، وهو أكبر الكوارث. التسيّب يضرب أطنابه. لهذا لم أتعرف إلى بلدي عندما عدتُ إليه. هناك صعلكة للوعي وليس مجرّد صعلكة للمجتمع. في حين أن الشبيبة ديناميّة، مع أنّها غير مسيّسة مع الأسف، وهي قادرة على إطلاق عملية تجديد ذهني وثقافي واسعة في بلادنا.

لكن قوى القمع موجودة. صحيح أنها لا تمارس القمع، لكن الناس تدري أنّها موجودة وتقول: إن هذه العملية الديمقراطية ستكون هشّة وغداً قد يعود القمع، فلماذا نظهر إلى العلن ونعبّر عن آرائنا؟ دُعيت لإلقاء محاضرة في قسنطينة وقد ذهلت لأنه يوجد فيها بين ١٥ ألفاً و ٢٠ ألفاً من الجامعيين. قلت لهم: مناضلو حرب التحرير اجترحوا المعجزات، وأنتم يجب أن تشاركوا في النضال الشعبي بأن تجعلوا من الديمقراطية قضيتكم الشخصية. ثمّة إمكانات هائلة لدى شعبنا قابلة لأن تنفجر ولكن بشرط أن ينزاح كابوس الخوف عن الناس.

لا معنى للديمقراطية بلا مشاركة المرأة

◆ تحتدم مسألة المرأة في الجزائر فيما يشنّ الأصوليون هجوماً شرساً عليها، على دورها في حرب التحرير، على عملها، وحتى على خروجها من البيت. وثمّة جمهرة من النساء يقاومن للحفاظ على الحقوق، ويرفضن أن تكنّ ضحايا مستكينات لتلك الحملة وأن يعاد تهميش نصف المجتمع.

■ الذي يميّز الجزائر هو الدور الحيوي الذي لعبته النساء في حرب التحرير. استقالة الرجال دفعت النساء إلى الاضطلاع بمسؤولياتهن. سوف أستشهد بنادرة: «الزينة» بطلة من بطلات حرب التحرير. أمام الوضعية الجديدة للمرأة في بلادنا، تجدها تقول للرجل: «أيام الثورة، كنت تأتي إليّ لتطلب الإذن لأسمح لك بالانتقال من قرية إلى أخرى. والآن عليّ أن آخذ منك الإذن لأخرج من البيت؟». لعبت النساء دوراً حاسماً في الحرب ومع ذلك لم تكن امرأة واحدة لتمثلهن لا في الحكومة المؤقتة ولا في قيادة جبهة التحرير. إن أهمية دورهن في الميدان لم تكن منعكسة على مستوى القيادة. وعندما اعتمد الفرنسيون سياسة المناطق الممنوعة، وأجليت قوى بكاملها في الأرياف. تكفلت النساء بفلاحة الأرض. أهمية المساهمة النسائية كما ترون كانت عظيمة. غير أن تقهقر السيادة الشعبية عبّر عن نفسه أيضاً بتغييب المرأة عن الميدان السياسي.

لا معنى للحديث عن الديمقراطية إذا كانت أكثرية الشعب ليست مشاركة فيها. ولا معنى لحديث عن التنمية إذا جرى شلّ النساء عن المشاركة فيها، بل لا نستطيع الحديث عن ثقافة إذا لم تساهم النساء في التجديد الثقافي وإذا لم تحطّم الإطار العائلي الظلامي.

◆ كيف تحدّد القضية الأمازيغية؟ كيف تفهمها؟ ما الذي تدعو إليه حلاً لها؟

■ القضية ثقافية. في الجزائر لا يوجد مناطقية قبائلية ولا يوجد مشكلة قبائلية. هناك مسألة ثقافية أمازيغية تخصّ سكان المنطقة القبائلية.

اللغة الأمازيغية من أقدم لغات العالم. والثقافة الأمازيغية هي الوحيدة المتبقية من الثقافات المتوسطية القديمة. حتى اللغة الفينيقية كان لها تأثير في الأمازيغية. اندثرت شبيهاتها. اندثرت اللغات الفرنسية واليونانية والإيطالية القديمة لصالح اللغة اللاتينية. إنها من أقدم اللغات المتوسطية ذات الأبجدية. هي من أقدم الأبجديات (التيفانا).

والحقيقة أنه توجد استمرارية للغة وثقافة بتعبير عربي الآن. وكانت ذات تعبير روماني أيام الرومان وتعبير بيزنطي أيام حكم بيزنطية. هناك استمرارية والأمازيغية تشكل جزءاً من الشخصية الوطنية الجزائرية. لست أفهم لماذا تستثني الجزائر أحد مكوّنات هويتها. من المفارقات التي صدمت الشباب الجزائري أيام بومدين رعايته لحركة لتحرير جزر الكناري بحجة أنّ هذه تنطق بلهجة أمازيغية، فيما هو في بلاده كان يضطهد المطالبين باستخدام تلك اللغة من أبناء شعبه ويرفض الاعتراف بمثل هذه الحقوق لشعبه ذاته.

قلت دائماً وأكرر: نحن مع العروبة بصفتها الهوية الثقافية للشعب، نحن مع العروبة الحديثة التحرّرية، العربية هي لغتنا، اللغة الرسمية، اللغة القومية للجزائر. نحن أبناء ثقافة عربية. لقد أحجمَ الناطقون بالأمازيغية عن المطالبة بحقوقهم اللغوية والثقافية خلال حرب التحرير حتى لا يتركوا أيّ مجال للاستعمار لأن يستغلّ ذلك. أمّا وقد نلنا الاستقلال، فإنّ هؤلاء الناس يطالبون باحترام لغتهم. ليس ثمّة قومية بربرية، ليس ثمّة قومية أمازيغية أو قبائلية، ونحن ضد هذا اللون من القوميّة الاستئثارية. نرى أنّ الاستقلال ليس انكفاءً على الذات بل هو استجماع للقوى، وهو أيضاً انفتاح.

الحركة السياسية الوحيدة التي تطرح مشكلة الاندماج الوطني بالمعنى الثقافي هي «جبهة القوى الاشتراكية»، بالأخذ بالاعتبار كافة مكونات الثقافية الوطنية. يجب أن يكون للغة القبائلية حظّها في التطور. لهذا يجب إعلانها لغةً وطنيةً ومنح السكان وسائل تعلم لغتهم واستخدامها في الإدارة. الذي صدم السكان الذين لا يجيدون تكلم العربية أنهم، في زمن الاستقلال، أجبروا على تكلم العربية، وهم لا يعرفونها أصلاً، كانوا يعلّقون على ذلك بالقول: أيام الاستعمار كانوا على الأقل يوفّرون لنا المترجمين في إدارات الدولة والمحاكم. وها إن الكثير منهم غادر الجزائر وهاجر إلى أوروبا. أعتقد أن الاندماج هو نقيض النبذ. يجب الاعتراف

بالناس كما هم، إنّ الكرامة لا تتجزأ. الكرامة هي اللغة وهي الخبز وهي الحقوق الاجتماعية، وهي الحقوق السياسية.

لا نريد أن تتّم الأمزغة كما تمّ التعريب أي بالمناقصة والاعتباط ومن دون إعداد. نريد جهداً طويل المدى. يجب أن يتعلّم الجزائريون والجزائريات العربية والأمازيغية والفرنسية. رداً على الحجة التي تقول بأن هذا كثير، نقول إنّ الشباب يتعلمون أصلاً أربع أو خمس لغات. على مستوى السلطة، يوجد نظرة شبه زراعية إلى قضية الثقافة، ينظرون إلى الدماغ على أنه وعاء فارغ وأن كلّ شيء يعتمد على ما تضعه فيه. إذا وضعت اللغة الفرنسية فهذا زرع أجنبي، زرْع فرنسي، يجب أن نشرح لهم أنّ الدماغ عضلة، كلّما استخدمتها ازداد نشاطها، وكلما تكاثرت اللغات ازدادت طاقتها على الاستيعاب، وتحسّن أداؤها وازدادت فرصة تطوّر المقولات الذهنية الأكثر تقدّماً.

جـــــــــــــــرى تزوير المشكلات الثقافية والمشكلات اللغويـــــــــــــة بزجها في النزاعات على السلطة. في النزاعات السياسيـــــــــــة. جرى تزوير المواضيع الثقافية بتسييسها.

أصرّ على قول هذا: أعتقد أننا نقدّم عنصر توازن إلى الجزائر لأننا سيّسنا المطالب الثقافية والنضال من أجل الحقوق الأمازيغية.

◆ ثمّة انبعاث للثقافة القبائلية والهوية القبائلية مرتبط بطريقةٍ ما بتهميش الشباب، ولكنه أيضاً ردّ فعل ضد التعريب الإلزامي. هل التعريب ميّز الشرائح العربية في إدارة مثلاً، ليس من قضية ثقافية بدون أساس اجتماعي، لا توجد مطالبة بتأكيد هوية ولا مطالبة ثقافية من دون مدلول اجتماعي من هذا النوع أو ذاك. أن يكون النظام قد مارس التمييز ضد أكثرية الشعب هذا صحيح. لكن هل وقع تمييز خاص ضد الأطر القبائلية، ذات التعليم الفرنسي غالباً؟

■ هل كان ثمّة امتيازات قبائلية في الإدارة الفرنسية؟ هل ميّز التعريب ضد القبائليين بعد الاستقلال وشكّل واسطة ارتقاء اجتماعي للبعض على حساب الآخرين؟ أقول إن سياسات جبهة التحرير الجزائرية، بطريقتها في إبراز النزاعات السياسية والثقافية، كانت سياسات دماغوجية. الحركة الاستقلالية تأطّرت بين الذين درسوا باللغة الفرنسية، فيما العلماء وراء فرحات عباس كانوا يشكلون التيار الإصلاحي، وكانوا من أصل برجوازي، ينتمون إلى طبقة اجتماعية لها حدودها. ولم يكن العلماء يخفون ذلك إذ كانوا يقولون: لن نضحّي بأنفسنا أبداً من أجل الجهلاء. يقضون يومين في الاعتقال وما أن يُطلق سراحهم حتى يستقيلوا من السياسة. لن نضحّي بأنفسنا أبداً من أجل الجهلاء. هذا احتقار للجماهير. انطلقت الثورة بفضل الذين درسوا في الجامعات والثانويات عند الفرنسيين، ومنهم تشكلت فئة من الذين يقولون عنهم «حسين الأحول» إنهم لم يكونوا مثقفين بل مجرّد متقدمين على الأميين.

أقول إن التعريب بالمناقصة بعد الاستقلال لم يكن قدَراً مقدراً. مع ذلك، لست أعتقد إن كان سيوجد قبائلي واحد يعارض التعليم الحديث بالعربية. والحال أنه جرى تزوير المشكلات الثقافية والمشكلات اللغوية بزجها في النزاعات على السلطة، في النزاعات السياسية، جرى تزوير المواضيع الثقافية بتسييسها، بالمعنى غير النبيل للكلمة. وهكذا طبقت سياسة تعريب قائمة على المناقصة. والذي لمسته عند بعض المثقفين الناطقين بالعربية قولهم إنّه يجب ترقية الناطقين بالعربية في الإدارة مهما يكن مستواهم. ماذا ينتج من ذلك؟ تنتج إدارة عديمة الكفاءة، إذ إن التوظيف يجب أن يكون على أساس المباريات، على أساس الكفاءة. أمّا عندنا، فمن إجل إرضاء بعض الشرائح الاجتماعية جرى تشريع أبواب الإدارة على مصاريعها، ممّا أدّى إلى المأزق المعروف حيث البيروقراطية خنقت المجتمع المدني. وأية بيروقراطية! بيروقراطية متضخّمة وعديمة الكفاءة.

◆ موقفك من الوحدة المغاربية.

■ في ما يتعدى اعتبارات الكلاسيكية، إن ربع قرن من سوء الحكم والإدارة والتجارب المشتركة يجب أن توحّدنا. لم نعد نملك القدرة على البقاء إلّا بوحدتنا في وجه التيارات الإقليمية التي نشهد عليها في أوروبا وسواها. في الوقت الذي نناضل فيه من أجل إشاعة الديمقراطية كلّ في بلده، علينا أنْ نعمل من أجل إشراك الفئات الأكثر حرماناً في عملية بناء المغرب الموحّد، ليس فقط تمثيلها في البرلمان المغاربي بل وأيضاً أن نجد أشكال تمثيل في مجالس تنموية تشارك فيها النساء والنقابيون وجميع الذين لم تسنح لهم فرصة التمثيل في البرلمانات الوطنية. المهم جعل الوحدة المغاربية حقيقة لا رجعة عنها بإشراك الأحزاب السياسية والجمعيات والهيئات الممثلة للمجتمع المدني حتى تستطيع أن تلعب دورها كاملاً في النطاقين العربي والأفريقي.


فيما نظر
١٦٤ الأنظمة العربية
من دولة الاستقلال إلى مجتمع الخراب
فيصل دراج

الأنظمة العربية

من دولة الاستقلال إلى مجتمع الخراب

فيصل دراج

كاتب وناقد أدبي، الأردن، من أعماله الأخيرة «مساهمة في علاقة الأدب بالسياسة» (٢٠١٢) «ذاكرة المغلوبين» (٢٠١٤).

أرهقت الأنظمة العربية، منذ منتصف القرن الماضي، شعوبَها بأشكال من القمع مختلفة. وأرهقت ذاتها وهي تدافع عن شرعية مفقودة بأدوات تفتقر إلى الشرعية. تبادلت الأنظمة وشعوبها العداء، دافعة بالطرفين إلى ركود طويل انفتح، لاحقاً، على التفكّك والانحلال. لا ينفصل العداء المتبادل، رغم خصوصيته العربية، عن دور دولة إسرائيل كعنصر فاعل في «تطور المجتمعات العربية»، الذي شكّلت إسرائيل فيه علاقة داخلية.

أنجز قيام دولة إسرائيل، عام ١٩٤٨، هدفين مترابطين: جاء بالمأساة الفلسطينية، ومنع التطور الطبيعي عن المجتمعات العربية، ذلك أن احتلال الصهيونية لفلسطين استولد مباشرة شعار «الرد على الهزيمة»، فالمهزوم لا يرضى عن هزيمته، كما استولد شعاراً موازياً «تحرير فلسطين» ونصرة الأماكن المقدسّة. سوّغ الشعاران اللذان اعتنقتهما الشعوب العربية قيام انقلابات عسكرية لاحقة، أعطت «الجيش» دوراً مركزياً في صوغ صفات المجتمعات العربية، التي اعتقدت أن جيوشها «تلبّي» طموحاتها القومية.

ولادة «الدولة الوطنية»

تزامن احتلال فلسطين، كما رحيل الاستعمار عن بلدان عربية متعدّدة، مع ولادة «الدولة الوطنية» التي تقدّمت بخطاب يجمع بين التقدّم الاجتماعي وتحرير فلسطين، فلم تكن الصهيونية قادرة على الانتصار لولا «تخلّف المجتمع العربي». ترجم الخطاب العسكري هدفيه بشعار «وحدة الأمّة»، الذي رأى في الأحزاب السياسية «مرضاً» يجب استئصاله، واعتبر السياسة، من حيث هي، نقيضاً لمصالح الوطن. جعل الخطاب العسكري من السياسة، أو ما دعي بذلك، اختصاصاً سلطوياً، مرجعه الجيش، الذي خسر الحرب مع إسرائيل، واستطاع القيام بانقلابات عسكرية ناجحة، في مصر وسورية أولاً، وفي بلدان أخرى، لاحقاً.

حمل «الخطاب العسكري»، منذ البداية، عناصر تسويغه، مساوياً بين «الالتزام القومي» وتحرير فلسطين، وبين القدرة على تحقيق الالتزام وانصياع الشعب إلى إرادة «الانقلابيين العسكريين». كان في الأمر شكل المفارقة، إذ أوكل تحرير فلسطين إلى عسكريين فشلوا في مواجهة «الكتائب الصهيونية» عام ١٩٤٨. وفي انتظار إنجاز ما يجب إنجازه، قام العسكريون الذين استولوا على السلطة، ومن بداية ستينيات القرن الماضي، بتجديد خطابهم، فأدرجوا فيه «الاشتراكية»، التي تضمن التقدم والعدالة الاجتماعية، و«الوحدة العربية» التي ستوحّد ما قام الاستعمار بتجزئته. ومع أنه كان في حرب حزيران ١٩٦٧ ما يختبر وعود السلطات العسكرية، فقد جاءت الحرب بهزيمة ومفارقة جديدتين: انتصر الإسرائيليون وهزمت الجيوش العربية، وعوّض العسكريون هزائمهم بحصار الشعب العربي وقمعه، منتقلين إلى وضع جديد: بعد احتكار السلطة وإقصاء الشعب، تمدّدت السلطة وتمدّد معها إقصاء الشعب وتهمشيه، بأدوات تأديبية متزايدة. تمّ الانتقال من «الدولة الوطنية» إلى «الدولة البوليسية» التي تختصر «الشعب» في إرادة «الحاكم العسكري»، الذي يضع داخله كل ما هو خارجه، وينصّب ذاته «حراً وحيداً».

بلاغة صغيرة عن قضايا كبيرة

سوّغ احتلال فلسطين، في أربعينيات القرن الماضي، للعسكريين احتلال السلطة واحتكار القرار الوطني، وسوّغت هزيمة حزيران تحويل الدولة الوطنية إلى «دولة بوليسية مطلقة»، على اعتبار أن «القوى الخارجية المتآمرة» لا تستهدف الشعب بل القوى المدافعة عنه. ومع اختصار

الإرادة الوطنية ـ الشعبية في إرادة السلطة المتسلطة انتهى زمن «التسويغ الإيديولوجي»، ترسّبت فلسطين في خطاب براغماتي، تفرضه المناسبات، واختزلت الوحدة العربية إلى تنسيق «وزارات الداخلية»، التي ترصد مخاطر تحرّر الإنسان العربي، وأسقط الفساد المتصاعد «المصالح الوطنية»، وشكّل مع الاستبداد مرجعين متكاملين، يكفلان ديمومة السلطة المستبدّة، وديمومة «الإخضاع الشعبي». انطوت الشعارات السلطوية، بداهة، على نقائضها، فزادت «الاشتراكية» من الفروق الطبقية في المجتمع إلى حدودها العليا، وتقاسمت السلطات العربية المتنافسة تمزيق «المصالح العربية»، وفقاً لقاعدة تضع مصلحة السلطة فوق مصلحة الوطن، ومصالح الحاشية السلطوية فوق مصالح الوطن والشعوب والقومية العربية، التي استقرّت بأبعاد مختلفة، في «اللاوعي الشعبي العربي».

خطاب السلطات الإيديولوجي، قبل التمكن من السلطة وبعده، كان يعوزه الاتساق ويسخر من العلاقة بين القول والممارسة، استمر خطابا تلفيقيا مرجعه الأساسي: ديمومة السلطة ومصالحها، ولهذا لم تنتج تلك السلطات «مفكرين» يدافعون عنها.

أهملت السلطات العربية، وبعد تمكّنها من السلطة بخاصة، الخطاب الإيديولوجي، وحوّلته إلى بلاغة صغيرة تستثمر القضايا الكبيرة، وذلك في تكرار فارغ يمحو معنى القدس وفلسطين والوحدة العربية، و«التآمر الخارجي». وواقع الأمر أن خطاب السلطات الإيديولوجي، قبل التمكن من السلطة وبعده، كان يعوزه الاتساق ويسخر من العلاقة بين القول والممارسة، استمر خطاباً تلفيقياً مرجعه الأساسي: ديمومة السلطة ومصالحها. ولهذا لم تنتج تلك السلطات «مفكرين» يدافعون عنها، ولم تكن بحاجة إليهم، على أية حال، ذلك أن الحديث عن «مثقفين عضويين»، لا ينفصل عن إرادة في هيمنة إيديولوجية لم تكن ضرورية، سلطوياً، على أية حال، على اعتبار أن تسويغ السلطة يمر بالخوف والقمع وأجهزة الدولة التأديبية، ولا يحتاج إلى الإقناع، ولا يقبل بالحوار والمواقف النسبية. ولذلك انتقلت، بسهولة، من «الاشتراكية»، التي هي احتكار سلطوي للمصالح العامة، إلى رأسمالية السوق، التي لم تغادرها على أية حال، ومن «الفكر القومي» إلى التبشير الديني، ومن «علمانية» غائمة الحدود، إلى نظام هجين، لا هو بالعلماني ولا بالديني، باستثناء سلطات لم تغادر، سياسياً، العصور الوسطى.

تصنيع الوعي الديني المغلق

اجتاحت معظم الأنظمة العربية منذ منتصف القرن العشرين انقلابات عسكرية لها «إيديولوجيا وطنية عفوية»، أرادت أن تحارب «تخلفاً» لا تعرف مصادره، وأن تخلق «مستقبلاً زاهراً» لا تعرف الطريق إليه. وبسبب البنية الاجتماعية للعسكريين، الذين جاؤوا من أوساط ريفية تفتقر إلى السياسة والثقافة، ارتاح هؤلاء إلى خيار إيديولوجي تلفيقي، يجمع بين التقليدي والحداثي، والقومي والديني، ويستبعد الرقابة والإرادة الشعبيتين. فبعيداً عن المشروع العلماني الصريح، الذي تقدّم به المصري طه حسين، في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، بعد معاهدة الجلاء بين مصر وبريطانيا ـ ١٩٣٦ ـ آثر جمال عبد الناصر ، بعد ثورة ١٩٥٢، «حلاً معتدلاً» يجمع بين الحداثة والأصالة، بلغة ذاك الزمان، ويصالح بين الاشتراكية والإسلام، في انتظار وريثه «السادات»، الذي أطلق شعار «دولة العلم والإيمان». استبعد الرئيسان الديمقراطية وقاما، بنسب مختلفة، «بتأميم الحياة الحزبية»، إذ لا حزب إلا حزب الرئيس، ولا صحافة إلا تلك التي باركتها السلطة.

لم يكن الحال مختلفاً في الجزائر، «بلد المليون شهيد»، حيث ساوى قادة الثورة، وهواري بومدين خاصة، بين الثوري والمسلم، فإن أراد الثوري أن يكون وطنياً علمانياً، كان مصيره الإقصاء والعقاب. أمّا حزب البعث، الذي انتشر في العراق وسورية وغيرهما، فقد ساوى بدوره بين القومية والإسلام ، حيث المسلم عروبي والعروبي مسلم بالضرورة. لم يخرج الجنرال جعفر النميري، في السودان، عن هذا الخيار وانتهى، بعد تسلّمه السلطة، إلى «الخلافة»، على مقربة من الزعيم الليبي معمّر القذافي، الذي أطلق شعار: «من تحزّب خان»، مكتفياً «بكتابه الأخضر»، الذي سوّغ طغيانه الفريد.

ارتاحت «الدولة الوطنية»، منذ بداياتها، إلى «إسلام تلفيقي»، في مجتمعات تقليدية مُنعت فيها «التعددية»، وأقصي فيها المواطن عن السياسة وشؤونه الوطنية. غير أن السلطات الطويلة العمر، التي جاوز حكمها الأربعين عاماً، جاءت معها، لزوماً، بمبدأ «الإسلام والسياق»، إذ كل ظرف سلطوي يحتاج إلى إسلام خاص به. فبعد الاعتراف بالإسلام كقيمة ثقافية تفرضها «الأصالة»،



جاء الإسلام كمسوغ للاشتراكية أو «وحدة الأمة»، ثم تقدم خطوة كسلاح في مواجهة «التنوع الثقافي»، مسوّغاً أنظمة غير شرعية.

لجأت الأنظمة العربية إلى الدين. «فتأسلمت». كي تحجب لا شرعيتها من ناحية. ولتنافس الاتجاهات الدينية في «نجاحها الشعبي» من ناحية ثانية.

بعد إخفاق متصاعد، في المجالات جميعاً، وفي سياق صعود التيارات الدينية، منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، لجأت الأنظمة العربية إلى الدين، «فتأسلمت»، كي تحجب لا شرعيتها من ناحية، ولتنافس الاتجاهات الدينية في «نجاحها الشعبي» من ناحية ثانية. فقرّبت منها رجال الدين، وبالغت في احتفالها بالمناسبات الدينية، وأعطت الخطاب الإسلامي مكاناً واسعاً في الإعلام والمدارس والمناسبات الرسمية، حتى بدا الدين عنصراً أساسياً في البنية الإيديولوجية الرسمية، متحوّلاً ، بالضرورة، إلى إيديولوجيا دينية، تنتسب إلى مصالح السلطة، وإلى القوى الاجتماعية القريبة منها. أفسد هذا الانتساب المزدوج رجالَ الدين ووظائف المؤسسة الدينية، وأصبح «المشايخ» من نخبة المجتمع المسيطرة وغدت المؤسسة الدينية سلطوية بامتياز. تجلّى الأمر بوضوح كبير في تأويل الخطاب الديني، الذي نقل إلى بنيته مقولات الممارسات السلطوية للأنظمة الحاكمة.

فإذا كان تأويل الخطاب الإسلامي قد عرف، في النصف الأول من القرن العشرين، اتجاهات متعددة، تستبعد «الحقيقة الأخيرة»، فإن أنصار الإيديولوجيا الدينية السلطوية فرضوا تأويلاً واحداً، يلبّي مصالح «الحاكم الواحد»، واعتبروا ما خلاه خروجاً على الأعراف والتراث. وما مأساة الأستاذ الجامعي المصري نصر حامد أبو زيد، الذي حاول اجتهاداً دينياً طليقاً، إلا خروجه عن الرأي الواحد المفروض سلطوياً، وسعيه إلى تأويل منفتح على العلم والحياة. ولهذا طرد من الجامعة، ووقف معلقاً في الهواء، بلا دعم ولا مؤازرة، إلى أن ترك مصر ومات في المنفى. وبداهة فإن مأساته من مأساة سياقه، فقد اجتهد في زمن سلطة فاسدة تستثمر الإيديولوجيا الدينية، طغى فيه «الإسلام النفطي» وسيطر، مجتمعياً، الوعي المتخلّف، الذي يحرّض على تأويل أكثر تخلّفاً.

أراد نصر حامد أبو زيد، «المسلم الليبرالي»، أن يستأنف جهود طه حسين في زمن مختلف، فاصطدم بسياق جديد أجهز على «تراث» طه حسين وزمنه. فقد تجرأ «الثاني» على الموروث حين كتب «في الشعر الجاهلي» ـ ١٩٢٥، وعالجه بمنهج ديكارت، وتجرأ ثانية في كتابه «الفتنة الكبرى» ـ ١٩٤٧، مع فرق كبير بين الحالتين. كان حسين حين كتب كتابه الأول حزبياً، وله حزب يدافع عنه، وكان لمصر برلمان يقبل بتعددية الرأي، وحين أنجز كتابه الثاني كان لمصر حركة شعبية ديمقراطية واسعة، يلعب المثقفون فيها دوراً كبيراً، ولا أثر «للإسلام النفطي»، الذي أراد للتعاليم الوهابية أن تمحو ما جاء به «التنوير المصري»، الممتد من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

مجتمع الخوف

في فضاء سلطوي يستولد، بأدوات مختلفة، «مجتمع الخوف»، كان على الإيديولوجيا الدينية الجديدة أن تحتفي بمقولة «المراتب الاجتماعية»، استناداً إلى فهم مبتور لآية قرآنية تقول: «أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم»، حيث طاعة الحاكم، مهما كان سلوكه، من طاعة الله، والانصياع إلى رجل الدين من الانصياع إلى إرادة الله والحاكم معاً، كما جاء في كتاب الشيخ المصري محمد الشعراوي «تربية الإنسان المسلم»، الذي اعتبر «الصراع الطبقي» شكلاً من الحسد لا يقرّه الإسلام. لهذا غدا الحاكم مقدّساً، أو قريباً من التقديس، واكتسح رجال الدين مواقع المثقفين، وانتشر شكل هجين من المربّين الدينيين هم: «الدعاة»، الذين ملأت صورهم الأجهزة الإعلامية. و«الداعية» معلّم هجين، يتقن الكلام من دون أن يتقن، بالضرورة، القواعد اللغوية، أو أن يعرف الدين معرفة صحيحة. يتصرّف مرتاحاً بشكله الموروث، غطاء الرأس والذقن، ويكمل صورته ببلاغة ساكنة حدّاها الوعد والوعيد، تشير إلى الجنة وجهنم ولا تشير إلى غيرهما. والطريف، في حدود معيّنة، أنّ «الدعاة»، الذين أصبحوا من نجوم المجتمع، جمعوا ثروات طائلة من تجارة الدين، المقبولة سلطوياً، التي ترضي وعياً «جماهيرياً» ساذجاً، يساوي بين شكل الشيخ والموروث الديني. والمحقق أن قراءة الدعاة للدين أهدرت السياقين التاريخي والاجتماعي، وحوّلت الدين إلى خطاب بلاغي مجرّد، لا علاقة له بالأوضاع الاجتماعية وممارسات الحكم، وانصرفت إلى ثنائيات: الكفر والإلحاد، والدنيا



والآخرة، والحلال والحرام، وجعلت من «عذاب القبر» علماً مستقلاً بذاته، له وقائعه ومفرداته والبراهين عنه. وعلى صورة التلفيق الإيديولوجي السلطوي، الذي صالح بين معاصرة لا وجود لها وأصالة مختلقة، فإن «إسلام الدعاة» هاجم في الغرب الرأسمالي ثقافته وفنونه وديمقراطيته وفلسفته، وبارك سوقه الليبرالية، التي اندرجت فيها «أنظمة العلم والإيمان».

إذا كانت الأنظمة المتسلطة، الطويلة العمر، قد حوّلت الانتخابات البرلمانية إلى «فولكلور برلماني»، قوامه تأييد المرجع الأعلى، والأحزاب السياسية، «المسموح بها»، إلى «فولكلور حزبي»، فقد غدا الخطاب الديني السلطوي فولكلورياً بدوره، يستعيد «الماضي المؤمن» وعظمته، ويلحق به السادة الحكّام، ويبشّر بعضهم بالجنّة. كان بديهياً في سياق تجهيلي، يتكامل فيه الدعاة والحكام، أن تزدهر لفظية دينية ماضوية تتحدث عن: الخلافة والبيْعة وطاعة أولي الأمر والجهاد و«الإعجاز العلمي القرآني» وقوة الإيمان و«سذاجة العلوم الحديثة»، ووصل التلفيق الذي جاوز حدوده إلى بعض الجامعات الرسمية، التي عرفت بتاريخها التنويري، قبل رحيل الاستعمار وبعده، فعقدت ندوات مشتركة بين رجال العلم ورجال الدين، «تشرح» دور «النصوص الدينية» في شفاء الأمراض المستعصية. بل إن المصري الشهير مصطفى محمود، الذي أطلق اسمه على جامع شهير في القاهرة، مايز بين «العلم اللدنيّ»، المنبعث من القلب المؤمن، و«العلم الدنيوي» الزهيد الذي توزّعه المدارس الرسمية والجامعات، علماً أنه كان في المناهج المدرسية الرسمية «المتأسلمة» ما يفصل بين الرواية «الملحدة»، والرواية المؤمنة، وبين الشعر الذي يقبل بـ «الشرع»، والشعر المغاير المنفلت من قيود الدين والشريعة.

التراث بين اجتهادين

كان عادياً في العقود الأخيرة من القرن الماضي، كما في مطلع الألفية الثالثة، أن تزدهر دراسات التراث ـ التي أراد بعض التنويريين العرب، في زمن آخر، إعطاءها تأسيساً جديداً حال أحمد أمين في مصر، على سبيل المثال. اجتهد التنويرون، قدر المستطاع، في تعيين مفهوم التاريخ ونبذ «التَدَرْوش» والأقاصيص الدينية، عاملين على «ترهين الموروث» كي يصبح جزءاً من ثقافة الحاضر في الحياة الثقافية الاجتماعية. وعلى خلاف ذلك، ساوت الدراسات التراثية السلطوية بين قضايا التراث المجرّدة وقضايا المجتمع، متوسلة مقولات هجينة مثل: اللاوعي الشعبي، الذي يمكن توزيعه على الحاضر والماضي معاً، أو الوجدان الديني العربي ـ الإسلامي ـ على اعتبار أنّ هذا الوجدان متجانس في جميع الأزمنة، وأنه في وجدانه المتجانس لصيق بـ«الحكمة الدينية» الإسلامية. شيء قريب مما قال به المغربي الشهير محمد عابد الجابري، الذي أهدر السياقين التاريخي والاجتماعي واحتفى بمصطلح: بنية العقل العربي المتحرر من السياسة والإيديولوجيا. ومع أن بعضاً من هذه الدراسات ارتكن إلى مفردات: العلمي، الإبستمولوجي والقطع المعرفي، فقد وطّد، عملياً، صورة الفكر القديم، وصمَت عن السياق السلطوي الذي ألغى الشروط الاجتماعية للعمل الفكري.

ربما يكون في مآل دراسات التراث، التي عني بها الماركسيون العرب في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته، قبل أن تأخذ منحى سلطوياً، ما يضيء، ولو بقدر، مآل المثقف العربي، الذي تحزّب في تحليلاته ذات مرة، وانتسب إلى الأحزاب السياسية وأسهم في تأسيسها، إلى أن جاءت التحوّلات الاجتماعية العاصفة، وقذفت به إلى خيارات ضيّقة، فرضها الحلف الصريح والمضمر بين السلطة المتأسلمة و«أدعياء الدين». تراجع المثقف، الذي كان مأخوذاً بالنقد السياسي وانتقل، ما تبقى منه، إلى النقد الثقافي في عناوينه «الكبيرة»: الأنا والآخر، الإبستمولوجي والإيديولوجي، التفكيك ونظريات اللغة، إلخ. وواقع الأمر أن المثقف العضوي أو ما كان يدعى بذلك، عرف في الربع الأخير من القرن الماضي وما تلاه أزمات ثلاث: شهد «نهاية» أوهامه الإيديولوجية، وهو المؤمن بالتقدم و«عدالة التاريخ». ونهاية علاقة «الجماهير» بالأحزاب السياسية، والتحاقها بالجماعات الدينية التي تسمح بتحزّب المؤمنين ضد المشركين. وعاين أيضاً التداعي الثقافي الذي اخترق المجتمع العربي، بدءاً من انهيار المؤسسة التعليمية، العالية منها والمتوسطة، وصولاً إلى تدهور اللغة العربية، الذي رافق صعود الفروق الاجتماعية، وجعل «اللغة العربية» من نصيب الفقراء واللغات الأجنبية، والأميركية منها بخاصة، من نصيب النخبة.

تخليق الإنسان الفقير

الاحتجاج والتمرّد والثورة من صفات «الفئات الميسورة»، هذا ما وعتْه الأنظمة المستبدّة، التي قوّضت بممارساتها المختلفة الطبقة الوسطى العربية، التي كانت تنتج الأحزاب والمثقفين والمنصرفين إلى السياسة بشكل عام. بسبب منظور

سلطوي غايته الإفقار الاجتماعي، تفككت الطبقة الوسطى واندرجت غالبيتها في الفئات الفقيرة، والتحق بعض منها بالسلطة، وهم القادرون على التكيّف مع برجوازية رثّة، ومتوحشة كما قال البعض، تبدأ بالسلطة وتنتهي إليها، حيث السلطة هي الحاكم الأكبر والمالك الأكبر في آن.

الأنظمة مارست «نهاية الإيديولوجيا»، قبل إعلان السوق الليبرالية عنها. ذلك أنها جعلت الأجهزة الأمنية بديلا عن الحزب والجماهير والإيديولوجيا، بالمعنى المتعارف عليـــــــــــــــــه.

ارتكنت الأنظمة العربية، الفاسدة والمفسدة، إلى ما يمكن أن يُدعى «الإفقار المجتمعي الشامل»، اقتصاداً وسياسة وثقافة وقيَماً. ففي منظور تسلطي، يضع كل ما هو خارج الحاكم أفقر، عملياً، معنى الوطن وأفقر المواطن العادي الذي «تعطيه» السلطة ما يضمن استمرار عمله في أجهزتها، وتختزل ثقافته في تلقين واستظهار سلطويين، ولا تمنحه من الحقوق السياسية إلا «شكلانيات فقيرة». عبّر الروائيون عن هذا الوضع بصيغة «الكائن الأجوف»، أو «الكائن المفرغ من جوهره»، الذي يتعامل مع الواقع خائفاً وينصرف من الحياة خائفاً، كما لو كائن الخوف هو الحق الأكيد الذي تضمنه له «سلطة فقيرة» تتمدد في الاتجاهات جميعاً. لا غرابة أن يرتعب «المواطن» من وجوه السلطة في أكثر تفاصيلها هامشية، بدءاً من «شرطي المرور»، الذي نقله فساده إلى مقام «الأعيان»، إلى «معلم المدرسة» الذي يبيع الأسئلة والإجابات. تضيء هذه الظواهر معنى «مجتمع الخضوع»، في مراتبيّته الصارمة، أو «مجتمع الخوف» الذي يجعل من السلامة الشخصية اليومية هدفاً كبيراً، أو «مجتمع التخوين»، بلغة الشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان، حيث القمع يعطي الإنسان طبيعة ثانية، تغاير طبيعته الإنسانية الأولى.

لم يكن هدف التربية السلطوية توليد «الإنسان السلبي» فقط، الذي يرضى بالحاكم وبابنه الذي سيرث موقعه بقدر ما استهدفت «الذاكرة»، التي كان عليها أن تنسى ما تعلمته من أنظمة سابقة، كالحديث عن النقابات ومعاقبة المرتشي على سبيل المثال، حال الأغنية العربية الهابطة والمسيطرة، التي تفسد الذوق وتحجب فناً «سابقاً» كان فيه شيء من الذوق الرفيع. والمحصلة أن كل نظام مستبد يعتبر ذاته بداية مطلقة، تجبّ ما سبقها من بدايات، الأمر الذي يختصر التاريخ الوطني، في رموزه المتعددة، في شخص «الحاكم الأول»، الذي لا تاريخ له.

التطبّع بطبائع الاستبداد

خلقت الأنظمة العربية الطويلة العمر مرحلة تاريخية جديدة، أرغمت «المثقف القديم» على تغيير نمط حياته، بقدر ما أجبره «نسيج المجتمع الفاسد» على خيارات لم يعرفها لتحصيل رزقه. فلم تعد الصحافة هي الصحافة، ولا الحزب هو الحزب، وتحوّلت النقابات إلى شيء قريب من الأحجية. لذا أصبح «الحزب الجماهيري» نقيضاً للحزب، فهو مجموع من المرتزقة والمتكسبين، وأخذت الجماهير موقع «الرعاع» القديم. بل إن هذه الأنظمة مارست «نهاية الإيديولوجيا»، قبل إعلان السوق الليبرالية عنها، ذلك أنها جعلت الأجهزة الأمنية بديلاً عن الحزب والجماهير والإيديولوجيا، بالمعنى المتعارف عليه. وبسبب النسيج الاجتماعي الفاسد، الذي تشرف عليه السلطة وتهندس علاقاته، والذي اتسم بالإثراء السريع والإفقار المنهجي، ارتبك معنى «الطبقات»، وترسّب «الصراع الطبقي» فوق طبقة سميكة من الانصياع والإذعان والتديّن الجماهيري والصمت القسري. ولذلك انتهى المضطهدون والمستغلون إلى كتلة واسعة تدعى: الفقراء، مقابل «الأثرياء» أو «أصحاب الأموال»، الذين تتكشف «طبقيتهم» في علاقتهم بفئة قمعية مسيطرة، جعلت من أجهزة الأمن وسيلة لتكدس الثروات. كان الماركسيون يقولون: لا طبقات إلا في عملية الصراع الطبقي، التي تعني وجود طبقات متمايزة، «ارتبكت» ملامحها في الأنظمة العربية الفاسدة، إلا إذا اعتبر «الفقر والتدين الجماهيري» ممارسة طبقية في شروط معينة.

انطوت المجتمعات العربية، المحكومة بسلطات مستبدّة طويلة العمر، على ما يربك «النظر التقليدي»، اعتماداً على أطروحتين تقول أولاهما: لا وجود لطبقة إلّا في آثارها الاجتماعية الفاعلة، وذلك في سياق جعل من السلطة هي الفاعل الوحيد. وتقول الثانية: لا وجود لطبقة، بالمعنى الحقيقي، إلا في تعييناتها الثقافية. ولكن ما هو التعيين الثقافي في مجتمع محكوم بإيديولوجيا سلطوية تلفيقية، وبإيديولوجيا دينية مغلقة ترفض السلطة وتنصاع لها في آن؟ وما هو الفرق بين هاتين الإيديولوجيتين اللتين تتقاسمان وجوهاً مشتركة، تحيل إلى «واقع وهمي» لا يمكن تحديده؟

كان عبد الرحمن الكواكبي يقول: «إن طال عهد المستبَدّ بهم بالحكم الاستبدادي، تطبّعوا بطباعه، وأخذوا بقيمه». ترجمت الطبائع التي استولدتها السلطات، في

مستوى أول، خصائص «المجتمع الخائف»، الذي تخترقه القدرية والانغلاق الفكري و«التديّن القطيعي» وعدم الثقة بالذات وبالآخرين والبحث القلق عن الرزق وعدم الثقة بالمستقبل، وعكست، في مستوى ثانٍ تفكك القيم المحايث «للمجتمع المفسد»، الذي يساوي بين المصالح الصغيرة والحقيقة، وبين الخضوع والأمان.

هزمـــــــــت الحداثة الاجتماعية، في البلدان العربية، مرتين: هزمتها سلطات تأخذ بقيم تقليدية، إذ الحاكم هو الحر الوحيد، وهزمتها شعوبها التي ردتها سلطاتها إلى وضع الرعية.

أخفقت الأنظمة المستبدة في نشر إيديولوجيتها «المعلنة»، المحدثة عن وحدة الشعب والأمّة وتأمين الاستقلال الوطني، ونجحت في نشر «إيديولوجيتها المضمرة»، الفاسدة المفسِدة، المرتبطة بتقنين حاجات المواطنين اليومية. استبعدت، في الحالين، السياسة والحوار المجتمعي، منتهية إلى تفكيك «الشعب»، الذي هو مقولة سياسية، ومنتج لا وجود له إلا بأدوات سياسية. أفضى كل هذا إلى صعود النزعات الطائفية والجهوية والعشائرية والقبلية والعائلية، وكل ما يهمّش المجتمع والشعب والوطن. تجلّى غياب السياسة، في المجتمعات المستبّد بها، في سيطرة الأجهزة القمعية على غيرها، وتجلى غياب الوعي السياسي، مجتمعياً، في سيطرة الانتماءات الضيقة على الانتماء الوطني. عبّرت الجماعات الدينية عن أولوية «المعتقد الديني»، على الوطن، كما جاء على لسان الناطقين باسمها: «من لا دين له لا وطن له»، وعبرت الفئات المتسلطة، الطويلة العمر، عن أولوية المصالح السلطوية على الوطن والمجتمع. نفت الأولى معنى «الشعب»، الذي هو مقولة حديثة، وهمّشت الثانية معنى «الدولة» وهي مقولة حديثة بدورها، ذلك أن الدولة تعرّف بالمجتمع الذي تؤمن مصالحه، وتضمن له الرعاية والحماية. ولهذا هزمت الحداثة الاجتماعية، في البلدان العربية، مرتين: هزمتها سلطات تأخذ بقيم تقليدية، إذ الحاكم هو الحر الوحيد، وهزمتها شعوبها التي ردّتها سلطاتها إلى وضع الرعية.

وحاصل القول، وبعيداً عن الرطانة «الغربية»، التي تفتقر إلى المعرفة أو النزاهة، أو إلى الطرفين معاً، فإن توصيف العالم العربي بالتطرف والعنف والإرهاب، لا يقرأ في «جوهر عربي» مجرد، ولا في «جوهر إسلامي» عجيب، إنما يقرأ في طبيعة السلطات، التي هُزمت أمام إسرائيل وقامت ، لاحقاً، بهزيمة شعوبها، سعياً وراء «عالم عربي مستقر»، يؤمن مصالح إسرائيل ومصالح الرأسماليات المختلفة، المعنية بما هو «تحت الأرض»، لا بما هو فوقها، بلغة الأميركي ديك تشيني، إبّان الهجوم على العراق.

فقد عرفت الحواضر العربية الأساسية (القاهرة، دمشق، بغداد)، قبل قيام إسرائيل، حياة طبيعية لا مكان فيها للعنف والتطرف الدينيّين، وعرفت، ولو بقدر، السياسة والأحزاب السياسية، بعيداً عن زمن الاستقلال الوطني، الذي تزامن مع ولادة إسرائيل، ووحّد بين احتكار الشأن الوطني العام وإلغاء حقوق المواطنة.

الاستبداد وارتباك الأفق العربي

إذا كانت الحداثة الاجتماعية تتضمن الديمقراطية والاعتراف المتبادل بين البشر ونسبية الأحكام وتعددية القيم والنظر، فما هي حظوظ الحداثة في بلدان عربية حرمت خمسين عاماً من الممارسات الحداثية؟ كيف ترجع السياسة إلى مجتمعات أفقرت من السياسة؟ وكيف تستقيم المواطنة في بلدان حرم المواطنون فيها من حقوق المواطنة المتعددة؟ كيف تعترف بالعلمانية جماعاتٌ واسعة ساوت بين الكفر والعلمانية؟ والواقع أنه: لا جواب. فكل طبقة منتصرة تقلّد الطبقة التي هزمتها في أشياء كثيرة. والسؤال في علاقته «بأطياف الربيع العربي»، هو: ما هي القيم «الوليدة والقديمة» لدى شعوب عربية لم تنتصر، بعد، في صراعها ضد الأنظمة المستبدة؟

تحضر في هذا المجال مقولات ثلاث لا ينقصها الارتباك: استمرارية الصراع بين قديم عميق الجذور وجديد «فقير البنية»، وسيرورة تحويلية معقّدة يفعل فيها الداخل والخارج معاً، فلا تزال الولايات المتحدة تراقب مشهداً عربياً لا تريد لجديده أن ينتصر ولا لمجتمعاته أن تستقر وتزدهر. تمس المقولة الثالثةُ الإنسان العربي، القومي في لغته والديني في انتمائه والواضح، أحياناً، في طائفيته، وغير الواضح في «وطنيّته»، لأنه يرى في الطائفة، لأسباب سلطوية، وطناً. تتبقّى «قوى المتقدم» المهمّشة، التي عليها أن تقرأ واقعاً اجتماعياً لم تتوقعه.

مهما يكن مآل «الحراك الثوري العربي»، الذي انطلق قبل سنوات، وسيستمر طويلاً، فإنه جسّد الحدث الأكبر في تاريخ العرب الحديث. فقد أجبر أكثر من طاغية على التنحّي أو على إبراز وجهه الكامل، وهو أمر ليس مألوفاً في الحياة العربية، المعقدة والمقيّدة، التي اخترقتها تبعية واسعة ومتجدّدة.



١٧٢ محمود محمد طه
الإسلام في رسالتين
نجاة إدريس إسماعيل

١٧٧ الرسالة الثانية من الإسلام
محمود محمد طه

محمود محمد طه
الإسلام في رسالتين

نجاة إدريس إسماعيل

قاصة وصحافية من السودان.

ولد المفكر المهندس محمود محمد طه في مدينة رفاعة بوسط السودان عام ١٩٠٩. تعود جذور والده إلى الشمال بينما والدته من قرية صفيتة غربي رفاعة. بدأ محمود دراسته بالخلوة والتحق فيها بالتعليم النظامي الأولي والأوسط برفاعة، واستمر بالدراسة التي نبغ فيها، حتى التحق بمدرسة الهندسة في كلية غوردون التذكارية - جامعة الخرطوم حالياً. عرف عنه أثناء سني الدراسة تميزه بالخصال النبيلة، حيث عرف بالصدق والشجاعة ومناصرة الضعفاء، كما عرف عنه تميزه في الألعاب الرياضية التي كان يمارسها منذ أن كان بالمدرسة الوسطى حتى التحاقه بكلية غوردون. كان تأثيره في الجامعة كبيراً خصوصاً في أقرانه، وقد عبّر عن ذلك أحد الأدباء السودانيين قائلاً: «إن محموداً كان كثير التأمل لدرجة تجعلك تثق في كل كلمة يقولها».

الفكرة الجمهورية

أنشا فكرته «الجمهورية» في تشرين الأول / أكتوبر من العام ١٩٤٥ وقد بدأت بصفة حزب سياسي أخذ اسم «الحزب الجمهوري»، وكان من أهم مطالبه وقتها الجلاء التام للاستعمار. ونادى الحزب بأن يُحكم السودان بنظام جمهوري بدلاً من النظام الملكي الذي كانت تستخدمه كل من بريطانيا ومصر لحكم البلاد. وقد سبق بحديثه ذاك الأحزاب السياسية الأخرى التي كانت موجودة وقتها، إذ انقسمت حينها الحركة الوطنية الحديثة بُعيد مرحلة مؤتمر الخريجين العام إلى أحزاب اتحادية وأخرى استقلالية.

بدأ الحزب الجمهوري المشاكسة مع المستعمر البريطاني، حيث عمد طه إلى توزيع منشورات تحثّ على النضال متخذاً من قضايا مزارعي مشروع الجزيرة وسياسة الاستعمار الثنائي تجاه قضية الجنوب منطلقات للنضال. وكان أعضاء الحزب الجمهوري يوقّعون أسماءهم على المنشورات، ممّا أدّى إلى اعتقال طه وتقديمه للمحاكمة في حزيران / يونيو ١٩٤٦ فكان أول سجين في تاريخ الحركة الوطنية، وتم إطلاق سراحه بعد خمسين يوماً.

في أيلول / سبتمبر ١٩٤٦ قامت سلطات الاستعمار بتفعيل قانون منع الخفاض الفرعوني (ختان الإناث)، لكنّ الحزب الجمهوري عارض المنشور من باب أنّ العادات السيئة لا تحارب بالقوانين بل ببث الوعي والعلم وإشاعة التنوير في المجتمع. وعندما أقدمت السلطات الاستعمارية على سجن امرأة في رفاعة ختنت هذه ابنتها. وجاء ذوو المرأة يستنجدون بمحمود الذي قام فيهم خطيباً في مسجد رفاعة قائلاً «ليس هذا وقت العبادة في الخلاوي والزوايا أيها الناس، إنما هو وقت الجهاد، فمن قصّر عن الجهاد وهو قادر عليه ألبسه الله ثوب الذل وغضب عليه ولعنه». فخرجت المدينة بأجمعها في ثورة عارمة اقتحمت السجن وأطلقت سراح المرأة. ونجم عن ثورة رفاعة تلك إيداعُ محمود محمد طه سجن ود مدني لمدة عامين ثم أتم مدته في سجن كوبر. وفي ذلك يقول الشاعر محمد المهدي المجذوب من نونيته (إلى الله):

أين محمودها الذي دفع الضيمَ
للقيْد في يديه رنينُ

عربي يثور للعِرض والدين
ولكنه الغداةَ سجينُ

طاهرالقول والسريرة والكفّ
له الخسف والعذاب المهين

ربّ رحماكَ إنه فعل الخير
ولكنه وحيد غبينُ

المذهب الجديد

أثناء عامَي السجن صرف محمود وقته بالعبادة والصيام الصمدي، وعندما خرج منه اعتكف في رفاعة لمدة ثلاث سنوات توقف عندها الحزب عن العمل. وعندما خرج من معتكفه، طرح طه مذهبه الإسلامي الجديد والذي يقوم على العدالة الاجتماعية وحرية الفرد واتجه بدعوته من «ملء فراغ الحماس إلى ملء فراغ الفكر». وكان ذلك في العام ١٩٥١. ثم أصدر الكتب التي يتحدث فيها عن مذهبه مثل كتاب «قل هذه سبيلي» و«الدعوة الإسلامية الجديدة»، ثم توالى إصدار الكتب «دستور السودان» و«الرسالة الثانية في الإسلام» حتى زادت كتبه ومنشورات الجمهوريين عن مائتي الكتاب.

آراء فكرية خاصة

يقول الدكتور قيصر موسى الزين إن الحركة الجمهورية مرّت في مراحل عديدة حتى انتقلت إلى أم درمان، وقد ربط محمود محمد طه نشْر فكره بتطوير تنظيم ديني وكذلك بإطلاق حملات دعوية بالشوارع. ومن أبرز أفكاره تقسيم الإسلام إلى رسالتين، تخص الأولى القرن السابع الميلادي والثانية القرن العشرين. ويشير الزين إلى تقسيم طه القرآن الكريم إلى ناسخ ـ يخص الرسالة الثانية ـ ومنسوخ ـ يخص الرسالة الأولى ـ وقد تبنى فكرة أنّ الرسالة الثانية هي التي تناسب التقدم البشري في العصر الحالي لخلوّها من تشريعات مثل الرق وتقييد حقوق المرأة، مستنداً في آرائه تلك إلى مرجعية الفكر الباطني.

الإخــــــــوان يعتقدون أن إصلاح المجتمع مرتبط باستيـــــــلائهم على السلطة. ولذلك فإن فكرة التبليغ لديهم أساسها الحكم. بينما أساسها بالنسبـــــــــة إلينا هو حركة الانسياب الثقافي اليومي للمجتمـــــــع.

ويرى محمود أنّ الآيات المكّية التي نزلت في فجر الدعوة بمكة تمثل أصول القرآن، مضيفاً أنّ الإسلام ديانة كوكبية تقوم على المساواة بين البشر، وكان يسمّي الآيات المكية «آيات الأصول» مشيراً إلى أنها قامت على الإسماح ونبذ الإكراه.

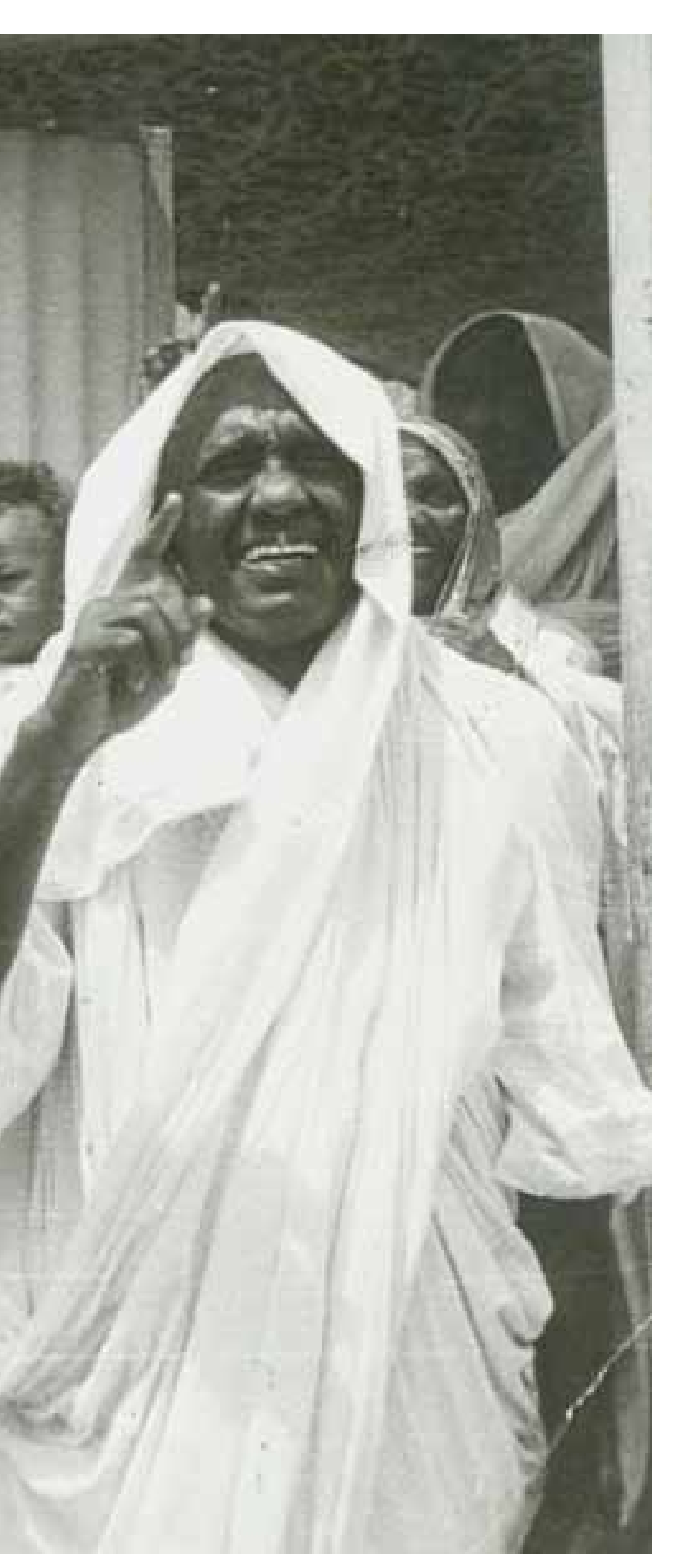
ولعل تكوّن خطى أحد أبرز مفكري السودان لم يكن بالأمر السهل، إذ يشير الكاتب محجوب عمر باشري في كتابه «رواد الفكر السوداني» إلى حياته الأولى قائلاً: «نشأ محمود محمد طه ولم يرتكب فاحشة في حياته وعاهد الله على أن يلتزم بالخلق الإسلامي، ودرس في كلية غوردون وتخصص في الهندسة، وخرج للحياة في الثلاثينيات فالتحق بالسكة الحديدية وعمل بعطبرة، وكان قارئاً نهماً في اللغتين العربية والإنكليزية... ودرس مذاهب الفلسفة وكل أنواع المنطق، حتى المنطق الوصفي والمنطق الجدلي، وله دراسات عن مدرسة الجدليين منذ الفيلسوف الألماني هيغل حتى ما كتبه ماركس، وتفرع منه ما كتبه منظّرو الماركسية، وله دراسات عن المنطق الرياضي واعتراضات على وايتهد وراسل، كما له اعتراضات على مدرسة هيغل».

معارضته للإخوان المسلمين

تميّز محمود محمد طه بأنه مفكّر فريد اشتهر بنصاعة الحجة وقوتها واستقامة الشخصية والثبات على المبدأ، وكانت له هيبة وسطوة فكرية وسط خصومه الذين كانوا من ناشطي حركة الإسلام السياسي السودانية. تميز طه بقدرته الفائقة على الاستدلال بنصوص القرآن، وكان رجلاً موسوعياً في إلمامه بالتراث الإسلامي وبمختلف تيارات الفكر المعاصر.

من أهم ما طرحه محمود محمد طه أنّ الفكر الإسلامي على المستوى الكوني «الكوزمولوجي»، كما أنه قد تنبأ بسقوط الشيوعية قبل عقود من حدوثه الداوي، فكان من أطروحاته أن الرأسمالية والشيوعية وجهان لعملة واحدة، وهي الفكرة المادية عن الوجود. وقال إن الإسلام سيخلف النظامين الشيوعي والرأسمالي، وكان يكثر من الاستدلال بالحديث النبوي «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. وقالوا: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يُحيون سنّتي بعد اندثارها».

ويقول الكاتب الصحفي بابكر حسن مكي في كتابه «النميري: الإمام والروليت» إنّه حاور محمود محمد طه في منزل بمدينة الثورة فقال له «أما الإخوان فهم يعتقدون أن إصلاح المجتمع مرتبط باستيلائهم على السلطة. ولذلك فإن فكرة التبليغ لديهم أساسها الحكم، بينما أساسها بالنسبة إلينا هو حركة الانسياب الثقافي اليومي للمجتمع». وأضاف محمود أن «دعوة الإخوان مصطدمة على الدوام بالتمايز الديني والعرقي بين الشمال والجنوب، إذ إنّ سعيهم نحو إقامة جمهورية إسلامية لا بد له من أن يرتطم بالجدار المسيحي للجنوب،



وعندها سيجدون أنفسهم بين خيارين: إما مقاتلة الجنوبيين وفصل الشمال وإما التراجع عن إستراتجيتهم وهذا مستحيل. أما نحن فلا يهمّنا أن يكون الجنوب مسيحياً أو الغرب إثنياً... نحن مع المثقّف الجنوبي ومثقف غرب السودان وشرقه وشماله ووسطه».

رسالة الصلاة

وقسّم المفكر محمود محمد طه نشأة الإنسان إلى أربع مراحل وذلك في كتابه «رسالة الصلاة». وأشار إلى أن المرحلة الأولى من نشأة الإنسان تعني تطوّره في المادة غير العضوية منذ بروزه في الجسد، مشيراً إلى الآية الكريمة «أوَلم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون». وبدأت المرحلة الثانية من نشأة الإنسان ببروز المادة العضوية من المادة غير العضوية، مضيفاً أن المرحلة الثانية بدأت بحيوان الخلية الأولى، بينما بدأت المرحلة الثالثة من نشأة الإنسان حيث ظهر آدم النبي الخليفة الذي خلقه الله خلقاً كاملاً، وتتميز المرحلة الرابعة من نشأة الإنسان ـ والتي يعتبرها الكاتب قفزة من قمة منازل المرحلة الرابعة ـ بدخول الحاسة السادسة والحاسة السابعة ويعتبرها درجة من درجات الترقّي.

يرى طه أن للصلاة معنى قريبا ويظهر في الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة والتي فرضت في مقام «قاب قوسين أو أدنى». وأوضح أن عبد الترقي يشاهد وحده الفعل، ثم يترقى منها إلى شهود وحدة الصفة. ثم يترقى منها ليشاهد وحدة الاسم. وليس وراء ذلك إلا شهود الذات.

ويرى محمود محمد طه أن للصلاة معنىً قريباً ويظهر في الصلاة الشرعية ذات الحركات المعروفة والتي فرضت في مقام «قاب قوسين أو أدنى» مضيفاً أنها تكون في مقام الشهود الأسمائي والذي يعتبره وسيلة إلى الشهود الذاتي. وأوضح طه أن عبد الترقي يشاهد وحده الفعل، ثم يترقى منها إلى شهود وحدة الصفة، ثم يترقى منها ليشاهد وحدة الاسم، وليس وراء ذلك إلا شهود الذات. وأضاف أنه في مقام الشهود الذاتي فرضت الصلاة بالمعنى البعيد، وهي الصلة مع الله بلا «واسطة»، في مقام «ما زاغ البصر وما طغى» حيث تطمس من



العبد ذاته المحدثة وتبقى ذاته القديمة في صلة مع القديم، لا يفصلها وسيط ولا تقوم بينهما وسيلة وهناك تسقط الوسائل والغايات ولا يبقى إلا الواحد القهّار.

الرسالة الثانية

ويرى محمود محمد طه أن الرسالة الثانية أجملَها المعصوم إجمالاً ولم يقع في حقها التفصيل إلا في التشاريع المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها، كتشاريع

بين الجدل الكثيف الذي أثاره الأستاذ محمود محمد طه حيا وميتا. بين متفق معه ومختلف. لفتت الأنظار ابتسامته الوضاءة التى افتر وجهه عنها عندما نزع الغطاء عن وجهه قبيل تنفيذ حكم الإعدام به.

العبادات وتشاريع الحدود، ذلك حسب قول الكاتبة أسماء محمود محمد طه والكاتب الدكتور النور محمد حمد في كتابهما «نحو مشروع مستقبلي للإسلام». وأضافا أن القرآن لم يبيّن منه بالتشريع وبالتفسير إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين بما يتناسب مع طاقة الناس وقتئذ. وقد أضافا في كتابهما عن الرسالة الثانية أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكمل لأن السير في مضماره سرمدي، مشيرين إلى «عند» في الآية الكريمة «إن الدين عندالله الإسلام» بأنها ليست ظرف زمان ولا مكان وأنما هي خارج الزمان والمكان، مضيفين أن السير بالقرآن في مضمار الإسلام سير إلى الله في إطلاقه وهو بذلك لم يتم تبيينه وإنما تم إنزاله بين دفتي المصحف ولم يتم تبيينه – على حد قولهما.

محكمة الردّة والإعدام

في العام ١٩٦٨ رفع شيخان من شيوخ جامعة أم درمان الإسلامية دعوى حسبة طالبا فيها بإعلان ردّة الأستاذ محمود محمد طه عن الإسلام، وانعقدت وقتها محكمة صورية ولم يمثل طه أمامها ولم يستأنف حكمها لعدم اعترافه بشرعية المحكمة. ثم أودع السجن ثانية عقب تأليفه لكتاب «اسمهم الوهابية وليس اسمهم أنصار السنّة» الذي أغضب السلطات الدينية بالمملكة العربية السعودية، فأودعه نظام مايو السجن بعدما كان قد أصدر قراراً من قبلُ بمنعه من إلقاء المحاضرات العامة.

عندما أصدر الجمهوريون كتاب «الهوس الديني يثير الفتنة ليصل إلى السلطة» الذي انتقدوا فيه سلطة مايو حينها، اعتقلت الأخيرة طه وأودعته السجن هو وعدداً من الجمهوريين، وبقوا في السجن حتى صدور قوانين أيلول / سبتمبر والتي عرفت بقوانين الشريعة الإسلامية، ليطلق سراحه في ١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٤. عندها أصدر منشوره «هذا أو الطوفان» الذي طالب فيه بإلغاء قوانين أيلول / سبتمبر١٩٨٣ كما طالب بوقف الاقتتال في جنوب السودان، فأعيد اعتقاله في الخامس من كانون الثاني / يناير ١٩٨٥ كما اعتقل عدد من الجمهوريين قبله.

في السابع من كانون الثاني / يناير مثل المفكر محمود وأربعة من تلاميذه أمام محكمة الطوارئ. وفي العاشر من الشهر عينه أصدرت المحكمة برئاسة القاضي المكاشفي طه الكباشي حكمها بإعدام محمود محمد طه بحكم الردة ليصدّق على الحكم رئيس الجمهورية جعفر نميري ويتم تنفيذ الحكم في ١٨ كانون الثاني / يناير ١٩٨٥.

ابتسامة وداع

وما بين الجدل الكثيف الذي أثاره الأستاذ محمود محمد طه حياً وميتاً، بين متفق معه ومختلف، كانت ابتسامته الوضاءة التي افترّ وجهه عنها عندما نزع الغطاء عن وجهه قبيل تنفيذ حكم الإعدام به، قد لفتت أنظار العالم، واسترعت شاعرية علامة السودان عبدالله الطيب فقال مصوّراً المشهد:

كشفوا وجهه ليعرف أن هذا
هو الشخص عينه محمود

قرئ الحكمُ ثم صاح به القاضي
ألا مثله اقتلوه، أبيدوا

كبّر الحاضرون للحدّ مثل
العيد إذ جمعهم له مشهود

وأراهم من ثغره بسمةَ الساخر
والحبْل فوقه ممدود

وعلى وجهه صفاء وإشراق
أمام الردى وديع جليد

الرسالة الثانية من الإسلام

محمود محمد طه

مفكر إسلامي وسياسي سوداني (١٩٠٩ـ١٩٨٥)، مؤسس الحزب الجمهوري (١٩٤٥) الذي دعا إلى حكم ديمقراطي اشتراكي فيدرالي. اعتقل أكثر من مرة وأعدم في عهد جعفر النميري بتهمة إثارة الكراهية ضد الدولة والردّة. من مؤلفاته «رسالة الصلاة»، «تطوير شريعة الأحوال الشخصية»، «الإسلام وقضية المرأة» و«الرسالة الثانية من الإسلام».

ننشر أدناه مختارات من «الرسالة الثانية من الإسلام» (كانون الثاني / يناير ١٩٦٧) التي تحتوي أبرز أفكار محمود محمد طه واجتهاداته. وقد أثارت من الخلافات والسجالات والاتهامات بالردّة قدر ما أثارت من تأييد وحماسة. وتدلّ الفصول الأخرى على فحوى ما تبقّى من أفكاره وتدور حول «ما ليس أصلاً في الإسلام»، حسب «الأستاذ» طه (حسبما يسمّيه أنصاره) وهذا يشمل: الجهاد، الرقّ، عدم المساواة بين الرجل والمرأة، تعدّد الزوجات، الطلاق، الحجاب، العزل بين الرجال والنساء.

الرسالة الأولى

الرسالة الأولى هي التي وقع في حقها التبيين بالتشريع وهي رسالة المؤمنين. والمؤمنون غير المسلمين، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع، وإنما هو اختلاف مقدار، فما كل مؤمن مسلم، لكنّ كلّ مسلم مؤمن.

والإسلام بداية، ونهاية. فكما أن الزمان والمكان لولبيان، فكذلك الأفكار، فإنها لولبية، يسير الصاعد في مراقيها في طريق لولبي، يرتفع في المراقي كلّما يدور على نفسه، حتى إذا تمت دورة على نقطة البداية ارتفع السالك سمتاً فوقها، وجاءت نهاية تلك الدورة على صورة تشبه البداية، ولا تشبهها. وكذلك الحال، فإن السالك في مراقي الإسلام يسير على معراج لولبي، ينضمّ نحو مركزه، كلما ارتفع نحو قمته، ويدور على نفسه دورة، كلما رقي في سبع درجات، أولها الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، ثم علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، ثم، في نهاية الدورة، الإسلام.

وأمة البعث الأول ـ أمة الرسالة الأولى ـ اسمها المؤمنون، لدى الدقة، وإنما أخذت اسم المسلمين، الذي ينطلق عليها عادة، من الإسلام الأول، وليس، على التحقيق، من الإسلام الأخير.

وأنت حين تقرأ قوله تعالى «إن الدين عند الله الإسلام» يجب أن تفهم أن المقصود الإسلام الأخير، وليس على التحقيق، الإسلام الأول، ذلك بأن الإسلام الأول ليست به عبرة، وإنما كان الإسلام الذي عصم الرقاب من السيف، وقد حسب في حظيرته رجال أكل النفاق قلوبهم، وانطوت ضلوعهم على بغض النبي وأصحابه ـ ثم لم تفر ضلوعهم عن خبئها، وذلك لأن المعصوم قد قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا، عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها، وأمرهم إلى الله». ولقد نشأ الإسلام بين القريتين، مكة والمدينة: بدأ في مكة، فلما انهـزم فيها هاجر إلى المدينة، حيث انتصر. وما كان له أن ينتصر في مكة، ولم ينتصر «وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون».

إسلام المُسلمين وإسلام المؤمنين

ما انتصر الإسلام، وإنما انتصر الإيمان. ولقد جاء القرآن

مقسما بين الإيمان، والإسلام، في معنى ما جاء إنزاله مقسماً بين مدني، ومكي. ولكل من المدني والمكي مميزات يرجع السبب فيها إلى كون المدني مرحلة إيمان، والمكي مرحلة إسلام.

الاختـــــــــــــلاف بين المكي والمدني ليس اختـــــــــــلاف مكان النزول. ولا اختلاف زمن النزول. وإنما هو اختلاف مستوى المخاطبين. فيأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة. ويأيها الناس فيها شمول لكل الناس.

فكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ «يأيها الذين آمنوا» فهو مدني، ما عدا ما كان من أمر سورة الحج، وكل ما ورد فيه ذكر المنافقين فهو مدني، وكل ما جاء فيه ذكر الجهاد، وبيان الجهاد، فهو مدني، هذا إلى جملة ضوابط أخرى.

وأما المكي فمن ضوابطه أن كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية، وكل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية، سوى سورتي البقرة، وآل عمران، فإنهما مدنيتان، وكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ «يأيها الناس» أو «يا بني آدم» فإنه مكي، سوى سورة النساء، وسورة البقرة، فإنهما مدنيتان وقد استهلت أولاهما بقوله تعالى «يأيها الناس اتقوا ربكم» وفي أخراهما «يأيها الناس اعبدوا ربكم» والشواذ عن الضوابط، بين المكي والمدني، إنما سببها التداخل بين الإيمان والإسلام، فإنه، كما ذكرنا، كل مؤمن مسلم في مرتبة البداية، وليس مسلماً في مرتبة النهاية، وكل مسلم مؤمن، ولن ينفك.

والاختلاف بين المكي والمدني ليس اختلاف مكان النزول، ولا اختلاف زمن النزول، وإنما هو اختلاف مستوى المخاطبين. فيأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة. ويأيها الناس فيها شمول لكل الناس. فإذا اعتبرت قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم» ـ وقوله تعالى «إن الله بالناس لرؤوف رحيم» وأدركت فرقاً، فاعلم أنه الفرق بين المؤمن والمسلم، وهو مستوى كل من الخطابين. وورد خطاب المنافقين في المدينة، ولم يرد في مكة، مع أن زمن النزول في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنوات، أو يقل، وذلك لأنه لم يكن بمكة منافقون. وإنما كان الناس إما مؤمنين، أو مشركين، وما ذلك إلا لأن العنف لم يكن من أساليب الدعوة بل كانت آيات الإسماح هي صاحبة الوقت يومئذ، «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين» وأخواتها، وهن كثر.

وحين تمّت الهجرة إلى المدينة، ونسخت آيات الإسماح، وانتقل حكم الوقت إلى آية السيف، ونظائرها، «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم». ودخل الخوف في ميدان الدعوة، واضطرت نفوس إلى التقية، أسرّت أمراً وأعلنت غيره، ودخل بذلك النفاق بين الناس.

وكون ذكر الجهاد، وبيان الجهاد، من ضوابط الآيات المدنية، لا يحتاج إلى تعليل.

وأما كون المكية من ضوابطها ذكر السجدة، فذلك لأن السجدة أقرب إلى الإسلام منها إلى الإيمان. وفي حديث المعصوم: «أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد»، وفي القرآن الكريم «اسجد واقترب» وفيه سر عظيم من أسرار السلوك إلى منازل العبودية.

ومنها أن تفتتح السوَر بحروف التهجي، وهذا باب عظيم، وفيه سر القرآن كله، والحديث عنه لا يتسع له هذا المقام، وإنما نكتفي منه بما نحن بصدده من بيان الفرق بين رسالتي الإسلام.

الرسالة الثانية

الرسالة الثانية هي الإسلام، وقد أجملها المعصوم إجمالا، ولم يقع في حقها التفصيل إلا في التشاريع المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها، كتشاريع العبادات، وكتشاريع الحدود، قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً» هذا اليوم يوم عرفة، من حجة الوداع، في السنة الثامنة من الهجرة، وقد كان يوم جمعة. وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن. وهي قمّة رسالات السماء.

الإسلام لا يمكن أن يكمل

وهو إنما رضي لنا الإسلام دينا لنرضاه، فإن أمراً لا يبدأ من طرفه هو، لا يبدأ من طرفنا نحن. قال تعالى «ثم تاب عليهم ليتوبوا». وقد ظن كثير من الناس أن قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» تعني أن الإسلام كمل

عند الناس، وانتهى إلى قمة كماله يومئذ. وهؤلاء، حين يقرأون قوله تعالى «وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم» يعتقدون أن تبيين القرآن قد تمّ، وليس هناك أمر هو أبعد من الصواب من هذا الرأي. فالقرآن لم يبيّن منه بالتشريع، وبالتفسير، إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين، ويناسب طاقة الناس. والقرآن لا يمكن أن يتم تبيينه. والإسلام، كذلك، لا يمكن أن يكمل. فالسير في مضماره سير سرمدي. «إن الدين عند الله الإسلام» و«عند»، هنا، ليست ظرف زمان، ولا هي ظرف مكان، وإنما هي خارج الزمان، والمكان. فالسير بالقرآن في مضمار الإسلام سير إلى الله في إطلاقه. وهو بذلك لم يتمّ تبيينه، ولن يتمّ، وإنما تمّ إنزاله بين دفّتي المصحف. تم إنزاله، ولم يتم تبيينه.

ومن ههنا يفهم الفرق بين «أنزلنا» و«نزل» من الآية «وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم، ولعلّهم يتفكّرون». فإنّ الفهم العام، عند العلماء، أنهما مترادفتان، وما هما بذاك. و«ما» في جملة «ما نزل إليهم» لا تعود إلى الذكر، وإنما تعود إلى جزء من الذكر، ينصب عليه الأمر بالتبيين، وهو ما يخص الرسالة الأولى. إلا ما يكون متداخلاً بينها وبين الرسالة الثانية.

ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن قد نزل مثاني. وفي ذلك يقول تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً، مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد» ومعنى «متشابهاً» قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعلاه، وبين وجهه وقفاه، وبين ظاهره وباطنه.

معنى «مثاني» أنه ذو معنيين: معنى بعيد عند الرب، ومعنى قريب تنزل للعبد. والقرآن كله مثان. كل آية منه، وكل كلمة فيه، بل وكل حرف من كل كلمة.

ومعنى «مثاني» أنه ذو معنيين. معنى بعيد عند الرب، ومعنى قريب تنزّل للعبد. والقرآن كله مثان. كل آية منه، وكل كلمة فيه، بل وكل حرف من كل كلمة. والسر في ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد. والشبه الذي فيه هو الشبه الذي قام بين الرب والعبد، وعبّر عنه المعصوم بقوله «إن الله خلق آدم على صورته» وعبّر عنه تبارك وتعالى «يأيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» وتلك النفس الواحدة إنما هي نفسه، تبارك وتعالى.

فكلمة الإسلام، مثلاً، لها معنى قريب هو الذي عبّر عنه القرآن بقوله تعالى «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم». وهذا هو الذي سمّيناه الإسلام الأول وقلنا إنه لا عبرة به عند الله. وللإسلام معنى بعيد، وهو مركوز عند الله، حيث لا حيث. وهو بمعناه البعيد قد أشار إليه سبحانه وتعالى حين قال «يأيها الذين آمنوا اتّقوا الله حق تقاته، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون». ومعلوم أنه لا يتّقي الله حق تقاته إلا الله، وهو، من ثم، نهج معراج إلى الله ذي المعارج، في مقام عزه، بالعبودية، والتذلل، والاستسلام. والعبودية لا تتناهى. فهي كالربوبية تماماً. والعبودية المطلقة لله تقتضي العلم المطلق بالله. وهذا لا يكون الّا لله عز وجل «قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلّا الله» فالغيب هنا يعني الله. فكأنّه قال، لا يعلم الله إلا الله، ولقد تحدثنا في رسالة الصلاة كيف أن العبودية هي الحرية، ممّا لا سبيل إلى إعادته هنا. فليرجع إليه.

الأمّة المُسلمة لم تظهر بعد

والإسلام إنّما كان نهج معراج إلى مقام العبودية بفضل القرآن. وهو كتابه المسلك في مراقيه. وهذا التسليك هو ما من أجله أنزل القرآن، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى «ولقد يسّرنا القرآن للذكر، فهل من مذكر». وهو إنما يذكرنا بالعبودية التي أقررنا على أنفسنا بها، ثم نسيناها، وذلك حيث قال تعالى عنا «وإذ أخذ ربك من بني آدم، من ظهورهم، ذرّيتهم، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم ؟ قالوا بلى! شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين / أو تقولوا، إنما أشرك آباؤنا من قبل، وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون / وكذلك نفصل الآيات، ولعلهم يرجعون»، لعلّهم يرجعون إلى الله بالعبودية والاستسلام بالإسلام.

ولمّا كان القرآن هو منهاج السلوك إلى الله، «قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، والقرآن هو هذا الهدى، فقد أصبح أوله عند الله، وآخره عندنا. فإن نحن أحسنّا السلوك في مدارجه استرجعنا الفردوس الذي فقدناه بخطيئة آدم، وارتقينا المراقي في الإطلاق. قال تعالى عن القرآن «أ ل م / ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى





للمتّقين». وقال عن المتّقين المهتدين بالقرآن «إن المتقين في جنّات، ونهر، في مقعد صدق، عند مليك مقتدر». وهذه درجات: أولها الجنات، ثم النهر، ثم مقعد الصدق ثم عند مليك مقتدر، وذلك «عند لا عند» و«حيث لا حيث». وهذه الدرجات تتفاوت من الجنات الحسية، وهي الفردوس المفقود بالخطيئة، إلى المطلق في إطلاقه، وإلى كل أولئك يهدي القرآن، فهو لا يستنفد. «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدَداً». ومن أجل هذا فإنه باطل، زعم من زعم أن القرآن يمكن أن يستقصى تبيينه. ذلك بأن القرآن هو ذات الله. وهذه الذات تنزلت، بمحض الفضل، إلى مدارك العباد ليعرفوها، فكانت القرآن في تنزلاته المختلفة: الذكر، والقرآن، والفرقان. وفي منزلة الفرقان هذه انصبّ في قوالب التعبير العربية، واستعملت هذه القوالب أبلغ استعمال لتشير إلى منزلتي القرآن، والذكر. والقرآن إنّما انصبّ في قوالب التعبير العربية لنتمكّن نحن من الفهم عن الله. قال تعالى في ذلك: «إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون». ولقد ورّطت هذه الآية، وأخواتها كثيراً من علماء المسلمين في الخطأ، فظنوا أن القرآن عربي بمعنى أنه يمكن أن يستقصى فهمه من اللغة العربية، ومن معرفة أساليبها، وما هو بذاك، ولقد تحدّثنا عن ذلك عند حديثنا عن السور المفتتحة بأحرف التهجي، فليراجع هناك.

ولمّا كان الإسلام بهذا السموق، فإنه لم يتفق لأمّة من الأمم إلى اليوم. والأمّة المسلمة لم تظهر بعد. وهي مرجوّة الظهور في مقبل أيام البشرية. وسيكون يوم ظهورها يوم الحج الأكبر، وهو اليوم الذي يتم فيه تحقيق الخطاب الرحماني بقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً».

ولقد كان محمد يومئذ طليعة المسلمين المقبلين، وهو كأنما جاء لأمّته، أمّة المؤمنين، من المستقبل، فهو لم يكن منهم، فقد كان المسلم الوحيد بينهم «قل إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي، لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين». ولقد كان أبوبكر، وهو ثاني اثنين، طليعة المؤمنين. وكان بينه وبين النبي أمد بعيد. وإلى المسلمين، الذين يجيئون في مقتبل أيام البشرية، أشار حديث المعصوم، حين قال: «واشوقاه لإخواني الذين لمّا يأتوا بعد!» فقال أبوبكر «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟» قال «بل أنتم أصحابي!» ثم قال ثانية: «واشوقاه لإخواني الذين لمّا يأتوا بعد!» فقال أبو بكر «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟» قال «بل أنتم أصحابي!» ثم قال ثالثة: «واشوقاه لإخواني الذين لمّا يأتوا بعد!» قالوا «من إخوانك يا رسول الله؟» قال «قوم يجيئون في آخر الزمان، للعامل منهم أجر سبعين منكم» قالوا «منا أم منهم؟» قال «بل منكم» قالوا «لماذا؟» قال «لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على الخير أعوانا».

المساواة السياسية: الديمقراطية

...كما أنّ الاشتراكية هي ثمرة النزاع الطويل بين «العندهم والماعندهم» في الصعيد المادي، فإن الديمقراطية هي أيضاً نتيجة الصراع بين «العندهم والماعندهم» في الصعيد السياسي، وهي تبتغي أن يكون الناس شركاء في السلطة، كما هم شركاء في خيرات الأرض. والديمقراطية صنو الاشتراكية. وهما معاً يمثّلان جناحي المجتمع. فكما أن الطائر لا يستقلّ في الهواء على جناح واحد، فكذلك المجتمع، لا يستقلّ بغير جناحين من ديمقراطية واشتراكية. ولقد ظهرت الديمقراطية قبل الاشتراكية، ذلك لأن الاشتراكية تحتاج إلى وعي جماعي أكثر مما تحتاج إليه الديمقراطية التي قد تقوم في بدايتها على قلة من المثقفين. ثمّ إنّ الاشتراكية تحتاج، كمقدمة لها، إلى الرأسمالية النامية الغنية. وهي أيضاً وليدة الآلة، فلم يكن من الممكن أن تتقدّمها. ولم تجئ الآلة إلا مؤخرا. هذا الحديث يعني الاشتراكية العلمية. أمّا الاشتراكية الساذجة، البدائية، فإن نشأتها بعيدة في التاريخ.

ولدت الديمقراطية في بلاد الإغريق، وفي أثينا بالذات. وقد كانت أثينا أرقى مدن الإغريق ثقافة. وكانت كلّ مدينة من تلك المدن حكومة قائمة بذاتها. ولمّا كانت الدول الإغريقية التي تمثّلها المدن صغيرة فقد كان من السهل على الشعب أن يمارس الحكم مباشرة عن طريق اجتماع أفراده، وكانت ديمقراطيتهم بذلك الديمقراطية المباشرة التي لا تحتاج إلى مجلس نيابي، ولا إلى مجلس تنفيذي، على النحو الذي عرف مؤخراً، وهي لم تكن تقوم على موظفين دائمين، وإنّما كان الموظفون ينتخبون كل عام. وكثيرا ما كان الانتخاب يجري بالاقتراع، وكان أهل أثينا يعتقدون أن الاشتراك في مناقشة، وسياسة الشؤون العامّة، حقّ لكلّ مواطن، وواجب عليه، «لم يكونوا يعتبرون النساء والعبيد من المواطنين». (...)

الفرد غاية

ولقد أخذت الديمقراطية من أيام أثينا تنمو وتتطوّر

وتتباين في ذلك في مختلف أرجاء العالم، ولكنّها تنبع في كلّ مكان من مبادئ تحاول أن تبيّنها بوضوح كنهج متميّز وفذّ من مناهج الحياة. نهج للحياة يعترف بكرامة الإنسان، ويحاول أن يقيم تصريف الشؤون الإنسانية وفق العدل، والحقّ، وقبول الشعب. ولقد وصلت مرحلة تطوير الديمقراطية الحديثة إلى مبادئ يمكن تلخيص أهمّها في ما يلي:

١ ـــــ الاعتراف بالمساواة الأساسية بين الناس.
٢ ـــــ قيمة الفرد فوق قيمة الدولة.
٣ ـــــ الحكومة خادمة الشعب.
٤ ـــــ حكم القانون.
٥ ـــــ الاسترشاد بالعقل، والتجربة، والخبرة.
٦ ـــــ حكم الأغلبية، مع تقديس حقوق الأقلّية.
٧ ـــــ الإجراءات أو الوسائل الديمقراطية تستخدم لتحقيق الغايات في الدولة الديمقراطية.

فليست الإجراءات ولا الأجهزة الديمقراطية غاية في ذاتها، وإنّما هي وسيلة إلى غاية وراءها. ليست الديمقراطية أن تكون لنا هيئة تشريعية، وهيئة تنفيذية، وهيئة قضائية، وإنما جميع أولئك وسائل لتحقيق كرامة الانسان. الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب، وإنما هي منهاج حياة، الفرد البشري فيه غاية، وكل ما عداه وسيلة إليه، ولا يجد أسلوب الحكم الديمقراطي الكرامة التي يجدها عند الناس إلا من كونه أمثل أسلوب لتحقيق كرامة الإنسان.

الديمقراطيـــــــــــة ليست أسلوب حكم فحسب. وإنما هي منهاج حياة. الفرد البشري فيه غاية. وكل ما عداه وسيلة إليه.

وفي النهج الديمقراطي الحاضر خطأ هو أقل من الخطأ الذي تورّطت فيه الشيوعية الماركسية بكثير، لكنّنا رغم ذلك لن نسترسل في استقصائه هنا وإنما نتركه إلى حينه في سفر «الإسلام ديمقراطي اشتراكي».

وإنما تجيء كرامة الإنسان من كونه أقدر الأحياء على التعلم والترقي، وإنما تجيء كرامة الديمقراطية من كونها، كأسلوب للحكم، أقدر الأساليب على إتاحة الفرص للإنسان ليبلغ منازل كرامته وشرفه، وإنما يتعلم الإنسان من أخطائه، وتلك هي الطريقة المثلى للتعليم. ففي الديكتاتورية تمنع الحكومة الفرد من أن يجرب، أو يعمل بنفسه، وبذلك تعطل نموه الفكري والعاطفي والخلقي، لأن كل أولئك إنما يتوقف نموه على ممارسة العمل، وتحمل مسؤولية الخطأ في القول، وفي العمل، ثم التعلم من الخطأ. وعلى العكس من الديكتاتورية، نجد أن الديمقراطية قائمة على الحق في ارتكاب الأخطاء، وهذا ليس معناه الرغبة في الخطأ من أجل الخطأ، وإنما الاعتراف بأن الحرية توجب الاختيار بين السبل المختلفة للعمل. ولا يمكن للإنسان أن يكون ديمقراطياً حقا دون أن يتعلم كيف يختار، وأن يحسن الاختيار في ذلك، وأن يصحح، باستمرار، خطأ الاختيار الذي يبدو منه الفينة بعد الفينة. وفي واقع الأمر فإن السلوك جميعه، وممارسة الحرية برمّتها، إنما هي سلسلة من التصرف الفردي في الاختيار والتنفيذ. أو قل في حرية الفكر، وحرية القول، وحرية العمل. على شرط واحد هو أنّ الإنسان يتحمّل نتيجة خطئه في القول، وفي العمل، وفق قانون دستوري.

فالديمقراطية هي حقّ الخطأ. وفي قمّة هذا التعريف جاء حديث المعصوم «إن لم تخطئوا وتستغفروا فسيأتي الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم».

«لستَ عليهم بمُسيطر»

ومن كرامة الإنسان عند الله أنّ الحرية الفردية لم يجعل عليها وصيّا، حتى ولو كان هذا الوصي هو النبي على رفعة خلقه وكمال سجاياه. فقد قال تعالى في ذلك «فذكّر إنما أنت مذكّر/ لست عليهم بمسيطر»، والمعنيون هنا هم المشركون، الذين رفضوا عبادة الله، وعكفوا على الأصنام، يعبدونها، ويتقرّبون إليها بالقرابين، والمنهي عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد، الذي لم يُـرد علوّاً في الأرض، والذي قال تعالى عنه «وإنك لعلى خلق عظيم». ومن هذا نأخذ أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين. وأنّ ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردي عليها. وفي الحق أن الحرية الفردية حقّ أساسي يقابله واجب هو حسن التصرف في ممارستها. ولمّا كان مجتمع المؤمنين قاصراً عن الارتفاع إلى ممارسة الحرية الفردية في الاختيار والعمل فقد جعل النبي وصيّاً عليهم ليُعدّهم لتحمّل مسؤولية الحرية الفردية المطلقة، وهو أثناء وصايته عليهم يصرّ على إعطائهم حق الخطأ، كلما وسعه ذلك، من غير أن يشقّ عليهم أو يعنتهم. فهو بذلك إنما يعدّهم لممارسة الديمقراطية حين يقوى عودهم، ويستحصد عقلهم. وبذلك أمر الله حين قال «فبما رحمة من الله لنت

لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إنّ الله يحب المتوكلين».

وهذه آية الشورى، والشورى، حيث وردت، سواء في هذه الآية، أو في قوله تعالى «والذين استجابوا لربهم، وأقاموا الصلاة، وأمرُهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون» فليست آية ديمقراطية، وإنما هي آية تنزلت من آية الديمقراطية لتعدّ الناس ليستأهلوا الديمقراطية، حين يجيء أوانها. فالشورى ليست أصلاً، وإنما هي فرع، وهي ليست ديمقراطية، وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعدّ الأمّة لتصبح ديمقراطية. والأصل في الديمقراطية آيتا «فذكّر إنما أنت مذكر / لستَ عليهم بمسيطِر».

وبنفس هذا القدر، الزكاة ذات المقادير ليست اشتراكية، وإنما هي رأسمالية. وآيتها «خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم، وتزكّيهم بها، وصلّ عليهم، إن صلاتك سكن لهم». ليست أصلاً، وإنما هي فرع. والغرض وراءها إعداد الناس نفسياً، ومادّياً ليكونوا اشتراكيين، حين يجيء أوان الاشتراكية. والآية الأصل، التي تنزّلت منها آية الزكاة ذات المقادير، هي قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ولقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك.

الشـــــــــــورى ليست أصلا. وإنما هي فرع. وهي ليست ديمقراطية. وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعد الأمة لتصبح ديمقراطية. والأصل في الديمقراطيـــــــــــة آيتا «فذكر إنما أنت مذكر / لست عليهم بمسيطــــــــــر».

ولمّا كانت الرسالة الثانية تقوم على الارتفاع من الآيات الفرعية إلى الآيات التي هي أصل، والتي جرى منها التنزّل إلى الفروع لملابسة الزمان، ولملاءمة طاقة المجتمع، المادية، والبشرية، فقد وجب الارتفاع بالتشريع، وذلك بتطويره ليقوم على آيات الأصول، وكذلك يدخل عهد الاشتراكية، وعهد الديمقراطية. وينفتح الطريق إلى تحقيق الحرية الفردية المطلقة بالممارسة في مستوى العبادة، ومستوى المعاملة. وهذه هي شريعة المسلمين. شريعة الأمّة المسلمة التي لمّا تأت بعد، وقد أصبحت الأرض تتهيأ لمجيئها. فعلى أهل القرآن أن يمهّدوا طريقهم، وأن يجعلوا مجيئهم ممكناً، وميسّراً، وهذا ما من أجله كُتب هذا الكتاب.

المساواة الاقتصادية: الاشتراكية

الاشتراكية تعني أن يكون الناس شركاء في خيرات الأرض، وهي قد بدأت منذ أن بدأ المجتمع، فإنها صنو الرأسمالية. وكانت الرأسمالية، ممثلة في الملكية، هي النظام الذي نشأ عليه المجتمع، ولقد تطوّرت الرأسمالية إلى أن وصلت معناها العلمي الحاضر، وكذلك تطورت الاشتراكية، وإنما كان تطورها أبطأ من تطور الرأسمالية لأن الرأسمالية تعتبر مقدمة طبيعية لها، ولا يمكن للاشتراكية أن تسبق الرأسمالية. ثم إن الاشتراكية نتيجة حكم القانون الذي يرعى حق الضعيف، في حين أن الرأسمالية نتيجة قانون الغابة الذي يعطي الحق للأقوياء، ويتقاضاه لهم، وبطبيعة النشأة، فإن قانون الغابة مرحلة سابقة لمرحلة قانون العدل، والمرحمة.

ولقد ظهرت الاشتراكية في جرثومتها البدائية في صورة الحَسَد، أو الغبطة التي تعتمل في صدر «الماعندهم ضد العندهم». فقد كان محسوداً الذي يوفق إلى سلاح حجري يمتاز بالخفة، والقوة، والحدّة. والذي يوفّق إلى كهف حصين، وفسيح، والذي يوفّق إلى زوجة جميلة، ومُحبّة، ومطيعة، وقوية، وهكذا. ولقد دفع هذا الحسد إلى الصراع التاريخي بين «الماعندهم والعندهم». ولا يزال هذا الصراع محتدما، ولن ينفك، حتى تتمّ المساواة المطلقة بين الناس في خيرات الأرض.

وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع الطويل المرير كانت الاشتراكية في مرحلتها البدائية، وهذه تعني المشاركة في الخيرات التي لا تضيق بأحد، ولا يقع عليها الحوز. ولقد عبّر المعصوم عن هذه حين قال «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلأ والنار». وفي هذا الحديث إشارة رصينة إلى وجوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الخيرات باستغلال الموارد الطبيعية والصناعية.

وإنما دخلت الاشتراكية في الطور العلمي مؤخراً، وبرزت، واستحوذت على اهتمام الناس، وأصبحت في أيامنا هذه يدّعيها الذين يعنونها، والذين لا يعنونها، وذلك لفرط تعلّق الشعوب بها.

من روبرت أوين إلى كارل ماركس

ولقد بدأ في أوائل القرن التاسع عشر استخدام اصطلاحَي «الاشتراكية» و«الشيوعية» في كل ما له صلة بفكرة الملكية العامة للعقار. وقد استخدم اصطلاح «الاشتراكية» في إنكلترا في حوالي عام ١٨٢٠، ولأول مرة، بواسطة روبرت أوين، وهو صانع ثري،

ويعتبر مؤسس الاشتراكية الحديثة. ولقد كان يؤمن بإمكان تحقيق التحسين الاجتماعي عن طريق الوسائل الاختيارية، والدستورية الوئيدة، والمستقرّة، التي تجنب الشعوب الشرور التي تسير في ركاب التغييرات الثورية العنيفة، وبخاصة سيئة الإعداد منها.

الاشـــــــــــــتراكية العلمية عندنا تقوم على دعامتين اثنتيـــــــــــــن أولاهما زيادة الإنتاج وثانيتهما عدالة التوزيع.

وكلمة «الشيوعية» مشتقّة من كلمة لاتينية معناها «عام» أو «مملوك للجميع». ولقد استخدمت في أول الأمر حوالي عام **١٨٣٥** بواسطة الجمعيات الثورية السرية الفرنسية التي كانت ترمي إلى قلب الطبقة الوسطى بالعنف، ثم السيطرة على فرنسا، بهدف إنشاء اقتصاد يكون فيه جميع المتاع المنتج مملوكاً للشعب، وتكون فيه طبقة العمال هي العنصر الحاكم.

ودخل كارل ماركس في الصورة، وأخذ يدرس ويرصد ويطوّر أفكاره على أساس النظريات، والتطبيقات الاشتراكية، والشيوعية المختلفة، ولقد فضّل اصطلاح «الشيوعية»، فاختاره ليصف به أفكاره، لأنّ هذا الاصطلاح كان مرتبطاً بفكرة تغيير المجتمع بالعنف. وكان ماركس يقيم مذهبه على أربعة مبادئ:

- مجرى التاريخ تتحكّم فيه القوى الاقتصادية.
- التاريخ ما هو إلا سجلّ لحرب الطبقات.
- الحكومة ما هي إلاّ أداة تستخدمها طبقة في اضطهاد طبقة أخرى.
- العنف والقوة هما الوسيلتان الوحيدتان لتحقيق أي تغيير أساسي في المجتمع.

وعلى هذه المبادئ، ووفاءً بها، ظل ماركس، منذ كتاباته الأولى، يهاجم بإلحاح التجارب الاشتراكية، كالتي كان يرعاها روبرت أوين، ويصفها بأنها غير علمية، وغير واقعية، لأن التاريخ، كما هو واضح في رأيه، قد سار على قوانين علمية قاسية، وأنّ تغييراً اجتماعياً جوهرياً بغير طريق القوّة والعنف لا يمكن أن يتمّ. ولهذا فقد سخر باعتقاد أوين وغيره من الاشتراكيين بإمكان إصلاح اجتماعي عن طريق الزمالة، والتعاون، والتطوّر الوئيد. وكان يسمي عملهم هذا الاشتراكية «المثلى» ويهتمّ كثيراً بالتفريق بينها وبين مذهبه هو، ويسمّيه الاشتراكية «العلمية» أو «الشيوعية». ونحن عندما نتحدث عن الاشتراكية العلمية، أو عن الشيوعية، فيما ندعو إليه، لا نريد مذهب ماركس هذا، بل إنّا لنعلم أنّ اشتراكية ماركس ليست علمية، وإنما هي متورطة في خطأ أساسيّ، ليس هذا المقام مقام الخوض فيه، وإنّما سنخوض في تبيانه عند الكتابة عن «الإسلام ديمقراطي اشتراكي» الذي سيصدر عما قريب إن شاء الله.

الحدّ الأدنى لجميع المواطنين

فالاشتراكية العلميّة، عندنا، تقوم على دعامتين اثنتين، وفي آن واحد: أولاهما زيادة الإنتاج، من مصادر الإنتاج، وهي المعدن، والزراعة، والصناعة، والحيوان. وذلك باستخدام الآلة، والعلم، وبتجويد الخبرة الإدارية، والفنية. وثانيتهما عدالة التوزيع، وهي تعني، في مرحلة الاشتراكية، أن يكون هناك حدّ أعلى لدخول الأفراد، وحدّ أدنى. على أن يكون الحد الأدنى مكفولاً لجميع المواطنين، بما في ذلك الأطفال، والعجائز، والعاجزون عن الإنتاج، وعلى أن يكون كافياً ليعيش المواطن في مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية. وأمّا الحدّ الأعلى للدخول فيشترط فيه ألّا يكون أكبر من الحدّ الأدنى بأضعاف كثيرة حتى لا يخلق طبقة عليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة ذات الدخول الدنيا. ومن أجل زيادة الإنتاج وجَب تحريم ملكية مصادر الإنتاج، ووسائل الإنتاج، على الفرد الواحد، أو الأفراد القلائل في صورة شركة، سواء كانت شركة إنتاج، أو شركة توزيع. ولا يحلّ للمواطن أن يملك، ملكاً فردياً، إلّا المنزل، والحديقة حوله، والأثاث داخله، والسيارة، وما إلى ذلك مما لا يتعدّى إلى استخدام مواطن استخداماً يستغلّ فيه عرقه لزيادة دخل مواطن آخر. والملكية الفردية، حتى في هذه الحدود الضيّقة، يجب ألّا تكون ملكية عين للأشياء المملوكة، وإنّما هي ملكية ارتفاق بها، وتظلّ عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها.

ثمّ إنّه كلما زاد الإنتاج من مصادر الإنتاج اتجهت عدالة التوزيع إلى الإتقان، وتقريب الفوارق، وذلك برفع الحدّ الأدنى، وبرفع الحد الأعلى، على السواء. لكنّ رفع الحد الأدنى يكون نسبياً أكبر من رفع الحد الأعلى، وذلك بغية تحقيق المساواة المطلقة. وعند تحقيق المساواة المطلقة بفضل الله، ثم بفضل وفرة الإنتاج، تتحقّق الشيوعية، وهي تعني شيوع خيرات الأرض بين الناس.

فالشيوعية إنّما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار. فكأنّ الاشتراكية إنّما هي طور مرحليّ نحو الشيوعية.

حين يحدثنا القرآن عن الجنة إنما عنى أيضـــــــــا النموذج المصغر للجنة الكبرى الذي يتحقـــــــــق فـــــــــي هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين.

ولقد عاش المعصومُ الشيوعيةَ في قمّتها حين كانت شريعته في مستوى آية الزكاة الكبرى «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ولقد فسّر العفو بما يزيد عن الحاجة الحاضرة. وحديثه عن الأشعريين في مستوى الشيوعية، وذلك حين قال «كان الأشعريون إذا أملقوا، أو كانوا على سفر، فرشوا ثوباً، فوضعوا عليه ما عندهم من زاد، فاقتسموه بالسوية، أولئك قوم أنا منهم وهم منّي». وهذا هو فهم الأمّة المسلمة التي لمّا تجئ بعد. ولقد أدرك هذا الفهم أصحابُنا الصوفية وذلك حين تصوّروا جميع الأرض، وما عليها من خيرات، كمائدة أنزلها الله على عباده، وأمرهم أن يرتفقوا منها بزاد المسافر، ويواصلوا سيرهم إليه. فهذه الأرض، مثلها عندهم مثل المائدة، وضعت للآكلين، وعليها اللحم، والخبز، والخضر، والحلوى، وجلس إليها عشرة رجال، فإنّ كلّ ما عليها هو على الشيوع بينهم، ولا تقع لك الملكية الفردية لقطعة لحم منها، إلّا حين تحتويها أصابعك، وتبدأ رحلتها إلى فمك.

الشيوعية يحقّقها الإسلام

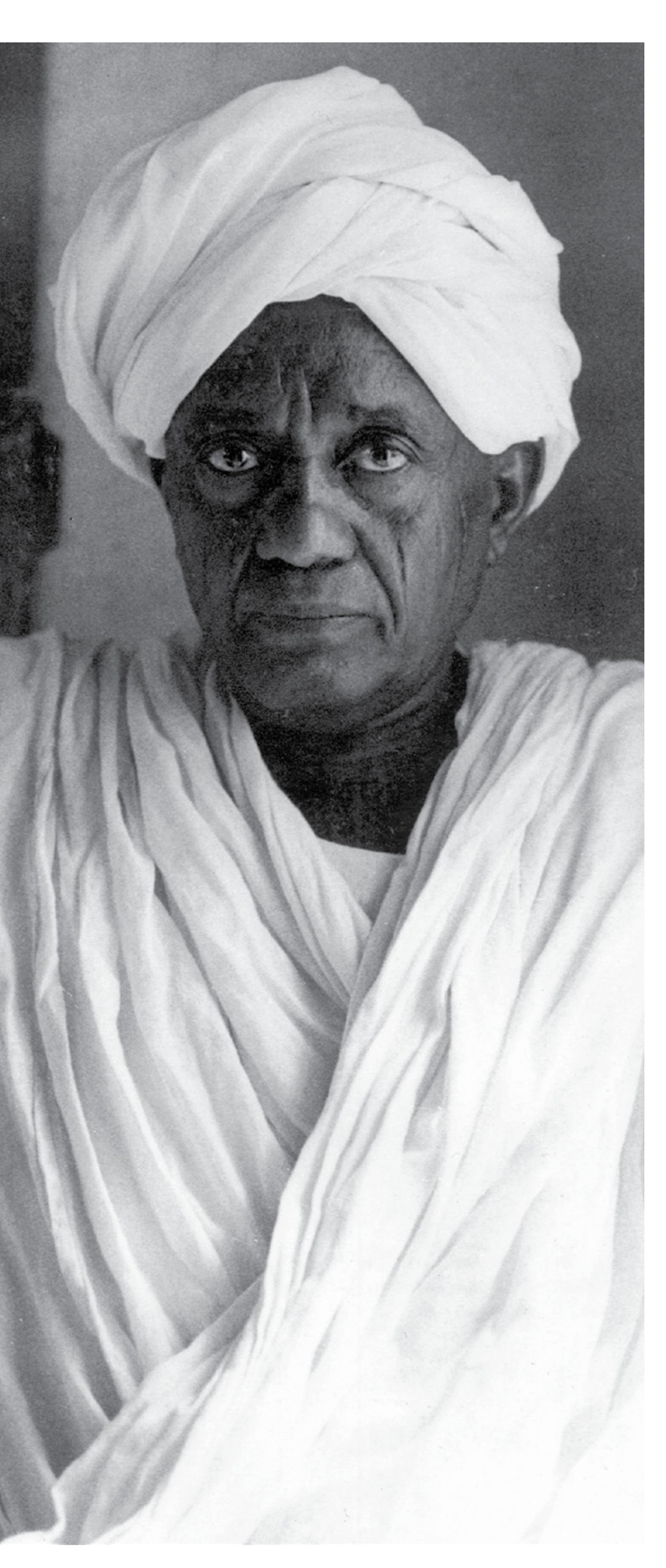
وحين يحدّثنا القرآن عن الجنّة «وقالوا الحمد لله الذي صدَقنا وعده، وأورثنا الأرض، نتبوّأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين» إنما عنى أيضاً النموذج المصغّر للجنّة الكبرى، الذي يتحقّق في هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين «تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا» على حدّ التعبير النبوي الكريم. وهو ما داعب خيال ماركس وضلّ الطريق إليه كلّ الضلال، ولن يبلغه إلّا المسلمون الذين لمّا يأتوا بعد. وحين يأتون سيتحقّق في الأرض طرف من قوله تعالى «إنّ المتّقين في جنّات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غلّ، إخواناً على سرر متقابلين. لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرَجين». وهذا الطرف هو الشيوعية التي يحقّقها الإسلام بمجيء أمّة المسلمين، ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها، وتتمّ نعمة الله على سكّانها، ويحلّ في ربوعها السلام، وتنتصر المَحبّة.

٥- المساواة الاجتماعية: محو الطبقات والفوارق

هذه أصعب المساويات تحقيقاً، وتعتبر المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية مقدّمة لها، وهي تتويج لهما، وخلاصة، وقمّة. وهي لم تتحقق للإنسانية إلى يوم الناس هذا، ولن تتحقق في المستقبل إلّا بالجهد الشاقّ، والتربية، والتعليم، لتصحيح، وتغيير ما هو كالطبيعي في المسلك الإنساني. وهي بذلك أرقى إنتاج المدنية في جميع العصور. إذ المدنية إن هي إلّا محاولة تبعد الإنسان عن نزعاته الحيوانية الدنيئة، وتقوده إلى مستوى أعلى من الخلق، حيث يستبدل قانون الغابة ـ قانون العنف، والسيطرة بالقوة ـ بقانون العدل، والحق، والمرحمة ـ فيدخل بذلك التحسين في نوع العلاقات البشرية، فيحلّ الرضا محلّ القوة، والعدالة محلّ الاستغلال، والحرية محلّ الكبت، والعاطفة المتسامية بالعقل القوي، محلّ العاطفة الناضبة. (...)

ضد الفوارق والتمييز

موضوع المساواة الاجتماعية هو الفرد البشري، كما كان الأمر في شأن المساواة الاقتصادية، والمساواة السياسية. فإنّ الفرد البشري، كما سبقت الإشارة إلى ذلك مرات، هو الغاية وراء كل سعي جماعيّ. هو غاية وسيلتها الإسلام والقرآن، وهما أعظم الوسائل المنهجية على الإطلاق. ووسيلته أيضاً المجتمع، وهو أعلى ما أنتجته الإنسانية إلى اليوم. والفرد الذي هو غاية هو الفرد البشَري، من حيث هو بشَري. حتى وإن كان أحمق. فإنّه يجب ألّا يجعل وسيلة إلى شيء سواه. ومن أجل ذلك وجب ألّا تقوم بين الأفراد فوارق من جرّاء المولد، أو العنصر، أو اللون، أو العقيدة، أو الجنس من الذكورة والأنوثة. قال تعالى في ذلك: «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير»، وقوله «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» يعني إنما تكون الكرامة بالعلم والخلق. فإنّ التقوى علم وعمل بمقتضى العلم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى «إنّ الله عليم خبير». «عليم» إشارة إلى العلم. «خبير» إشارة إلى التصرف بالعلم. وقال المعصوم «الناس لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم».



وعدم التمييز الاجتماعي ضد الضعيف، ومحو الفوارق التي قامت على قانون الغابة بين الأفراد والطبقات هو عمل التمدين الأكيد، فإذا وجدت مجتمعاً للضعفاء فيه حقّ محفوظ، وكرامة مرعيّة، وإذا وجدت مجتمعاً للنساء فيه حرية، وحرمة، وتشريف، وللأطفال فيه حقوق، وله بهم عناية، وعليهم رحمة، ولهم فيه محبّة، فاعلم أنه مجتمع متمدّن، ومتحضّر.

أن المرأة حين تعد لتكون أما بأن تعلم كل مـــا يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المتشعبة لا تقــل خـــدمتها للمجتمع فى نظر المجتمع عن خدمة أخيها.

والأسرة هي المجتمع الأول، وفيها تعلّمَ، ولا يزال يتعلّم، الفرد النظام، والسلوك الاجتماعي النظيف، واحترام القانون، وتوقير السلطة، والتعاطف، والتسامح، والمحبة. ولا تزال للأسرة مقدرتها الفائقة على تربية الأفراد التربية التي تكون بعيدة الأثر، في حياتهم الفردية، وحياتهم في مجتمعهم الصغير، وفي مجتمعهم الكبير، حين يبرزون إليهما، وعماد الأسرة الأمّ، وهي ملكة المملكة الصغيرة، ولكن مع شديد الأسف فإنّ الاعتراف بها لم يتّفق للأسرة البشرية إلى اليوم. فإنها كانت، ولا تزال، مضطهدة. وكان، ولا يزال، دورها في بيتها دور الخادمة. ولهذا الوضع سُود العواقب على تنشئة الأطفال، مما يترك عميق الأثر في حياة المجتمع برمّته وفي جميع مستوياته.

التعليم مسار تطوّري

ولقد أسلفنا القول في هذا الكتاب عن أمر المساواة المطلقة بين الرجال والنساء مما لا نحتاج إلى إعادته في هذا الموضع، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنّ أمر المساواة الاجتماعية لا يجيء عفواً، وكأمر طبيعي للتطوّر. بل لا بد فيه من التخطيط، والتطوير الذكي للمجتمع، ذلك بأنه يحتاج إلى تعليم، ويحتاج إلى تربية. والتعليم غير التربية، فإنّ غرض التعليم إكساب الفرد الخبرة المهنية التي تجعله مفيداً للمجتمع في الميدان الذي خلق وهو مستعدٌّ له بما ركز في فطرته من موهبة. وهو ضروري ليسلّح الأفراد بالقدرات العلمية، والفنية، والإدارية، والتكنولوجية، لتنمية حضارة مجتمعهم، وللتسامي بها في مراقي الكفاءة والكفاية. وفي

التعليم يقع التخصص، ويقع التميز، ويسود الاتجاه إلى التخطيط لإنجاب حاجة المجتمع ـ فيه يقع التميز بين الرجال، والنساء، ويقع التميز بين الرجال، والرجال أيضاً، ذلك بأنه إنّما يرمي إلى تنمية، وتغذية الموهبة عند كل موهوب، حتى يخدم مجتمعه في الميدان الذي خلق وهو مستعد له استعداداً فطرياً، بيد أنّ هذا التمييز الذي يقع في ميادين الإعداد لخدمة المجتمع المدنية لا يحمل معه أيّ امتياز اجتماعي ترتفع به، تلقائياً، مكانة فرد فوق فرد آخر. وفي هذه النظرة، التي تتّجه إلى إعداد المواطنين

القاعدة الذهبية في التربية هي أن تضع الأفراد أمام المسؤولية وأن تعينهم. بكل الوسائل. على تحمل المسؤولية.

إعداداً مهنياً بواسطة برامج التعليم الموجّه، قيمة المرأة غير قيمة الرجل، ولكنها قيمة مساوية لقيمته. بمعنى أنّ المرأة، حين تعدّ لتكون أمّاً، بأن تعلّم كل ما يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المتشعّبة، لا تقلّ خدمتها للمجتمع، في نظر المجتمع، عن خدمة أخيها الذي يعدّ ليكون مهندساً، أو طبيباً، أو مشرّعاً. وليس لإعداد الأمومة الصالحة حدّ تقف عنده، فإنّ الفتاة كلّما علمت كلّما زادت كفاءتها في ميدان الأمومة نفسها. ومن أجل مصلحة المجتمع يجب أن يعلم كل فرد عملاً يتقنه باليد وبالعقل، وهو كذلك من مصلحة الفرد نفسه، لأنّ الإنسان لا تنضج قيَمه الفكرية، ولا قيَمه الخلقية، إلّا إذا كان يحب العمل اليدوي، ويتقن طرفا منه إتقاناً حسناً، ذلك بأنّ الترقّي جميعه إنما هو علم، وعمل بمقتضى العلم. قال تعالى في ذلك «إليه يصعد الكَلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه». كل هذه المسائل تدخل في غرض التعليم.

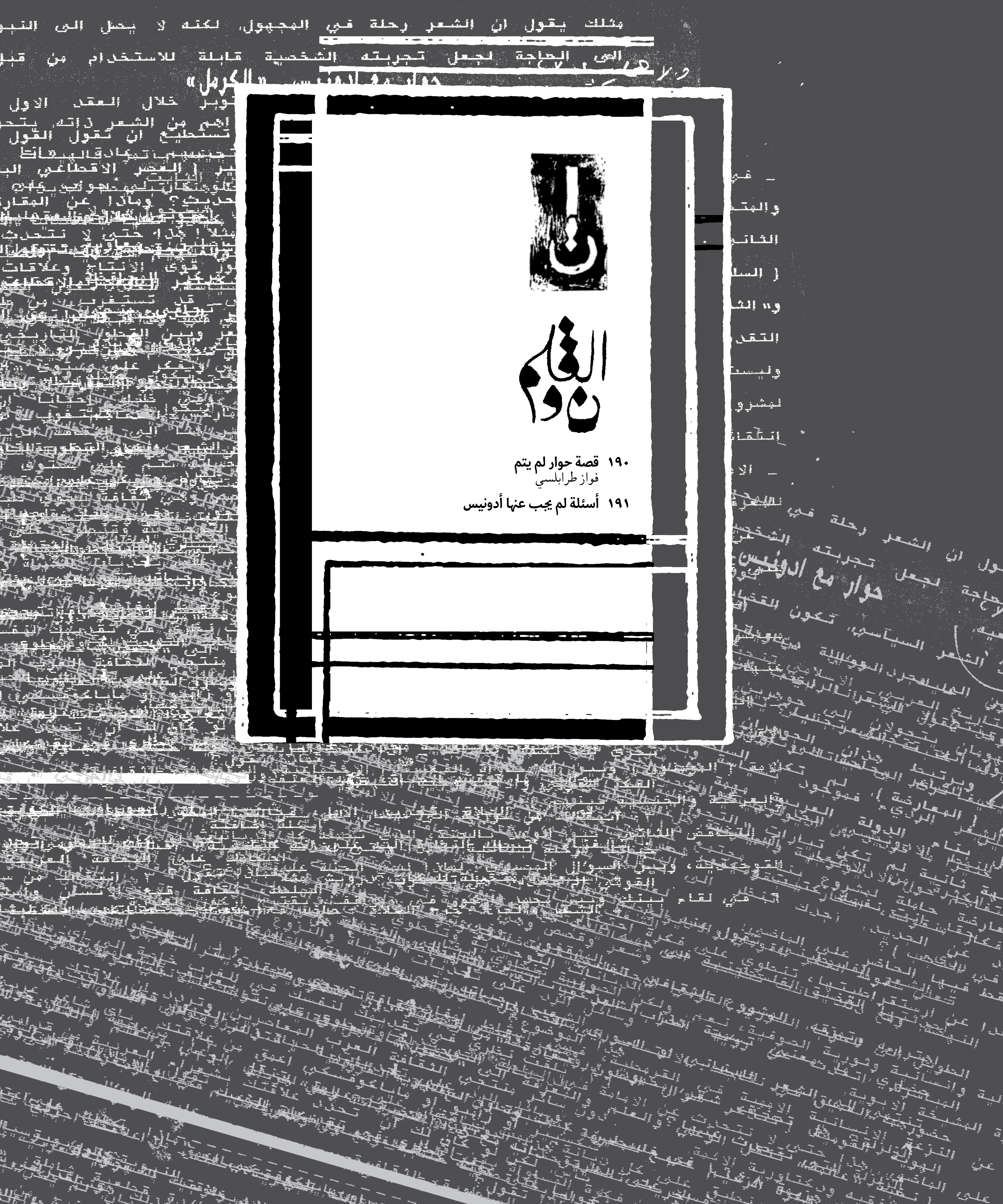
التربية تحرير للمواهب

وأمّا غرض التربية فهو تحرير المواهب الطبيعية: العقل، والقلب، من أسْر الأوهام، والأباطيل. فبسلامة القلب من الخوف، وصفاء الفكر من الأوهام، تتحقق حياة الفكر، وحياة الشعور، وهي غاية كل حي. وهي مهمة التربية. وللتربية وظائف كثيرة هي في جملتها نقل الإنسان من الاستيحاش إلى الاستيناس، حيث تصبح عاداته جميعها إنسانية، ومهذبة. فهو يأكل بطريقة إنسانية، ويشرب بطريقة إنسانية، وينام، ويجلس، ويتحدث، ويتصرف في جميع شؤونه، العامة والخاصة، بطريقة إنسانية ومهذبة، فلا يعرض مباذله، ولا يبدر منه ما يؤذي السمع، ولا البصر، ولا العقل، ولا القلب. وهو لا يبصق في الأماكن العامة النظيفة، ولا يتبول، ولا يتغوط، في الأماكن العامة. ولا يرمي الأوساخ، والقاذورات، في الأماكن النظيفة على الطرقات. وهو، على العموم، يحاول، بجهد الطاقة، أن يترك كل شيء على صورة أحسن من التي وجده عليها.

ويجب أن يعدّه لكل أولئك التربية. التربية في المدارس، وفي النوادي، وفي الأماكن العامة، حيث يجري التثقيف، والتعليم، للشعب، كل حين، وبغير انقطاع، وبكل وسائل الإعلام التي تستطيع الدولة أن توفرها، من إذاعة، وتلفزيون، وسينما، ومسرح، وصحافة، وكتب، ومجلات، ومحاضرات، وأنواع التسجيل المختلفة، لأنواع الفنون المختلفة، حيث توجّه الدولة كل إمكانات المجتمع لإنجاب الأفراد الناضجين، وذلك بتوخّي النهج التربوي السليم. فإن مشاكل المجتمعات كون أغلبية الأفراد إما مراهقين، أو أطفالاً. ويقلّ فيها الأفراد الناضجون الذين يقوون على مواجهة الحقيقة، (والأطفال يتابعون مبدأ اللهو، وهو مبدأ يجعل الإنسان يتصرف مدفوعاً بأهوائه ورغباته، ويحاول أن يحقق أية رغبة عند ظهورها، دون أن يوازن بين رغبة وأخرى وينفّذها، ويقترن الجري وراء هذا اللهو الوقتي المباشر بتجنب ما قد يسبب الفشل، أو الألم، أو الإنكار، ومسلك كهذا ينشأ من الفشل في التمييز بين الرغبات المتنازعة على أساس معقول طويل المدى. وغالباً ما يحلّ التمنّي محلّ ما هو محتمل أو مرغوب فيه) وليس هناك مخرج إلا عن طريق التربية.

والتربية، بخلاف التعليم، لا يقع فيها التخصص، ولا التمييز بين الرجال والنساء، وإنما هي حق أساسي لكل فرد بشري، وهي تشمل حتى الأطفال، ولا تحدّ إلا بطاقاتهم على التلقي، والإدراك، والتنفيذ.

والقاعدة الذهبية في التربية هي أن تضع الأفراد أمام المسؤولية وأن تُعينهم، بكل الوسائل، على تحمل المسؤولية، ذلك بأن غرض التربية هو إنجاب الأفراد الناضجين. هو إنجاب الرجال، من الأطفال، ومن المراهقين، الذين تعجّ بهم المجتمعات عجيجاً. والفارق بين الأطفال والمراهقين، وبين الرجال هو أن الرجال يتصرفون بحرية، ويتحمّلون مسؤولية تصرفهم، بينما الأطفال والمراهقون يتركون التصرف خوف المسؤولية، أو يتصرفون ويحاولون الهروب، تحت الظلام، من مسؤولية تصرفهم.


ن والقلم
١٩٠ قصة حوار لم يتم
فواز طرابلسي
١٩١ أسئلة لم يجب عنها أدونيس



قصة حوار لم يتم

في العام ۱۹۹۰، في باريس، اقترح محمود درويش على أدونيس أن تجري مجلة «الكرمل» مقابلة معه ضمن سلسلة من المقابلات مع الشعراء العرب. وسأل محمود أدونيس إذا كان يفضّل احداً أن يجري المقابلة، فاختارني أنا. وكنت حينها في عداد أسرة تحرير «الكرمل». ترددتُ أول الأمر، على اعتباري لست شاعراً ولا ناقداً أدبياً بأي معنى احترافي. لكني فكرت أنه إذا كان أدونيس قد اختارني فهو يحدس أننا سوف نجري مقابلة سجالية غنية متعددة المواضيع وناجحة. أقول سجالية لأنه كان دوماً يدعوني «صديقي اللدود» لكثرة ما بيننا من خلافات عقيدية وسياسية وأدبية. وافقت متهيّباً.

قلت لأدونيس نلتقي على كأس عرق. نضع مسجّلة بيننا ثم ننطلق. قال: موافق وستكون المقابلة بمناسبة عيد ميلادي الستّين وأختم بعدها اعطاء مقابلات صحافية.

لم يكن شعر أدونيس ولا آراؤه بغريبة عنّي منذ أيام الدراسة الثانوية. مع ذلك، أعطيتني مهلة لا بأس بها للإعداد، قرأتُ خلالها القسم الأكبر من أعمال علي أحمد سعيد الشعرية، وكثرة من مقابلات ودراسات له وعنه في الصحف. ووضعت بضع عشرات من الأسئلة على أن تضاف إليها اسئلة ثانوية خلال المقابلة.

ولما حان وقت المقابلة أبلغني أدونيس، وكان موظفاً في «الأونيسكو» حينها، أنه يفضّل قراءة الأسئلة أولاً ثم نتوسع بواسطة الحوار الشفهي.

سلّمته قائمة الأسئلة ولما قرأها هاتفني قائلاً إنه يفضّل الإجابة عنها خطّياً. بعد أيام استدعاني وسلّمني إجاباته المكتوبة، ولست متأكداً ما إذا سلّمني إياها أو تركها عند سكرتيرة في المكتب. المهم أنّ المقابلة الشفوية لم تحصل.

قرأت الأجوبة وفوجئت بالتسرّع والسلبية في الأجوبة، وقد اختتم المقابلة بنص يتساءل فيه لماذا صديقي ظلمني / وهاجمني، وفيها تحسّر ولوم على الصديق الذي هو أنا.

أيقنت أن الأسئلة قد بدت له سلبية بل مستفزّة، وأن المقابلة لم تكن ناجحة. سلّمت المخطوطة، وكانت بخط اليد، لمحمود مع الملاحظة أني أعتبر المقابلة فاشلة ولا تليق بأدونيس، وتركت له حرية القرار بالنسبة إلى النشر. في اليوم التالي هاتفني محمود ليبلغني أنّ أدونيس اتصل به طالباً استرداد المقابلة والامتناع عن نشرها. وأردف محمود: آمل أن تكون لديك نسخة عن المقابلة للذكرى.

لم يخطر في بالي أن أنسخ المقابلة بالمرة. وهكذا ضاعت أجوبة أدونيس على تلك المقابلة التي لم تتم. ما بقي منها الأسئلة، وقد رقّنتها على كومبيوتري ذي الأحرف العربية.

وقعتُ على الأسئلة منذ فترة. قلت لنفسي لماذا لا أنشرها في «بدايات» لأستطلع آراء القراء عن مدى جديتها وملاءمتها لشخص أدونيس وشعره وأفكاره.

لا يقتصر الأمر على ذلك، نشر أسئلة المقابلة التي لم تحصل بمثابة تجديد العرض على أدونيس لكي يجيب عنها، مع الاستعداد طبعاً لنشر أجوبته، دون أدنى تدخّل، على صفحات المجلة.

فواز طرابلسي

أسئلة لم يجب عنها أدونيس

.١
يطرحون عليك السؤال من أنت؟ فتجيبهم عادة «أنا هو أنا». وقد تقول لي: «أنا أبحث عن نفسي. لو كان لي جوابٍ عن هذا السؤال لما كتبت الشعر». ليس يهمني كثيراً كيف تعرّف نفسك: يهمني أكثر كيف ترى إلى حياتك وتجربتك الشعرية والفكرية الآن وأنت على عتبة الستّين.

.٢
كثيراً ما تردّد أن أيديولوجيتك الوحيدة أنك هدّام الأيديولوجيات. لنتفاهم حول الأيديولوجيا والمعرفة. هل المعرفة تجلٍّ أم هي صراع دائم ضد أفكار منقوصة، أفكار مسبَقة، ضد محدودية وجهة نظر العارف (ومصالحه في الحجب)؟

تعلن سقوط الفكر القومي والأيديولوجيات الصادرة عن فكر النهضة. ومع ذلك فأنت تنتسب إلى إشكاليات هذا وتلك من خلال انتسابك الطويل إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. لست أتحدث هنا في السياسة المباشرة. أتحدث في رؤية الحزب المذكور إلى التاريخ والثقافة وعن حضورهما العميق في نتاجك: الانتساب إلى الحضارات قبل الإسلامية، إشكالية الهوية القومية (تتذكّر سؤال أنطون سعادة: «من نحن؟»)، النخبوية (نخبة «عالمة» تنقل الوعي والعلم والمعرفة إلى «شعب» جاهل، تقليدي، متخلّف)، فكرة الزعيم كنبع للمعرفة (النبوءة)، إلخ.

هل أنت متأكد أنك أجريت تصفية حساب مع هذه التجربة؟ وهل لك أن تُجري لنا تصفية حساب – إذا كنت أجريت تصفية حساب – مع هذا اللون من الفكر القومي والأيديولوجية النهضوية؟

.٣
انتقالك من سورية إلى لبنان. لم يكن لبنان مجرد منفى لك. في حياتك مرحلة لبنانية. لماذا ومتى أخذت الجنسية؟ أقبل الانقلاب السوري القومي أم بعده؟ هل تنصّرت؟

.٤
مواكبتك للسبعينيات. كيف ترى إلى العلاقة بين الأحداث الكبرى التي مرّت بمنطقتنا وبين شِعرك؟

.٥
يأخذ عليك بعض النقّاد اللاتاريخية في نظرتك إلى التراث.
- تقول في «الثابت والمتحوّل» إنك تعالج الإسلام بما هو بنية فوقية. هل هذا يشكل عذراً لعدم إدخال المحدّدات الاقتصادية ـ الاجتماعية في التحليل؟ أم أنّ في الأمر خياراً فلسفياً، نظرياً، ومنهجياً هو هيغليّتك [أي الانحياز إلى فلسفية الفيلسوف الألماني هيغل] التي يتحدث عنها الأب نويّا في مقدمة الكتاب؟
- في نظرتك إلى التاريخ العربي - الإسلامي تنحت مفهومين: الثابت والمتحوّل. هما مفهومان يتحوّلان إلى جوهريَن: لا الأول «يتحوّل» ولا الثاني «يثبت» ولا هما يتبادلان الأدوار. ويرتبط هذان الجوهران عندك بأصلين: معاوية (السلطة) / علي (المعارضة). لم تكن السلطة دوماً مركز المحافظة و«الثبات». فهل بناء الدولة العربية مهمة تقليدية تجافي منحى التقدّم؟ ومن جهة ثانية، لم تكن تيارات «التحوّل» بالصفاء الذي تريده. وليست كل معارضة حاملة لمشروع بناء مجتمع جديد كي تكون حاملة مشروع ارتداد عن الجديد. أجدك تنظر إلى تيارات «التحوّل» نظرة انتقائية تُسقط فيها الحاضر على الماضي:



حوار مع ادونيس ـ «الكرمل»

١. يطرحون عليك السؤال من انت؟ فتجيبهم عادة: «انا هو انا». وقد تقول لي: انا ابحث عن نفسي. لو كان لي جواب على هذا السؤال لما كتبت الشعر. ليس يهمني كثيرا كيف تعرّف نفسك. يهمني اكثر كيف ترى الى حياتك وتجربتك الشعرية والفكرية الان وانت على عتبة الستين.

٢. كثيرا ما تردّد ان ايديولوجيتك الوحيدة هي انك ضد "ام الايديولوجيات". لنتفاهم حول الايديولوجية والمعرفة. هل المعرفة تجلٍ" ام هي صراع دائم ضد افكار منقوصة، افكار مسبقة، ضد محدودية وجهة نظر العارف (ومشاكله في الحجب) ؟

تعلن سقوط الفكر القومي والايديولوجيات الصادرة عن فكر النهضة. ومع ذلك فانت تنتسب الى اشكاليات هذا وتلك من خلال انتسابك الطويل الى الحزب السوري القومي الاجتماعي. لست اتحدث هنا في السياسة المباشرة. اتحدث عن رؤية الحزب المذكور الى التاريخ والثقافة وعن حضورهما العميق في نتاجك: الانتساب الى الحضارات قبل الاسلامية، اشكالية الهوية القومية (تتذكر سؤال انطون سعادة «من نحن؟»)، النخبوية (نخبة «عاقلة» تنقل الوعي والعلم والمعرفة الى «شعب» جاهل تقليدي متخلف...)، فكرة الزعيم كنبع للمعرفة (النبوة)، الخ.

هل انت متأكد انك اجريت تصفية حساب مع هذه التجربة؟ وهل لك ان تجري لنا تصفية حساب ـ اذا كنت اجريت تصفية حساب ـ مع هذا اللون من الفكر القومي والايديولوجية النهضوية؟

٣. انتقالك من سورية الى لبنان، لم يكن لبنان مجرد منفى لك. في حياتك مرحلة لبنانية. لماذا ومتى اخذت الجنسية؟ اقبل الانقلاب السوري القومي ام بعده؟ هل تنصّرت؟

٤. مواكبتك للسبعينيات. كيف ترى الى العلاقة بين الاحداث الكبيرة التي مرت بمنطقتنا وبين شعرك؟

٥. يأخذ عليك بعض النقاد اللاتاريخية في نظرتك الى التراث.

ـ تقول في «الثابت والمتحول» انك تعالج الاسلام بما هو بنية فوقية،

مثلك يقول ان الشعر رحلة في المجهول، لكنه لا يصل الى النبوة. يصل الى الحاجة لجعل تجربته الشخصية قابلة للاستخدام من قبل قرائه ومستمعيه.

_ ضد الشعر السياسي، تكون القضايا فيه اهم من الشعر ذاته. يتحول الشعر الى مجرد وسيلة دعاوية. تتهمه بانه يأتمر بالهيكلات الحزبية، ولا ينتج الا الشعر الرديء. السنت تبسط هنا تبسيطا شديدا؟ حتى لا نقول انك تتجنى تجنيا؟ !)إن جيلنا مصادر كليا بالقضايا السياسية، ليس للشاعر بحاجة الى اوامر حزبية لكي يهتم بقضايا (شعبه). اما الشعر الرديء فموجود بسياسة وبدون سياسة. تكاد تكون القصائد من النمط الادونيسي الحداثي كوارث شعرية في رداءتها اين منها رداءة الكثرة من الاشعار السياسية. على ان ثمت شعرا سياسيا مبدعا حقا. انت نفسك كتبت وتكتب شعرا سياسيا، يجب ان اقول ان الكثير منه رديء.

_ الشعر الفلسطيني: تقول عنه انه لم يكن على مستوى الزلزلة التي احدثتها القضية الفلسطينية في جسد المجتمع العربي الذي فضحته وفضحت اهتراءه وتمزقه. المشروع الثقافي الفلسطيني ضيق وهو سياسي اكثر منه حضاري. ما معنى تسمية هذا الشعر بانه «شعر فلسطيني»؟ هل انت تنتمي الى الشعر اللبناني او السوري مثلا؟ هل كان شعرك انت على مستوى الزلزلة؟ هل تصنف شعر محمود درويش مثلا على انه دون مستوى تلك الزلزلة التي تتحدث عنها؟

_ بعد هزيمة ١٩٤٨ في فلسطين، كتب انطون سعادة «العروبة افلست!». الا ترى نفسك على الطريق ذاته تعلن الاعلان ذاته بعد هزيمة ١٩٦٧؟

_ في الشعر والشعرية مجددا. جوابا على كونه كتابة. وتساؤل ومعرفة:

* يوالف: ما فرقته الحياة، مزقه العنف، باعدته المسافات...

* لون من الصلاة: تجديد الامل، تجديد الثقة بالطاقات البشرية، صلته بالغناء _ تبطله النظرة اليه على انه كتابة

* استعادة متخيلة للمكان: درويش مثلا



- الإمامة، عدا عن أرستقراطيتها، تنطوي على فكرة احتكار الفرد للمعرفة.
عن جدلية وإنسانية وثورية الصوفية، نعم. لكن الصوفية تنطوي أيضاً على فكرة المشيخة الأبوية.
- أما عن النزعة الإنسانية الأممية في القرمطية، فهي إسقاط لمفاهيم معاصرة على الماضي. هذا حتى لا نتحدث عن الإمامة في السلطة التي صدرت عنها فكرة ولاية الفقيه ودكتاتورية الأئمة.
أليس ما تقوله عن الإسلام ينطبق على كل ديانة؟
ثمت تناقضان على الأقل يسمان كل ديانة: الأول هو التناقض بين فكرة المساواة بين أفراد الأمة (المؤمنين) وبين اللامساواة الفعلية (الاجتماعية، السلطوية، الثقافية والعرقية والجنسية بينهم). التناقض الثاني: بين الوعد بالجنّة، الذي تحمله كل الديانات التوحيدية، وبين السؤال المصيري: لماذا ليست الجنّة على الأرض؟

٦.
في لقاء بينك وبين محمد أركون في «مواقف» يقترح أركون العودة إلى ما يسمّيه «النص الأول» (القرآن) وتحريره من «النص الثاني» الذي يرى أنه غدا حجاباً وحاجزاً ثقيلاً جداً يبعد عن النص الأول الذي لا يزال حيّاً خلّاقاً. تتفقان على أن النصّ الثاني إنما هو نص السلطة أو النص الذي تدافع عنه السلطة. تثير عندي هذه الدعوة عدة أسئلة:
- إذا كان المقصود الدعوة إلى ثورة بروتستانتية في الإسلام تقيم علاقة مباشرة بين المؤمن والنص المنزل (المؤسِّس)، وبالتالي تعطيه – المؤمن الفرد – المرجعية المباشرة عن تفسير النص وتأويله، فلماذا لا يقال ذلك صراحة؟
- هل توافق على الفرضية التي تقول إن ثمة نصاً لا زمنياً، كائناً ما كان هذا النص، يحوي الماضي والحاضر والمستقبل ويشكل علماً واستباقاً واستشرافاً لها مجتمعة؟
- أليس مجرّد وجود «النصوص الثانية» بمثابة الاعتراف بأن «النص الأول» محدود في الزمان والمكان، أي الاعتراف بأنه ليس فوق التاريخ بل هو خاضع له؟

٧.
كثيراً ما تنعى على المثقفين والمفكرين العرب العجز عن الحوار فيما بينهم، إذ يعبرون في فكرهم وآرائهم عن مسبقات وأفكار قَبْلية ويسعى كلٌ منهم إلى فرض رأيه على الآخر، إلخ. هل تمارس التفاعل الذي تبشّر به في علاقتك بالآخرين؟ هل تغتني أنت في فكرك من آراء الآخرين ومن حوارك مع الآخرين؟ كيف أغناك – إذا كانوا فعلّا قد أغنوك – سائر المساهمين حول التراث؟

٨.
يبدو لي أنّ تعاملك مع الثقافة والسياسة يسير على النمط الثنائي إياه: جوهران متقابلان هما السياسة والثقافة تقضي الوقت في تمييز واحدهما عن الآخر. تعرّف السياسة على أنها ائتلاف لتنادي بالاختلاف وكثيراً ما تختزل السلطة بالقمع.
ما رأيك بتعريف للسياسة يعتبرها واسطة البشر للسيطرة على مصيرهم وإعادة صياغة حياتهم على نحو أرحب حريةً وعدالة ومساواة؟ أي إنها «الذات» و«المشيئة» البشرية في أرقى تجلياتها؟ أليس يعتمد الأمر على كيفية تعريف السياسة – ويصعب على التعريفات أن تتغافل أن السياسة ميدان خصب للاختلاف – والرؤية الى الحياة التي تلوّن النظرة إلى السياسة؟
المثقفون والسياسة (والسلطة). كثيراً ما ننهج هنا نهجا قديماً (يمتدّ من أفلاطون إلى سعيد عقل): الأولوية للمثقف على السياسي وأحقيّة الأول على الثاني في الحكم والقيادة. لعل هذا ميدان العلاقة الخصبة الغريبة بين المعرفة والسلطة، وبين احتكار المعرفة واحتكار السلطة. في بلادنا جديد في هذا المجال منذ أن استولت على السلطة أحزاب عقائدية تستمدّ شرعيتها من الادعاء أنها تحمل المعرفة (الوعي، العلم، إلخ.) إلى الشعب. هل لك من جديد تقوله في هذا المجال؟

٩.
تمارس في شعرك حرية عظيمة وتعلن حضور الفرد ضد الجماعات التابعة. هذا إلى الدور الكبير الذي لعبته في تثوير اللغة الشعرية وفتح مجالات خصبة أمامه، وهو تثوير قابل لأن ينسحب إلى اللغة العربية بعامة. على أن محور سعيك، في الشعر كما في الفكر، البحث عن الهوية. ومع ذلك تدعو إلى الثورة الشاملة. تدعو إلى نقد يطاول البنى الثلاث الأكثر تقديساً والأكثر جذرية في مجتمعاتنا – الدين، السلطة، الجنس. تدعو إلى استخراج، بل استنطاق «المكبوت والمهمّش» في النفس العربية.
لكن إشكالية الهوية هي الإشكالية القومية أو

الإشكالية الدينية. بل إنّ كل بحث في الهوية يردّ إلى الماضي، إلى البحث عن أصل وإلى الوصف أو السعي نحو جوهر. في حين أن السعي إلى التغيير لا يكتفي برفض إشكالية الهوية، بل ينطلق من أنّ الإنسان صيرورة – الإنسان هو مبدع ذاته، هو صانع ذاته، حسب قول غرامشي. ما الذي يغلب عندك؟ كيف توفّق بين هذين السعيين؟

.١٠
الإبداع والقمع. هل حقاً أن الديمقراطية شرط لما تسمّيه الإبداع؟ هل حقاً كان القمع يحول دون الإبداع وأعظم الأعمال الأدبية والفنية من نتاج عصور مظلمة؟

.١١
ثمت فكرة تقترب منها بحياء ثم تزورّ عنها في كتاباتك. دعني أصفها بفجاجة. صادر الشعر التعبير الأدبي وحتى الفني عند العرب منذ القدم: حديثاً مبدعاً أكان [الشعر] أم إتباعياً تقليدياً. أليس الشعر ذاته الذي يجب كسر احتكاره للتعبير الأدبي والفني عندنا؟ تقول إنك تعمل على جمع ديوان للنثر العربي. هل في هذا الجهد جواب عن سؤالي؟

.١٢
أسهمت إسهاماً كبيراً في تعميم إشكالية حول الشعر هي إشكالية تعريف الشعر وتعريف الكتابة الإبداعية. هل مهمٌ حقاً أن نبذل كل هذه الجهود في البحث عن تعريف للشعر؟

.١٣
من جهة ثانية، كأنك تتطلب من الشعر أن يكون معرفة، علماً. تقول إن «مفهوم الشعر كما ورثناه قد تغيّر كلّياً» لم يعد يطرح عليه السؤال حول معنى هذا البيت أو تلك القصيدة بل صار القارئ يسأل: «ماذا تطرح علينا هذه القصيدة من أسئلة؟». يعزز من ذلك نزعتك النبوية الرؤيوية. الشعر بما هو اعتراف بالمجهول واستكشاف له. الدين هو كذلك اعتراف بالمجهول والجواب عنه. («إعطاء معنى للعالم»، حسبما يقول ميرسيا إلياد). ألست تقع هنا في الإشكالية الدينية ذاتها التي تنتقد في «الثابت والمتحوّل»؟

.١٤
هل الشعر أبداً معاصر؟ حديث؟ تستغرب في محاضرة لك «كيف أمكن للنظام القيصري الإقطاعي أن يخلق شعراً أهمّ بكثير من الشعر الذي خلقته الثورة الاشتراكية» في روسيا السوفياتية. وتتخذ على ذلك مثالاً من أن الأدب السوفياتي اليوم ليس لديه بوشكين أو دوستويفسكي. ثم إنك تقفز بسهولة، كما نفعل جميعنا، عن الثقافة الروسية قبل الثورة (وهي درس بليغ في السير نحو العدالة) والأهم من ذلك الثورة الثقافية العظيمة التي أطلقتها ثورة أكتوبر خلال العقد الأول من حياتها. ولكن لنعد إلى موضوعنا المباشر: تستطيع أن تقول القول ذاته بالنسبة لأي شعر: ألستَ تستغرب أن شكسبير (العصر الإقطاعي البريطاني) خلق شعراً أهمّ بكثير من كل الشعر الحديث؟ وماذا عن المقارنة بين كبار شعراء العربية الآن وبين المتنبي مثلاً؟ هذا حتى لا نتحدث عن الإلياذة والشعر الجاهلي! هل الشعر يتبع تطوّر قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج؟ أم هو ينحو منحىً معاكسا؟ هو ماركس – قد تستغرب – من طرح هذه الإشكالية، إشكالية التفارق بين عظمة الشعر وبين التطور التاريخي.

.١٥
تمارس وتفكر على مستوى «الثقافة العليا»، الثقافة التي ينتجها المثقفون. وفي ظنّك احيانا ان ثقافة الجماهير «تقليدية متخلفة». لعلك تشير هنا الى الثقاقة الدينية. ولكنك تغفل مستوى كاملا من علاقة الشعب بحياته تتم على مستوى الثقافة الشعبية من امثال وطقول وعادات وشعر وقصص وهي ثقافة تحوي طبقات متراكبة من الترسّبات تعود لما قبل الديانات التوحيدية وتنطوي على نواج صلبة هي نواة مقاومة الظلم وابتكار وسائل الردّ على تحديات الحياة والنزوع الى المساواة. هل لك ما تقوله في هذا الموضوع؟

.١٦
يلفت نظري في تقديمك لنفسك في الغرب خصوصاً إلى أي مدى تصرّ على تفرّدك دون سائر منتجي الثقافة العرب المعاصرين وتردّد أنّ علاقتك بسوفكليس أو شكسبير أو رامبو أو ماياكوفسكي أعمق من علاقة بأي شاعر عربي قديم، لا بأس. لكن لو كان لك أن تحدد علاقتك بشعراء العربية من قدامى ومعاصرين فماذا تقول؟



أسئلة إضافية

◆◆◆ أ ◆◆◆

أحكامك على الثقافة العربية السائدة قطعية شاملة: «ثقافة إنتاج السلطة»، ثقافة قمع الإنسان واستهلاك طاقاته، تخرج من قطاع الإبداع وتدخل في قطاع السياسة-التجارة. ألا تجد ثقافة مقاومة مبدعة للسائد؟

◆◆◆ ب ◆◆◆

الشعر واللغة: ما العلاقة بينهما؟ يقول أحدهم أن الشعر يخاطب اللغة. اللغة كائن حيّ. هي نتاج جماعي. تعيش في الشعب الذي يستخدمها وتتنفس فيه.

◆◆◆ ج ◆◆◆

الشعر والالتزام: لماياكوفسكي رأي يقوم على استخدام تشبيه الصناعة للعملية الشعرية. تجربة الشاعر هي المادة الخام للشعر والقصيدة هي المنتوج النهائي لكنه منتوج يلبّي طلباً جماعياً، القرّاء، الجمهور، الشعب. مثلك يقول إن الشعر رحلة في المجهول، لكنه لا يحلّ محلّ النبوة. يصل إلى الحاجة لجعل التجربة الشخصية قابلة للاستخدام من قبل قرائه ومستمعيه.

◆◆◆ د ◆◆◆

ضد الشعر السياسي. تكون القضايا فيه أهم من الشعر ذاته. يتحوّل الشعر إلى مجرد وسيلة دعوية. تتهمه [الشعر السياسي] بأنه يأتمر بالهيئات الحزبية ولا ينتج إلا الشعر الرديء. ألست تبسّط هنا تبسيطاً شديداً؟ حتى نقول إنك تتجنّى تجنياً؟ إن جيلنا مصادَرٌ كلياً بالقضايا السياسية. ليس للشاعر حاجة إلى أوامر حزبية لكي يهتمّ بقضايا (شعبه). أما الشعر الرديء فموجود بسياسة وبدون سياسة. تكاد تكون القصائد من النمط الأدونيسي الحداثي كوارث شعرية في رداءتها أين منها رداءة الكثرة من الأشعار السياسية. على أنّ ثمت شعراً سياسياً مبدعاً حقاً. أنت نفسك كتبت شعراً سياسياً، يجب أن أقول إن الكثير منه رديء.

◆◆◆■◆◆◆

◆◆◆ هـ ◆◆◆

الشعر الفلسطيني. تقول عنه إنه لم يكن على مستوى الزلزلة التي أحدثتها القضية الفلسطينية في جسد المجتمع العربي الذي فضحته وفضحت اهتراءه وتمزّقه. المشروع الثقافي الفلسطيني ضيّق وهو سياسي أكثر منه حضارياً.

ما معنى تسمية هذا الشعر بأنه «شعر فلسطيني»؟ هل أنت تنتمي إلى الشعر اللبناني أو السوري مثلاً؟ هل كان شعرك أنت على مستوى الزلزلة؟ هل تصنّف شعر محمود درويش مثلّا على أنه دون مستوى الزلزلة التي تتحدث عنها؟

◆◆◆ ز ◆◆◆

بعد هزيمة **١٩٤٨** في فلسطين، كتب أنطون سعادة «العروبة أفلست!». ألا ترى نفسك على الطريق ذاته بعد هزيمة **١٩٦٧**؟

◆◆◆ ح ◆◆◆

في الشعر والشعرية مجدداً: جواباً على كونه كتابة. وتساؤلاً ومعرفة.

—— [الشعر] يوالف ما فرّقته الحياة، مزّقه العنف، باعدتْه المسافات.

—— لون من الصلاة: تجديد الأمل، تجديد الثقة بالطاقات البشرية، صلته بالغناء – تبطله النظرة إليه على أنه كتابة.

—— استعادة متخيّلة للمكان، درويش مثلًا.

—— الشعر والجرح: جرح الكلام – حاضر في شعرك حضوراً كبيراً. كتب عنه كمال أبو ديب صفحات جميلة.

—— سيف الكلام: بين خير وشر: وسيلة لمقاومة ظلم هذا العالم.

—— المجهول/الموت: الدهشة الدائمة أمامهما. إن الانسان فانٍ منذ جلجامش ...

◆◆◆■◆◆◆


ثقافة الناس للناس



الممنوعات اللغويّة والعدّيات الشعبيّة

نجلا جريصاتي خوري

كاتبة وباحثة في الثقافة الشعبية، من أعمالها «عدّيات وعدّيات» (٢٠٠٩)، «حكايات وحكايات/ حكايات شعبية من لبنان» (٢٠١٤)، «يا ريتني عصفور» (٢٠١٥).

سأنطلق في هذه المداخلة من تجربتي في إعداد كتاب: «عدّيات وعدّيات» («دار قنبز» و«جمعيّة السبيل»، بيروت ٢٠٠٩)، وفيه نشرت مجموعة كبيرة من العدّيات الشعبيّة للأطفال، كانت ثمرة جهد تجميعي استغرق العديد من السنوات.

عملي في هذا الكتاب، وفي مجالات الحكاية الشعبية، طرح أمامي مشكلة العلاقة بين الممنوع والمسموح، خصوصاً أن الأدب الشعبي متفلّت في طبيعته من كلّ أشكال الرقابة، ولا يراعي الممنوعات والمحرّمات. غير أن عملي الذي يجمع بين المستويين التوثيقي والتربوي، دفعني إلى التأمّل في معنى الممنوع اللغوي ومستوياته وأطره، في النشر والعمل التربوي والحياة اليوميّة.

تعالج ورقتي هذه الممنوعات في مستوياتها الثلاثة: العيب والحرام والخوف من المجهول. ثمّ تحلّل التعامل معها بحسب البيئة الاجتماعيّة والجندر والموقع، لتصل إلى استخدام البدائل على مستويات اللغة والتعبير الجسدي والتشويه اللفظي.

في النهاية، سأطرح أسئلة تنطلق من تجربة اضطراري رغم موقفي المبدئي القائم على رفض الممنوعات اللغوية، والحرص على التعامل مع الأدب الشعبي بصفته كنزاً اجتماعيّاً حيّاً ومتجدداً ــ إلى القيام برقابة ذاتيّة غير صارمة، من خلال امتناعي عن نشر عدد من العدّيات في كتابي، لأسباب شتّى. غير أن سبب الأسباب، إذا جاز لي استخدام هذا التعبير، هو انتقال النصّ الشعبي من الشفوي إلى المكتوب والمطبوع.

إذ إنّ الكتابة والنشر يفرضان حرمات تتعلّق بالنصاب الاجتماعي، وليس فقط بالرّقابة التي تمارسها السلطات في العالم العربي. فالكتابة تفرض نوعاً من الخفر ومراعاة ما نطلق عليه اسم احترام ومراعاة السلوك الاجتماعي. إن رفضي الشخصي لهذا المبدأ، واقتناعي بأنّ من حقّ الشفوي أن يُكتب، وخصوصاً إذا كان وثيقة تنتمي إلى عالم الأدب الشعبي، الذي نشأ ولا يزال يتشكّل في الإطار الشفوي، فرض عليّ مسألة أخرى هي المسؤولية التربويّة، التي عليّ الالتزام بشروطها. وهذه مسألة تحتاج إلى دراسة مستقلّة، وإلى التمييز بين الوثيقة والنصّ الموجّه للأطفال والمربّين، أو تحتاج إلى وعي تسامحي، يقبل بشروط اللعبة كما هي، ويضع جانباً جميع الاعتبارات لمصلحة الحقيقة.

بدأت علاقتي بالعدّيات مع دخولي في تجربة الأمومة. فالطفل حديث الولادة في حاجة إلى كلام وإيقاعات قصيرة، تساعد الأم على نسج العلاقة معه من خلال اللغة. فاستعنت بذاكرتي، وبعدّيات طفولتي. لكن الذاكرة تنسى، ووضعي كمهجّرة اضطرّتها الحرب الأهليّة إلى الانتقال من الأشرفيّة إلى عائشة بكار، وتقطّع أوصال علاقاتي الاجتماعيّة القديمة، دفعني إلى طرح الأسئلة على جاراتي الجديدات عن العدّيات التي يتذكرنها، فبدأت رحلتي غير المبرمجة لتسجيل هذه العدّيات التي تحوّلت مع الوقت والجهد إلى مشروع كتاب.

وقد ترافق هذا المشروع مع عملي في فرقة «صندوق الفرجة» التي أسّستها عام ١٩٧٩، وهي فرقة مسرحيّة تقدّم عروضاً للدمى وخيال الظلّ. استمرّت إدارتي لهذه الفرقة عشرين سنة، قدّمنا خلالها عروضاً مستوحاة من الحكايات الشعبيّة الشفويّة. وبدأت بتسجيل الحكايات من الناس لهذا الهدف، فاكتشفت أهميّة الحكايات الشعبيّة، وبدأت عملاً منهجيّاً في تدوينها، وكانت نتيجة هذا العمل كتابي: «حكايات وحكايات، حكايات شعبيّة من لبنان»، (دار الآداب، بيروت ٢٠١٤).

اندمج العملان، العدّيات والحكايات في مقترب

واحد، هو جمع وتحرير هذا التراث الشعبي الهائل الغني والمتنوّع والجميل، من أجل وضعه في خدمة الأطفال في لبنان والمنطقة العربيّة. لعلّ الحكاية والأغنية والعديّة تفتح أفقاً من الأمل، في بلاد تتعرّض لعواصف من النكبات المتلاحقة.

أريد أن أعترف بأن هذين الكتابين ما كانا ليريا النور لولا تجربتي خلال حرب تمّوز ٢٠٠٦. ففي وسط القصف الإسرائيلي الوحشي، حاولت مع زميلتي جمانة بحلق القيام بعمل تربوي ترفيهي للأطفال في المدارس العامة التي صارت مأوى للمهجّرين من الجنوب والضاحية الجنوبية.

في هذه التجربة الصغيرة اكتشفت أن أطفالنا يعيشون انقطاعاً عن تراثهم الشعبي. وعندما أردنا اقامة نشاط مع الأولاد على إيقاع أغنية يعرفها الجميع، اكتشفنا أن الأغاني التي يحفظونها هي الأغاني الرائجة للمطربات والمطربين المعاصرين، أو الأغاني الدينيّة والوطنيّة، ولا علاقة لها بأغاني الأطفال وبالتراث الغنائي اللُعبي الذي نجده في العديّات.

استخـــــــــــــــدام كلمات العيب والكلمات النابية والشتائـــــــــــــــم في النكات والمسرح الكوميدي يتزايد لا سيما على شبكات التواصل الإجتماعي. حيث يتحـول العيب إلى مادة للفكاهة ولحظة مثيرة للضحـــــــــــك.

هكذا وجدت أنّ من الضروري نشر العديّات التي جمعتها، وهو مشروع تبنّته «جمعية السبيل، أصدقاء المكتبات العامّة» عبر الزميلة نوال طرابلسي، ونشرته دار قنبز في كتاب جميل.

خلال عملي على تصنيف العديّات وكتابة حواشي الفصول، كان عليّ مواجهة الممنوعات اللغويّة، واتخاذ القرارات بشأنها، وسأقوم الآن بتصنيف هذه الممنوعات التي تنقسم إلى ثلاثة أنواع وتحليلها:

العيب

ما هو العيب؟ جاء في القاموس المحيط: «العيب: مصدر والوصمة والنقيصة وما يخلو عنه أصل الفطرة السليمة».

العيب في الحياة اليوميّة هو ما يجب ألّا يُقال أو يُفعل. وإذا حاولنا تحديد الذي لا يُقال في الممارسة الاجتماعيّة السائدة، فإننا سوف نجد أن معظمه يتمحور حول أطراف الأعضاء الحميمة في الجسد، وهو يتركّز حول الجسد – المتعة وليس حول الجسد ـ الألم. مثلاً، لعبة «القطّ المربوط» القديمة، تغيّرت تسميتها إلى «القرد المربوط» ومن ثمّ الى «السعدان المربوط»، قبل أن تختفي، وذلك بسبب الالتباس بين هذا الحيوان وفرج المرأة.

كذلك قد يتّخذ العيب شكلاً آخر مرتبطاً بالقيم الأخلاقية ـ الاجتماعية التي دفعت صانعي الحلوى التي كان يُطلق عليها اسم «راس العبد» إلى تغييره إلى «طربوش». أما في طرابلس فلا نزال نتذوّق الحلوى بتسمياتها الشعبيّة: «بيضات الملايكة» (الشميْسة) و«خرية الدبّ» (النمّورة) و«الشِلكّات» (القطايف الصغيرة بالقشدة).

أما الألم بتفاصيله، فلا يعتبر عيباً، كالاسهال (مشي البطن) أو حريق في البول، فهذه يجري الحديث عنها بإسهاب.

من جهة ثانية، تحتلّ الكلمات النابية مثل «خرا» و«طيز» وأخواتهما، حيّزاً أساسياً في الممنوعات، رغم أنّها جزء من الكلام اليومي.

من نماذج تلطيف التعابير بين القواميس كلمة فرنسيّة يمكن اعتبارها للتعجّب: يترجم قاموس الروبير كلمة «زوت» (zut) إلى الإنكليزيّة بكلمة «اللعنة» (damn) ويترجم (damn) إلى الفرنسيّة بكلمة (merde) اي «الخراء»، أو «الغائط» كما جاء في محيط المحيط، والعامة تقول «الخَرَا»، غير أنّ فريحة يتجاهلها في معجم الألفاظ العاميّة. تسمية هذه اللفظة النابية في لغة الأطفال هي «كاكا» (caca)، واللافت أن «القَقَّة والقِقَّة حدث الصبيّ» والحدث هو الغائط، كما جاء في «المحيط».

أما استخدام كلمات العيب والكلمات النابية والشتائم في النكات والمسرح الكوميدي، فيتزايد لا سيّما على شبكات التواصل الإجتماعي، حيث يتحوّل العيب إلى مادّة للفكاهة ولحظة مثيرة للضحك.

الحرام

الحرام هو ضدّ الحلال، هكذا يعرّفه اللغويّون. والحرام يتركّز في الكلام حول الدِين بقلّة احترام أو لامبالاة، وعلى الشتائم التي تدور في معظمها حول مسألتين: شتم الدين أو الخالق، والإشارة إلى الأعضاء الحميمة.

القول «احترق ديني»، مثلاً، للدلالة على الإرهاق، أو «يلعن ربّه ما أحلاه» للتحبّب، «عايف دينه»، «طلع دينها»،



«ارتحنا من دينه»، «شو دينه هيدا؟» أو «شو ربّه هيدا؟»: عبارات تستخدم إلى حدّ كبير في اللغة اليوميّة، لكنّها تعتبر كلاماً معيباً، كما أن كتابتها ليست مقبولة اجتماعيّاً.

الخوف من المجهول

يتخذ هذا الخوف شكل الأمراض المستعصية أساساً. فالإشارة إلى مرض السرطان أو إلى الأمراض الجنسيّة مسألة يفضّل الناس تجنّبها. كما يتّخذ الموت أسماء موارِبة، كي لا يجري الكلام عنه بشكل مباشر، وخصوصاً حين نتحدّث عنه للأطفال.

غير أن الشتائم لا تراعي هذا الخوف: كأن يقال «حمّى تسلقك»، «سرطان بتمّك»، «يبعت لك مرض»، «العمى بعيونك»، «بلي تسترك»، «يقطع عمرك» أو «يقصف عمرك»... وسمعت أيضاً «راحك ريح ما يخلّي فيك ولا عظمة صْحيح!».

هذه الممنوعات اللغوية تختلف بحسب البيئة الاجتماعيّة والجندر والظرف.

لا وجود لأي ممنوعات لغوية في العديات كما في الأدب الشعبي بشكل عام ما دامت في الإطار الشفوي.

في البيئات الاجتماعية نلاحظ أن البيئات المدينيّة تتحايل على هذه الألفاظ وتمارس رقابة ذاتيّة عليها، بينما يكون الأمر أكثر حريّة وصراحة في البيئات الريفيّة. في «محيط المحيط» يطلق المعلم بطرس البستاني على هذه الكلمات اسم «الألفاظ الصريحة». كما أن استخدام هذه التعابير يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية. الطريف في هذا الموضوع أن بعض هذه الألفاظ نفسها، مقبولة اجتماعياً، شرط أن تقال بلغة أجنبيّة، مثل «oh putain!» بالفرنسيّة (يا للعاهرة) للتعجّب، أو «holy shit» بالإنكليزيّة (الكلمة الأولى تعني القداسة، والثانية، الغائط) للتأسّف.

أمّا التعامل مع الشتائم فهو يتبع الانقسام الجندري. ففي حين يفرح الآباء بشتائم أبنائهم الذكور، بل يعلّمونها لهم في بعض الأحيان، فإن استخدام الإناث للشتائم يعتبر عيباً كبيراً.

وفي النهاية فإن الظرف والإطار يحدّدان قبول هذه الألفاظ أو رفضها، فهي تقبل في برنامج تلفزيوني فكاهي مثلاً، بينما تعتبر منافية للذوق إذا قيلت في نشرة الأخبار.

المنوعات في الحياة اليومية

كيف يجري التعامل مع هذه الممنوعات اللغويّة في الحياة اليوميّة؟

الممنوعات اللغويّة جزء من لغة الحياة، لذا لا يمكن تجاهلها أو اعتبارها غير موجودة، فيجري التعامل معها بأشكال متعدّدة بحسب البيئة والجندر والظرف، لكن الشكل الأساسي لهذا التعامل يحصل عبر التحايل. فالتحايل لا يلغيها بل يشذّبها لفظيّاً أو شكليّاً من دون إلغاء معانيها. وهذا يكون عبر ثلاثة أشكال:

١

استخدام البدائل اللفظية: لنأخذ مثلاً «الدورة الشهريّة»، أي الطمث أو الحيض، فيقال «العادة الشهريّة» أو «الميعاد». أو يقال باللجوء إلى لغة أجنبيّة، «معي البِيرْيُد» (period) أو «السِكْتايْم» (sick time) أو «الرِيكْل» (règles). وسمعت أيضاً «شو بك؟ pms» استباقاً لسبب توتّر إحداهنّ، وهذا يعني «pre menstrual syndrom»، وهو التوتّر قبل الدورة الشهريّة.

أو يجري اللجوء إلى لغة مبتكرة، يعيق على المستمع فكّ رموزها، مثل «الطانت روز»، أو «قاطعة الصلاة». كما تستبدل كلمة «طظ» بـ«١٦-١٧»، وهما رقما «ط» و«ظ» في الأبجديّة. أو يكون بعدم عدم لفظ المفردة الحرام، مثل «جايتني» أو «شرّفت»، أو «عملها».

كذلك الأمر، يقال للسرطان «المرض الخبيث» أو«المرض البشع» أو «هيداك المرض». ويقال عن موت أحدهم مثلاً: «عطاك عمره» أو «سلّم الأمانة» أو «طلع عَ السما» أو «خلصوا زيتاته»، وهي كنايات الهدف منها تخفيف وقع الكلام ومعناه. وفي النهاية يمكن اللجوء إلى استخدام مرجع لغوي آخر كالفصحى، «العق إستي! فرج شقيقتك يا شقيق الزانية! يا برازا!».

٢

استخدام لغة الجسد: من خلال إشارات موحية، كالإشارات بالرأس تعبيراً عن اليأس من مرض أو الموت، وباليدين للتعبير عن العملية الجنسيّة أو عن العادة الشهريّة عبر وضع اليدين على البطن، والغمزة، والابتسامة، وإشارات اليد والأصابع، نذكر منها الإشارات الرمزيّة الخاصة بالأطفال، مثل مدّ اللسان

للتزريك، و«بَقطة» باليدّ لتمنّي السوء، و«سنكُف» بالخنصر للمخاصمة، و«صالح» بالسبابة للمصالَحة، «وزّ عينك»، و«نحس»، وما إلى هنالك من الإشارات المرمّزة.

٣

التشويه اللفظي: الشائع أنّ من المستحسن أن يقال «ينعن» أو «ينعم» بدلاً من «يلعن»، و«ديكك» أو «دينك» بدلاً من «دينك». أو استبدال الكلمة الممنوعة، مثل «أكل هَوا»، بدلا من «أكل خرا». وكلّنا يعرف حكاية تهجئة كلمة «خَرَجَ» التي صارت نكتة: «خ فتحة خا، ر فتحة را = حازا، ج فتحة جا= خَرَجَ».

أعود في النهاية إلى تجربتي الشخصيّة في العمل على كتاب العديّات لأشير إلى أنّني لم أشعر بثقل الممنوعات اللغوية أو حتى بوجودها عندما كنت أستمع إلى العديّات على لسان راوياتها. فلا وجود لأيّ ممنوعات لغويّة في العديّات كما في الأدب الشعبي بشكل عام ما دامت في الإطار الشفويّ.

وعندما أعددت العديّات كي تطبع في كتاب، شعرت بالانزعاج من بعض الألفاظ، فالكتابة بصفتها سلطة، تقمع، أما الكلام فحرّ من كلّ القيود. ووجدت نفسي مضطرّة إلى اللجوء إلى رقابة ذاتيّة مخفّفة لسببين:

— الأوّل هو خوفي على الكتاب من مقصّ الرقيب العربي، وتخوّفي من أن أؤذي دار النشر مادياً. على الرغم من أنّ تجربتي مع «دار قنبز» تشير إلى جرأة الدار وإصرارها على احترام التراث ونشر النصوص كاملة.

— الثاني، سبب تربوي وشخصي. أحسست أنّ عليّ دوراً تربويّاً يقضي بحذف نصوص طائفيّة أو عنصريّة موجودة في تراثنا، وهذا بدافع أخلاقي أولاً، كما شعرت بأنّ بعض العديّات الفاضحة لا مكان لها، وربّما يعود ذلك إلى سبب شخصي أيضاً، وهو نفوري من الألفاظ النابية.

السؤال هو متى نتقبّل ويتقبّل مجتمعنا لغتنا كما هي، ومتى نتحرّر من الرقابة الذاتيّة كي يكون للحريّة الكلمة الفصل في كلّ ما نقوم به ونكتبه وننشره؟ فأنا أرى أن الحريّة والشجاعة لا تنفصلان، وأنا مع تجاوز أنفسنا وحتى تعريضها للخطر في بحثنا عن الحرية.

أنشر هنا بعض العديّات التي حذفتها كي أستكشف معكم جواباً على سؤال: «ماذا لو نشرتها؟» أو «هل كان يجب نشرها؟».

نماذج من العديّات المحذوفة

عديات للببو

لمّا قالوا لي بنيّة
هبّط البيت عليّ

طعموني البيض المسلوق
سلقوه بشوّية ميّة

لمّا قالوا لي الغلام
شوف كيف اشتدّ حَيلي وقام

قِلْيوا لي البيض المِقلي
وكلّ السمن فوقه عامْ

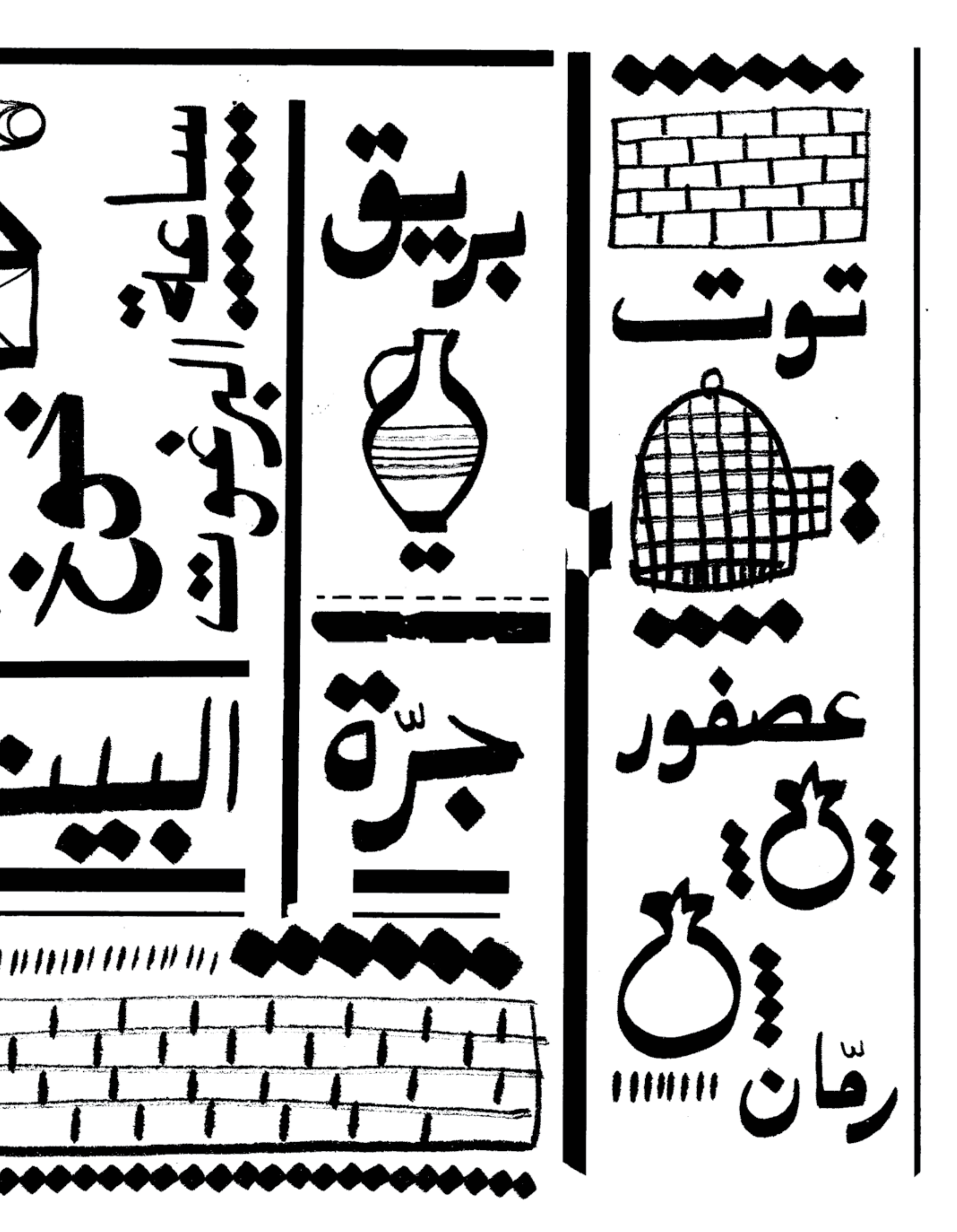
لمّا قالوا لي ولد
انشدّ ضهري وانسند

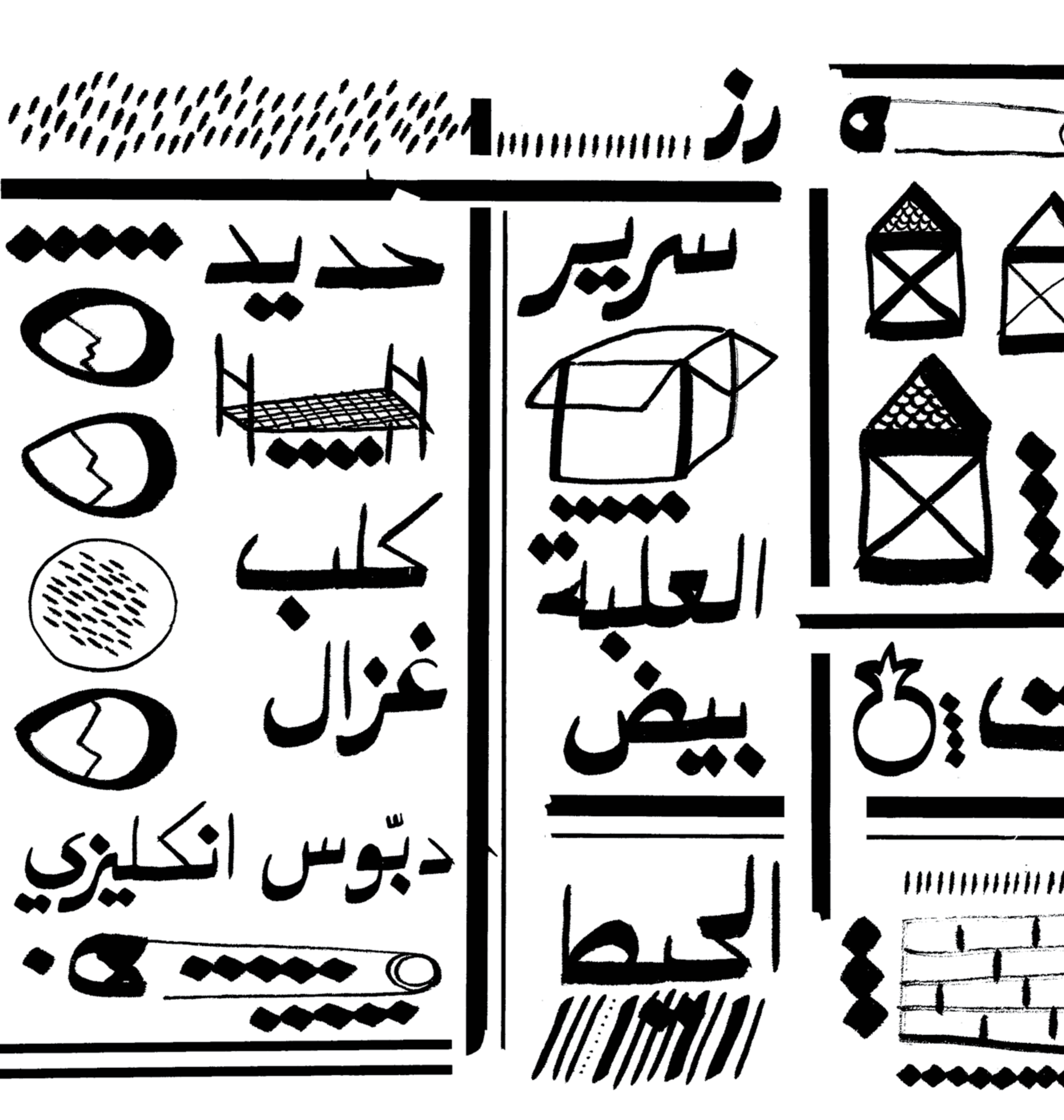
وجابوا لي البيض مقشّر
وكلّه عايم بالزبد

دبّة كلي
دِبّة اشربي
خدي البنت
وخلّي الصبي

مين ضربك مين قال لك شي
ريتها جِمالُه ما تمشي
ريتها مرتُه ما تحبل
وما تدوق قعود الكرسي
وإن قال حدا عنك شي
ريتها عيونه ما تشوف شي
وان قال حدا عنك مشوم
من منامُه ما بيقوم

يا حبيب الحبّوبات
ويا رفيق الملّايات (اللواتي يملأن الماء)


توت
عصفور
رمّان
بريق
جرّة
ساعة
البيت


رز
سرير
حديد
العلبة
كلب
بيض
غزال
الخيط
دبّوس انكليزي



ويلّي زوجها غايب
يروح ابني لعندها يبات
هاي بنتي ستّ الستّات
بجوّزها واحد غني

حتى يموت ويترك لها
وتجيب الورثة وترجع لي
دخلَك دخَلك دخل الله
انتَ ابريق ولّا جرّة

انتَ ابريق الفاخوري
أسمر ومدندل برّا

دخلِك دخلِك دخل الله
انتِ ابريق ولا جرة

انتِ جرة الفاخوري
قرص مدوّر من جوّا

عديات لجسم الطفل

على عشّك طبخنا
رزّ وأبلما ويخنَة

أكلنا لانتفخنا
وطعمينا كل الجيران

عشّك عشّك ضناني
إلُه أربع قراني

إلُه رفّ وإلُه رفوف
وإلُه قرنه للغالي

فنّيرك يامّ الفنّير
كانَ صغير وصار كبير

وعشعوشك يلّي معرّش
حطّيني عليه أمير

فنّيرك بدّي قصّه
وأعطي لسامر نصّه

إله نبعة بنصّه
عمّالي تفوّر تفوير

افرحي يا ماما
وزلغطي يا جارة

الحمامة من طولها
عربشت ع الدالية

ويا بنات غنّوا لها
هيدي بنتي الغالية

والهبرة هبرة قنفد
بتشق الحيط وبتنفد

والهبرة هبرة أمير
بتبحش لنا بالبيت بِير

يا جارة خبّي بنتك
كبر ابني واعلمتك

بكرا رحّ يخزق الحيط
ورحّ يفوت لعند بنتك

بكرا بيخطف لك ايّاها
وبتصير بنتك مش بنتك

عديات لتنويم الطفل

نيّمتك بسرير حديد
خفت عليك من العبيد

هزّي له يا أمّ شديد
بركي على صوتك بينام

نيّمتك بسرير العود

خفت عليك من اليهود

غنّي لها يا أمّ مسعود
بلكِن على صوتك بينام

عديات اختيار اللاعبين

نَوَر نوَر تحت التوت
معهن صبي عمّ بيموت

حطّوا راسه بالعلبة
وقبروه بالتربة

عديات وألعاب كلامية

بدويّة حيزكْ ميزكْ
والبرغوتَ يقرص ... طيزك
بدويّة حِزّك مِزّك
والعصفور ينقر ... بزّك
بدويّة حِسّك مِسّك
والله يخَلّي لك... كِسّك

عديات التضامن

دبّوس انكليزي ... يويو

يغرس بطيزي ... يويو

دبّوس الإبرة ... يويو

يغرس بزبري ... يويو

عديات الحرقصة والتزريك

يا صايم رمضان
يا موحّد ربّه

كلبتنا البيضا
تبوسه على خدّه

يا فاطر رمضان
يا مقلّل دينك

كلبتنا السودا
تسحب مصارينك

المفطر كلب مشحّر
والصايم غزال نايم

والمفطر هلّق هلّق
بتمّه كلب معلّق

والمفطر هالساعة
بتمّه بزّاقة

عديات المواسم

الزبرة من زبارتها
وامّها تدقّ بهارتها

وبيّها شمّر ووقّف
ع قطش دندولتها

والزبرة من زباريها
والرحمن يداريها

والشعر النابت فيها
كلّه خوخ ورمّانة

يلّي بتعطي بالكمشة
انشاالله تعمى وما تمشي

ويلّي بتعطي بالحفنة
انشاالله بتموت مندفنة

من شعر طلال حيدر
«يا ناطرين التلج!»

طلال حيدر

شاعر بالعامية والفصحى، لبنان. من اعماله ديوان «آن الاوان» (١٩٩١) غنّت له فيروز ومارسيل خليفة وغادة غانم.

فخّار

نيّال فخارا لهالجرّه
فرحان عندو عيدْ
بيشرب ع طول نبيدّ
ومِدري خدودو ليس محمرّا
تخمين بَوّس شي مرا سمرا
تِمّا غِفي ع تمّ هالجرّه

شو كنت يا فخار قبل بهالدني؟
كمشة تراب وعشت ما صرلك سني
لِّمن جبلتك خابيي حمرا
تا عتّق نبيداتنا للعيد

متلك انا
كنت بزماني طين يا فخّار
صدفه مرق الله جبلني بدمعتو بالنار
وَشْوَش بإدني وطار
وقلّي انت فخار
يو جرّا

وشو نفع هالجرّا
لو نِشفتْ الخمرا؟
هيدي الدني اسرار
بكرا إن صرتْ خِتيار
وعَنّت ع بالك شي بِنت سمرا
يا صاحبي تذكر انت فخّار

يا رايح

يا راعي القصب مبحوح
جايي ع بالي شروقي
قلّو للقصب ما يبوح
بالسرّ اللي بعروقي

وإن ضعنا سَوى بهالليل
خلّي صوتك مسموعي
يا رايح صوب مشرّق
مشرّق ما يا بو ربيعي

راحوا يرعوا غنمهن
والعشب فوق ضلوعي
وإيّام الـ غابُن وِلفي
لعُدّن ع صابيعي
وعتّم علينا يا ليل
وضِيعي يا حلوة ضيعي

قالولي إنّي عشقان
وأني مش داري بحالي

بين الصاحي والغفيان
لمحت خيالِك قبالي
كان الصبح شِنّو بان
وآدان الصبح عالي

ونازل من صوبُن مرسال
من عيني نزلوا دموعي

ميّ

بتلبقلك المي
لا تموتي
أْغرقي بالمي
تيصير موتِك نَعَس
وتْصير
شمسِك فَيّ

خَوفي عليكِ تِكبري
وخوفي على حالي
رح تنزل عليّ الدني
و يتغرّق خيالي
ون كان
لا بد وغنى ورح ترحلوا
مَحّوا الطريق
مرسوم ع الحيطان
ولد حفيان
راكض بالحريق
قومي نْعسيلُه يا دني
بلكي إذا نْعِستي
بيفيق

وحدن

وَحدُن بيبقوا متل زهر البيلسان
وحدهن بيقطفوا وراق الزمان
بيسكّروا الغابي
بيضلهن متل الشتي يدقّوا على بوابي

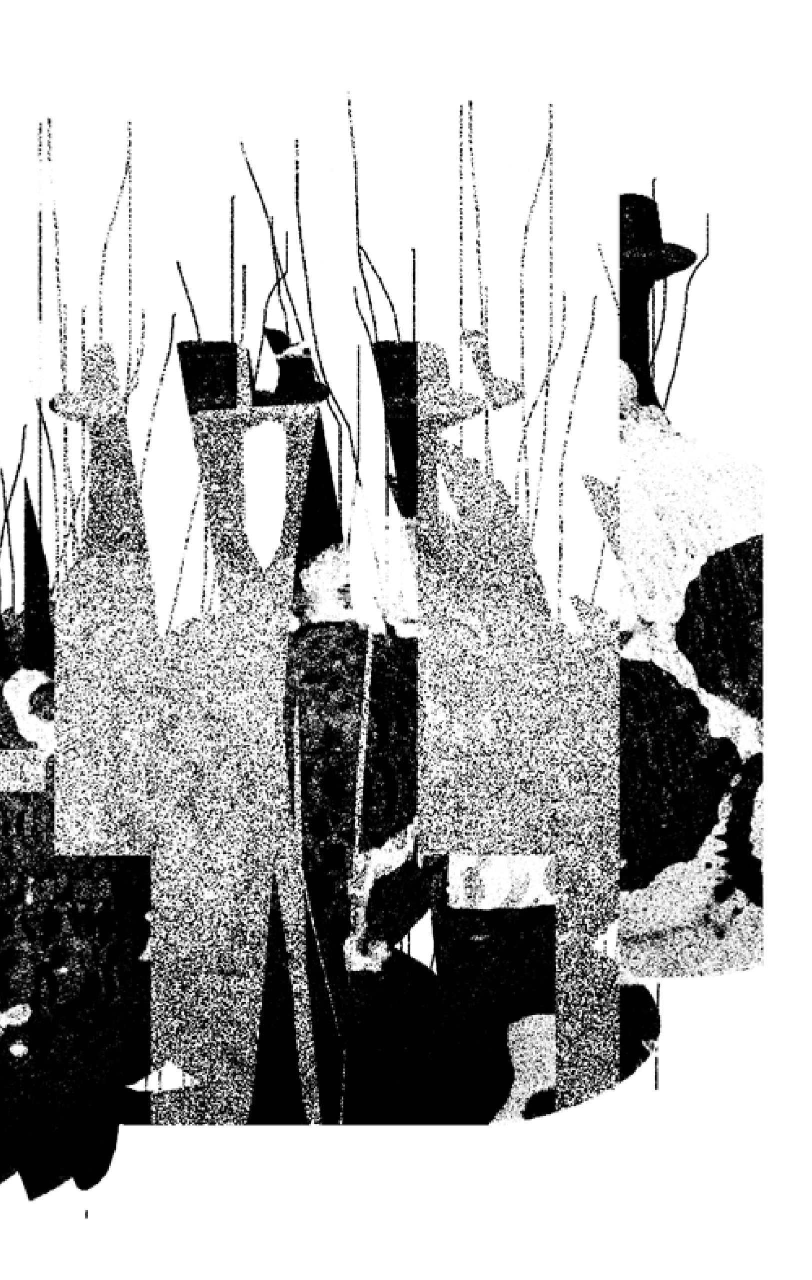
يا زمان
يا عِشب داشر فوق هـ الحيطان
ضوّيتْ وَرد الليل ع كتابي
برج الحمام مسوّر وعالي
هجّ الحمام بْقِيتْ لحالي

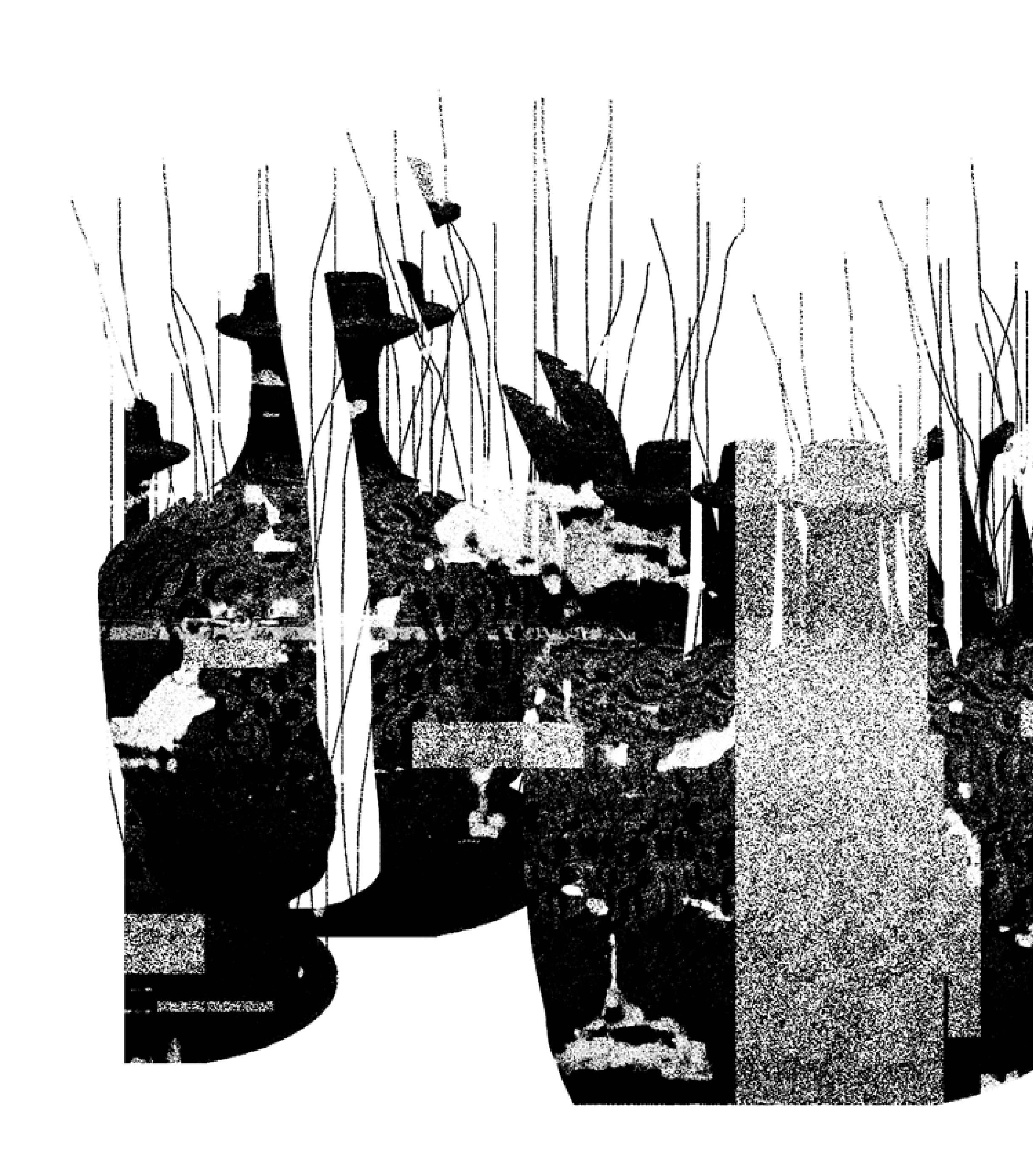
يا ناطرين التلج ما عاد بدكن ترجعوا
صرّخ عليهن بالشتي يا ديب بلكي بيسمعوا

وحدن بيبقوا متل هالغيم العتيق
وحدهن وجوهن وعتم الطريق
عم يقطعوا الغابي
وبإيدهن متل الشتي يدقّوا البكي
وهِنّي على بوابي

خيال

لو كان عندي فرس
لضلّ عالعالي
بس نْدَهيني
بنزل على خيالي
يا بنت راعي الغنم
هالموت مقابيلي
ردّوا معي البواب
جايي هوا شمالي





في ناس
قالوا قِتِل
في ناس
قالوا مات
في ناس
قالوا فتح عتمة خيالو
وفات

قومي اطلعي عالبال

بغيبتك نزل الشتي
قومي اطلعي عالبال
في فوق سجادة صلا
واللي عم يصلّوا قلال
صوتن متل مصر المرا
وبعلبك الرجّال
ع كِتر ما طلع العشب بيناتنا
صار يرعى الغزال

ودّيت مع راعي حماه
يشوف لي الطريق شمال
قاللي السِنه طالع هوا
بيوقع الخيّال

يا ريت
ما سرّجت الفرس
ولا بعتت هالمرسال

هـ الكان عندن بيت

هـ الكان عندن بيت
وصورة
عليها ناس
معلّقين بخيط
وقعوا ع سطوح العُمر
وشْتِلقتهن الحجار
وقعوا
متل ما بيوقع المشمش
ع ولاد الصغار

وَين أهلي؟
وَين طاحونة حزن خيي الصغير؟
وَين طيارة ورق نومي
على هزّة السرير
وَين الايدين
اللي حطّت الابريق فوق الحصير
وَين الشبابيك
الفات مِنّا الصوت
مِتل الزمهرير
وَين رمّان السقف
مقطوف ومعلّق
متل عمر الكبير
لِك.. عِنّ يا قلبي
متل هـ النَحل
جُوّات القَفير
وِقع العُمر
ما بين إيد
وهزّات السرير

حلوه

حلوه
متل عِبي القصب
خيط القصب تعبان
جيبوا حدا من دمّر
يدقدق وشْم
جيبوا من الهامة
والوشم

بنّ محمّص وهبّ الهوا شامي
غمّازة لعالخدّ
ما إلها اسم؟
والخد قدّامي
ومكحّلي
والكحل راسمها رسم
مين اللي بَرَا قلامي
ومُشنشلي متل الفرس
بإيدا أساورِ من دهب
بتخشّ
بتخش؟
بيدور الطَرَب ليوم القيامة

شرق شمال

وصلنا على مشارف حماه
نواعيرها ناحوا
فارقتهن شرقي حلب
ما عرفت وين راحوا

عرس الألف

رسموا الصوت ع الكفّ
وحنّوا صبيع اللغة بالخَطّ حرف وحرف
دار العِرس
خشخش بسهرات الألِف هـ الدفّ
والـ «حا» لفّت ع الخصر زنّارها
لمّن حبيبا لفّ
في حرف دقّ وفاتْ
وقفوا حروف العَطف

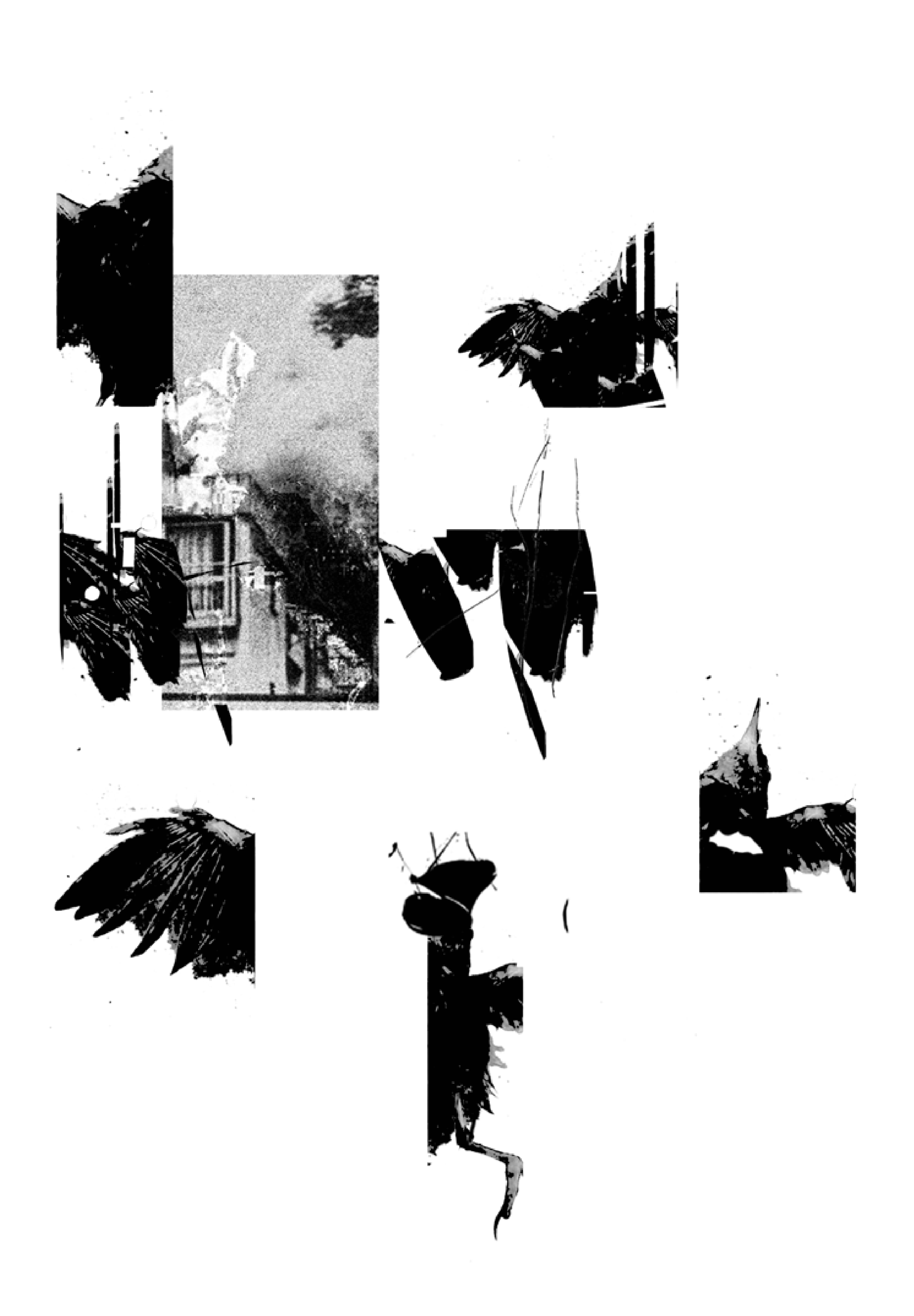
والـ«دال» فتحت دارها
تستقبل بزوّارها
وإل «ها» قلبا هفّ
رقصت وداخت بالهوا لحالها
والـ«كاف» تْزَقّق كف

شَمْل اللُغة ما بيجمعه
إلا المشي ع الميّ
لأنه أَخَفّ

مادام

ما دام
نوم ولادهن طيّر ورق بالسهل
ما دام
ما عاد بَدهن يخلّوا الصَبي
يدقدق جْرَاس النَحل
ما دام
إيديكِ البيوت الفاضيه
ما دام
ما بِقِي في حدا
غير القفاص العاليه
وغير الصدى
ما دام
إيديكِ السهول
ما دام
بس تِلململي دَيْكي
بيتلملَموا طراف الحقول
ما دام
مهما قلتْ
رح أسكت ع طول
ما عاد بدي قول





سيف

يا من حلب
يا من الشام
هـ الجنّة شماليه
حَنّيت إيديك
يا بو خطوط محنيّه
بيلبق لك التَوب
والشَملة الشامية

لكْ سحاب سيفك وغنّي
تَلبق لك الغنّيه
مكتوب ع السيف
والكلمات كوفية
مكتوب «حبّيتْ»
الباقي حروف ممحيه

مينُ

لبسوا الكفافي ومشوا
وما عرفت مين هِنْ
ما عاد رح يرجعوا
يا قلب حاج تعِنّ
لا حصان جايب حدا
ولا سرج عم بيرنّ

لكْ ضحاك
سِنّك دَهَب
خَلّيه يبان السِنّ
كل ما عِتِق بيحِنّ
با بُن إسمك حلو
سَمّيت حالي بُن

رَدْ العباية قَصَب
ع الكِتف
محبوبي
والعين قوس القَدَح
وسيوف مسحوبة
راحوا
لِبْسُوا العَتْم
قامات مَهيوبه
ناديتْ
ياالله ارجعوا
ما تلفّتوا صَوبي

حزن الميدنة

اوعا تسمّوها
بتحزن مَيدنة
بيوقع أدان العصر
وبينسرق سيف النبي
وما بيلتقي بمصر

إنت الشام مزيّنة
إنتِ قواس النصر
وقفوا العرب ع سلاحهن
لمن فردتِ الشَعر

تمنيتْ حالي دَهَب
تاصير متل الشام
وتغار مني حلب
وما عود فيّي نام

هالمَوت ع ضهر الفرس
مارق بهالايام
والناس
ع كتر النعس
كل ما مرق بتنام

حصان

ما تقول غاب القمر
قول العبايه لَيل
لو كان عندي عُمُرْ
لأسرُج صهيل الخيل

فلسطين

نمت
فْتَكّروكِ ولد غفيان
تحت الميّ
قرّبوا منك يحاكوكِ
لقيو بُحيرة ميّ
وجّك متل رجعة ولد
بعد الغياب
وجّك متل تلّة
وعم تصرخ دياب

يا عُمْر
ما بيلحق يجي تيروح
وجّكِ
متل بيرق عزا
من بعيد عم يلوح

انت
بيت أهلي
وَرد عم أرفعو
ت سيّج الحقلي

انتِ بلاد مقوّصة
وعم تِنقتل قبلي
انت
وهَبِّط يا منام
ووعيا متلي

واقف على سهل البقاع
ملثّم بشمله
بصرّخ
وصوتي ضايع
وقالوا الهَوا قِبلي

يا بيتِ اهلي
يا سْطَيْحات الحمام
يا دَعْس عالي
فوق تلجات المنام

تفريد

يا مين شَفلي بو لهب
ومَرتُه معه
محمّل على ضهرا حَطَب
بردان عم يُوقِد عَرَب

توزيع المجلة

الاردن وكالة التوزيع الاردنية، عمان
تونس الشركة التونسية للتوزيع، تونس
فلسطين دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر
العراق دار المدى للاعلام والثقافة والفنون، بغداد
الكويت الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت
المغرب الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء
اليمن مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء
مصر مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة
فرنسا مكتبة معهد العالم العربي، باريس
إنكلترا مكتبة السّاقي، لندن
لبنان شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات

بيروت:

— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمرا، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، دواوين (الجمّيزة)، النديم (الظريف)
— اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)

المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين) ، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عيثرون)

الاشتراكات

لبنان	افراد ٥٠ $	مؤسسات ١٠٠ $
البلدان العربية	افراد ٨٠$	مؤسسات ١٥٠ $
الإتحاد الاوروبي	افراد ٧٥$	مؤسسات ٢٠٠ $
باقي البلدان	افراد ١٠٠ $	مؤسسات ٣٠٠ $

Bidayat SARL
Banque Libano-Française
Agence Gefinor - Beirut - Lebanon
IBAN: LB86001000000017101842001840
SWIFT: BLFSLBBX
Account: 017101842001840

صندوق بريد ١٣/٥٧٤٨
شوران - بيروت - لبنان

info@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

الحقوق

سقط سهواً في العدد الماضي تحديد أنّ المصوّر حسين بيضون الذي التقط صورة الغلاف يعمل في صحيفة «العربي الجديد»، فاقتضى التوضيح. كذلك ورد خطأ في عنوان مقالة جسيكا خزريك عن النفايات، والعنوان الصحيح هو «تاريخ النفايات: سدرا والسموم»، فاقتضى التصويب.

- دييغو ريفيرا، عمل غير معنون، دراسة للسقف الخاص بجدارية «رمز كاليفورنيا»، سان فرانسيسكو، ١٩٣٠، ص. ١
- ديغو ريفيرا، «رأس ماعز»، الصورة لرافايل دونيز، ص. ٦
- بن كيرتيس، أسوشييتد برس، ص. ١٨ – ١٩
- هاني علي، شينخوا، ص. ٢٨ – ٢٩
- سانتي بالاسيوس، أسوشييتد برس، ص. ٤٢ – ٤٣
- ناصر الشيوخي، أسوشييتد برس، ص. ٥٠ – ٥١
- شارل فريد، عن موقع فليكر، ص. ٥٤
- أحمد غصين، ص. ٨٩
- يوجين سميث، مجلة لايف، ص. ٩٥
- ديغو ريفيرا، «صناعة جدارية: إظهار مبنى في المدينة»، ١٩٣١، معهد سان فرانسيسكو للفن، ص. ٩٩
- ديغو ريفيرا، أجزاء من جدارية بعنوان «الوحدة القومية الأميركية»، ١٩٤٠، جامعة سان فرانسيسكو العامة، ص. ٩٩
- ديغو ريفيرا، «رجل عند التقاطع»، ١٩٣٤، قصر الفنون في مدينة مكسيكو، الصورة لبوب شالكفيجك، ص. ١٠٠- ١٠١
- ديغو ريفيرا، «مسيرة الأول من أيار في موسكو»، ١٩٥٦، الصورة لرافايل دونيز، ص. ١٠٢
- ديغو ريفيرا، «الصناعة في ديترويت»، ١٩٣٣، معهد ديترويت للفنون، ص. ١٠٣
- ديغو ريفيرا، من سلسلة «تاريخ كويرنافاكا وموريلوس» بعنوان «مزرعة سكر، تيالتينانغو، موريلوس»، ١٩٣٠ – ١٩٣١، الصورة لرافايل دونيز، ص. ١٠٣
- ديغو ريفيرا، من مجموعة «الرؤية السياسية للشعب المكسيكي» بعنوان «في الترسانة، فريدا توزع الأسلحة»، ١٩٢٨، الصورة لرافاييل دونيز، ص. ١٠٣
- ديغو ريفيرا، جزء من لوحة بعنوان «تاريخ المكسيك من الاكتشاف إلى ١٩٣٠» من سلسلة «تاريخ الشعب المكسيكي»، ١٩٢٩ – ١٩٣١، الصورة لرافاييل دونيز، ص. ١٠٤– ١٠٥– ١٠٦– ١٠٧
- ديغو ريفيرا، من سلسلة «المكسيك ما قبل التاريخ وخلال الاستعمار» بعنوان «مدينة تينوشتيتلان العظمى»، ١٩٤٥، الصورة لرافايل دونيز، ص ١٠٨ – ١٠٩
- ديغو ريفيرا، من مجموعة «الرؤية السياسية للشعب المكسيكي» بعنوان «الدخول إلى المنجم»، ١٩٢٣، الصورة لرافاييل دونيز، ص. ١١٠
- ديغو ريفيرا، من مجموعة «الرؤية السياسية للشعب المكسيكي» بعنوان «طاحونة السكر»، ١٩٢٣، الصورة لرافاييل دونيز، ص. ١١١
- ديغو ريفيرا، «بائعات الزنبق»، ١٩٤٣، ص. ١١٢
- ديغو ريفيرا أمام لوحته «بائعة الزنبق»، الصورة لمانويل ألفاريز برافو وتعود للعام ١٩٤٥، ص. ١١٣
- ديغو ريفيرا وزوجته فريدا كاهلو، تصوير نيكولاس موراي، ص. ١١٤
- أرشيف الصور التاريخي العثماني، ص. ١٢٣
- ستيف شمايسنر، ص. ١٢٦ – ١٢٧
- كريس هوندروس، غيتي، ص. ١٣٢ – ١٣٣
- مجلة «ذا أتلانتيك»، ص. ١٤٢ – ١٤٣
- أسماء وجيه، رويترز، ص. ١٦٧
- أسمى طه، ص. ١٨٧
- الرسومات لحسين نصر الدين، ص. ٢٠٨ و٢٠٩ و٢١٢ و٢١٣

إن الخط المستخدم في الشبابيك من تصميم جويل حداد، Jeem.